تِلِمَاك

فرانسوا فنلون

ترجمة عادل زعيتر

تِلِمَاك

تأليف
فرانسوا فنلون

ترجمة
عادل زعيتر

هنداوي

تِلِمَاك

فرانسوا فنلون

Les Aventures de Télémaque

François Fénelon

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٤٠ ٧

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٦٩٩.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٥٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

مقدمة المترجم ٩

الترجمة ١٥
الجزء الأول ١٧
الجزء الثاني ٢٧
الجزء الثالث ٣٩
الجزء الرابع ٥٣
الجزء الخامس ٦٥
الجزء السادس ٨٣
الجزء السابع ٩٧
الجزء الثامن ١١٣
الجزء التاسع ١٢٥
الجزء العاشر ١٤٣
الجزء الحادي عشر ١٥٧
الجزء الثاني عشر ١٧٩
الجزء الثالث عشر ١٩١
الجزء الرابع عشر ٢١٣
الجزء الخامس عشر ٢٣٥
الجزء السادس عشر ٢٥١
الجزء السابع عشر ٢٦١

الجزء الثامن عشر ٢٨١
خلاصة الأوذسة ٢٩٥
فهرس جغرافي ٣٠٧
فهرس أسطوري ٣١١

فِنِلُون.

مقدمة المترجم

أُقدِّم ترجمة كتاب «تلماك»، وعنوانه الأصلي «مغامرات تلماك» لفنلون …

في اليوم السادس من أغسطس سنة ١٦٥١ وُلِد فرنسوا دو سلنياك دو لا مُوت فنلون في قصر فنلون بيريغرد، وكان آل فنلون يعدون من أعرق أسر ذلك الإقليم نسبًا وأوسطها حسبًا، وكان لهم باعٌ طويلٌ في ميادين القتال وعالم السياسة، ومن ذلك أن برتران سلنياك دو فنلون اشترك في حصار مس مع الدوك دوغيز ودوَّن يوميَّاتٍ عن هذا الحصار، ثم عُيِّن سفيرًا لدى ملكة إنكلترة، إليزابت، فطلب الملك منه أن يسوِّغ مذبحة سان برتلمي لها، فأجابه بأنفةٍ: «مولاي، أرسل من أشار عليك أن تقوم بهذه المذبحة!»

وبون دو سلنياك هو اسم أبي فرنسوا فنلون، ولويز دو لا كربت دو سنتابر هو اسم أمِّه، وهي كزوجها من أشراف بريغرد، وبذلك يكون فنلون كريم المَحْتِدِ من الأصلين.

وعلى ما كان من عدم ثراء آل فنلون ومن اعتدال تراثهم كانوا أغنياء بمصاهراتهم، وهم — ليسرهم المحدود — كانوا يقضون حياةً بسيطة مع عدم خشونة، وفي قصر فنلون الذي كان يسوده هذا الطراز من العيش قضى فنلون صباه الأول، أجل، إنه قضى في منزل أبيه دور عمره الأول الذي دام اثني عشر عامًا، ولا يُعرف نوع التربية التي نال في هذا المنزل، وإن افتُرِض أنها كانت دينيةً مع تغذيته بالأدب الكلاسيِّ القديم، فلما بلغ السنة الثانية عشرة أُرسل إلى جامعة كاءور؛ حيث نَال قسطًا من الآداب والفلسفة في ثلاث سنين تقريبًا.

ولا يُعرف متى فَقَدَ فرنسوا فنلون أباه ضبطًا، وإنما نعلم أنَّه قصد باريس في الخامسة عشرة من سِنِيه ليُحصِّل معارف في الفلسفة واللاهوت بكلية بلسِّيس، وأنه جُعِلَ تحت وصاية عمِّه المركيز أنطوان دو فِنِلُون الذي كان بالغَ الصلاحِ والتقوى، ففقد ابنه في

حصار كندي، فحبا ابن أخيه بالعطف الذي كان يحمله لابنه، ثم أدخله عمُّه هذا في سنة ١٦٧٢ إلى معهد سان سلبيس الديني، كما أشار عليه مدير هذا المعهد مسيو أليه الذي كان شديدَ الصداقة له.

ويُتمُّ فنلون دروسه اللاهوتية في هذا المعهد، ويصير قسًّا في سنة ١٦٧٥، ويقوم بتفسير الكتاب المقدس في ذاك المعهد مدة ثلاث سنين، ويُبحثُ له عن عملٍ ملائمٍ لميوله في الوعظ والإرشاد، ويجعله رئيس أساقفة باريس في سنة ١٦٧٨ مديرًا لمعهد الكاثوليكيات المحدثات؛ أي الفتيات اللائي تحوَّلن عن البروتستانية إلى الكثلكة، فكان لا بُدَّ من تثبيت أفئدتهن على هذا المذهب.

وما اتصف به فنلون من حلمٍ ولطفٍ وصفاءِ ذهن أوجب حسن إدارته لهذا المعهد، وهكذا وجد فنلون نفسه متصلًا بأمر إلغاء مرسوم ننت الضامن لحرية البروتستان الدينية، ولكن كيف واجه فنلون هذا الإلغاء؟ ذلك ما يصعب أن يجاب عنه، وإن فضَّل فنلون الرفق والإقناع والأناة على وسائل العنف.

ويستمرُّ فنلون على إدارته لذلك المعهد سنين كثيرةً، ويعهد الوزير سنياله إليه في القيام بمهمة تحويل بروتستان سنتنج عن مذهبهم، ويُختلَف في تقدير عمله، ولكن مع رضا لويس الرابع عشر ووزيره هذا عنه كما يلوح، وينشر فنلون في ذلك الدور، أي في سنة ١٦٨٧، رسالة «تربية البنات»، وتغدو هذه الرسالة موضوع بحث القوم وسبب ذيوع صيت فنلون، وما كان فنلون ليفكر في نشر رسالة «تربية البنات» التي هي أول كتابٍ له، ما دام قد وضعها بطلبٍ من صديقيه دوك بوفليه وزوجه الدوكة اللذين ودَّا الانتفاع بنصائحه في تربية الإناث من أولادهما على الخصوص، ولكن ما أبصرا فيها من الآراء الرصينة الدقيقة الصالحة لتربية كِلا الجنسين حملهما على إلزام فنلون بنشرها.

لم يُرِدْ فنلون قصْر ذكاء النساء على «تدبيرهن لأمور منازلهن وإطاعتهن لأزواجهن»، وقد دلَّ على شأن المرأة العظيم في المنزل والدولة، ومن قوله ردًّا على من احتجَّ بضعفهن: «كلما كنَّ ضعيفاتٍ وجبت تقويتهن، أوَ ليس عليهن من الواجبات ما يجب أن يقمن به؟ إن النساء يخرِّبن البيوت ويرفعن عمادها، ويسهم النساء كثيرًا في تقويم الأخلاق وإفسادها ... وليست الأمور الخارجة عن منازلهن غريبةً عنهن بسبب ما لهن من نفوذٍ في أزواجهن وأولادهن ... وهل يستطيع الرجال أن يرجوا نيل قسطٍ من حلاوة الحياة إذا تحول مجتمعهما الوثيق، الذي هو مجتمع الزواج، إلى غمٍّ؟ وما يكون الأولاد، الذين سيتألَّفُ الجنس البشريُّ منهم فيما بعد، إذا ما أفسدتهم أمهاتهم منذ سنيهم الأولى؟»

وكرامةُ المرأة هي المبدأ الرئيس الذي يسيطر على كتاب «تربية البنات»، ومن هذا المبدأ جاء وجوب تعليمها ورفع مستواها الذهني، ولا شيء أكرم من هذه الفكرة، ولا شيء أكثر ملاءمة لما يقتضيه المستقبل.

والذي يهمُّنا في الأمر هو الروح الذي أملى على فنلون ذلك المبدأ، هو ذاك الروح البالغ الحرية، وفنلون قد طلب، قبل روسُّو، أن يُرجع إلى الطبيعة، فلا يُفرض على الأولاد نظامٌ ثقيلٌ يُضعف نشاطهم وينغص عمرهم، وقد شعر فنلون بفتون الصبا وأحب الأولاد، فنال بهذا مقامًا رفيعًا في حقل التربية وعُدَّ من أركان التهذيب في العالم.

ومن إبداع فنلون قوله بإضافة مبدأ اللهو إلى مبدأ الفضيلة، قال فنلون: «امزجوا التهذيب باللعب، ولْتَبْدُ الحكمة للولد في فتراتٍ وعلى وجهٍ ضاحك، واعلموا أن الولد إذا ما تنوَّرَ عالَمَ الفضيلة باكتئابٍ وكربٍ ضاع كل شيء.»

ولا يعد متعبًا كلُّ مربٍّ محبٍّ للأولاد رءوف بهم، ولا ينبغي أن يطالَب الصبي بأكثر مما يحتمله عمره الغض الدقيق، قال فنلون: «ومما يحدث في الغالب أن يلزَم الأولاد بضبطٍ وجدٍّ يعجز عنهما من يطالبهم بهما، فلا حرية، ولا مزاح، ولا شيء غير الدروس والصمت والأوضاع المرهقة، وغير الوعيد والعقاب …

ويجب أن يكون المرح وراحة النفس عُدَّتَهم العادية، فإذا لم يقع هذا أظلم ذهنهم وفتر بأسهم، وغدوا غِضَابًا بعد نشاط، وبُلْهًا بعد لين، ويشابه الخوف أقوى الأدوية التي تستعمل في أشد أدوار المرض، وهذه الأدوية، وإن كانت تصفِّي، تضعف المزاج وتنهك الأعضاء، وتصبح النفس التي تقاد بالخوف أكثر ما تكون خورًا.»

وهكذا كانت الأمور تتضافر على تقليد فنلون منصبًا أرقى من الذي كان يقوم به، ولو كان غير تفويضٍ تربية دوك برغونية إليه.

وتحلُّ سنة ١٦٨٩، وتكون بدء تحولٍ في حياة فنلون البالغ من العمر ثمانيةً وثلاثين عامًا، وذلك أنه نقل من وظيفة الواعظ في أحد الأديار الوضيعة إلى البلاط كيما يكون مربيًا للأمير حفيد الملك لويس الرابع عشر مع دوك بوفليه الذي عين مرشدًا له، وذلك أن صلة فنلون بيوفليه وزوجه كانت وثيقةً قبل هذا التاريخ كما ذكرنا، وأنه كان لهذه الزوج، التي هي ابنةٌ للوزير الشهير كلبر، أختٌ اقترنت بدوك شفروز، وأنه كان يوجد ودادٌ قويٌّ بين هذين الزوجين وامرأتيهما ومدام منتنون التي غدت زوجة الملك بعد وفاة الملكة، وأن هؤلاء الأماجد لم يألوا جهدًا في الوصول إلى نصب فنلون مربيًا للأمير راجين أن يلقى هذا الأمير وفرنسة خيرًا عميمًا من هذه التربية؛ أي أن يُعَدَّ لفرنسة ملكٌ صالحٌ تقيٌّ.

قال سان سيمون: «وُلِدَ دوك برغونية متعبًا مرعِدًا قاسيًا غضوبًا هَجُومًا عنيدًا، وَلُوعًا باللهو وفاخر الأطعمة، كَلِفًا بالصيد إلى درجة الجنون، مغرمًا بالموسيقا إلى حد الفُتُون.»

فهذا هو الولد الذي كان يجب أن يُجعل منه رجلٌ، وما وُفِّق له فنلون في تحويل هذا الولد يعد من الأعاجيب، قال سان سيمون: «ووجه العجب في ذلك هو ما تم للُّطف والورع في وقتٍ قصيرٍ من تحويل الفتى إلى إنسان آخر ومن تحويل النقائص الهائلة إلى فضائل، فقد خرج من هذه الهوة أميرٌ أنيسٌ وديعٌ عطوف كريم صبور معتدل متواضع قنوع غير مفكر في غير إضافته واجباته مثل ولدٍ تابعٍ إلى واجباته حيال ما يبصر أنه يُعَدُّ له.

وقد روي لنا، فيما روي، عن نَزَق هذا الأمير الجامح، وعن أسلوب فنلون في ترويضه، ما يأتي: حدث ذات يومٍ أن وجه فنلون إلى دوك برغونية لومًا شديدًا على أمرٍ أتاه، فثار هذا الأمير الفتى، واعتز بنسبه وقال لمربيه: «لا، أيها السيد، أعرف من أنا ومن أنت»، ولم يجبه فنلون عن هذا، وكف عن مخاطبته وظهر مكتئبًا، فلما كان الغد ذهب فنلون إلى الأمير الصغير صباحًا، وقال له: «لا أخشى أن أقول لك: إنني أفضل منك، ولا مجال للنسب هنا، ولا يخامرك شكٌّ في أنني أعلوك نورًا ومعرفةً وأنك لا تعلم غير ما أُعَلِّمك إياه، ولا يُذكر هذا بجانب ما بقيَ عليَّ أن أُلْقِيَه عليك، وليس لك أي سلطانٍ عليَّ، ولي عليك كل سلطان، ومن المحتمل أن تظنَّ أنني أعد نفسي سعيدًا جدًّا بما عُهد إليَّ من عملٍ أزاوله نحوك، فأفِقْ من غفلتك أيها السيد، واعلم أنني أقوم بتعليمك عن إطاعةٍ للملك، وأنني أتيتُ لأدفع كل شكٍّ يخامرك في ذلك فآتيَ بك إلى صاحب الجلالة ملتمسًا أن يُعفيني من عملي، وأن يُعيِّن لك من يكون أسعد مني في العناية بك»، ويُصعق دوك برغونية من هذا التصريح، ويبكي ويضرع، ولا يلين فنلون، ولا يعدل عما ذهب إليه إلا بإلحاحٍ من مدام دومنتنون.»

وتتزاحم الأحوال، وتزدحم الحوادث، وتزيد مآزق فرنسة في الداخل والخارج، ففي الخارج حروبٌ تُشهَر من كل جهة، وتنتظر فرنسة قيام أوربة بهجومٍ عليها، وفي الداخل ارتباكٌ ماليٌّ، وشعب بائس تحاول الحكومة أن تجد علاجًا لبؤسه، وتوجُّعٌ من الجور الاجتماعي وحب الترف، وفضائح غنًى حُصِّل بأحط الوسائل، وتفجُّع من بُطْلِ كلِّ مجْدٍ تُسفر عنه الحروب.

تلك الأمور منابر للوعظ البليغ، وقد عالجها فنلون في «مغامرات تلماك»، فما هذا الكتاب؟

لم يكتب فنلون مقدمةً لكتاب «مغامرات تلماك»، غير أن الظروف التي وضع بها هذا الكتاب توضح أمره بما فيه الكفاية، ومع ذلك فقد انتهى إلينا من فنلون تصريح

ممتع يلقي نورًا على الزمن الذي ألفه فيه، وعلى الغاية من وضعه، وعلى المشاعر التي أوحت به: نُصب فنلون رئيسًا لأساقفة كنبره في سنة ١٦٩٥، ولكنه ظهر نصيرًا للكياتية، والكياتية مذهب صوفي يرى كمال النصرانية في محبة الرب وراحة النفس وعدم القيام بأوضاع ظاهرة، وللكياتية أنصار في كل زمن، وأشهر زعماء هذا المذهب هو القس الإسباني مولينوس الذي أخرج في سنة ١٦٧٥ كتابًا في النُّسُك بلغ من المبالغة في مثالية الدين ما استغلق الدين معه على العوام، وتُتابع مدام غويون مولينوس على رأيه فيتابعها فنلون على رأيها في كتابه «مبادئ القديسين» الذي نشره سنة ١٦٩٧، ففي هذه السنة تلقَّى فنلون أمرًا بمغادرة البلاط والانزواء في أسقفيته، ويمضي عامان فينشر كتاب «مغامرات تلماك» ويظهر فنلون موضع مقت البابا ولويس الرابع عشر معًا.

وتمر سنون، ويرى فنلون أن يلطف الجو بينه وبين البلاط، فيرسل إلى كاهن الملك المعرف، الأب لوتليه، كتابًا جاء فيه: «إن «تلماك» من نوع الأقاصيص الأسطورية التي وضعها أوميرس وفرجيل، وقد أدخلت إليها من المعارف الرئيسة ما يلائم الأمير الذي يُعده نسبه إلى المُلْك، وقد وضعته في زمنٍ فُتِنْتُ فيه بما غمرني به الملك من آيات الإحسان والثقة ... ولم أهدف فيه إلى غير تسلية دوك برغونية بهذه المغامرات وتثقيفه بهذه التسلية ...»

والواقع أن فنلون سار على غرار أوميرس في «الأوذسة»، فبدلًا من أسفار أوليس واغترابه في طول البحار وعرضها كيما يعود إلى إيتاك ويلقى زوجه الوفية بنلوب قامت «مغامرات تلماك» على البحث عن أبيه أوليس، وتُعد هذه حلقة موفقة أُدخِل إليها كثير من ذكريات ملاحم الأبطال القديمة، أي الإلياذة والأوذسة والإنئيد، وترى في كل مكان من «مغامرات تلماك» ذكرًا لحرب تروادة وشعر فرجيل وأوميرس، ولم يقصِّر فنلون في اقتباسه من القدماء موضوعه وأبطاله وأهم حكاياته وكثيرًا من جزئياته ووقائعه وألعابه ومنازعاته ووصفه.

وتكفي أقل نظرةٍ في «مغامرات تلماك» لإدراك ما ينطوي عليه هذا الكتاب من روحٍ شعري وإن وُضع نثرًا، ولكنه ليس قصة شعرية فقط، بل قصة خلقية تهذيبية أيضًا كما قال فولتير، وهو لم يتناول حقل الخُلُق فقط، بل تناول حقل السياسة والديانة أيضًا.

أجل، كان يمكن أن يؤدي هذا الكتاب إلى أثرٍ في الشبيبة معاكسٍ للضَّالة المنشودة، بيد أن فنلون أصاب الهدف إذ جعل القراء يُبصرون من خلال القصة نقدًا لاذعًا غير مباشر لعهد لويس الرابع عشر، ولا يخامرنا شكٌّ في أن فنلون، على الرغم من إنكاره، وجَّه ذهنه إلى الحملة على حكومة لويس الرابع عشر معدًّا روحًا حكوميًّا آخر لدى الملك القادم

الذي يخلف لويس الرابع عشر، وكل ما وُجِّه إلى الملوك في «مغامرات تلماك» من لوم شديد هو مُوجَّهٌ، بالحقيقة، إلى لويس الرابع عشر وإلى فتوحه وحروبه وبذخه وترفه ووزرائه الأقوياء المفسدين، وسائر رجاله المنافقين المرائين.

ومتى وضع فنلون كتاب «مغامرات تلماك» الذي نُشر سنة ١٦٩٩؟ إن قول فنلون في كتابه إلى الأب لوتليه المذكور آنفًا: «لقد وضعته في زمنٍ فُتنت فيه بما غمرني به الملك من آيات الإحسان والثقة» يدل دلالةً واضحةً على أنه وضعه في أثناء قيامه بتهذيب دوك برغونية؛ أي قبل سقوط حظوته لدى الملك بسبب ما حاك المراءون حوله من الدسائس.

وقد اتفق لكتاب «مغامرات تلماك» توفيق عظيم منذ ظهوره في سنة ١٦٩٩، وقد زاد رواجًا بعد وفاة الملك ووفاة فنلون، فقد أُحصيت طبعاته وترجماته إلى اللغات الأجنبية حتى أوائل القرن التاسع عشر فوجد أنه طُبع ١٥٠ مرة وتُرجم ثمانين مرة، ولا عجب، فإذا ما عَدَوْتَ روعة الكتاب وجمال أسلوبه وجدت أن ما انطوى عليه من نقدٍ شديد لبلاط لويس الرابع عشر وحكومته يُداري غرائز الحقد والحسد حيال هذا الملك في أوربة كما يُداري ضغائن مهاجري البروتستان ومناحِيَ المعارضة في فرنسة.

ولا يخرج فنلون من أسقفيته بعد سقوط حُظوته لدى الملك، ويقضي بقية عمره فيها قائمًا بواجباته رئيسًا للأساقفة مكتئبًا بما كان يشاهد من زيادة بؤس الجمهور مفكرًا في إصلاح شامل لفرنسة، ويموت فنلون في ٧ من يناير سنة ١٧١٥ ابنًا للثالثة والستين من سِنِيه تاركًا كتاب «مغامرات تلماك» الذي يُعد من أروع ما جادت به قرائح الإنسان.

عادل زعتر

نابلس

الترجمة

الجزء الأول

تُسَيِّر مِنرفا، في صورة منتور، تلماك، فتُلقي عاصفة به في جزيرة كلبسو، تَقبَلُ هذه الآلهة، التي تضيق ذرعًا بذهاب أوليس، ابن هذا البطل أحسن قبول، هي لم تلبث أن هامت به أشد هيام فعرضت عليه الخلود إذا ما أراد الإقامة معها، تُلح كلبسو عليه أن يروي لها خبر مغامراته فيقص عليها نبأ سفره إلى بيلوس ولكدمونية وغرق سفينته على شاطئ صقلية، وما لاقى هناك من خطر ذبح أرواح أنشيز إياه، وما قدم هو ومنتور إلى ملك هذه الناحية، أَسِسْتُ، من مساعدةٍ في غارةٍ قام بها البرابرة، وما قابلهما به هذا الأمير من شكران بإعطائهما سفينةً فنيقية يعودان بها إلى بلدهما.

لم تكن كلبسو لتستطيع أن تسلو فراق أوليس، وكانت تُرى شقية بخلودها لما ألمَّ بها من ألمٍ، وعاد غارُها لا يدوِّي بنشيدها، ولم تجرؤ الحوريات، اللائي كن يخدمنها إلى الكلام إليها، وكانت، في الغالب، تتنزه وحدها على الكلأ الزاهر الزاخر بربيع دائم في جزيرتها، ولكن غدت هذه الأماكن لا تُسكن ألمها، ولم تفعل غير تذكيرها بذكرى أوليس الذي رأته هناك مراتٍ كثيرةً بجانبها، وما أكثر ما كانت تبقى جامدةً على شاطئ البحر مُبللة إياه بدموعها، فلا تنفك تنظر إلى الناحية التي غاب فيها مركب أوليس عن بصرها وهو يشق عُباب البحر.

وتشاهِد من فورها حُطام سفينةٍ غرقت، ومقاعد للجذاف محطمة، ومقاذيف على الرمل هنا وهناك مطروحةً، وتُبصر على الساحل صاريًا وحبالًا عائمةً، ثم تلمح من بعيدٍ رجلين يَلُوح أحدهما مُسنًّا ويبدو الآخر، مع شبابه، مشابهًا لأوليس، فله لطف أوليس وخُيلاؤه وقامته وجلال مشيته، وتُدرك الآلهة أن هذا هو تلماك ابن ذاك البطل، ولكن الآلهة — وإن كانوا يفوقون جميع الناس معرفةً — لم تستطع الآلهة إدراك أمر هذا الرجل

الجليل الذي يصحبه تلماك؛ وذلك لأن الآلهة الأعلين يكتمون عن الأدنين ما يروقهم، فلم تُرد منرفا التي كانت ترافق تلماك على صورة منتور أن تعرفها كلبسو.

ومع ذلك فإن كلبسو فرحت بغرقٍ جعل في جزيرتها ابن أوليس الكثير الشبه بأبيه، وتتقدم نحوه، ولا تُظهر أنها تعرف من هو وتسأل: «كيف جرؤت على الرسو في جزيرتي؟ اعلم، أيها الغريب الشاب، أن مملكتي لا تُؤتَى بلا عقاب.»

وتحاول أن تُخفي تحت هذا الوعيد سرورها الذي كان يلوح على وجهها على الرغم منها.

ويجيب تلماك بقوله: «أتكونين جافية القلب تجاه بلاء ابن طلب أباه فعبثت به الرياح والأمواج فأبصر تكسر مركبه على صخرك، وذلك سواءٌ عليك أإنسانًا كنت أم إلهةً، وإن كان مظهرك يدل على أنك إلهة؟»

وتقول الإلهة: «ومن يكون، إذن، أبوك الذي تبحث عنه؟»

ويقول تلماك: «هو يُدعى أوليس، وهو من الملوك الذين دمروا تروادة الشهيرة بعد حصارٍ دام عشر سنين، وقد ذاع صيته في جميع بلاد اليونان وآسية عن شجاعةٍ في المعارك ودرايةٍ في النصائح، والآن، إذ يهيم في عُرض البحار، يجوب أشد المهالك هولًا، ويظهر أن وطنه يتناءى أمامه، وأراني، أنا ابنه، مع زوجه بنلوب قد فقدنا أمل لقائه، وأجول، مصادفًا مثل ما وجد من أخطار، لأعرف أين هو، ولكن ما الحيلة؟ قد يكون الآن دفين لُجج البحر العميقة، فارْثِي لبؤسنا، فإذا كنت تعرفين، أيتها الإلهة، ما صنعت الأقدار لإنقاذ أوليس أو إهلاكه فتفضلي بإخبار ابنه تلماك ذلك.»

وتُدهَش كلبسو وترِقُّ إذ تُبصِر حكمةً وبلاغةً بالغتَيْنِ في هذا الشباب الفياض، فلا تستطيع إرواء عينيها من النظر إليه، وتظل صامتةً، ثم تقول له: «سأخبرك، يا تلماك، بما حلَّ بأبيك، ولكن قصة ذلك طويلة، وقد أَنَى لك أن تستريح من عنائك، فتعالَ إلى منزلي حيث أَقْبَلُك مثل ولدي، تعالَ لتكون سُلواني في عزلتي، وسأصنع ما تكون به سعيدًا على أن تعرف أن تتمتع بهذا.»

ويتبع تلماك الإلهة محاطةً بجمعٍ من الحوريَّات الفتيات، وتظهر أنها تعلوهن بقامتها كما تعلو أغصان البلُّوطة الكثيفة جميع الأشجار التي تحيط بها في الغابة، ويُعجب ببهاء جمالها، وبأُرجوان ثوبها الطويل المتموج السَّنِي، وبضفائر شعرها المرسلة على ظهرها إرسال إهمالٍ، ولكن مع روعة، وباضطرام عينيها وحلمها الذي يُلطف هذا التأجج، ويرقب منتور تلماك مع غض بصرٍ وصمت ذي حياء.

ويُبلَغ بابُ غار كلبسو حيث بُهت تلماك إذ رأى كل ما يمكن أن يفتن العيون مع ظاهر من البساطة الريفية، فكان لا يُرى هناك ذهبٌ ولا فضةٌ ولا رُخامٌ ولا عُمُدٌ ولا لوحاتٌ ولا تماثيلُ، وإنما كان هذا الغار منحوتًا في الصخرة على شكل قبة زاخرة بالحصى والصدف ومفرَّشة بداليةٍ ناضرة باسطةٍ غصونها اللينة إلى جميع الجهات على التساوي، ومِنْ عَمَلِ النسيم العليل أن كان يحفظ في هذا المكان طراوةً لطيفة على الرغم من حرارة الشمس، ومن عمل العيون الجارية، مع خرير عذب، على المروج المروعة قُطُفًا[1] وبنفسجًا، أن كانت تُحدث في مواضع كثيرةٍ حمَّاماتٍ صافيةً رائقة كالبلَّوْر، ومن عمل مئات الزهور الناشئة أن كانت تُرصِّع البُسُط الخُضْر المحيطة بالغار، وهناك كانت توجد غابة أشجار وارقة[2] تحمل تفاحًا ذهبيًّا ذا زهر يتجدد في جميع الفصول وينشر أنعم ما يكون من العطور، وكان يلوح أن هذه الغابة تتوِّج تلك المروج الجميلة فتؤلف ليلًا لا تنفذ منه أشعة الشمس، وكان لا يُسمع هناك غير تغريد الطيور أو خرير جدولٍ ينزل من فوق صخرةٍ على شكل حَبَبٍ كبير مملوء زَبَدًا فينساب في المرج.

وكان غار الإلهة على مُنحدر ربوة،[3] وكان البحر يُرى من هنا، فتارةً يبدو صافيًا مستويًا كالمرآة، وتارة يبدو من شدة الهياج حيال الصخر ما يتكسر معه عليها رافعًا أمواجه كالجبال، وكان يُرى، من جهةٍ أخرى، نهرٌ تتكون فيه جزرٌ محاطةٌ بزيزفونٍ مُزهر وأحوارٍ عالية تحمل رءوسها الرائعة حتى السحاب، وكانت القنوات الكثيرة التي تُوجِد الجزر تظهر لاهيةً في الحقول فيدحرج بعضها مياهه الصافية بسرعة، ويكون بعض آخر منها ذا ماء هادئ راقد، ويرتد بعض ثالث على نفسه بدورات طويلة كما لو كان يعود إلى منبعه فيخيَّل إلى الناظر أنه لا يريد مغادرة هذه الضفاف المفتونة، وكان يُرى من بعيدٍ تلال وجبال تتوارى في السحب فيتألف من شكلها العجيب أفق وَفْقَ المراد يروق العيون، وكانت الجبال المجاورة مكسوة بدوالٍ خُضر متدليةٍ أكاليل أكاليل، وما كان العنب الذي يفوق الأرجوان سناءً ليستطيع الاختفاء تحت الأوراق، وكانت الكَرْمة مثقلةً بثمرها، وكانت أشجار التين والزيتون والرمان وغيرها تستر الحقول فتجعل منها روضةً عظيمة.

---

[1] القُطُف: جمع القطيفة، وهي نبات يدعونه أيضًا «سالف العروس.»

[2] الوارقة: الكثيرة الورق.

[3] الربوة: ما ارتفع من الأرض.

أرت كلبسو تلماك جميع هذه الروائع الطبيعية، وقالت له: «استرِحْ، فثيابك مبلَّلة، وقد حل وقت تغييرها، وإلى اللقاء حيث أقُص عليك من الأنباء ما يأخذ بمجامع قلبك.»

وهي — في الوقت نفسه — تُدخله، هو ومنتور، إلى أبعد ما يكون خفاء وانزواء في غار مجاور للغار الذي تقيم به الإلهة، وتُعنَى الحوريات بإيقادهن في ذاك المكان نارًا من خشب الأرْز الذي تسطع رائحته الذَّكِيَّة في جميع الجهات، ويتركن هناك ثيابًا للضيفين الجديدين.

أبصر تلماك أنه أُعِدَّ له قميص من صوف ناعم يُزري بياضه ببياض الثلج، ورداءٌ أُرجوانيٌّ مطرَّزٌ بالذهب، فأخذته نشوة من اللذة طبيعية لدى شاب يُنعم النظر في هذا البهاء.

فقال له منتور برصانة: «أهذه، إذن، هي الأفكار التي يجب أن تشغل قلب ابن أوليس؟ أحرى بك أن تُعمل ذهنك في المحافظة على سمعة أبيك، وأن تقهر الطالع الذي يجور عليك، وليس الشاب الذي يودُّ أن يَزَّيَّنَ كالنساء على غير طائل أهلًا للحكمة والمجد، ولا يستحق المجد غير فؤادٍ يستطيع الصبر على الألم وأن يدوس الملاذَّ تحت قدميه.»

ويجيب تلماك عن هذا متأوِّهًا: «لأن تُهلكني الآلهة أهون من أن أعاني استيلاء النعيم والشهوة على فؤادي! كلا، كلا، لن يستحوذ على ابن أوليس فتون حياة الترف والتخنث، ولكن أي فضلٍ من السماء جمعنا بعد غَرَقِنا بهذه الإلهة، أو هذه المرأة، التي تغمرنا بالإحسان؟»

ويرد منتور عليه بقوله: «اخشَ أن تغمرك بسوءٍ، خَفْ ألطافها الخادعة أكثر من خوفك الصخر التي حطمت مركبك، فالغرق والموت أقل هولًا من الملاذ التي تغزو الفضيلة، احترز من تصديق ما تقص عليك، ألا إن الشباب معجب بنفسه، ألا إن الشباب يعلل نفسه بالأماني، ويعتقد الشباب قدرته على كل شيء وأنه ليس عليه أن يخشى أمرًا وإن كان ضعيفًا، وقلَّما يكون الشباب مُعَوِّلًا، وإذا وقع هذا فبلا احتراز، احذر أن تُلقِيَ السمع إلى كلام كلبسو العذب المُدالي الذي ينساب كالثعبان تحت الزهور، اخش السم الخفي، ولا تركن إلى نفسك، واستمع إلى نصائحي دائمًا.»

ثم يعودان عند كلبسو التي كانت تنتظرهما، وأول ما حدث هو أن الحوريات ذوات الضفائر والثياب البيض، قدمن طعامًا بسيطًا، ولكن لذيذًا نظيفًا، وكان لا يُرى من اللحوم فيه غير لحم الطيور التي اصطدنها بشباكهن أو الحيوانات التي أصمينها بسهامهن، وكانت تسيل من آنية كبيرة فضية خمر أعذب من الرحيق، وذلك في كئوس من ذهب

متوجة بأزهار، ويُجلب في سلالٍ جميع الفواكه التي تُرجى من الربيع وتفيض على الأرض في الخريف، ويأخذ أربع حوريات فتيات في الغناء فيُشدن بملحمة الآلهة حيال الغيلان ويُنشدن معاشق جوبيتر وسمله، ويترنَّمن بولادة باخوس وتربيته من قبل الشيخ سيلين، وبسباق أتلنته وإبُّومن الذي كُتب له الفوز بفضل تفاحٍ من ذهب جاء من بستان هسبريد، ثم يُتغنى بحرب تروادة أيضًا، ويُرفع ذكر معارك أوليس وحكمته إلى السماء، وكانت أولى الحوريات تسمى لو كوتويه فتجمع بين توافقات قيثارتها وهذه الأصوات العذبة، فلما سمع تلماك اسم أبيه ذرفت دموعه على خديه وزادت جماله بهاءً، ولكن بما أن كلبسو أبصرت أنه لا يستطيع الأكل لما اعتراه من ألم أومأت إلى الحوريات فصرن يترنمن من فورهن بالسنتور واللابيت وبهبوط أورفه إلى الجحيم لإنقاذ أوريديس منه.

ولما فُرغ من الطعام تناولت الإلهة تلماك، وقالت له: «ترى، يا ابن أوليس العظيم، مقدار ما أُقابلك به من رعاية، وإني خالدة، ولا أحد من الناس يستطيع دخول هذه الجزيرة من غير أن يجازي على جُرأته، وما كان غرق سفينتك ليقيك من غضبي لو لم أحبك، وقد كان لأبيك مثل حظك، ولكنه لم يعرف أن ينتفع به مع الأسف، وذلك أنني أبقيته في هذه الجزيرة زمنًا طويلًا، وأنه ما كان عليه إلا أن يعيش معي فيها عيش خلود، غير أن ما كان يساوره من ولع أعمى بالرجوع إلى وطنه البائس حمله على نبذ جميع هذه المنافع، وأنت ترى كل ما أضاع ليعود إلى إيتاك التي لم يستطع أن يراها ثانيةً، ويُريد أن يتركني، ويذهب، وأنتقم بالعاصفة، وتعبث الرياح بمركبه وتبتلعه الأمواج، فاستفد من هذا المثال المحزن، وليس لك، بعد هذا الغرق، أن ترجو رؤيته وأن تملك جزيرة إيتاك بعده، ولك سلوانٌ عن فقده بوجود إلهةٍ هنا مستعدة لجعلك سعيدًا ولتقديم مملكةٍ إليك.»

وتضيف الإلهة إلى هذا القول كلامًا طويلًا لتبين مقدار ما كان يتمتع به أوليس من سعادة بجانبها، فقصت عليه نبأ مغامراته في غار العملاق الوحيد العين: بُوليفيم، ولدى ملك اللستريغون: أنتيفاتس، وهي لم تنسَ ما أصابه في جزيرة بنت الشمس: سَرْسَه، وما لاقى من أهوالٍ بين سيل وكاربد، وقد وصفت له أمر العاصفة الأخيرة التي أثارها نبتون حياله حينما ذهب من عندها، وقد أرادت إبلاغه نبأ هلاكه في هذه العاصفة وأخفت خبر وصوله إلى جزيرة الفياسيين.

ويُدرك تلماك، الذي أخذ الفرح بمجامع قلبه في البداءة من حسن ما عاملته به كلبسو، مكر كلبسو هذه في آخر الأمر كما يدرك سداد النصائح التي أسدى إليه بها منتور، فيجيب بالكلمات القليلة الآتية: «اعذريني على توجعي أيتها الإلهة، لا أستطيع الآن غير الحزن،

وقد أكون أكثر قدرةً، فيما بعد، على تذوق السعادة التي تعرضين عليَّ، دعيني أبكي أبي في هذه الساعة، فأنت أحسن معرفةً مني بمقدار ما يستحق أن يُبكَى.»

ولم تُقدِمْ كلبسو على ضغطه في أول الأمر أكثر مما فعلت، حتى إنها تظاهرت بأنها متوجعةٌ لأوليس مُتحننةٌ عليه، ولكنها ودَّت لو تعرف ما تؤثِّر به في فؤاده أكثر مما صنعت فسألته كيف غرقت سفينته كما سألته عن المغامرات التي أتاها ليكون على هذه الشواطئ.

تلماك: «القصة طويلة جدًّا.»

كلبسو: «كلا، كلا، لقد أَنَى لي أن أعرفها، ولا تتوانَ في قصِّ خبرها عليَّ.»

وتُلح عليه طويلًا، ولا يستطيع أن يقاومها، ويقول لها: «ذهبتُ من إيتاك لأسأل الملوك العائدين من حصار تروادة عن أخبار والدي، ويُدهش عشاق والدتي بنلوب من سفري، وقد حرصت على كتم ذلك عنهم لما أعلم من مكرهم، ولم يستطع نسطور الذي زرته في بيلوس، ولا منلاس الذي استقبلني في لكدمونية بِوُدٍّ، أن يخبراني هل أبي حيٌّ أو لا، وأظل حائرًا مترددًا زمنًا طويلًا، ثم أعزم على الذهاب إلى صقلية حيث ألقت الرياح أبي كما رُوي لي، بَيْدَ أن الحكيم منتور، الذي تَرَيْنَه حاضرًا هنا، قاوم هذا العزم البعيد من الفطنة، وذلك أنه، من ناحيةٍ، وصف لي السكلوب بأنهم غيلانٌ عماليق يفترسون الناس، وأنه، من ناحيةٍ أخرى، ذكر لي وجود أسطول ابنِهِ والتروادِيين في تلك السواحل، ومما قال لي: «إن التروادِيين يتميَّزون غيظًا من جميع الأغارقة، ولكنَّ أخصَّ ما يصنعون هو أن يسفكوا دم ابن أوليس مسرورين، فارجع إلى إيتاك، فلعلك تجد أباك، الذي يحبه الآلهة، قد بلغها فور وصولك إليها، ولكن إذا كان الآلهة قد قضوا بهلاكه فلا ينبغي له أن يرى وطنه مرةً أخرى، وجب عليك، على الأقل، أن تذهب للانتقام له ولإنقاذ أمك ولإثبات درايتك لجميع الأقوام ولتبرهن لجميع بلاد اليونان أنك ملك جدير بالملك جدارة أوليس نفسه.»

«كان هذا الكلام شافيًا، ولكنني لم أكن من الفطنة بحيث أتَّبعه، وما كنت لأتبع غير هواي، وقد بلغ منتور من حبه إياي ما تبعني معه في رحلتي الطائشة التي قمتُ بها على الرغم من نصائحه، وكان من أمر الآلهة أن سمحوا باقترافي خطأً يساعد على شفائي من عُجبي.»

وكانت كلبسو تنظر إلى منتور في أثناء كلام تلماك، وقد بُهتت إذ شعرت بشيء إلَهي فيه، ولكن ما كانت لتستطيع أن تميز بين هواجسها المبهمة، وهكذا ظلت كثيرة الخوف والاحتراز حيال هذا المجهول، وهنالك حَذِرَت أن يبدو ارتباكها، فقالت لتلماك: «واصل وأشبع فضولي.»

فعاد تلماك إلى حديثه كما يأتي: «اتفقت لنا ريح ملائمة زمنًا طويلًا كيما نذهب إلى صقلية، ثم أتت عاصفة سوداء فحجبت السماء عن أعيننا، ونرى بنور البروق مراكب أخرى معرَّضة لذات الخطر، ولم نلبث أن عرفنا أنها سفن إينه، وما كانت الصخر أَدْعَى إلى خوفنا منها، وهنالك أدركت، ولكن بعد الأوان، ما كان من منع الشباب الطائش إياي أن أنظر إلى الأمر بانتباه، ولم يظهر منتور في أثناء هذا الخطر حازمًا مقدامًا فقط، بل ظهر مسرورًا أكثر من المعتاد أيضًا، ومنتور هو الذي كان يشجعني فأشعر بأنه كان يوحي إليَّ بقوة لا تقاوم، وكان يُلقي جميع الأوامر هادئًا على حين كان الربان مضطربًا، وأقول له: «أي منتور العزيز! لمَ رفضتُ اتباع نصائحك؟ ألستُ شقيًّا إذ أردت أن أثق بنفسي في سنٍّ يكون الإنسان فيها خاليًا من البصر بالعواقب عاطلًا من تجربة الماضي ومن الاعتدال الذي يعالج به أمر الحاضر، وَيْ! ليتنا ننجو من هذه العاصفة، إذن لَحَذِرْتُ نفسي كما أحذر أخطر أعدائي، وأنت، يا منتور هو الذي سأصدقه دائمًا».»

ويجيبني منتور بقوله متبسمًا: «لا ألومك على الخطأ الذي اقترفت، ويكفي أن تُحسه وأن تنتفع به فتكون أكثر اعتدالًا في رغائبك إذا ما حدث أمر آخر، ولكن الخطر إذا ما زال عاد إليك زهوك على ما يحتمل، والآن يجب أن نتذرَّع بالشجاعة، أجل، يجب كشف الخطر واتِّقاؤه قبل وقوعه، ولكنه إذا ما وقع لم يبقَ غير عدم المبالاة به؛ ولذا كن سرَّ أبيك أوليس، وابدُ ذا قلبٍ أكبر من جميع المصائب التي تهددك.»

وأُفْتَنُ بحلم منتور وبسالته، ولكنني زدت عَجَبًا عندما رأيت مقدار ما أظهر من مهارة لإنقاذنا من التروادين، فبينا أخذت السماء تصفو، ولم يُعوِز التروادين أن يعرفونا إذ يروننا عن كَثَب، لاحظ أن إحدى سفنهم، التي أزاحتها الزوبعة، مشابهةٌ لسفينتنا تقريبًا، وأن مؤخَّرها متوَّج ببعض الأزهار، فأسرع إلى وضع أكاليل من الزهر مماثلة على مؤخَّرتنا، وربطها بنفسه بعصائب ذات لونٍ مطابقٍ للون عصائب التروادين، وأمر جميع جُدَّافنا بالانحناء على طول مقاعدهم ما استطاعوا لكيلا يُعرف أنهم من الأعداء ونَمُرُّ من بين أسطولهم ونحن على هذه الحال، ويهتفون هُتاف الفرح حينما رأونا ظانِّين أننا رفقاءُ لهم كانوا قد اعتقدوا هلاكهم، حتى إننا اضطررنا إلى السير معهم زمنًا طويلًا بفعل هياج البحر، ثم تأخرنا عنهم قليلًا، وبينما كانت الرياح الصائلة تدفعهم نحو إفريقية بذلنا أقصى الجهود لندنو بقوة المجاديف من الشاطئ المجاور لصقلية.

ونصل إلى هذا الشاطئ فعلًا، ويظهر أن ما نبحث عنه ليس أقل شؤمًا من الأسطول الذي كان يحملنا على الفرار، وذلك أننا وجدنا على هذا الساحل من صقلية تروادين آخرين

معادين للأغارقة، وهناك كان يملك الشائب أَسِسْتُ الذي فرَّ من ترِوادة، ولم نكد نصل إلى هذا الساحل حتى اعتقد الأهلون أننا قوم آخرون من الجزيرة أتوا للإيقاع بهم بغتةً، أو أناسٌ من الأجانب جاءوا للاستيلاء على أرَضيهم، ويُحرقون مركبنا، ويذبحون جميع رفقائنا عن حُمَيَّا، ولم يُبقوا غيري وغير منتور كيما يُقدِّموننا إلى أسِسْت فيعرف منا ما مقاصدنا وما المكان الذي أتينا منه، وندخل المدينة مُوثَقِي الأيدي خلفَ الظهر، ولم يؤجَّل قتلنا إلا لاتخاذنا مشهدًا لفُرجة قومٍ قُساة عندما يُعلم أننا من الأغارقة.

وأول ما نقدَّم إلى أسست الذي كان يحكم في الشعب ممسكًا صولجانًا بيده فيُعدُّ ضحيةً كبيرة، ويسألنا عن بلدنا وعن سبب سفرنا بصوتٍ جافٍ، ويبادر منتور إلى الجواب بقوله: «أتينا من سواحل إسبيرية الكبرى، وليس وطننا بعيدًا من هناك.»

وهكذا فإنه احترز من بيانه أننا من الأغارقة، بيد أن أسست لم يسمع أكثر من هذا عادًّا إيانا من الأجانب الذين يُخفون مقاصدهم، فأمر بإرسالنا إلى غابةٍ قريبة حيث نخدم كعبيدٍ تحت إمرة من يقومون برعي مواشيه.

ويبدو لي هذا الوضع أشد من القتل، فأصرخ قائلاً: «أيها الملك! الموت أحبُّ إلينا من هذه المعاملة الكريهة، فاعلم أنني تلماك ابن ملك الإيتاكيين أوليس الحكيم، وأنني أبحث عن أبي في جميع البحار، فإذا كان يتعذر عليَّ أن أجده وأن أعود إلى وطني وأن أنجو من الرِّق فانزع مني حياتي التي لن أُطيقها.»

ولم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى اعترى القوم هياجٌ فصرخوا مطالبين بإهلاك ابن الطاغية أوليس الذي أدت مكايده إلى تدمير مدينة ترِوادة.

فقال لي أسست: أي ابنَ أوليس، لا أستطيع أن أضن بدمك على أرواح أولئك التروادِيين الكثيرين الذين أبادهم أبوك على ضفاف كوسيت، فستهلك أنت وذاك الذي أتى بك.

وفي الوقت نفسه اقترح أحد شيوخ الجيش أن نُذبح على ضريح أنشيز.

ومما قال: إن دمهما يَطِيبُ لِطَيْفِ هذا البطلِ، حتى إنَّ أَمْرَ مثلِ هذا القربان يقع موقع القبول عند إينة حينما يُخبَر به لما يُبصر في هذا من حبكم البالغ لذاك الذي كان أعز الناس على العالم.

ويُصفق جميع القوم لهذا الاقتراح، وعاد القوم لا يفكرون في غير ذبحنا، ويؤتَى بنا إلى ضريح أنشيز، ويقام مذبحان حيث تُوقد النار المقدسة، ويكون السيف الذي أُعد لقتلنا أمام أعيننا، ونُكلَّل بالزهور، وما كانت أية رحمة لتضمن لنا الحياة، وكان أمرُنا قد فُرغ منه حينما طلب منتور بهدوءٍ أن يخاطب الملك، فقد قال: أي أَسِسْتُ! إذا كانت مصيبة

الشاب تلماك، الذي لم يُوجِّه قط سلاحًا إلى التُّرواديين، لم تُثِرْ حنانك فارحم مصلحتك الخاصة على الأقل، فما لديَّ من علمٍ نلته من الطوالع وعزائم الآلهة يخبرني أنه لن تمضي ثلاثة أيام حتى يُغِيرَ عليك أقوام من البرابرة ويأتوك من فوق الجبال كالسيل، وذلك كيما يغمرون بلدك ويُدمرونها، فسارع إلى دفع شرهم، وادعُ جميع رعاياك إلى حمل السلاح، ولا تُضِعْ ساعةً لا تَرُدُّ فيها إلى داخل أسوارك ما تملك في الحقول من قُطعان كثيرة، فإذا ما انقضت ثلاثة أيام وظهر أن نبوءتي كاذبة أمكنك أن تذبحنا، وإذا ما ظهر صدقُها فاذكر أنه لا يجوز نزع حياة مَن أبقوا لك حياتك.

ويُدهش أسِسْت من هذا الكلام الذي خاطبه به منتور مطمئنًّا اطمئنانًا لم ير مثله في إنسانٍ آخر قط.

ويجيب أسست قائلًا: «أُبصِرُ جيدًا، أيها الغريبان، أن الآلهة، الذين أساءوا إسهامكما في جميع منح السعادة، قد وهبوا لكما من الحكمة ما هو أثمن من كلِّ يُسر.»

ويؤخر تقريب القربان في الوقت نفسه، ويبادر إلى إصدار ما يلزم من الأوامر ليُحبط الهجوم الذي أنذر به منتور، فصار لا يُرى من كل ناحيةٍ غير نساء مرتعشات وشيوخ حُدْب وأولادٍ باكين يلجأون إلى المدينة، وتأتي جماعات البقر وهي تجأر، وجماعات الشَّاءِ وهي تثغو، تاركةً مراعيها الخصيبة غير ملاقيةٍ من الزرائب الكافية ما تكون معه في مأمن، وصار لا يُسمع من كلِّ جهةٍ غير صُراخٍ مختلط صادر عن أناس يتدافعون ولا يتفاهمون ويجعلون من المجهول صديقًا ويركضون من غير أن يعرفوا أين يضعون أقدامهم، بيد أن وجوه المدينة ظنوا أنهم أعقل من الآخرين فذهبوا إلى أن منتور دجَّالٌ جاء بنبوءة كاذبة ليُنقذ حياته.

وبينا كانت هذه الهواجس تساورهم بشدة رُئِيَ علي منحدر الجبال المجاورة إعصار غبارٍ، ثم أُبصِرَ جنود من البرابرة المسلحين لا يُحصيهم عدد، وكان هؤلاء من الإميريين المتوحشين مع الأقوام الذين يسكنون جبال نبرود وذروة أكراتاس؛ حيث يسود شتاءٌ لم تُلطفه النِّسام قط، ويخسر أولئك الذين استخفوا بنبوءة منتور الصائبة عبيدهم وقطاعهم، ويقول الملك لمنتور: «أنسى كونك من الأغارقة، ويغدو أعداؤنا أصدقاءَ أوفياءَ لنا، وقد أرسلك الآلهة لإنقاذنا، فلا أنتظر من بأسك أقل من حصافة نُصحك، فبادر إلى مساعدتنا.»

وتبدو في عيني منتور جرأةٌ تُلقي الحيرة في أشد المقاتلين عتوًّا، ويتناول تُرسًا وخُوذة وسيفًا ورمحًا، ويَصُفُّ جنود أسست، ويزحف على رأسهم، ويتقدم نحو الأعداء بنظام، ولا يستطيع أسست أن يتبعه إلا من بعيد بسبب هَرَمه وإن كان بالغ الشجاعة، وأكون كثير

القرب من منتور، ولكن من غير أن أستطيع مساواته بسالةً، وكانت درعه تشابه في المعركة مِجَنَّ الخلود، وكان الموت تحت ضرباته يعدو في كل مكان بين صفٍّ وصفٍّ، وكان شبيهًا بليث نُوميدية الذي عضَّه الجوع القاضم فدخل قطيعًا من النعاج الضعيفة وافترس وذبح وعام في الدم ففر الرعاة مرتجفين تخلصًا من صولته بعيدين من إغاثة الماشية.

ويُباغَت هؤلاء البرابرة ويضطربون مع أنهم كانوا يأملون دهم المدينة، ويُنعِشُ مثال منتور وأوامره رعية أسست فيبلغون من البسالة ما كانوا لا يُصدقون قدرتهم عليه، وأُصْمِي بسهمي ابنَ ملك هذا الشعب العدوِّ، وقد كان من لِدَاتي، ولكنه كان أطول مني؛ وذلك لأن هؤلاء القوم من عرق العماليق الذين هم من أرُومة السكلوب، وكان يزدري عدوًّا ضعيفًا مثلي، ولكن من غير أن يُدهشني بقوته العجيبة ولا بغلظته وتوحشه، وأُصوب سهمي إلى صدره وأوجب استفراغه سيلًا من الدم الأسود وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويَعِنُّ له أن يسحقني، ويُسمع لأسلحته حين سقوطه صوت يُدوِّي حتى الجبال، وأقبض على أسلابه وأعود إلى أسست مع أسلحة القتيل التي غنمتها، ويفرغ منتور من رَبْك العدو، ويُمزقهم شر ممزَّق، ويدحر الفُرَّارَ حتى الغاب.

ويؤدي هذا النصر غير المنتظر إلى عَدِّ منتور عزيزًا على الآلهة مُلهمًا منهم، ويُمازج أسست شكرانٌ فيُبلِّغنا أنه يخشى كل شيء في سبيلنا إذا ما عادت سفن إينِه إلى صقلية، ويعطينا واحدةً منها لنعود بها إلى بلدنا، ويغمرنا بالهدايا، ويحثنا على الانصراف دَرْءًا لكل ما يُبصر من شرٍّ قد يصيبنا، بيد أنه لم يُرد أن يزودنا بربَّانٍ أو جُدَّافٍ من قومه خشية تعريضهم للخطر في شواطئ اليونان، وإنما أصحبنا تجارًا من الفنيقيين كانوا ذوي صلاتٍ بجميع أمم العالم فلا يوجد ما يخافون فوجب عليهم أن يعيدوا السفينة إلى أسست بعد أن يتركونا في إيتاك، ولكن الآلهة الذين يعبثون بمصاير الناس كانوا يحفظون لنا أخطارًا أخرى.

الجزء الثاني

تتمة حديث تلماك، بما أن أسطول سيزُستريس قد قبض على السفينة الصورية، فقد وقع تلماك ومنتور في الأسر وسِيقَا إلى مصر، ثراء هذا البلد وعجائبه، رَفْعُ أمر تلماك ومنتور إلى سيزستريس وإحالة سيزستريس قضيتهما إلى أحد ضباطه المسمى ميتوفيس، أَمْرُ هذا الضابط ببيع منتور من الإثيوبيين وإلزامُ تلماك بسَوْقِ قطيعٍ إلى صحراء الواحة، هنالك خفف كاهن أبولون، ترموزيريس، ألم نفيه بأن علَّمه أن يقتدي بالإله الذي أُكره على حراسة مواشي ملك تسالية، أدميت، فسلا بليته بتهذيب طبائع الرعاة الجافية، لم يلبث سيزستريس أن أُخبر بكل ما صنع تلماك من غرائب في صحاري الواحة فدعاه إليه وحكم ببراءته ووعده بإعادته إلى إيتاك، غير أن موت هذا الأمير ألقى تلماك في مصائب جديدةٍ، وذلك أنه اعتُقل في برجٍ قائم على ساحل البحر حيث شاهد ملك مصر الجديد، بوكوريس، يهلك في معركةٍ اشتعلت بينه وبين رعاياه الثائرين الذين ساعدهم الفنيقيون.

كان الصوريون قد أثاروا بعُجبهم غضب الملك العظيم سيزستريس عليهم، غضب هذا العاهل الذي كان يملك مصر والذي فتح ممالك كثيرة، وكان من نتائج الثروات التي نالوها بالتجارة وما اتفق من قوةٍ لصُورَ الحصينةِ الواقعة على ساحل البحر أن شمخ هؤلاء القوم بأنوفهم، فأبوا أن يُعطوا سيزستريس الجزية التي فرضها عليهم حين رجوعه من فتوحه، وإنما أمدوا بالكتائب أخاه، الذي أراد، بدوره، أن يقتله بين مسرَّات وليمةٍ عظيمة، ويعزم سيزستريس على ربْكِ تجارتهم في جميع البحار هدمًا لكبريائهم، وتسير مراكبه من كل جهة بحثًا عن الفنيقيين، ويلاقينا أسطولٌ مصري عندما كانت جبال صقلية تغيب عن أبصارنا وكان يلوح لنا أن الميناء والأرض يفران خلفنا ويتواريان في السحب، وكنا نُبصر في الوقت نفسه اقتراب مراكب المصريين منا كأنها مدينة عائمة، ويعرفها الفنيقيون ويريدون

الابتعاد عنها، ولات حين مناص، فقد كانت شُرُعُهم خيرًا من شُرُعِنا وكانت الريح مساعدةً لهم، وكان جدافهم كثيرين جدًّا، ويدنون منا، ويقبضون علينا، ويأتون بنا أُسارى إلى مصر

ويذهب قولي لهم إننا لسنا فنيقيين أدراج الرياح، ولا يكادون يتفضلون بالإصغاء إليَّ، ويعدوننا عبيدًا يتاجر الفنيقيون بهم، ولم يفكروا في غير فائدة غنيمةٍ كهذه، ونلاحظ أن مياه البحر تبيض باختلاطها بمياه النيل، ونبصر أن ساحل مصر منخفض كالبحر تقريبًا، ثم نصل إلى جزيرة فاروس المجاورة لمدينة نُو، ومن هناك نسير والنيلَ سيرًا معاكسًا حتى منفيس.

ولو لم يجعلنا ألم أسرنا غير متأثرين بجميع الملاذ لسُحِرَت أعيننا بمنظر هذه الأرض المصرية الخصيبة المماثلة لحديقة رائعة تُروَى بما لا يُحصَى من القنوات، وما كنا لنستطيع إلقاء أبصارنا على الضفتين من غير أن نشاهد مدنًا رخيةً وبيوتًا ريفيةً حسنة الموقع وأَرَضِين مستورةً في العام كله بحصادٍ ذهبي بلا فترات على الإطلاق، وبمروج زاخرة بمواشٍ، وبزراعٍ مثقلين بثمراتٍ يفيض بها باطن الأرض وبِرِعَاءٍ يرددون أصداء الجِوار بما يصدر عن ناياتهم ومزاميرهم من أصوات عذبة.

ويقول منتور: «طُوبَى لشعبٍ يسوسه ملك عاقل! فهو يعيش راتعًا سعيدًا محبًّا لذاك الذي يكون مدينًا له بسعادته، فعلى هذا النمط يجب عليك، يا تلماك، أن تقوم بأمور الحكم وأن تُوجب سرور رعاياك إذا ما قضى الآلهة بأن تقبض على زمام مملكة أبيك، فأَحِبَّ رعاياك كما تُحب أولادك، وذُق لذة كونك محبوبًا لديهم، واصنع ما لا يُمكنهم أن يشعروا بالأمن والمسرَّة معه من غير أن يذكروا أن ملكًا صالحًا حباهم بهاتين المنحتين الثمينتين، وليس الملوك الذين لا يُفكرون في غير إرهاب رعاياهم وإذلالهم حملًا لهم على الخضوع سوى آفات النوع البشري، أجل إنهم يُخشون كما يودون، ولكنهم ممقوتون مُبغضَون، وذلك فضلًا عن كونهم يخافون رعاياهم أكثر من أن يخافهم رعاياهم.»

وأجيبُ منتور بقولي: «آه! لا يقوم موضوعنا على المبادئ التي يجب اتباعها للحكم، فقد عادت إيتاك لا تكون موجودة لدينا، ولن نرى وطننا ولا بنلوب، حتى إنه إذا ما قُدِّر لأوليس أن يعود إلى مملكته تام المجد فإنه لن يقر عينًا برؤيتي فيها، ولن أحظى بإطاعته فأتعلم القيادة، فلنمُتْ، يا منتور العزيز، وليس لنا أن نُفكر في غير هذا، لنمت ما عَطِل الآلهة من كل حنانٍ حيالنا.»

وبينما كنت أَقول هذا كان كلامي يُقطع بزفراتٍ عميقة، غير أن منتور، الذي يخشى الشر قبل وقوعه، لا يخافه بعد حدوثه.

ويقول منتور صارخًا: «أي ابنَ الحكيم أوليس العار على أبيه! ماذا إذن! تَدَعُ بلاءك يقهرك! اعلم أنك سترى جزيرة إيتاك وبنلوب ثانيةً، وأنك سترى، فيما لم تعرف من مجدها الأول، أُوليسَ المنيعَ الذي لم يستطع الطالع أن يُذله والذي يعلمك في مصائبه التي هي أعظم من مصائبك ألا تفتر همتك مطلقًا، وي! لو استطاع أن يعلم، في الأرضين البعيدة التي قذفته العاصفة إليها، أن ابنه لا يعرف أن يقتدي بصبره ولا ببسالته، لأرهقه هذا الخبر خجلًا ولكان أشد وقعًا عليه من كل ما يقاسي من بؤسٍ منذ زمن طويل.»

ثم حملني منتور على ملاحظة ما يسود جميع ريف مصر من بهجةٍ ورخاءٍ فيُعَدُّ فيه نحو اثنين وعشرين ألف مدينة، وأُعجب منتور بحُسن إدارة هذه المدن، وبممارسة العدل نفعًا للفقير تجاه الغني، وبصلاح تربية الأولاد الذين يُدرَّبون على الطاعة والعمل والقناعة وحب الفنون والآداب والتدقيق في جميع الشعائر الدينية والتجرد من الأغراض والميل إلى الشرف والإخلاص للناس والخوف من الآلهة؛ أي بهذه الأمور التي كان يُوحي بها كل أب إلى أولاده، وهو لم يسأم قط من الإعجاب بهذا النظام الجميل.

وهو لم ينقطع عن القول لي: «طوبى لشعب يسوسه ملك عاقل على هذا الوجه! وأسعد من هذا الشعب ذاك الملك الذي يصنع سعادة رعايا كثيرين بهذا المقدار فيجد سعادته في فضيلته! وهو أرفع من أن يُخشى لأنه يُحَبُّ، وهو لا يُطاع فقط، بل هو مليك جميع الأفئدة أيضًا ولا يتمنى أحد أن يتخلص منه، وكلٌّ يُشفق من افتقاده ويُقدِّم حياته في سبيله.»

وأَمِيزُ ما يقول لي منتور، وأشعر ببعث شجاعتي في صميم فؤادي ما خاطبني هذا الصديق العاقل، ولَمَّا بلغنا منفيس، هذا المصر الرخي البهي، أمر الحاكم من فوره بذهابنا إلى طيبة كيما نُعرَض على الملك سيزستريس الذي كان يرغب في النظر إلى الأمور بنفسه، والذي كان شديد الحقد على الصوريين، ونداوم، إذن، على السير مع النيل سيرًا معاكسًا، وذلك حتى مدينة طيبة الشهيرة وذات مائة الباب حيث يقيم ذلك الملك العظيم، وتبدو لنا هذه المدينة بالغة الاتساع، وتظهر لنا أكثر عمرانًا من أكثر مدن اليونان ازدهارًا، ونراها كاملة الإدارة من حيث نظافة الشوارع ومجاري المياه ورفاهة الحمامات ومزاولة الحِرَف والأمن العام، ونرى الميادين مزينةً بالعيون والمِسَلات، والمعابد من الرخام مع بساطة الهندسة، ولكن مع الجلال، ويشابه قصر الملك وحده مدينة عظيمة، ولا يُرى فيه غير عمدٍ رُخامية وأهرامٍ ومسلات وتماثيل ضخمةٍ ورياشٍ من الذهب والفضة.

وللملك يقول من قبضوا علينا إننا وُجدنا في سفينةٍ فنيقية، وكان الملك يُصغي في ساعات معينة من كل يوم إلى من لديه شكوى أو رأيٌ من رعاياه، وكان لا يزدري أحدًا

أو يرفض إنسانًا، وكان يعتقد أنه لم يُنْصَب ملكًا إلا لصنع الخير لجميع رعاياه الذين يحبهم كما يحب أولاده، وكان يستقبل الأجانب بلطف ويرغب أن يراهم معتقدًا أنه يتعلم شيئًا مفيدًا دائمًا إذا ما بحث في طبائع الأمم البعيدة وأوضاعها، ومن نتائج هذا الفضول في الملك أن قُدِّمنا إليه، وكان جالسًا على عرشٍ من عاج ممسكًا صولجانًا من ذهب بيده، وكان متقدمًا في السن، ولكن مع لطف وحلم وجلال، وكان كل يوم يَقْضِي في أمور رعيته بصبر وعقل يثيران العجب بلا مَلَق، وكان، بعد أن يقضي يومه في تنظيم الأمور وإقامة العدل بدقة، يرتاح مساءً إلى الاستماع لذوي العلم ومحادثة ذوي الصلاح ممن يعرف أن يختارهم كيما يقبلهم مع الدالة، ولا يُمكن أن يلام في حياته على شيء غير استقباله بزهوٍ بالغٍ مَنْ قَهَر من الملوك، وغيْرِ ثقته برجلٍ من رعيته سأصفه لك بعد هُنَيْهَة.

فلما رآني رق لشبابي وألمي، وقد سألني عن وطني واسمي، وندهش من الحكمة التي ينطق بها، وأجيب بقولي: «إنك، أيها الملك العظيم، لا تجهل حصار تروادة الذي دام عشر سنين وخرابها الذي كلف بلاد اليونان دمًا كثيرًا، وكان والدي أوليس من أهم الملوك الذين دمروا هذه المدينة، وهو الآن يهيم على وجهه في جميع البحار من غير أن يجد جزيرة إيتاك التي هي مملكته، وأبحث عنه، ويؤدي مثل بلائه إلى القبض عليَّ، فأَعِدْني إلى أبي ووطني، حفظك الآلهة لأولادك، وأشعروا أولادك بهجة العيش تحت رعاية أب صالح مثلك!»

ولم ينفك سيزستريس ينظر إليَّ بعين الرحمة، ولكنه، إذ أراد أن يعرف هل أنا صادق فيما قلت، أحالني إلى أحد ضباطه ليعلم ممن أخذوا سفينتنا هل نحن من الأغارقة أو من الفنيقيين في الحقيقة.

ومن قول الملك: «إنهما إذا كانا من الفنيقيين وجب أن يضاعف عقابهما لكونهما من الأعداء ولأنهما حاولا خداعنا بكذب خسيس، وإنهما إذا كانا، على العكس، من الأغارقة فإنني أرغب أن يعاملا معاملةً حسنة، وأن يُرَدَّا إلى بلدهما على إحدى سفني، فأنا أحب بلاد اليونان التي حباها كثير من المصريين بقوانين، وأعرف قوة هركول، وقد انتهى إلينا خبر مجد أشيل، وأُعْجَبُ بما رويَ لي من حكمة أوليس التعس، ويطيب لي أن أُعِينَ الفضيلة المنكودة الحظ.»

وكان الضابط الذي فُوِّض إليه أن يُحقق في قضيتنا فاسد الشعور محتالًا، وذلك بمقدار ما كان سيزستريس سليم الطوِيَّة كريمًا، وكان هذا الضابط يُدعى ميتوفيس، ويستنطقنا، ويسعى أن يَجْبَهَنَا، وبما أنه أبصر منتور يُجيب بحكمةٍ أبلغ مما أصنع فإنه نظر إليه ببغضٍ وحذر، شأن الخبيثين حين يغضبون على الطيبين، ويفصل أحدنا عن الآخر، ولم أعرف ما أصاب منتور.

ويقع هذا الفصل عليَّ كالصاعقة، وكان متوفيس يتوقَّع دائمًا أنه إذا ما استنطق كل واحد منا على حدته أمكنه أن يحملنا على بيان أمور متناقضة، ومما كان يعتقد، على الخصوص، أنه يبهرني بوعوده الخادعة فيجعلني أعترف بما يكون منتور قد أخفى عنه، والخلاصة أنه كان لا يبحث عن الحقيقة حَسَنَ النيةِ، وإنما كان يودُّ لو يجد ذريعةً ليقول للملك: إننا من الفنيقيين كيما نكون من عبيده، والواقع أنه وجد وسيلةً يخدع بها الملك على الرغم من براءتنا ومن دراية الملك.

آه! ما أكثر ما يكون الملوك عرضةً له! ما أكثر ما يُستغفل أعقل الملوك! ولا عجب، فالمحتالون الطامعون يحيطون بهم، والصالحون يبتعدون عنهم، يبتعدون عنهم لأنهم ليسوا مجاملين ولا مصانعين، وينتظر الصالحون أن يُبحث عنهم، ولا يعرف الأمراء أن يبحثوا عنهم مطلقًا، وعلى العكس يكون الخبيثون خالعي العِذَار مخادعين حريصين على الانسياب ونيل الحُظوة ماهرين في النفاق مستعدين لصنع كلِّ ما يأباه الشرف والضمير إرضاءً لأهواء ولي الأمر، وَيْ! ما أشقى الملك الذي يكون عُرضةً لدسائس الخبثاء! يهلِك هذا الملك إذا لم يدرأ الدِّهان ولم يُحب الذين يقولون الحق بإقدام، فهذه هي التأملات التي بدت لي في أثناء مصيبتي.

ومع ذلك فقد أرسلني متوفيس مع عبيده إلى صحراء الواحة حيث أقوم معهم بسوق قطعانه العظيمة.

ولم يكد تلماك يبلغ هذا الموضع من القول حتى قطعت كلبسو عليه الكلام بقولها: «حسنًا! ماذا صنعت هنالك أنت الذي فضَّل القتل على الرق في صقلية؟»

فاسمع جواب تلماك: «كان شقائي يزيد باستمرار، وعُدتُ لا أتمتع بذاك السلوان الهزيل في الاختيار بين الرق والقتل، فكان لا بُدَّ من العبودية لاستنفاد جميع نوائب الطالع حتى الثمالة، والواقع أنه عاد لا يكون لي أي أمل مطلقًا، حتى إنني لم أستطع أن أقول كلمةً واحدة للعمل في سبيل خلاصي، وقد قال لي منتور بعد حينٍ: إنه كان قد بيع من الإثيوبيين فتبعهم إلى إثيوبية.

وأَبْلُغُ صحاري كريهةً حيث تُرى رمال محرقة بين السهول، وتوجب الثلوج، التي لا تذوب مطلقًا، شتاءً دائمًا على ذُرى الجبال، وكل ما يوجد لإطعام المواشي هو مَراعٍ بين الصخور في وسط سفوح هذه الجبال الوعرة، وتبلغ الأودية من العمق هناك ما لا تكاد الشمس تُلقِي أشعتها عليها.

ولم أجد في هذا البلد من الناس غير رعاةٍ متوحشين توحُّشَ البلد نفسه، وكنت أقضي هناك ليالي أرثِي فيها لشقائي وللأيام التي أسوق فيها قطيعًا لأجتنب غضب العبد الأول

الذي يرجو إعتاقه فلا ينفك يتهم الآخرين استغلالًا لغيرته لدى سيده وحرصِه على مصالح هذا السيد، وكان هذا العبد يُدعَى بوتيس.

وأكاد أُسْلِم نفسي إلى اليأس في هذا الحين، وأبلُغُ من الألم ما غفلت معه عن قطيعي ذاتَ يوم، فأستلقِي على الكلأ بالقرب من غارٍ حيث أنتظر الموتَ لِمَا عُدت لا أطيق كروبي.

وألاحظ في تلك الساعة أن جميع الجبل يهتز، وأن أشجار البلوط والصنوبر تهبط من ذروة الجبل كما يظهر، وأن الرياح تحبس أنفاسها، وأن صوتًا راعدًا يخرج من الغار فأسمع ما يأتي: «يجب أن تكون، يا ابن أوليس الحكيم، عظيمًا صابرًا مثل أبيك، وليس الأمراء الذين هم سعداء دائمًا أهلًا للسعادة مطلقًا، فالتخنث يفسدهم والزهو يُسكرهم، وما أكثر ما تكون سعيدًا إذا قهرت مصائبك ولم تنْسَها قط! سترى إيتاكَ مرةً أخرى، وسيبلغ مجدك أعلى الشهب، ومتى صِرتَ سيد الآخرين فاذكر أنك كنت ضعيفًا فقيرًا متألِّمًا مثلهم، ولتكُن لك لذةٌ في كشف الكرب عنهم، وأحِبَّ رعيتك وامقت النفاق، واعلم أنك لن تكون عظيمًا إلا بنسبة ما تكون معتدلًا قادرًا على قهر آلامك.»

ويبلغ هذا الكلام الإلهي صميم فؤادي، ويبعث فيه بهجةً وشجاعة، ولم أشعر قط بتلك الرعشة التي تقف شعر الرأس ويجمد بها الدم في العروق عند اتصال الآلهة بالناس، وأنهض هادئًا وأركع جاثيًا رافعًا يدي إلى السماء، نحو منرفا، التي أعتقد أنني مدينٌ لها بهذا الهُتاف الرباني، وفي الوقت نفسه أجدني رجلًا جديدًا، وتنير الحكمة نفسي، وأشعر بقدرة لطيفة تخفف جميع آلامي وتقف صولة شبابي، وأُحَبِّبُ نفسي إلى جميع رعاة الصحراء، وما تذرعت به من حلمٍ وصبر وسداد سكَّنَ، في آخر الأمر، بوتيس القاسي الذي كان ذا سلطانٍ على العبيد الآخرين والذي كان يريد تعذيبي في البُداءة.

وأبحث عن كُتُبٍ إمعانًا في احتمال سأم الأسر، فقد كنت مثقلًا بالغمِّ لعدم وجود ثقافةٍ تُغذِّي نفسي وتقوِّم عقلي، فأقول: «طُوبَى لمن يشمئزون من الملاذِّ الصائلة ويعرفون أن يقنعوا بألطاف الحياة البريئة! طوبى لمن يتلهون بالتعلم ويُسَرُّون بتثقيف أذهانهم بالعلوم! مهما يكن المكان الذي يقذفهم فيه الطالع العدو فإنهم يحملون معهم ما يستقيمون به، لا يعرف السأم، الذي يلتهم الآخرين حتى بين الملاذ، سبيلًا إلى من يعرفون أن يتفرغوا للمطالعة، طوبى لمن يحبون القراءة ولا يُحرَمُونها كما أُحْرَم!»

وبينا كانت هذه الأفكار تدور في ذهني أوغلت في غابة ظليلة حيث أبصرت من فوري شيخًا يحمل كتابًا بيده، وكان هذا الشيخ أصلع الناصية مغضَّن الجبين أبيض اللحية مُرْسَلَها حتى الزُّنَّار، وكان طويلًا مهيب القامة، وكان غض البشرة قرمزي الإهاب، وكان

حاد البصر ثاقب النظر عذب الصوت بسيط القول حلو الكلام، ولم يحدث قط أن رأيت شائبًا جليلًا مثله، وكان يسمى ترموزيريس، وكان كاهن أبولون فيقوم بخدمته في معبد من رخام وَقَفَهُ ملوك مصر على هذا الإله في هذه الغابة، وكان الكتاب الذي يمسك مجموعةً من الأناشيد التي يسبَّح فيها للآلهة، ويدنو مني متودِّدًا، ونتحادث، ويبلغ من حسن الكلام عن أمور الماضي ما يُعتقَد معه أنها تُرى، ولكنه يحدث عنها بإيجاز، وما كان حديثه ليورثني سأمًا مطلقًا، وكان يبصر المستقبل بما هو عليه من حكمةٍ بالغةٍ يعرف بها الرجال وما يساورهم من مقاصد، وكان كثير الحذر طليق الوجه ملاطفًا للناس، وما كان أكثرُ الشبابِ بشاشةً لِيَبْلُغَ مقدار لطف هذا الشائب الطاعن في السن، ومن صفاته أنه كان يحب الفتيان إذا ما كانوا ذُلُلًا محبين للفضيلة.

ولم يلبث أن أحبني حب حنان فأعطاني من الكتب ما لي به سلوان، وكان يدعوني «ابني»، وكنت أقول له غالبًا: «إن الآلهة الذين حرموني منتور، يا والدي، رحموني إذ أنعموا عليَّ فيك بسندٍ آخر.»

وكان الرجل المشابه لأورفه أو للينوس ملهمًا من الآلهة لا ريب، وكان ينشدني شعرًا وضعه، وكان يلقِي عليَّ شعرَ كثيرٍ من الشعراء الممتازين الأعزة على إلهات الشعر، وكان إذا ما لبس حُلته الطويلة الناصعة البياض وأمسك ربابته العاجية بيده أتت النمور والأسود والدِّبَبة لتداليه وتلحس رجليه، وخرجت أنصاف الآلهة من الغاب لترقص حوله، وبدت الأشجار مهتزة، وظُنَّ أن الصخر الملانة تنزل من فوق الجبال مفتونةً بأنغامه الناعمة، وكان لا يترنم بغير عظمة الآلهة وشجاعة الأبطال وحكمة الرجال الذين يفضِّلون المجد على الملاذِّ.

وكان يوصيني بثبات الجَنَان غالبًا، فلن يخذُلَ الآلهة أوليس ولا ابنه مطلقًا، ثم كان يشير عليَّ بالسير على غرار أبولون فأُعَلِّمَ الرعاة أمر العناية بعرائس الشعر، ومن قوله لي: «إن أبولون كان قد غضب من تكدير جوبيتر بصواعقه للسماء في أصفى أيامه فأراد الانتقام من السكلوب المطرقين للصواعق فطعنهم بسهامه، وعاد جبل إتنه لا يقذف زوابع من لهب، وعاد لا يُسمَع طرق المداقِّ الهائل النازل على السندان[1] فيوجب زفير أعماق كهوف الأرض وهدير لجج البحر، وبما أن الحديد والنحاس عادا لا يُصقَلان من قبل السكلوب

[1] السندان: من آلات الحدادين، وهو ما يُطرَق عليه الحديد.

فقد صارا يصدآن، ويخرج فولكين من أتُّونه الملتهب مغاضبًا ويصعد في الألنب مسرعًا وإن كان أعرج، ويصل إلى مجلس الآلهة عارقًا مستورًا بغبار أسود، ويرفع شكاوى لاذعةً، ويسخط جوبيتر على أبولون، ويطرده من السماء ويلقيه في الأرض، وتشق عربة أبولون ذات العجلتين طريقها المعتاد من تلقاء نفسها كيما تنعم على الناس بالليل والنهار مع تحول الفصول بانتظام، ولما جُرِّد أبولون من جميع لموعه صار راعيًا عن اضطرار وأخذ يحرس قطعان الملك أدميت، وطفق يزمِّر بالمزمار، فيأتي جميع الرعيان الآخرين إلى ظل الدَّردار، القائم حول عينٍ صافية، لسماع أغانيه، وكان جميع الرعاء يقضون حتى ذلك الحين حياةً قاسية جافية، فلم يكونوا ليعرفوا غير سَوق مواشيهم وجز صوفها وحلب لبنها وصنع جبنٍ، فيشابه جميع الحقول باديةً كريهة.»

ولسرعان ما أطلع أبولون جميع هؤلاء الرعاة على كل ما تكون به حياتهم مستحبة، فقد كان يتغنى بالزهور التي يُتَوَّج بها الربيع وما ينشر الربيع من عطور وما ينبت في أثَره من بُقُول، ثم كان يتغنى بليالي الصيف اللذيذة حين يطرِّي النسيم الناس وحين يُروي الندى الأرض، وكان يضم إلى أغانيه، أيضًا، تلك الثمرات الذهبية التي يكافئ الخريف بها أعمال الزراع، كما يضم إليها راحة الشتاء حين يرقص الشباب اللعوب حول النار، ثم يصف الغاب الظليلة التي تستر الجبال، كما يصف الأودية المجوفة حيث تلوح الأنهار أنها تلهو بألف عطفة في وسط المروج الجميلة، وهكذا فإنه علم الرعاة سحر الحياة الريفية إذا ما عرفوا كيف يتذوقون ما في الطبيعة البسيطة من عجائب، ولم يلبث الرعيان أن أبصروا بمزاميرهم أنهم أسعد من الملوك، فغدت أكواخهم تشتمل على كثير من الملاذ التي تفر من القصور المُذْهَبة، وكانت الألعاب والأضاحيك والألطاف تلازم الرعاء الأبرياء في كل مكان، وكانت جميع الأيام أيام عيد، وعاد لا يُسمَع غير تغريد الطيور أو نفح النسيم الذي يداعب فروع الشجر، أو هدير موجةٍ نيِّرةٍ تسقط من صخرة، أو الأغاني التي كانت إلهات الشعر توحي بها إلى الرعاة التابعين لأبولون، وكان هذا الإله يعلمهم الفوز بجائزة العدْو وإصماء الأيائل والوعول، ويغار الآلهة من الرعيان لظهور هذه الحياة لهم أحلى من مجدهم كله فأعادوا أبولون إلى الألنب.

فيا بُنَيَّ! يجب أن يكون لك بهذه القصة سبب تثقيف، فبما أنك في حالٍ كالتي كان عليها أبولون فأحْيِي هذا الموات، واجعله زاهرًا كما جعل، وعلم جميع هؤلاء الرعاة ما فُتُونُ الانسجام، ولطف الأفئدة القاسية، وأطلع الرعاة على الفضيلة المحبوبة، وأشعرهم بحلاوة التمتع في أثناء العزلة بالملاذ البريئة التي لا يستطيع شيءٌ أن ينزعها من الرعاة، وسيأتي

يومٌ، يا بني، يحملك ما يحيق بالملوك من كروب وهموم جافية تأسف فيه، وأنت جالسٌ على العرش، على الحياة الرِّعائية.

قال ترموزيريس هذا وناولني نايًا بالغ العذوبة، فكان صدى الجبال الذي تسمعه في كل ناحية يجتذب حولنا بعد قليلٍ جميع الرعاة المجاورين، وكان لصوتي انسجامٌ رباني، وأشعر باهتزازي وطيران لُبِّي حين أتغنى بالألطاف التي زينت الطبيعة بها الأرياف، ونقضي الأيام بأسرها وهزيعًا من الليالي في الترنيم معًا، وكان جميع الرعيان ينسون أكواخهم وقطعانهم حائرين دَهِشِين حولي حينما ألقي عليهم دروسًا، وكان يلوح أن هذه الصحاري صارت لا تشتمل على شيءٍ جافٍ، فكل شيءٍ قد أصبح فيها حلوًا جميلًا، وكان لِينُ طباع الأهلين يُلِينُ الأرض كما يظهر.

وكنا نجتمع، في الغالب؛ لتقديم قرابين في معبد أبولون الذي كان ترموزيريس كاهنًا له، وكان الرعاة يجيئون إلى المعبد مُتَوَّجين بأكاليل من الغار تمجيدًا للإله، وكان الرعاة يقصدونه أيضًا، راقصين مع أكاليل من الزهور حاملين على رءوسهم سلالًا حاويةً نذورًا، وكنا نقيم بعد التضحية مأدبة ريفية، وكان أزكى طعام عندنا هو لبن معزنا وضأننا الذي نُعْنَى بحلبه بأنفسنا وما نقتطف بأيدينا النظيفة من فواكه طازجةٍ كالرطب والتين والعنب، وكانت مقاعدنا من الكلأ، وكانت الأشجار الوارقَة تُنْعِم علينا بظلٍّ ألطفَ من الصفائح المذهبة في قصور الملوك.

ولكن الذي رفع ذكري بين رعاتنا هو ما كان من انقضاض أسدٍ جائع على قطيعي، وتبدأ مجزرةٌ كريهة، ولم أكن حاملًا بيدي غير عصاي، وأتقدم بجرأة وتَزْبَئِرُّ لُبدَة الأسد، ويُكَشِّر عن أنيابه وبراثنه، ويفغَر فاه الجاف الملتهب، وتبدو عيناه مملوءتين دمًا ونارًا، ويقرع خاصرتيه بذَنَبِه الطويل، وأطرحه، ويحول دون افتراسي زَرَدِي الذي كنت ألبس وفق عادة رُعاة مصر، وينهض ثلاث مرات، ويزأر فيُدوِّي زئيره في جميع الغاب، وأصرعه ثلاث مرات، ثم أخنقه بين ذراعيَّ، ويرغب شهود نصري من الرعيان أن ألبس جلد هذا الأسد الهائل.

ويذيع في جميع مصر صيت هذا العمل وما وقع من تحوُّلٍ في رعاتنا، ويطرُق حتى أُذُنَيْ سيزستريس، ويعرف سيزستريس أن أحد الأسيرين اللذين عُدَّا من الفنيقيين، جاء بالعصر الذهبي إلى هذه الغاب التي لا تصلُح للسكن، ويريد أن يراني؛ وذلك لأنه كان يُحبُّ عرائس الشعر، وكان في فؤاده مكانٌ لكلِّ من يستطيع تثقيف الناس، ويراني، ويستمع إليَّ طيب الخاطر، ويعلم أن ميتوفيس كان مخادعًا له عن طمع، ويحكم عليه بالسجن المؤبد، وينزع منه جميع الثروات التي حازها ظلمًا وعدوانًا.

ويقول: «وَيْ! ما أشقى من يعلو بقية الناس! لا يرى الإنسان الحقيقة بغير عينيه غالبًا! هو يكون محاطًا بأناسٍ يحُولون دون وصوله إلى من يَقود، وكلٌّ يرى مصلحته في مخادعته، وكلٌّ يتظاهر بالغَيرة مخفيًا طمعه تحتها، وكلٌّ يُظهرُ أنه يحب الملك مع أنه لا يحب سوى الثراء الذي يُنعِم به الملك، والملكُ لا يُحَبُّ إلا لنيل الحُظوة لديه فيُصانَع ويُخان.»

ثم عاملني سيزستريس بودٍّ وحنان، وعقد نيته على إعادتي إلى إيتاك مع سفنٍ وجنودٍ لإنقاذ بنلوب من جميع عشاقها، ويُعَد الأسطول، ولم نفكر في غير الإبحار، وأُعجَب بتصاريف القدر الذي يرفع بغتةً من كان قد خَفَض، وتجعلني هذه التجربة أرجو رجوع أوليس إلى مملكته في آخر الأمر بعد عذاب طويل، وكان يلوح لي أيضًا إمكان لقاء منتور ثانيةً وإن جُلب إلى مجاهل إثيوبية، وبينا كنت أؤخِّر سفري بعض التأخير ساعيًا أن تبلغني أخباره مات سيزستريس الطاعن في السن بغتةً فغُمرت بموته في مصائب جديدة.

وتظهر مصر كلها في مأتم عميق بسبب موته، فقد اعتقدت كل أسرة أنها فقدت صديقها وحاميها وأباها، ويرفع الشِّيب أيديهم إلى السماء، ويقولون صارخين: «لم يظهر في مصر قط ملك صالح مثله! لن يظهر في مصر ملك مشابهٌ له! فيا أيها الآلهة! كان يجب ألا يُبدَى للناس مطلقًا، أو ألَّا يُنزَع منهم مطلقًا! لِمَ نبقَى أحياء بعد سيزستريس؟» ويقول الشبَّان: «لقد قُضي على أمل مصر، وقد كان آباؤنا سعداء بقضائهم حياتهم تحت ظل ملك بالغ الصلاح كهذا، وأما نحن فلم نره إلا لنشعر بفقده»، ويبكيه خدمه ليل نهار، ولما جنِّزَ أُهرِعَ الرعايا إلى جنازته من الأقاصي أفواجًا أفواجًا مدة أربعين يومًا، وكلٌّ كان راغبًا في مشاهدة جثمان سيزستريس مرةً أخرى، وكلٌّ كان راغبًا في الاحتفاظ بصورته في ذاكرته، وما أكثر مَن ودُّوا لو يدفنون معه في ضريحه!

ومما زاد الناس حزنًا على موته كون ابنه بوكوريس خاليًا من كلِّ رفقٍ بالأجانب، ومن كل فضول نحو العلوم، ومن كلِّ تقدير لذوي الفضل، ومن كل حبٍّ للمجد، وما كان من عظمة أبيه ساعد على عدِّه غير أهلٍ للحكم إلى أبعد حد، وبيان ذلك أنه نشِّئ تنشئة ترفٍ وزهوٍ جافٍ، فكان لا يعبأ بالناس معتقدًا أنهم لم يُخلقُوا إلا من أجله وأنه من جِبِلَّةٍ غير جبلَّتهم، وكان لا يبالي بغير قضاء شهواته وتبديد الأموال العظيمة التي ادَّخرها أبوه بعناية كبيرة، وبغير ظلم رعيته وامتصاصٍ دم البائسين، وبغير اتباع نصائح الفتيان الطائشين المنافقين المحيطين به مع إقصائه، مستخفًّا، جميع عقلاء الشيوخ الذين كانوا موضع ثقة أبيه، والواقع أنه كان غُولًا، لا ملكًا، وكانت مصر بأسرها تئِنُّ، وعلى ما كان من صبر المصريين على سلوكه الخسيس الجائر احترامًا لاسم أبيه سيزستريس العزيز عليهم

فإنه كان كالباحث عن حتفه بظِلْفِه، فما كان حكم مثل هذا الأمير القبيح ليدوم زمنًا طويلًا.

وعاد لا ينبغي لي أن أرجو رجوعي إلى إيتاك، وذلك أنني أقمت ببرجٍ قائم على شاطئ البحر بالقرب من بيلوزة حيث كان يتم إبحارنا لو لم يَمُت سيزستريس، وأن ميتوفيس كان من الشَّطَارة بحيث يخرج من السجن، ويسترد سابق مقامه لدى الملك الجديد، فيأمر باعتقالي في هذا البرج انتقامًا لنفسه من زوال حُظوته الذي كنت قد أوجبته له، وأقضي ليالي وأيامًا حزينًا أشد الحزن، وعاد جميع ما كان ترموزيريس قد تنبأ به إليَّ وجميع ما سمعته في الغار لا يبدوان غير حلم، ولا غَرْوَ، فقد سقطت في أشد الآلام، وكنت أرى الأمواج التي تلطم أسفل البرج الذي اعتُقِلْت فيه، وكنت أبصر، في الغالب، مراكب ترجُّها الزوبعة فتعاني خطر الانكسار على الصخر التي بُنيَ عليها البرج، وأراني حاسدًا أولئك الناس الذين يهددهم خطر الغرق بدلًا من أن أتوجع لهم، ولم ألبث أن أقول في نفسي: «إن شقاءهم سينتهي بانتهاء حياتهم أو بوصولهم إلى بلدهم، وأما أنا فإن من دواعي الأسى ألا أستطيع أن أرجو هذا أو ذاك.»

وبينما كنت أَضْنَى هكذا بين ما لا ينفع من الحسرات أبصرت صواري سفنٍ مثل الغابة، وكان البحر مكسوًّا شُرُعًا تنفخها الرياح، وكان الموج مُزْبدًا تحت ضربات ما لا يُحصى من المقاذيف، وكنت أسمع من كل ناحية صراخًا مختلطًا، وأشاهد على الشاطئ فريقًا مذعورًا من المصريين يُهرع إلى السلاح، وأشاهد مصريين آخرين يلوح أنهم ذاهبون لملاقاة هذا الأسطول الذي كان يُرى وصوله، ولم ألبث أن عرفت أن بعض هذه السفن الأجنبية من فنيقية وأن بعضها الآخر من جزيرة قبرس؛ وذلك لأن المصائب أخذت تجعلني خبيرًا في كلِّ ما هو خاصٌّ بالملاحة، وظهر لي أن المصريين مقسومون، ولم أجد عناءً في اعتقادي أن الملك الأرعن بوكاريس أوجب، بما اتخذ من عنفٍ، عصيان رعاياه وأوقد نار الفتنة، وأنظر من فوق البرج معركةً دامية، ويهجم المصريون، الذين دعوا الأجانب إلى نصرتهم بعد أن أعانوا على نزولهم، على المصريين الآخرين الذين كان يقودهم الملك، وأرى هذا الملك يشجِّع أنصاره بكونه قدوةً لهم، ويظهر كالإله مارس، وتجري جداول من الدم حوله، وتلطَّخ عِجَال عربته بدمٍ كثيفٍ مزبدٍ أسود، ولا تكاد هذه العجال تكون قادرةً على السير فوق أكداسٍ من جثث القتلى المسحوقة، وكانت تلوح على عينَيِ هذا الملك الشاب الشديد المختال الحسن الخلقة والجميل المنظر آثار الغضب والغم الشديد، وكان يبدو كالحصان المليح الجامح فيقحمه بأسه بلا روية ولا يكون من الحكمة بحيث يعدل إقدامه،

وكان لا يعرف إصلاح خطئه، ولا إصدار أوامر محكمة، ولا إدراك ما يهدده من سوء، ولا مداراة من هو في أشد الاحتياج إليهم، ولا يعني هذا أن العبقرية كانت تُعْوِزُه، فقد كان لديه من البصائر ما يعدل بسالته، وإنما لم يعتبر قط بسوء الطالع لما كان من إفساد مَلَق أساتذته لحسن سجيته، وقد كان نشوان بسلطانه وسعادته، فيعتقد أن على الناس أن يذعنوا لنزواته الثائرة، فكانت أقل مقاومة تُلهب غضبه، وهنالك عاد لا يتعقل، وغدا كمن طار طائره، وجعل زهوه الهائج منه وحشًا ضاريًا، وتخلَّى عنه لطفه الطبيعي وعقله السليم في دقيقةٍ، فاضطر أعوانه المخلصون إلى الابتعاد عنه، وعاد غير محبٍّ لغير من يتملقون أهواءه، وهكذا فإنه كان يلتزم أقصى ما يناقض مصالحه الحقيقية فيحمل جميع رجال الخير على مقْت سلوكه.

أجل، إن بأسه قد دعمه حيال جمع أعدائه، ولكنه أرهق في نهاية الأمر، فقد رأيته يهلك، وذلك أن حربة فنيقي اخترقت صدره، فسقط من عربته التي كانت تجرها أحصنة دائمًا، وصار تحت سنابك الخيل لما عاد لا يستطيع أن يمسك الأعنة، ويقطع جنديٌّ من جزيرة قبرس رأسه، ويتناول هذا الرأس من شعره، ويظهره لجميع الجيش الغالب نتيجةً للنصر.

وسأذكر، ما بقيت حيًّا، أنني رأيت هذا الرأس الغارق في الدم، وهاتين العينين المغمضتين الخامدتين، وهذا الوجه الشاحب المشوَّه، وهذا الفم المفتوح قليلًا كأنه يريد إتمام ما بدأ من كلام، وهذه الملامح المختالة المتوعدة التي لم يقدر الموت على محوها، وسيبقى خيال هذا الرأس ماثلًا أمام عيني ما بقيتُ حيًّا، فإذا ما قضى الآلهة بأن أقبِضَ على زمام الملك فإنني لن أنسى، بعد هذا المثال المشئوم، أن الملك لا يكون أهلًا للقيادة، وأنه لا يكون سعيدًا في إبَّان سلطانه، إلَّا إذا أخضع هذا السلطان للعقل، آه! ما أتعس الرجل الذي أُعِدَّ لإسعاد الناس فلا يكون سيدهم إلا لجعلهم تعساء!

الجزء الثالث

تتمة حديث تلماك، تسليم خليفة بوكاريس لجميع الأسرى الفنيقيين وجلب تلماك معهم على سفينة نربال الذي كان يقود الأسطول الصوري، وصْفُ نربال له سلطان الفنيقيين وما كان من استعباد الطاغية الظنَّان، بغمليون، إياهم، إبقاء تلماك حينًا من الزمن في صور ومشاهدته ثراء هذا المصر العظيم ورخاءه، إطْلاع نربال إياه على الوسائل التي وصلت بها صور إلى ازدهارها البالغ، بينا كان تلماك متأهبًا للإبحار إلى جزيرة قبرس علم بغمليون أنه أجنبي فأراد أن يقبض عليه، ولكنَّ خليلةَ الملك، أسْتَرابه، أنقذته لتهلك، بدلًا منه، شابًّا كان قد أغضبها بازدرائه، ركوبُ تلماك سفينةً قبرسية يعود بها من جزيرة قبرس إلى إيتاك.

كانت كلبسو تستمع مع العجب إلى كلامٍ بالغ الحكمة، وكان أكثر ما يفتنها أن تُبصر الشاب تلماك يقص عليها مع السذاجة خبر الخطأ الذي كان يقترف عن تهور وعدم إطاعته للحكيم منتور، وكانت تقضي العجب من النجابة والعظمة في هذا الأمير الذي يتهم نفسه فيظهر أنه انتفع بطيشه كيما يكون حكيمًا متبصِّرًا معتدلًا.

وتقول: «واصل حديثك يا تلماك العزيز، فقد أبطأ عليَّ وقت سماعي كيف خرجت من مصر، وأين لقيت الحكيم منتور الذي صبرت على فقده رابط الجأش.»

ويعود تلماك إلى حديثه، كما يأتي: «بما أن أصلح المصريين وأكثرهم وفاءً للملك كانوا أشدَّ ما يكونون ضعفًا فإنه أذعنوا للآخرين حينما رأوا قتل الملك، فنصب في مكانه ملك آخر اسمه ترموتيس، وقد جلا الفنيقيون وجنود جزيرة قبرس عن البلد بعد أن حالفوا الملك الجديد، وقد سلَّم جميع الأسرى الفنيقيين، وقد عُدِمْتُ منهم، وأُخْرَجُ من البرج، وأُبحر مع الآخرين، ويدب الأمل في قلبي، وتملأ ريحٌ ملائمة شرعنا، ويشق الجداف أمواج البحر

المزبدة، ويكون البحر الواسع مستورًا بالسفن، وتصدر عن الملاحين هتافات الفرح، وتفر شواطئ مصر بعيدةً منا، وتَوْطُؤُ التلال والجبال مقدارًا فمقدارًا، وأخذنا لا نرى غير السماء والماء، وذلك على حين كانت الشمس التي تطلع تخرج من البحر نيرانها المتوقدة كما يلوح، وكانت تُذَهِّب بأشعتها ذُرَى الجبال التي لَمَّا نَزَلْ نراها بعض الرؤية على الأفق، وكانت السماء البالغة الزرقة تبشر بسفرٍ بحريٍّ مبارك.

ومع أنني أُعِدْتُ مثل فنيقيٍّ، فإنه لم يعرفني أحد من الفنيقيين الذين كنت معهم، ويسألني عن اسمي ووطني قائد السفينة التي جُعلت فيها: نربال، قال لي نربال:

– من أية مدينة فنيقية أنت؟

– لستُ من فنيقية مطلقًا، ولكنَّ المصريين قبضوا عليَّ في سفينة فنيقية، وقد لبثت في مصر أسيرًا مثل فنيقيٍّ زمنًا طويلًا، وقد أُوذيتُ تحت هذا الاسم زمنًا طويلًا، وقد سُلِّمتُ تحت هذا الاسم.

ويعود نربال فيسأل:

– من أيِّ بلدٍ أنت إذن؟

هنالك قلت له:

– إنني تلماك ابن ملك إيتاك اليونانية «أوليس»، وقد ذاع صيت أبي بين جميع الملوك الذين حاصروا مدينة تروادة، ولكن الآلهة لم تُنعم عليه بالعود إلى وطنه، وأبحث عنه في بلاد كثيرة، ويجور عليَّ القدر كما جار عليه، وأنت ترى شقيًّا لا يتنفس الصُّعَداء إلا بعد أن ينال سعادة الرجوع إلى أهله ولقاء والده.

وينظر نربال إليَّ متعجبًا، وأرى فيه مباركًا من نِعَم السماء، لا من عامة الناس مطلقًا، ويظهر مخلصًا جوادًا عن طبعٍ، ويرقُّ لبؤسي، ويخاطبني بثقةٍ أوحى الآلهة بها إليه كيما يُنقذني من خطر عظيم.

ويقول لي: «أي تلماكُ! لا أشك فيما تقول مطلقًا، ولا يمكنني أن أشك في ذلك، فما هو مرسومٌ على وجهك من ألمٍ وفضيلة لا يسمح لي بأن أحذر منك، حتى إنني أشعر بأن الآلهة، الذين قمت بخدمتهم دائمًا، يحبونك، وأنهم يريدون أن أحبك كما لو كنتَ ابني، وسأقدم إليك نصيحة نافعة، ولا أسألك عليها أجرًا غير الكتمان.

– لا تخشَ أن أجد أية مشقة في السكوت عن أمورٍ تأتمِنُني عليها، فإني، وإن كنت شابًّا، شبت متعودًا ألا أبوح بِسِري، وألا أفشي سر الآخرين بأية ذريعة كانت.

– كيف استطعتَ تدريب نفسك على كتم السر وأنت شاب بهذا المقدار؟ إن مما يستهويني أن أطَّلع على الوسيلة التي اكتسبت بها هذه الصفة التي هي أساس أصوب سلوك، والتي لا خير في نبوغٍ بغيرها.»

– عندما ذهب أوليس إلى حصار تروادة وضعني على ركبتيه، وجعلني بين ذراعيه (كما رُوِيَ لي) وقبَّلني بحنان، وقال، وإن لم أستطع إدراك كلامه: «وقاني الآلهة شر رؤيتك ثانية، وصَرَم مِقَصُّ بارْكَ حَبْلَ أيامِك عند تكونه، وقطع الحصار بمنجله زهرة عمرك الناضرة التي أخذت تتفتح، وسحقك أعدائي على مشهدٍ مني ومن أمك، إذا ما أفسدتَ نفسك ذات يومٍ وتركت الفضيلة، ويا أُصَيْحَابي! أترُكُ لكم هذا الابن العزيز عليَّ كثيرًا، فارْعَوْا طفولته، وإذا كنتم تحبونني فأبعدوا الملَق الضار منه، وعلموه قهر نفسه، وليكن كالشجيرة اللينة التي تُثنَى لتقوَّم ثانية، ولا تنسوا، على الخصوص، أن تجعلوه عادلًا محسنًا مخلصًا صادقًا في حفظ السر، فالذي يستطيع الكذب ليس خليقًا بأن يعد من الناس، والذي لا يعرف الصمت ليس أهلًا للحكم»، وأروي لك هذا الكلام لما عُنِيَ بتَكْراره لي غالبًا فنفذ صميم فؤادي، وما أكثر ما أُحَدِّث به نفسي، وقد عُنِيَ أصحاب أبي بتدريبي على كتمان السر منذ نعومة أظفاري، ولَمَّا أَزَلْ في دور الطفولة حينما حملوني جميع ما كانوا يحسون من كروب مبصرين أمي عرضةً لفريق كبير من المغامرين الراغبين في تزوجها، وهكذا فإنني كنت أعامَل، منذ ذلك الحين، مثل رجلٍ ثقةٍ رشيد، وكنت أخاطَب في أهم الأمور، وكنت أعلم جميع ما عُقِدَت النية عليه من إقصاء ذوي الطمع، وأُفتَن بهذا الاطمئنان إليَّ لما يساورني بهذا من اعتقادي أنني رجل كامل، ولم أُسِئ استعمالَ تلك الثقة قط، ولم يحدث، قط، أن صدر عني من الكلام ما أذعت به سرًّا مهما كان صغيرًا، وما أكثر ما حاول ذوو المآرب أن يحملوني على الكلام صبيًّا يضيق ذرعًا بكتمان سر أمرٍ مهم رآه أو سمعه، ولكنني كنت أعرف أن أجيبهم عن سؤالهم من غير أن أكذب ومن غير أن أطلعهم على ما لا ينبغي لي أن أقوله.

وهنالك قال لي نربال:

– ترى، يا تلماك، قوة الفنيقيين، فهم مرهبون لدى جميع الأمم المجاورة بما عندهم من مراكب لا تحصى، وما يقومون به من تجارة حتى عمد هركول ينعم عليهم بثرواتٍ تفوق ثروات أكثر الأمم ازدهارًا، وقد لاقى الملك العظيم، سيزستريس، الذي لم يقدر على قهرهم بحرًا، مشقة كبيرة في الانتصار عليهم برًّا، وذلك بجيوشه التي فتحت جميع الشرق ففرض علينا جزيةً لم نُعطِها زمنًا طويلًا، وكان الفنيقيون من الثراء العظيم والقوة البالغة

بحيث لم يصبروا على حمل نِيرِ العبودية، ونسترد حريتنا، ولم يترك الموت لسيزستريس من الوقت ما يختم فيه الحرب حيالنا، أجل، كان لنا أن نخاف حكمته أكثر من خوفنا قوته، ولكن بما أن قوته قد انتقلت إلى يد ابنه العاطل من كلِّ حكمة فقد انتهينا إلى النتيجة القائلة إنه لم يبقَ ما نخشاه، والواقع أنه صار من المستبعد دخول المصريين بلادنا بقوة السلاح لقهرنا مرةً أخرى، وأنهم اضطُرُّوا إلى الاستعانة بنا لإنقاذهم من ذلك الملك الطاغي الجموح، ونكون محررين لهم، ويا لَلمجدِ المضاف إلى حرية الفنيقيين ويُسرهم! ولكن بينا ننقذ الآخرين نكون عبيدًا، فيا تلماك احذر أن تقع بين يدي ملكنا الظالم، بغماليون، الذي غمس يديه الجائرتين في دم زوج أخته ديدون: سيشه، ويستحوذ على ديدون روح المقت والانتقام، وتنجو ديدون من صُورَ مع كثير من المراكب، ويتبعها معظم محبِّي الفضيلة والحرية، وتقيم على ساحل إفريقية مدينةً رائعة تدعى قرطاجة، ويبرِّح بيغماليون ظمأٌ إلى الثراء لا يُروى له غليل، ويبدو دنيئًا ممقوتًا لدى رعاياه، وتعد حيازة أموال وافرة من الجرائم في صور، ويجعله طمعه متحديًا ظنَّانًا ظالمًا، فيضطهد الأغنياء ويخشَى الفقراء، وتُعدُّ حيازة الفضيلة جرمًا أعظم من ذاك، وذلك لافتراض بغماليون أن الصالحين لا يطيقون مظالمه ورذائله؛ وذلك لأن الفضيلة تحكم عليه فيثور عليها مغاضبًا، وكل شيء يهزه ويقضُّه ويقضمه، ويخاف ظلَّه، ولا ينام ليلًا ولا نهارًا، ويثقله الآلهة بكنوزٍ لا يجرؤ على التمتع بها، ويُرهقه الآلهة بهذه الكنوز ربكًا له، وما يبحث عنه ليكون سعيدًا يحول دون سعادته على التحقيق، ويأسف على كلِّ ما يُعطِي، ويخاف الخسارة دائمًا، ويتهافت على الربح، وهو لا يُرى على الإطلاق تقريبًا، وهو وحيد كئيب كامد في صميم قصره، حتى إن أصدقاءه لا يُقدمون على الاقتراب منه خشية أن يصبحوا موضع رِيبَتِهِ.

ويحيط بمنزله حرسٌ هائل شاهرٌ سيوفه وحِرَابه دائمًا، وتنفذ ثلاثون غرفةً بعضها إلى بعض فيُرى لكل واحدةٍ منها بابٌ من حديد وستة مزاليج، وتكون محل انزوائه، ولا يعرف أي هذه الغرف يكون محلَّ نومه، ويقال مع التوكيد: إنه لا ينام في غرفةٍ واحدة في ليلتين متواليتين خوفًا من الذبح، ولا يعرف حلو الملاذِّ ولا الصداقة التي هي أحلى الملاذِّ، وإذا ما أشير عليه بالبحث عن المسرة شعر بأنها تفر بعيدةً منه وبأنها تأبى أن تدخل قلبه، وتظهر عيناه الغائرتان ملتهبتين جائلتين نحو جميع الجهات بلا انقطاع، ويُرهف الأذن عند أقل رِكْزٍ[1] فيشعر باهتزاز نفسه كلها، ويلوح شاحبًا نحيلًا، وتبدو همومه السُّود

[1] الرِّكْز: الصوت الخفي.

مرسومةً على وجهه المتغضِّن[٢] دائمًا، ويُحجم عن الكلام ويتأوَّه وتخرج من فؤاده أنَّاتٌ عميقة، ولا يستطيع أن يكتم الوخزات التي تمزِّق أحشاءه، ويعاف ألذَّ الأطعمة، ويكون أولاده محلَّ هوله بدلًا من أن يكونوا موضع أمله، ويجعل منهم أخطر أعدائه، ولم يتمتع بساعة اطمئنان في حياته، ولم يبقَ سالمًا إلا بسفكه دماء جميع من يخاف، وما أشدَّ عمى قلبه! وما أشد غفلته عن كون بغيه الذي ركن إليه سيؤدي إلى هلاكه! سيبادر بعض خدامه المحاذرين مثله إلى إنقاذ العالم من هذا الغول، وأما أنا فإني أخاف الآلهة، وسأكون مخلصًا للملك الذي أعطوني إياه مهما كلفني الأمر، وأفضل أن يقتلني على نزعي حياته، وعلى تقصيري في الدفاع عنه، وأما أنت، يا تلماك، فاحذر أن تقول له: إنك ابن أوليس، فهو، إذ ذاك، يأمل أن يعود أوليس إلى إيتاك وأن يفديك بمالٍ عظيم، فيعتقلك لهذا السبب.»

ونصل إلى صور، وأتبع نصيحة نربال، وأجد أنه صدق في كل ما قص عليَّ، ولا أستطيع أن أدرك وجود رجلٍ أصبح بائسًا كما أصبح بغماليون على ما بدا لي، وأحارُ من منظرٍ بالغٍ هذا المقدار من الفظاعة والحداثة في نظري فأقول في نفسي: «هو ذا الرجل الذي لم يبحث عن غير السعادة فظنَّ أنه ينالها بالثراء والسلطان المطلق، ويتصرف في كل ما يبتغي، ومع ذلك فهو شقيٌّ بثرائه، وبسلطانه أيضًا، ولو كان راعيًا كما كنت منذ قليل لبدا سعيدًا مثلما كنت، وذلك بتمتعه بملاذ الأرياف البريئة تمتعًا خاليًا من وخز الضمير، وذلك من غير أن يخشى سيفًا أو أن يخاف سمًّا، ولو أحب الناس لأحبوه، ولخلا من هذه الثروات العظيمة التي لا ينتفع بها كما لا ينتفع بالرمل ما دام لا يجرؤ على مسها، ولتمتع بثمرات الأرض، ولم يُعانِ أي احتياج حقيقي، أجل، إن هذا الرجل قادر على صنع كل ما يريد كما يلوح، ولكن ليته لم يكن هكذا، فهو لا يفعل غير ما تمليه عليه أهواؤه الضارية، وهو يسير دائمًا عن طمع وخوف وشبهات، أجل، إنه يظهر سيد كل من سواه، ولكنه ليس سيد نفسه، فله من السادة والجلادين بمقدار ما فيه من رغائب جامحة.»

وهكذا أُعمِلُ عقلي حول بغمليون من غير أن أراه؛ وذلك لأنه لا يُرى مطلقًا، وأن كل ما يُرى مع الخوف هو هذه الأبراج العالية التي يُحيط الحرس بها ليل نهار والتي جعل نفسه فيها كما لو كان في سجنٍ معتقلًا هو وكنوزه، وأقابل بين هذا الملك المكتوم وسيزستريس الحليم اللين الجانب والبالغ الأنس والكثير الميل إلى الاجتماع بالأجانب والحريص على

[٢] تغضَّن: تثنى وتشنج وتجعَّد.

الإصغاء إلى جميع الناس وعلى استخلاص الحقيقة، التي تُحجب عن الملوك، من أفئدة الناس، وأقول: «كان سيزستريس لا يخاف شيئًا، وكان لا يوجد شيءٌ يخافه، وكان يبدو لجميع رعاياه كما يبدو لأولاده، وأما هذا الملك فيخاف كل شيء، ولديه ما يحمله على الخوف من كل شيء، ويكون هذا الملك الشرير عرضةً للموت المشئوم دائمًا حتى في قصره الحصين، وذلك في وسط حرسه، وعلى العكس كان الملك الصالح سيزستريس في مأمنٍ بين الرعية كما يكون الأب الصالح في منزله بين أسرته.»

ويأمر بغمليون بإعادة كتائب جزيرة قبرس التي أتت لمساعدة كتائبه نتيجةً للحِلف بين الأمتين، ويغتنم نربال فرصة إطلاقي، ويعرضني بين الجنود القبرسيين؛ وذلك لأن الملك كان شديد الخوف حتى من أتفه الأمور، ومن نقائص الأمراء الهينين المتوانين أن يستسلموا، مع اطمئنانٍ أعمى، إلى فريق من المقربين الماكرين الفاسدين، وكان عيبُ هذا الأمير يقوم على الحذر من أصلح الناس، فلم يعرف أن يميز ذوي الصراحة والاستقامة، والواقع أنه لم يجتمع برجال الخير قط؛ وذلك لأن هؤلاء الناس لا يبحثون عن ملكٍ كثير الفساد، وذلك فضلًا عن أنه أبصر، بين من يقومون بخدمته منذ جلوسه على العرش، كثير مداجاةٍ وخداع وعيوبٍ كريهة تحت ستار من الفضيلة فعدَّ جميع الناس مرائين بلا استثناء، وكان يفترض أن الأرض خاليةٌ من أية فضيلة صادقة فيحسب أن جميع الناس متساوون تقريبًا، وكان، إذا ما وجد رجلًا منافقًا فاسدًا، لا يُكلِّف نفسه عناء البحث عن رجلٍ آخر ظانًّا أن هذا لا يكون خيرًا من ذاك، وكان الأبرار يبدون له أسوأ من الأشرار المستهترين؛ وذلك لاعتقاده أن الأبرار مساوون للأشرار خبثًا وأنهم يفوقونهم خداعًا.

وأختلطُ بالقبرسيين، وأفلت من حذره النفاذ، ويرتجف نربال خشية وقوفه على حالي وقضائه على حياتي وحياته لهذا السبب، وما ساوره من جزعٍ حتى يرانا ذاهبين مما لا يُصدَّق، بيد أن اختلاف الرياح أمسكنا في صور زمنًا غير قصير.

وأنتهز فرصة هذه الإقامة للاطلاع على طبائع الفنيقيين الذائعي الصيت بين جميع الأمم المعروفة، وأعجب بموقع هذه المدينة العظيمة القائمة على جزيرة في البحر، ويبدو الساحل المجاور رائعًا بخصبه وما يحمل من فواكه لذيذةٍ وبكثرة مدنه وقُراه المتصلِ بعضها ببعض تقريبًا وباعتدال الجو؛ وذلك لأن الجبال تجعل هذا الساحل في مأمن من رياح الظهر المحرقة، ولأن هذا الساحل يُلطَّف بريح الشمال التي تهب من جهة البحر، ويقع هذا البلد على سفوح لبنان الذي تشق ذروته السحاب وتكاد تلمس الكواكب، ويكسو قمته جليد دائم، وتسقط من أطراف الصخر المحيطة برأسه أنهارٌ كالسيول مملوءةٌ ثلجًا،

وتُرى تحت ذلك غابةٌ واسعة من الأرْز العتيق الذي يلوح من القِدَم كالأرض المغروس فيها والذي يحمل غصونًا كثيفة نحو السحب، وتُبصَر في أسفل هذه الغابة مراعٍ على منحدر الجبل حيث تطوف ثيران وهي تخور وشياهٌ وهي تثغو مع خرافها الناعمة التي تثب فوق العشب الطري، وهناك يجري ألف جدولٍ ذي ماءٍ صافٍ يورَّع في كل مكان، ثم يشاهد تحت هذه المراعي سفح الجبل الذي يشابه الروضة، وهناك يسود ربيع وخريف معًا لوصل ما بين الأزهار والأثمار، ولم يحدث قط أن استطاعت ريح الجنوب الوبيئة، التي تجفف كل شيء وتحرقه، وريح الشمال الشديدة، أن تَمْحُوَا الألوان الزاهية التي تزين هذه الروضة.

فبالقرب من هذا الشاطئ الرائع تقع في البحر تلك الجزيرة التي أقيمت عليها مدينة صور، وتلوح هذه المدينة العظيمة عائمةً فوق الماء وأنها ملكة البحر، ويقصدها التجار من جميع أنحاء العالم، ويعد أهلوها أنفسهم أشهر تجار العالم، وإذا ما دخلت هذه المدينة خُيِّل إلى الناظر أول وهلةٍ أنها غير خاصةٍ بأمة واحدة، بل مدينة مشتركة بين جميع الأمم مركزٌ لتجارتها، ولهذه المدينة رصيفان كبيران مشابهان لذراعين زاحفتين في البحر مشتملتين على ميناءٍ لا تستطيع الرياح دخوله، وفي هذا الميناء تُرَى غابةٌ من صواري المراكب، وهذه السفن هي من الكثرة بحيث لا يكاد يُكشف البحر الذي يحملها، والتجارة هي ما يُقبل عليه جميع المواطنين، وما كانت ثرواتهم العظيمة لتجعلهم يأنفون من العمل الذي لا بُدَّ منه لزيادتها، ومما يشاهَد في كل ناحيةٍ كتان مصر الناعم ونسيج صور الأرجواني المصبوغ مرتين والذي يبدو ذا نضارة عجيبة، ويكون هذا الصبغ المضاعف من الإتقان بحيث لا يزيله الزمان، وهو يتخذ في الأصواف الدقيقة التي تُرفع قيمتها بالتطريز الذهبي والفضي، ويقوم الفنيقيون بتجارة جميع الأمم حتى مضيق قادس، ويوغلون حتى في الأقيانوس الواسع الذي يحيط بجميع الأرض، وتتناول ملاحتهم بحر القلزم أيضًا، ويذهبون من هذه الطريق للبحث في الجزر المجهولة عن الذهب والعطور وما لا يُرَى في مكان آخر من الحيوان.

ولم تكن عيناي لتشبعا من منظر هذه المدينة العظيمة البديع، من منظر هذه المدينة التي كان كلٌّ يكدح فيها، وما كنت لأرى فيها، كما في مُدُن اليونان، أناسًا عاطلين من العمل ذوي فضول فيقصدون الميدان العام لتَسَقُّطِ الأخبارِ أو للنظر إلى الأجانب الذين يصلون إلى الميناء، وإنما كنت أرى الرجال في الميناء جادين في تفريغ السفن ونقل السلع أو بيعها وفي ترتيب مخازنهم وفي إمساك حسابهم إمساكًا دقيقًا حول ما يكون التجار من الأجانب مدينين لهم به، ولا ينقطع النساء من غزل أصوافهن أو وضع رسومٍ للتطريز أو طيِّ النسائج الثمينة.

وأسأل نربال: ما علة غُدُوِّ الفنيقيين سادةَ تجارةِ جميع العالم، وما سبب اغتنائهم هكذا على حساب جميع الأمم الأخرى؟

– إن موقع صور ملائم للملاحة كما ترى، ولوطننا فخر اختراع الملاحة، وكان الصوريون أول من قهر الأمواج قبل عصر تيفيس والأرغونوت الذين تباهي بهم بلاد اليونان، وذلك إذا ما صُدِّق ما يقص منذ أكثر القرون القديمة ظلامًا، وهم أول مَن أقدم على ركوب مركب قصف تحت رحمة الأمواج والعواصف، ومَن قاس عمق المياه بالمرجاس،[٣] ومن رصد النجوم وفق علم المصريين والبابليين، ومن وصل بين أمم كثيرة كان البحر يفصل بعضها عن بعض، وأهل صور مهرةٌ صُبُرٌ مُجِدُّون كثيرو النظافة والقناعة والاقتصاد في النفقات، ولديهم ضابطة محكمة، وهم على وفاق فيما بينهم، ولم تظهر أمةٌ أكثر منهم ثباتًا وإخلاصًا ووفاءً وضمانًا ولينًا تجاه الأجانب، وإني، من غير بحثٍ في عللٍ أخرى، أجد فيما تقدم سبب سلطانهم على البحر وعامل ازدهار تجارةٍ كثيرةِ الخير في مرافئهم، ولو شاع بينهم الانقسام والحسد، ولو أترفوا في الملاذِّ والبطالة، ولو ازدرى أكابر القوم حقل العمل والاقتصاد، ولو فقدت الحرف حظوتها في مدينتهم، ولو خسروا حسن النية لدى الأجانب، ولو أفسدوا قواعد التجارة الحرة بعض الإفساد، ولو أهملوا مصانعهم، ولو كفوا عن تقديم السُّلَف الكبيرة التي لا بُدَّ منها لتحسين سلعهم على أنواعها، لرأيت من فورك انهيار هذه الدولة التي تُعجب بها.

– ولكن بيِّن لي الوسائل الحقيقية التي يُستعان بها لإقامة تجارةٍ مثل تلك في إيتاك ذات يوم.

– افعلوا كما يُفعل هنا، فأحسنوا قبول الأجانب ولا تُعسِّروا عليهم، ودعوهم يجدون في موانئكم أمنًا ولينًا وحرية كاملة، ولا يَسْتَهْوِكُم الطمع ولا الزهو، وأَقْوَمُ وسيلة لكثرة الكسب ألا يُرغَب في الكسب الكثير مطلقًا، وأن يُعرف متى تكون الخسارة، وحبِّبُوا أنفسكم إلى جميع الأجانب، واصبروا على أمور قد تصدر عنهم، واحذروا أن تُثيروا حسدهم بعُجْبكم، واثبتوا على قواعد التجارة، ولتكن هذه القواعد بسيطةً سهلة، ودرِّبوا رعاياكم على اتباعها اتباعًا وثيقًا، وعاقبوا التجار بشدةٍ على الغش، حتى على الإهمال والبذخ، وذلك لما تؤدي إليه هذه الأمور من تقويضٍ للتجارة ولمن يتعاطونها، وأخص ما يجب عليكم هو ألا تقدموا على

[٣] المرجاس: حجر أو ما يشبهه يشد في حبل فيدلي في الماء ليعلم عمقه.

مضايقة التجار تحويلًا لها وفق أغراضكم، فالواجب يقضي على الأمير بألَّا يتدخل في شئونها مطلقًا خشية التضييق عليها، وبأن يترك جميع مكاسبها لرعاياه الذين عانَوا مشاقَّها، فإذا ما سلك الأمير غير هذا السبيل أخمد نشاطهم، وهو ينال منافع كافيةً بالثروات الوافرة التي تدخل بلاده، وتُشابِهُ التجارةُ بعضَ الينابيع التي تنفَد إذا ما أردتم صدها عن مجراها، ولا شيء يجلب الأجانب إليكم غير الربح والتيسير، وإذا ما جعلتم التجارة لهم أقل يسرًا وفائدة انْزَوَوْا عنكم من حيث لا تدرون ولم يعودوا إليكم؛ وذلك لأن الأمم الأخرى تغتنم، إذ ذاك، فرصة غفلتكم وتجتذبهم إليها وتعودهم الاستغناء عنكم، ومما يجب الاعتراف به كون مجد صور أخذ يُظلم بعض الشيء منذ قليل، آه! لو رأيتهم، يا تلماكُ العزيز، قبل عهد بغمليون لكنتَ أكثر إعجابًا! فأنت لا ترى هنا الآن غير بقايا كئيبةٍ لعظَمةٍ يحيق بها الخراب، يا لهفي على صور الشقية! أية أيدٍ غَدَوْتِ قَبْضَتَها! كان البحر يأتيكِ بخَرْج جميع أمم الأرض فيما مضى، ويخاف بغمليون جميع الناس من أجانب ورعايا، ويريد أن يعرف عدد السفن التي تصل والبلد الذي تنتسب إليه وأسماء رُكَّابها ونوع تجارتهم، وثمن سلعهم ومدة إقامتهم هنا، وذلك بدلًا من أن يتَّبع عُرفنا السابق فيفتح مرافئه لجميع الأمم قاصِيها ودانِيها، ويفعل بغمليون ما هو شرٌّ من هذا أيضًا، وذلك أنه يلجأ إلى الغش لمباغتة التجار ومصادرة سلعهم، وهو يُقلق من يعتقد أنهم أكثر التجار ثراءً، وهو يفرض ضرائب جديدةً متخذًا كلَّ ذريعة، وهو يريد مزاولة التجارة بنفسه فيخشى جميع الناس أن يكونوا ذوي صلات تجارية به، وهكذا تذوِي التجارة وينسى الأجانب بالتدريج طريق صور الذي كان مُحبَّبًا إليهم كثيرًا، فإذا لم يُغير بغمليون سلوكه لم يلبث مجدنا وسلطاننا أن ينتقلا إلى أمة أخرى أصلح منا حكومةً.

ثم سألت نربال كيف صار أهل صور بالِغِي القوة في البحر؛ وذلك لأنني لا أريد أن أجهل أمرًا يكون نافعًا في إدارة مملكتي.

– لدينا غابُ لبنان التي تزودنا بخشب المراكب، ونحافظ على هذه الغاب بعنايةٍ تحقيقًا لهذه الغاية، ولا يُقطع من الغاب شيءٌ إلَّا لضرورة عامة، ونمتاز بحيازة عُمَّال ماهرين في إنشاء السفن.

– وما فعلتم لنيل هؤلاء العمال؟

– لقد تخرجوا في البلد بالتدريج، ومتى أحسنت مكافأة من يبرعون في الحرف وقعت بسرعةٍ حيازة أناس يسيرون بالحِرَف قُدُمًا إلى أقصى درجات الكمال؛ وذلك لأنه لا يُعْوِز ذوي المواهب والنبوغ أن ينقطعوا إلى الحرف إذا ما أُجزلت لهم الجوائز، وهنا يُكرم جميع

من يكتب لهم النجاح في الحرف والمعارف النافعة في الملاحة، فيُجَلُّ المهندس البارع، ويقدَّر الفلكي الماهر، ويُغمر بالإحسان كل ربَّان يفوق الآخرين في خدمته، ولا يُستخَف بنجَّار مطلقًا، وإنما يُجزَل أجره وتُحسَن معاملته، حتى إن الجُدَّاف الحاذقين ينالون جوائز مقررةً تناسب خِدَمَهم، ويتناولون طعامًا جيدًا، ويُعنَى بهم إذا مرضوا، كما أنه يعنى بنسائهم وأولادهم في أثناء غيابهم، وتعوَّض أسرهم إذا ما هلكوا غرقى، ويحال إلى المعاش من يخدم منهم مدةً معينة، وهكذا يُستحصل على العدد المطلوب منهم مهما كثر، وهكذا يُفتَن لُبُّ الأب في تنشئة ابنه في مثل هذه الحرفة الطيبة، فيبادر منذ نعومة أظفار ابنه إلى تعليمه إدارة المقذاف وشد الحبال والاستخفاف بالعواصف، وهكذا يقاد الناس بالمكافأة وحسن النظام بلا إكراه، وما كانت السلطة وحدها لتأتي بالخير، وما كان خضوع الأدْنَيْنَ ليكفي، فلا بُدَّ من كسب القلوب ومن إطلاع الناس على منافع لهم في الأمور التي يُراد الانتفاع بحِذْقهم إياها.

قال نربال هذا وأخذني لزيارة جميع المخازن ودور الصناعة وجميع الحرف المعدَّة لإنشاء السفن، وأسأل عن أدق الأشياء وأقيِّد كل ما تعلمت خشية أن أنسى أمرًا نافعًا.

ومع ذلك فإن نربال العارف بِبغمليون والمحب لي كان ينتظر سفري فارغ الصبر خوفًا من أن يكشف أمري جواسيس الملك الجائلون في المدينة ليل نهار، ولكن الرياح لم تسمح لنا بالإبحار بعد، وبينا كنا جادين في زيارة الميناء متقصين مستنطقين تجارًا كثيرين أقبل علينا أحد عمال بغمليون وقال لنربال: «عَلِمَ الملك من ربَّان في السفن التي عادت من مصر معك أنك أتيت بأجنبيٍّ على أنه قبرسي، فالملك يريد القبض عليه وأن يُعرَف البلد الذي ينتسب إليه بالحقيقة، وسيكون رأسك رهن ذلك.»

وكنت في تلك الدقيقة بعيدًا بعض البعد لأشاهد عن كثب ما راعى الصوريون من نِسَبٍ في بناء سفينة جديدة تقريبًا، فقيل: إن هذه السفية تعد — بتناسب أقسامها — أحسن مركب شراعي رُئِي في المرفأ، وكنت أستنطق العامل الذي نظم هذه النسب.

وقد بُهِتَ نربال وذعر وأجاب: «أبحث عن هذا الأجنبي الذي هو من جزيرة قبرس.»

ولما غاب عامل الملك ذاك عن البصر أهرع نربال إليَّ ليخبرني بالخطر الذي حاق بي، وقال لي: «ذاك الذي توقعت كثيرًا يا تلماك العزيز، لقد هلكنا! ساورَتِ الملكَ، الذي يزعجه حِذْرُه ليل نهار، شبهةٌ في كونك لست من جزيرة قبرس، فأمر بالقبض عليك، وهو يريد إهلاكي إذا لم أجعلك بين يديه، وما الحيلة؟ أيها الآلهة! أنعموا علينا بالحكمة التي ننجو بها من هذا الخطر، يجب أن أجيءَ بك إلى قصر الملك يا تلماك، ادَّعِ بأنك قبرسيٌّ من مدينة

أماتُنْتَ وبأنك ابن صانع تماثيل لأفروديت، سأصرح بأنني عرفت أباك فيما مضى، فقد يدعك الملك تسافر من غير أن يدقق أكثر مما فعل، لا أجد غير هذه الوسيلة لإنقاذ حياتي وحياتك.»

وأُجيب عن ذلك بقولي لنربال: «ليهلِكْ شقيٌّ يريد القدر هلاكه، وأعرف كيف أموت يا نربال، وأجدني مدينًا لك كثيرًا من أجل سَوقك في عجلة شقائي، ولا أطيق حمل نفسي على الكذب، فأنا لست قبرسيًّا، ولا يمكنني أن أقول: إنني قبرسيٌّ، ويرى الآلهة إخلاصي، وعلى الآلهة أن يحفظوا حياتي بقدرتهم إذا ما أرادوا هذا، ولكنني لا أريد إنقاذها بالكذب مطلقًا.»

– أي تلماكُ! لا يُعَدُّ هذا الكذب عيبًا، حتى إنه لا يمكن الآلهة أن يذموه لأنه لا ينطوي على ضر أحد، وهو ينقذ حياة بريئين، وهو لا يخادع الملك إلا ليحول دون اقترافه جرمًا عظيمًا، وأنت تغالي في حب الفضيلة والخوف من ثَلْم الدِّين.

– حسب الكذب أن يكون كذبًا ليكون غير خليق برجل يتكلم بين يدي الآلهة ويجد أنه مدينٌ للصدق بكل شيء، ومن يثلم الحقيقة يسئ إلى الآلهة ويضرَّ نفسه، وذلك لقوله ما يخالف ضميره، فكُفَّ، يا نربال، عن الاقتراح عليَّ بما لا يليق بي ولا بك، وإذا ما رَحِمَنا الآلهة عرفوا إنقاذنا، وإذا ما أرادوا هلاكنا غدونا بالموت ضحية الحقيقة، وتركنا للناس مثال تفضيل الفضيلة النقية على الحياة الطويلة، وليست حياتي غير طويلة جدًّا لشقائها البالغ، وأنت وحدك، يا نربال العزيز، هو الذي يرق له قلبي، وهل وجب أن تكون صداقتك لشقيٍّ أجنبي شؤمًا عليك بهذا المقدار؟

ونظل على هذا النوع من النضال زمنًا طويلًا، ثم يأتينا رجل راكضٌ لاهثٌ، وكان هذا الرجل، العامل لدى الملك، مرسَلًا من قبل أسترابه، وكانت هذه المرأة جميلةً كإلهة، وكانت جامعةً بين فتون البدن وفتون النفس، وكانت مدالية فاتنة ذات دعابة، أجل، إنها كانت، مع فتونها الكثير الخداع، صاحبة قلب قاس كثير المكر كالسيرين، ولكنها كانت تعرف إخفاء مشاعرها التي فسدت بعمق المكايد، وقد عرفت أن تخلب فؤاد بغمليون بجمالها وذكائها وصوتها العذب وأنغام رَبابها، وقد بلغ بغمليون من الافتتان بها ما هجر معه زوجه الملكة توفا، وصار لا يفكر في غير إشباع أهواء ذات الطمع أسترابه، ولم يكن حب هذه المرأة أقل شؤمًا عليه من طمعه الشائن، وهو، وإن كان شديد الولع بها، لم تحمل له سوى الازدراء والاشمئزاز، وإنما كانت تكتم عنه مشاعرها الحقيقية مع إظهارها أنها لم تُرِدِ الحياة إلا من أجله، وذلك في وقت كانت لا تستطيع أن تصبر عليه.

وكان يوجد في صور فتىً ليديٌّ اسمه ملاكون، وكان بارع الجمال، ولكن مع خَنَث وتأنُّث، وكان غارقًا في اللذات، وكان لا يفكر إلا في حفظ لطافة بشرته، وتسريح شعره الأشقر المتموج على كتفيه، وتعطير نفسه، وأن يمنح مطاويَ ردائه استدارةً لطيفة، وأن يترنم بمعاشقه على ربابه، وقد رأته أسترابه فشغفها حبًّا، وقد ازدراها لولعه بامرأة أخرى، وهذا مع خوفه أن يكون عرضةً لغيرة الملك الجامحة، وتشعر أسترابه باحتقاره لها، وتحقد عليه، ويعِنُّ لها، عن قنوط، أنها تستطيع أن تجعل من ملاكون ذاك الأجنبيَّ الذي يبحث عنه الملك والذي قيل: إنه جاء مع نربال، والواقع أنها أقنعت بغمليون بهذا ورشت جميع من يستطيعون تحويله، وبما أنه لا يحب ذوي الصلاح ولا يعرف أن يميزهم فقد كان يحف به أناس نفعيون محتالون مستعدون لتنفيذ أوامره الجائرة الضارية، وكان هؤلاء الناس يخافون سلطان أسترابه ويساعدونها على مخادعة الملك، وذلك خشية ألا يروقوا هذه المرأة المختالة الحائزة لثقته تمامًا، وهكذا فإن ملاكون، وإن عُرِفَ في صور أنه ليديٌّ، عُدَّ ذاك الأجنبيَّ الذي أتى به نربال من مصر وأُدخِلَ السجن.

وخافت أسترابه أن يكلم نربال الملك وأن يكشف له مَكْرَهَا فأرسلت إلى نربال على جناح السرعة ذلك العامل ليبلِّغ إليه ما يأتي: «تنهاك أسترابه من أن تكشف للملك عن هوية الأجنبي لديك، وهي لا تسألك غير السكوت، وهي تعرف كيف تجعل الملك راضيًا عنك، ومع ذلك لا تتوانَ في حمل الأجنبي الشاب، الذي جئت به من مصر، على الإبحار مع القبارسة حتى لا يُرى في صور.»

ويطير لب نربال فرحًا حين يبصر إمكان إنقاذ حياته وحياتي على هذا الوجه فيَعِدُ بالتزام جانب الصمت، ويُقْنِعُ العامل بأنه نال ما سأل فيعود ليخبر أسترابه بنتيجة رسالته.

وأقضي، أنا ونربال، العجب من لطف الآلهة الذين كافأونا على إخلاصنا والذين يُعْنَون عناية مؤثرة نحو من يخاطرون بكل شيء في سبيل الفضيلة، وننظر مع الاشمئزاز إلى ملكٍ استحوذت عليه الشهوة والطمع، ونقول: «إن مَن يُفرِط بهذا المقدار في خوفه ألا يُخدع يستحق أن يُخدع، وهو يُخدع خداعًا فظيعًا دائمًا تقريبًا، وهو يحذر الصالحين ويركن إلى الفاسقين، وهو يجهل ما يحدث، وانظروا كيف يظهَر بغمليون لعبةً بيد امرأة خالعة العِذار، ومع ذلك فإن الآلهة يتخذون كذب الأشرار لإنقاذ الأبرار الذين يفضِّلون الموت على الكذب.»

وفي الوقت نفسه نبصر تحول الرياح، وأنها صارت ملائمةً لسفن قبرس.

ويقول نربال هاتفًا: «يبدي الآلهة عواطفهم، ويريدون أن تكون في مأمنٍ يا تلماك العزيز، فاهجر هذه الأرض الظالمة اللعينة، طوبى لمن يستطيع اتباعك حتى أكثرِ ما هو

مجهولٌ من السواحل! طوبى لمن يستطيع أن يحيا ويموت معك! غير أن قدرًا جافيًا يربطني بهذا الوطن الشقي، ولا بُدَّ من التوجع معه، وقد يجب أن يدفن الإنسان تحت أنقاضه، ولا أبالي بهذا على أن أقول الحقيقة دائمًا وألا يحب قلبي غير العدل، وأما أنت، يا تلماك العزيز، فأدعو الآلهة أن يأخذوا بيدك وأن يمنوا عليك حتى موتك بأطيب النعم؛ أي بالفضيلة الخالصة الخالية من كل عيب، فعِشْ، وعُدْ إلى إيتاك، وفرِّجِ الغم عن بنلوب، وأنقذها من عشاقها المغامرين، ولْتَرَ عيناك أوليس الحكيم، ولتضمَّه يداك إلى صدرك، وليجد فيك ابنًا يعدل عقلَه! ولكن اذكر في إبَّان سعادتك نربال التعس، ولا تكف عن حبي.»

لم يكد يتم هذا الكلام حتى نضحتُه بدموعي من غير أن أجيب عن قوله، فما اعتراني من زفراتٍ حالَ دون نطقي، ونتعانق صامتينِ، ويأتي بي إلى السفينة، ويظل على الساحل، ويسير المركب، ولم ننقطع عن تبادل النظرات ما استطاع كلٌّ منا أن يرَى الآخر.»

الجزء الرابع

تقطع كلبسو حديث تلماك حتى يستريح، يلومه منتور سرًّا على قص مغامراته، ومع ذلك فإنه يشير عليه بإتمام حكايته ما دام قد بدأها، يعمل تلماك برأي منتور ويستمر على حديثه، بينا كان المركب سائرًا بين صور وجزيرة قبرس رأى تلماك في المنام أن فينوس وكو بيدون يدعوانه إلى اللذة، ظهور منرفا له أيضًا، ورعايتها إياه وتحريض منتور إياه على الفرار من قبرس، فلما استيقظ وجد القبرسيين غارقين في الخمر وأنهم فوجئوا بعاصفةٍ كادت تودي بالسفينة لو لم يقبض تلماك بيده على سكانها ويُدِرْ حركاتها، وصولٌ إلى جزيرة بنتور التي يتصف أهلها بالشبق والتي تسودها عبادة فينوس، وما كان لهذا المنظر من تأثيرٍ سيئ في فؤاد تلماك، ما كان من نصائح حكيمةٍ حباه بها منتور، الذي لقيه في هذا المكان بغتةً، أنقذه من هذا الخطر الكبير، إكراه الرياح لحزائيل السوري، الذي كان منتور قد بيع منه، على الرسو مؤقتًا في جزيرة قبرس، وذلك في أثناء سفره إلى جزيرة أقريطش كيما يدرس فيها شرائع مينوس، ورده إلى تلماك رائده الحكيم، وإبحاره معهما إلى جزيرة أقريطش، تمتعهم في أثناء هذا السفر بمنظر أنفيريت وهي في عربتها التي تجرها حصن بحرية.

كانت كلبسو حتى هذه الدقيقة ساكنةً متهللةً لذةً بسماع قصة مغامرات تلماك، ثم قطعت حديثه حتى ينال قسطًا من الراحة.

وتقول له: «لقد حل وقت ذهابك لتذوق لذة النوم بعد هذا العناء الكثير، ولا يوجد ما تخاف هنا، فكل شيء يلائمك؛ ولذا فاستسلم لعامل الفرح وذق لذة السلام وجميع نعم الآلهة الأخرى التي تُغمَر بها، وغدًا، حينما يفتح الفجر بأصابعه الوردية أبواب الشرق الذهبية وتنطلق جياد الشمس من الموج المر فتنشر لهب النهار لتطرد أمامها جميع نجوم السماء نرجع، يا تلماك العزيز، إلى قصة مصائبك، ولم يحدث، قط، أن بلغ أبوك شأوك

حكمةً وشجاعةً، وكذلك لم يُظهر قاهر هكتور: أشيل، ولا تيزه العائد من الجحيم، ولا ألسيد العظيم الذي طهَّر الأرض من غيلانٍ كثيرين، مثل ما أظهرت من قوةٍ وفضيلة، أتمنى أن تنام نومًا عميقًا يجعل هذه الليلة قصيرة لك، ولكن، آه! ما أكثر ما تكون هذه الليلة طويلةً عليَّ! ما أشدَّ ما أَعُدُّه متأخرًا أن أراك ثانيةً فأستمع إليك وأطلب منك أن تكرر لي ما أعلم وأسألك عما لا أعلم! اذهب، يا تلماك العزيز، أنت والحكيم منتور الذي أعاده الآلهة إليك، اذهب إلى ذلك الغار المنعزل حيث أُعِدَّ كل شيء لراحتك، وأدعو مورفه أن يصب أحلى فتونٍ في أجفانك الناعسة وأن يجري بخارًا ربَّانيًّا في جميع أعضائك التعبة وأن يسوق إليك أحلامًا خفيفة تحوم حولك فتلاطف حواسك بأبهج الصور وتدفع عنك كل ما يمكن أن يوقظك سريعًا.»

وتسوق الإلهة تلماك بنفسها إلى هذا الغار المنفصل عن غارها، ولم يكن أقل منه ريفيَّةً ولا أقلَّ منه لطافةً، وكانت تجري عينٌ في زاويةٍ من الغار فتُحدث خريرًا عذبًا يجلب النوم، وكانت الحوريات قد أعددن فِرَاشَينِ من خضرة ناعمة ممدودٍ على كلٍّ منهما جلدان، أحدهما جلد أسدٍ لتلماك والآخر جلد دبٍّ لمنتور.

ويقول منتور لتلماك قبل أن يغمض عينيه نائمًا ما يأتي: «لقد سِرْتَ ولذَّةَ روايةِ قصصك، وقد فتنتَ الإلهة بإيضاحك لها أمر الأخطار التي أنقذتك منها شجاعتك ومهارتك، فلم تصنع بذلك غير إلهاب فؤادها أكثر من قبل وإعداد أسر أشد خطرًا، وكيف ترجو أن تدعك تخرج من جزيرتها الآن بعد أن سحرتها بقصة مغامراتك؟ ألا إن حب المجد الفارغ حفزك إلى الكلام بلا فطنة، وقد ألزمت نفسها بأن تقص عليك أحاديث وأن تعلمك بمصير أوليس، وقد وجدت وسيلةً للكلام طويلًا من غير أن تقول شيئًا، وقد أغرتك بأن تفصل لها كل ما تود أن تعرف، فهذا هو مكر النساء المداليات المولعات، ومتى تكون، يا تلماك، من الحكمة بحيث لا تتكلم عن زهوٍ وأن تلزم جانب الصمت حينما يكون الصمت نافعًا لك ولا تكون لك فائدة في الكلام؟ يعجب الآخرون بحكمتك في سنٍّ يُصفَح فيها عمن تعوزه الحكمة، وأما أنا فلا يمكنني أن أعفو عن شيء، فأنا الوحيد الذي يعرفك ويحمل لك من المحبة ما يحذرك معه من جميع زلاتك، ما أكثر بُعْدَك، بَعْدُ، من حكمة أبيك!»

تلماك: «ماذا إذن؟! أيمكنني أن أمنع منها قص مصائبي لها؟»

منتور: «كلا! أجل، كان يجب أن تُروَى لها، ولكنه كان يجب ألا تقول لها غير ما يمكن أن يثير رأفتها، فتذكر لها، مثلًا، أنك كنت تائهًا تارةً، وأسيرًا في صقلية ثم في مصر

تارةً أخرى، كان هذا كافيًا، وأما ما سواه فلم ينفع لغير زيادة السم الذي يشعل قلبها، ولْيَقِ الآلهة فؤادَك شر ذلك!»

تلماك (بصوتٍ معتدلٍ سَلِس): «ما أفعل إذن؟»

منتور: «لقد فات وقت إخفائك عنها ما بقي من حديث مغامراتك، وقد عَرَفَتْ منها ما يكفي لعدم خداعها حول ما لا تعرف بعد، ولا ينفع تحفظك لغير إثارة غضبها؛ ولذا فأتمَّ غدًا أن تقصَّ عليها جميع ما حباك به الآلهة من لطف، ثم تعلَّم في مرةٍ أخرى أن تكون أكثر زهدًا في الكلام عما يمكن أن يجلب الثناء عليك.»

تلقَّى تلماك هذه النصيحة بوداد واستلقيا في الفراش.

ولم يكد فيبوس يُلقي أشعته على الأرض حتى سمع منتور صوت الإلهة وهي تنادي حورياتها في الغاب، فأيقظ تلماك وقال له: «لقد حل وقت قهر النوم، فلنذهب للقاء كلبسو، ولكن احذر كلامها المعسول، ولا تفتح قلبك لها مطلقًا، واخشَ سم مدحها المدالي، وأمسِ قد رفعَتْكَ فوق أبيك الحكيم وأشيل الذي لا يُقهَر وتيزه الشهير وهركول الذي غدا خالدًا، وهل شعرت بما ينطوي عليه هذا المدح من مبالغة؟ وهل اعتقدت ما قالت؟ اعلم أنها لا تعتقده، وهي لم تُثْنِ عليك إلا لاعتقادها أنك ضعيف وأنك من الزهو بحيث تُخدَع بمدائح لا تناسب بينها وبين أعمالك.»

قال هذا الكلام، وذهبا إلى حيث تنتظرهما الإلهة، وتبسمت حينما أقبلا عليها، وأخفت تحت ظاهر من السرور ما كان يقلق بالها من خوف وهَمٍّ؛ وذلك لأنها كانت تتوقع أن يفلت منها تلماك المنقاد لمنتور كما أفلت أوليس.

قالت كلبسو: «بادر إلى إشباع فضولي يا تلماك العزيز، لقد خيل إلي، في الليلة كلها، أنني أراك ذاهبًا من فنيقية للبحث عن مصير جديد في جزيرة قبرس، فقص علينا، إذن، كيف كانت هذه الرحلة، ولا ندع دقيقة واحدة تفوت.»

هنالك جلس على المرج المزروع بنفسجًا، وذلك تحت غابة كثيفة ظليلة.

وما كانت كلبسو لتستطيع منع نفسها من أن تلقي على تلماك، بلا انقطاع، نظراتٍ ناعمةً مع الولع، ومِنْ تَبَيُّنِها مع الوجوم كونَ منتور يلاحظ أدق حركات عينيها، وكان الحوريات في تلك الأثناء يملن لإلقاء السمع صامتاتٍ، وكن يؤلفن نصف حلقة للسمع والنظر جيدًا، وكانت جميع عيون المجلس ساكنةً محدقة إلى الرجل الشاب، ويستأنف تلماك حديثه كاسر الطرف محمر الوجه قائلًا: «لم تكد تملأ ريح لينة شُرُعنا حتى غابت أرض فنيقية عن أبصارنا، وبما أنني كنت مع القبارسة الذين أجهل طباعهم فقد عزمت

على الصمت وملاحظة كل شيء ومراعاة جميع قواعد الرصانة نيلًا لاحترامهم، ولكنني بينا كنت صامتًا غلبني نومٌ عميق لذيذ، فكنت معطل الحواس، وذقت راحةً وبهجةً بالغةً ملكت فؤادي.»

ويخيَّل إليَّ بغتةً أنني رأيت فينوس وهي تهتك حجاب السحاب بعربتها الطائرة التي تقودها حمامتان، وقد ظهرت حين خروجها من بين زبد الأقيانوس بارعة الجمال طافحة الشباب ناعمة الألطاف، فبهرت حتى عيني جوبيتر، وقد هبطت من طيرانها السريع بغتةً قاصدةً إياي، فوضعت يدها على كتفي ونادتني باسمي وخاطبتني بقولها: «أيها اليوناني الشاب! ستدخل مملكتي، وستصل من فورك إلى هذه الجزيرة السعيدة حيث تنبع الملاذ والمسرات والألعاب تحت قدمي، هنالك ستلتهب بعطور المحاريب، هنالك ستُغمر بنهرٍ من النعيم، فافتح فؤادك لأحلى الآمال، واحترز من مقاومة أقوى الإلهات التي تريد أن تجعلك سعيدًا.»

وأشاهد الصبي كوبيدون وهو يطير، في الوقت نفسه، حول أمه بجناحيه الخافقين، وعلى ما كانت تظهر في وجهه ألطاف الطفولة ونعومتها وطلاقتها أبصرت في عينيه النفاذتين شيئًا، لا أعرف ما هو، ألقى في فؤادي خوفًا، أجل، كان يضحك عند نظره إلي، ولكنه كان يخفي تحت ضحكه مكرًا وهزوًا وجفاءً، ويُخرج من كنانته الذهبية أحدَّ سهامه، ويُوتِّر قوسه ويكاد يطعنني لو لم تظهر منرفا بغتةً لتقيني بترسها، ولم يكن وجه هذه الإلهة لينم على ذاك الجمال الناعم وذاك الارتخاء الغرامي اللذين كنت قد لاحظتهما على وجه فينوس وأوضاعها، بل كان هذا الجمال بسيطًا مهملًا متواضعًا، وكان كل ما فيه يدل على الوقار والنشاط والنبل والقوة والجلال، وبما أن سهم كوبيدون لم يستطع خرق الترس فقد سقط على الأرض، فاشتاط كوبيدون غيظًا وتأوَّه بمرارة، واعتراه خجلٌ من غَلَبِه، وهتفت منرفا قائلةً: «سحقًا[1] لك أيها الولد الهِيِّر![2] سحقًا لك! لن تغلب غير الجبناء الذين يفضِّلون الملاذَّ الشائنة على الحكمة والفضيلة والمجد»، هنالك طار الغرام مغاضبًا، وبينا كانت فينوس صاعدةً نحو الألنب أبصرت عربتها مع حمامتيها في سحابٍ من ذهب ولازورد، ثم توارت، وأطرق، وأعود لا أرى منرفا.

---

[1] سحقًا لك: بعدًا لك.

[2] الهَيِّر: الذي يتهور في الأمور.

وقد لاح لي أني نُقلت إلى روضةٍ من رياض النعيم كالتي تُوصَف بها الشانزليزه، وقد لاقيت في هذا المكان منتور الذي قال لي: «اهجر هذه الأرض الجافية، فِرَّ من هذه الجزيرة الوبيئة التي لا يُنشَقُّ فيها غير رائحة الشهوة، والتي يجب أن ترتعش منها أجرأ الفضائل فلا تستطيع أن تتخلص بغير الفرار»، ولم أكد أراه حتى أردت عناقه، بيد أنني شعرت بأن رجليَّ لا تستطيعان الحركة، وأن ركبتي تغيبان تحتي، وأن يديَّ، إذ تبذلان طاقتهما لإمساك منتور، تطلبان طيفًا وهميًّا يفلت مني دائمًا.

ففي هذه الدقيقة استيقظت وأدركت أن هذا المنام الخفي إنذارٌ رباني، وشعرت بأنني مملوء بسالةً حيال الملاذ وحذرًا من نفسي مع ازدراء حياة القبارسة المترفة، ولكن الذي مزق قلبي هو ما كان من اعتقادي أن منتور قد مات وأنه قطع أمواج ستكس فيسكن مقر النفوس العادلة.

وتوجب هذه الفكرة سكبي سيلًا من العبرات، فأُسْأَل عن سبب بكائي، فأجيب قائلًا: «إن الدموع كثيرة الملاءمة لأجنبي شقي هائم على وجهه من غير أن يأمل رؤية وطنه ثانيةً.»

وفي تلك الأثناء ينهمك في السُّكْر جميع القبارسة الذين كانوا في المركب، وينام الجداف، الكارهون للعمل، على مقاذيفهم، ويترك الربان، اللابس إكليلًا من الزهور، سكانه، ويمسك بيده جرة خمر كبيرة شرب كل ما فيها تقريبًا، ويعتريه مع الآخرين خبل باخوس فيمجدون فينوس وكوبيدون بأناشيد يشمئز منها محبو الفضيلة.

وبينما كانوا غافلين عن مخاطر البحر كدَّرت زوبعة صفو السماء والبحر بغتةً، ويدوي هزيز الرياح الصائلة في الشرع، وتلطم الأمواج السود جوانب المركب، فيئن المركب تحت ضرباتها، وتارةً نصعد فوق الأمواج المنتفخة، وتارةً يلوح اختفاء البحر تحت السفينة فيلوح تدهورنا في قعره، ونبصر بالقرب منا صخرًا تتكسر عليها الأمواج بصوت هائل.

هنالك أدركت، عن تجربة، قول منتور: إن المترفين الذين يدينون بالملاذ تعوزهم الشجاعة في الأخطار، فقد أخذ القبارسة الخامدون يبكون مثل النساء، وصرت لا أسمع غير عويلٍ يثير الشفقة، وغير حسراتٍ على نعم الحياة، وغير وعودٍ فارغة للآلهة بأن تقرب لهم قرابين إذا ما أوصلوهم إلى الميناء، ولم أجد بينهم مَنْ حَافَظَ على ثبات جنانه لتنظيم الحركات أو القيام بها، وأرى من الواجب أن أنقذ حياة الآخرين بإنقاذ حياتي، فأقبض على السكان، لبعد الربان، المخمور كالكاهنة الباخوسية، من معرفة الخطر الحائق بالمركب، وأشجِّع الملاحين المذعورين، وأوعز إليهم بإنزال الشرع، ويجذفون بنشاط، ونمر بين الصخر، ونرى جميع أهوال الموت.

وتبدو هذه المغامرة حلمًا لدى جميع من هم مدينون لي بحفظ حياتهم، وينظرون إلي بعين الإعجاب، ونصل إلى جزيرة قبرس في شهر أبريل الخاص بفينوس، ويقول القبارسة: إن هذا الشهر يناسب هذه الإلهة لما يلوح من إنعاشه جميع الطبيعة وإحيائه الملاذ مثل الزهور.

ولما بلغنا هذه الجزيرة شعرت بهواءٍ عليل يرخي الأبدان ويجعلها كسلى، ولكن مع إيحائه بمزاج مرح ومزاح، وقد لاحظت أن الحقول، الخصيبة اللطيفة بطبيعتها، كانت مهملةً تقريبًا ما دام الأهلون أعداءً للعمل، وقد شاهدتُ من كل ناحية نساءً وفتيات مزينات عن زهو فينشدن مدائح عن فينوس وينذرن أنفسهن لمعبدها، وقد كانت وجوههن تطفح جمالًا ولطفًا وسرورًا ولذة على السواء، ولكن مع تصنع في الألطاف، ولم يُرَ ما فيه فتون الجمال من بساطة نبيلة وحياء محبوب، ومما لاح لي حقيرًا جديرًا بالازدراء في هؤلاء النسوة من نمط ارتخائهن وفن تجميل وجوههن وبُطْل حليتهن وفتور بَخْتَرتهن وكثرة تحاسدهن وبحثهن عن الرجال بنظراتهن إلهابًا للأهواء، فكنَّ يُثرن اشمئزازي من حيث كنَّ يُرِدْن أن يَرُقْنَ.

ويُسارُ بي إلى معبد الإلهة، ولهذه الإلهة معابد كثيرة في هذه الجزيرة، وفي سيتر وإدالية وبافوس ما تُعبد على الخصوص، ويؤتى بي إلى سيتر، وجميع المعبد مبنيٌّ من الرخام، وهو مجموعة من العمد تمامًا، وتبلغ العمد من الضخامة والعلو ما يكون به هذا البناء بالغ الجلال، ويُرى على الساكف[٣] والإفريز من كل جانبٍ مثلثات ذات نقوش بارزة تنم على ألذ مغامرات الإلهة، ويرى عند باب المعبد جمعٌ من الناس يأتون لتقديم نذورهم بلا انقطاعٍ، ولا يُذبح ضمن نطاق المكان المقدس قربان مطلقًا، ولا يحرق فيه، كما في غيره، شحم العجول والثيران مطلقًا، ولا يراق فيه دم مطلقًا، وإنما يقدَّم أمام المحراب ما يقرَّب من بهيمة الأنعام على ألا يقدم غير ما هو فتىً أبيض خالٍ من العيوب والشوائب، وتُكسَى الضحايا بعُصَيبات أرجوانية مُوَشَّاة بالذهب، وتكون قرونها مذهبةً مزينة بطاقات من الزهور ذات الروائح الذكية، ثم ترسل الضحايا، بعد أن تقدم، إلى مكانٍ منعزل حيث تذبح وتعد لحومها لولائم كهنة الإلهة.

ومما يقدَّم أيضًا جميع أنواع المشروبات المعطرة وخمر أعذب من الرحيق، ويلبس الكهنة حللًا بيضًا ذات نُطُق ذهبية، وأهدابٍ ذهبية أيضًا، ويُحرق في المحاريب، ليل نهار،

[٣] الساكف: أعلى الباب الذي يقابل الخشبة التي يُوطَأ عليها.

أطيبُ عطور الشرق فيتألف من هذا نوع من السحاب يصعد في السماء، وتُزخرف جميع عمد المعبد بأكاليل متدلية، وتكون جميع الآنية المعدَّة للضحايا من الذهب، وتحيط بالبناء غابة مقدَّسة من الآس، ولا ينبغي لأحدٍ غير الفتيان والفتيات البارعي الجمال أن يقدِّم الضحايا إلى الكهنة وأن يقدِمَ على إيقاد نار المحاريب، بيد أن الفُجور وخلع ا لعِذَار يشينان هذا المعبد الرائع.

والنفور مما رأيت هو أول ما اعتراني ولكنني أخذت في تدريب نفسي عليه مقدارًا فمقدارًا، وعاد المنكر لا يروعني، وكان جميع الرفاق يوحون إلي بما لا أعرف من ميلٍ إلى الفجور، وكان يسخَر من طُهري، وكان هؤلاء القوم المتهتكون يتخذون من عفافي وحيائي موضوع لهوٍ لهم، وما كان ليغفَلَ عن شيءٍ لإثارة جميع أهوائي ونصب حبائل لي وإيقاظ ذوق الملاذ فيَّ، وكنت أشعر بهزال فيَّ كلَّ يوم، وعاد ما تلقيت من تربيةٍ صالحةٍ لا يأخذ بيدي تقريبًا، فتذوَى جميع عزائمي، وصِرْتُ لا أجد فيَّ من القوة ما أقاوم به السوء الذي كان يضغطني من كل جانب، حتى إنه صار يساورني حياءٌ رديء من الفضيلة، وأغدو مثل رجلٍ سابحٍ في نهرٍ عميقٍ سريع، فأول ما يصنع هو أن يشقَّ الماء ويعاكس السيل، ولكن الضفاف إذا ما كانت وعرة المنحدر، وكان لا يستطيع الاستقرار على الشاطئ، تعب بالتدريج وخانته قوته واسترخت أعضاؤه المنهوكة وجرَّه مجرى النهر، وهكذا فإن عيني أخذتا تُظلمان وأخذ قلبي يخور، وأصبحتُ عاجزًا عن استدعاء عقلي وذِكْرِي فضائلَ والدي، وما رأيت في المنام من هبوط الحكيم منتور إلى الشانزليزه أخمد شجاعتي، واستحوذ علي ذبول عذب خفي، وطفقت أحب السم الذي كان ينساب من عرق إلى عرق وينفذ حتى مخ عظامي.

ومع ذلك فقد كانت تخالجني حسراتٌ عميقة، وكنت أسكب عبراتٍ مرَّةً، وأزأر هائجًا كالأسد، فأقول في نفسي: «يا لك من شباب تعس! أيها الآلهة الذين يلهون بالناس لهوًا قاسيًا! لِمَ تجيزونهم بهذا العمر الذي هو دور الرعونة والحمَّى الشديدة؟ آه! ليت رأسي اشتعل شيبًا، وليت السنين حنت ظهري وصار ما بيني وبين القبر قاب قوسين أو أدنى كما اتفق لجدِّي لا إرتَ! فالموت أحب إليَّ من الوهن الشائن الذي أراه قد اعتراني.»

ولم أكد أقول هذا حتى سكن ألمي وزعزع فؤادي الثمل بالهوى الهائم جميع حيائي تقريبًا، ثم رأيتني قد غطست في هُوةٍ من الندم مرةً أخرى، وبينا كان يساورني هذا الاضطراب كنت أهيم على وجهي في الغابة المقدسة كالوعلة التي جرحها الصائد فتعدو في الآجام الواسعة تسكينًا لألمها، بيد أن السهم الذي اخترق خاصرتها يلازمها أينما ذهبت

فتحمل هذا السهم القاتل في كل مكان، وهكذا فإنني كنت أركض على غير جدوى كيما أنسى نفسي فلم يخفف شيءٌ جرح فؤادي.

وفي هذا الحين أبصر في ظل تلك الغابة الكثيفة سيما منتور، ولكن وجهه ظهر لي من الشحوب والكآبة والعبوس بحيث لم أشعر بأيِّ سرور كان.

وقد هتفت قائلًا: «أأنت — إذن — يا صديقي العزيز، يا محل أملي الوحيد؟ أأنت؟ ماذا إذن؟ أأنت بنفسك؟ أليست هذه صورةً خادعةً أتت لتغر عينيَّ؟ أأنت منتور؟ ألا يزال طيفك عاطفًا على مصائبي؟ ألست في عداد الأرواح السعيدة التي تتمتع بفضائلها والتي يُنعم الآلهة عليها بملاذ خالصةٍ مع سلام دائمٍ في الشانزليزه؟ قل لي يا منتور: ألا تزال حيًّا؟ ألا أزال من السعادة بحيث أحوزك؟ أو إنَّ ما أرى ليس غير طيف صديقي؟»

قلت هذا وعدوت نحوه طائرًا فرحًا، وكاد نَفَسي ينقطع، وكان ينتظرني هادئًا غير متقدم خطوةً نحوي، رباه! تصوري مقدار فرحي عندما شعرت بأنني ألمسه بذارعيَّ!

كلا، ليس هذا طيفًا وهميًّا! أُمْسِكُه! أعانق منتور العزيز!

ذاك ما هتفت به، وأروي وجهه بسيلٍ من الدموع، وأظل معانقًا إياه من غير أن أقدر على الكلام، وينظر إليَّ نظر وَلَهٍ وحنان.

ثم أقول له: «آه! من أين أتيت؟ أيُّ خطرٍ لم تترك لي في أثناء غيابك! وما كنتُ أصنع لولا أنت؟»

ولكنه لم يُجِبْ عن سؤالي، وإنما قال لي بلهجة هائلة: «فِرَّ! فِرَّ! فِرَّ مسرعًا! لا تحمل هذه الأرض من الثمرات غير السم، إن الهواء الذي يُتنفَّس به هنا موبوءٌ، إن أهل هذا البلد ذوو معايب، فلا يتعاشرون إلا لِبَثِّ سمٍّ قاتل، إن الشهوة الساقطة الشائنة، التي هي أفظع ما تُصدره علبة بندور من المفاسد، قد خنَّثت جميع القلوب هنا فلا تُطيق أية فضيلة كانت، فر! لا تتأخر! لا تلتفت حين فرارك! أزل من ذهنك كل شيء يُذكِّر بهذه الجزيرة الكريهة.»

قال ذلك فشعرت بأن سحابةً كثيفة انجابت أمام عيني فأبصرتُ النورَ صافيًا، ويُبعث في فؤادي سرور عذبٌ مع إقدام ثابت، وكان هذا السرور يختلف كل الاختلاف عن ذاك السرور الناعم الأشر الذي سُممت به حواسي في بدء الأمر، فأحدهما سرور ثملٍ وكدر تنتابه آلامٌ شديدة ووخزاتٌ حادة، والآخر سرور عقل ينطوي على شيءٍ من السعادة والسمو، ويكون خالصًا سائغًا دائمًا فلا ينفدُ أبدًا، وكلما خاض الإنسان فيه بدا حُلوًا، ويستهوي النفس من غير أن يُكدِّرها، وهنالك سكبت دموع الفرح، ووجدت أنه لا شيء أحلى من البكاء هكذا، وأقول: «طُوبى لمن تبدو له الفضيلة بجمالها السافر! وهل تُرَى من غير أن تُحبَّ؟ وهل تُحبُّ من غير أن توجب سعادةً؟»

ويقول لي منتور: «يجب أن أتركك، وسأذهب الآن، فلم يؤذن لي أن أتأخر.»

– أَوَ تذهبُ إذن؟ وأيُّ أرضٍ مهجورة لا أتَّبعك إليها؟ لا تظنَّ أنك تفوتني، خير لي أن أموت على إثرك.

قلت هذا وأمسكته بكل ما أوتيتُ من قوة.

ويقول لي: «من العبث أن ترجو إبقائي، فقد باعني الطاغية متوفيس من إثيوبيين أو عرب، وقد ذهب هؤلاء إلى مدينة دمشق السورية لأمورٍ تجارية فأرادوا أن يتخلَّوا عني معتقدين أنهم ينالون مبلغًا كبيرًا من المدعو حزائيل الذي كان يبحث عن عبدٍ يوناني ليعرف أخلاق اليونان ويطلع على علومنا، والواقع أن حزائيل اشتراني بثمنٍ غالٍ، وأن ما أطلعته عليه من أخلاقنا أثار فيه فضول الذهاب إلى جزيرة أقريطش كيما يدرس شرائع مينوس الرشيدة، فحملتنا الرياح في أثناء سفرنا إلى الرسو في جزيرة قبرس، فبينا كان ينتظر ريحًا ملائمة أتى لتقديم قرابينه إلى المعبد، وها هو ذا يخرج منه، والرياح تدعونا، وتنتفخ شُرُعُنا، وداعًا يا تلماك العزيز، وليس على العبد الذي يخاف الآلهة إلا اتباع سيدِه بإخلاص، وعادت الآلهة لا تدعني لنفسي، ولو كان أمري بيدي لكنت لك وحدك كما تعلم الآلهة، وداعًا، واذكر متاعب أوليس ودموع بنلوب، ويا أيها الآلهة، الذين هم حماة سلامة النية، ما الأرض التي ألزمت بترك تلماك فيها!»

وأقول له: «كلا، كلا، يا منتور العزيز، ليس من شأنك أن تتركني هنا، الموت أحب إلي من أن أراك ذاهبًا من دوني، وهل هذا المولى السوري فاقد الرحمة؟ وهل امتصَّ ثديَيْ نمرةٍ أيام طفولته؟ وهل يريد نزعك من بين ذراعيَّ؟ يجب أن يقتلني أو أن يحتمل اتباعي لك، أنت تحرضني على الفرار، ثم لا تريد أن أفر متبعًا خطواتك! سأتكلم حزائيل، فقد يرق لشبابي ودموعي، ولا يمكن أن يكون ذا قلبٍ جافٍ غليظ ما بدا محبًّا للحكمة طالبًا لها في مكان بعيد، سأرتمي على قدميه وسأقبل ركبتيه، ولن أدعه يذهب قبل أن يسمح لي باتباعك، سأجعل نفسي عبدًا معك يا منتور العزيز، سأعرض عليه تقديم نفسي إليه، فإذا ما رفض فسأنتهي من أمري وأضع حدًّا لحياتي.»

وينادي حزائيل منتور في هذه الدقيقة، وأخر أمامه متضرعًا، ويدهش إذ يرى مجهولًا مثلي على هذا الوضع.

ويسألني: «ما تريد؟»

– أريد الحياة؛ وذلك لأنني لا أستطيع الحياة إذا كنتَ لا تُطيق اتباعي منتور الذي تملك، فأنا ابن أوليس العظيم الذي هو أكثر ملوك اليونان حكمةً، هؤلاء الملوك الذين دمروا

مدينة تروادة المختالة المشهورة في جميع آسية، ولا أذكر لك نسبي عن تبجح، ولكن لأثير فيك رثاءً لمصائبي، وقد بحثتُ في جميع البحار عن أبي مع هذا الرجل الذي هو أبٌ آخرُ لي، والذي نزعه القدر مني إمعانًا في البلاء فجعله عبدًا لك، فلأكن عبدًا لك أيضًا، فإذا كنت محبًّا للعدل حقًّا ذاهبًا إلى أقريطش لتعلم شرائع مينوس الصالح فلا تُقَسِّ قلبك حيال أنَّاتي وعبراتي، وأنت ترى ابن أحد الملوك قد بلغ من الحال ما ينشد معه العبودية على أنها وسيلته الوحيدة، وكنت قد طلبت الموت في صقلية فرارًا من الرق، ولكن مصائبي الأولى لم تكن غير تجارب حقيرةٍ لإهانات الطالع، وأما الآن فأخشى ألا يمكن قبولي بين عبيدك، فيا أيها الآلهة، انظروا إلى مصائبي، ويا حزائيل اذكر مينوس الذي تعجب بحكمته والذي سيحكم في أمرنا، نحن الاثنين، في مملكة بلوتون.

وينظر حزائيل إلي بوجه طليق عطوف، ويمد يده إليَّ، وينهضني، ويقول لي: «لا أجهل حكمة أوليس وفضيلته، وقد روى لي منتور الشيء الكثير عما نال من مجدٍ بين الأغارقة، وذلك فضلًا عما أسفر عنه ذيوع صيته السريع من سماع جميع أمم الشرق باسمه، فاتبعني يا ابن أوليس، وسأكون أبًا لك حتى تجد ذاك الذي حباك بالحياة، وما أحمل من ود لمنتور يحملني على العناية بك ولو لم يؤثِّر فيَّ مجد أبيك ومصائبه ومصائبك، أجل، إنني شريته مثل عبدٍ، ولكنني أحتفظ به مثل صديقٍ وفِيٍّ، وما دفعت من مالٍ ثمنًا له أنالني أغلى صديق وأعز رفيق في الدنيا، ولا غرو، فقد وجدت الحكمة قائمةً فيه، وأراني مدينًا له بكل حب للفضيلة، هو حر منذ هذه الدقيقة، وأنت أيضًا، ولا أسألكما غير قلوبكما.»

وهكذا فإنني أنتقل في ثانيةٍ من أمرٍّ ألم إلى أكبر سرور يُمكن أن يشعر إنسانٌ به، ولا عجب، فقد أبصرت أنني نجوت من أفظع خطر، وأنني دنوت من بلدي، وأنني وجدت عونًا على العَوْد إليه، وأنني ذُقت سُلوانًا بكوني بجانب رجل أحبَّني عن حبٍّ خالص للفضيلة، وأنني لقيت كل شيء بلقائي منتور لُقِيًّا لا فراق بعده أبدًا.

ويوغل حزائيل، في رمل الساحل، ونتَّبعه وندخل السفينة، ويشق الجداف أمواج البحر الساكنة، ويداعب نسيم لطيف شرعنا، وينعش هذا النسيم جميع المركب، وينعم عليه بحركة عذبة، ولم تلبث جزيرة قبرس أن غابت، ولا يصبر حزائيل على عدم معرفته مشاعري فيسألني عن رأيي في طبائع هذه الجزيرة، وأروى له بسذاجة ما عُرِّض له شبابي من خطر وما عانيت في نفسي من عراك، ويؤثر فيه مقتي للرذيلة ويقول: «أي فينوس! أعرف سلطانك وسلطان ابنك، وقد أحرقت بخورًا في محاريبك، ولكن اصبري على لعني ما يتصف به سكان جزيرتك من تخنث شائن وما يقيمون به أعيادك من خلع عذار جافٍ.»

ثم حاور منتور حول تلك القدرة الأولى التي خلقت السماء والأرض، حول ذلك النور البسيط الدائم الذي لا نهاية له والذي يظهر في كل شيء من غير أن ينقسم، حول تلك الحقيقة المسيطرة العامة التي تنير النفوس كما تنير الشمس جميع الأجسام، وقد أضاف إلى ذلك قوله: «إن الذي لم يَرَ قط هذا النور الخالص هو أعمى كالأكمه،[٤] وهو يقضي حياته في ليل مدلهِمٍّ كالأمم التي لا تنيرها الشمس في أشهر كثيرة من السنة، وهو يعتقد أنه عاقل مع أنه مجنون، وهو يعتقد أنه يرى كل شيء مع أنه لا يرى شيئًا، وهو يموت من غير أن يرى شيئًا، وهو يُبصر، فضلًا عن ذلك، بوارق قاتمةً خادعة وظلالًا باطلة وأشباحًا لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وهذه هي حال جميع الناس الذين ينقادون لملاذ الحواس وسحر الخيال، ولا يوجد في الأرض أناسٌ حقيقيون غير من يشاورون هذا العقل الخالد ويحبونه ويتبعونه، وهذا العقل هو الذي يُلهمنا عندما نحسن التفكير، وهذا العقل هو الذي يلومنا عندما نسيء التفكير، وهو الذي ننال منه إدراكنا كما ننال حياتنا، وهو كبحرٍ محيطٍ من النور عظيم، فتشابه نفوسنا جداول صغيرة تصدر عنه ثم تعود لتفنى فيه.»

ومع أنني لم أدرك إدراكًا تامًّا بعدُ ما ينطوي عليه هذا الخطاب من حكمة بالغة لم يعوزني أن أتذوق فيه ما لا يُعبَّر عنه من سمو وصفاء، ويزيد هذا القول فؤادي حرارةً، ويلوح لي أن الحقيقة تتلألأ فيه، ويستمران على الحديث حول أصل الآلهة والأبطال والشعراء والعصر الذهبي والطوفان وحكايات النوع البشري الأُولى ونهر النسيان الذي تغوص فيه أرواح الموتى وما أعد للأشرار من عذاب أبدي في الدرك الأسفل من النار وما أعد للأبرار من سلام مبارك في الشانزليزه لا يخشون زواله مطلقًا.

وبينما كان حزائيل ومنتور يتحادثان أبصرنا دلافين[٥] مستورةً بفُلُوسٍ[٦] تلوح كالذهب واللازورد، وقد كانت تثير أمواجًا مزبدة عند تلاعبها فيأتي بعدها التريتون النافخون في أبواقهم المعقوفة محيطين بعربة أنفتريت التي تجرها حُصُنٌ بحرية أشد بياضًا من الثلج فتشق الموج المالح تاركةً خلفها أخدودًا واسعًا في البحر، وكانت ملتهبة العيون داخنة الأفواه، وكانت عربة هذه الآلهة صدفةً عجيبة الشكل أنصع بياضًا من العاج، وكانت عجل هذه العربة من ذهب، وكانت هذه العربة تظهر طائرةً على وجه الماء الهادئ، وكانت

[٤] الأكمه: المولود أعمى، والكَمَه هو العمى.

[٥] الدلافين: جمع دلفين، وهي دابة بحرية كبيرة قيل: إنها تُنجي الغريق.

[٦] الفلوس: جمع الفلس، وهو ما على السمك من قشر.

تُرى خلف العربة كتيبةٌ من الحوريات متوَّجةٌ بالزهور وهي تسبح جماعة على وجه الماء الهادئ، وكانت شعور هؤلاء الحوريات الجميلة مرسلةً على مناكبهن فتداعبها الريح، وكانت الإلهة ممسكةً بيدها صولجانًا من ذهبٍ لقيادة الأمواج وممسكةً بيدها الأخرى، وعلى ركبتيها، ابنها الإله الصغير المتعلق بثديها: بالمون، وكانت ذات وجهٍ طليقٍ وجلالٍ لطيف يهزم العواصف السود والرياح الهائجة، وكان التريتون يسوقون الحُصُن ويمسكون العُنُن المذهبة، وكان يخفق فوق العربة شراع أرجوانيٌّ كبير، وكان هذا الشراع نصف منتفخ بطائفةٍ من النسام الخفيفة التي تحاول أن تدفعه بأنفاسها، وكان يُرَى بين الرياح إيول متعجِّلًا مُضطربًا مضطرمًا، وما كان يبدو من وجهه المتشنِّج المكتئب وصوته المتوعد وحاجبيه الكثيفين المتدليين وعينيه الملتهبتين الدجناوين يسكت رياح الشمال الصائلة ويدفع جميع السحب، وكانت الحيتان العظيمة وجميع الوحوش البحرية تُحدث بمناخرها جزرًا ومدًّا في الموج المُرِّ فتخرج من الكهوف العميقة لمشاهدة الإلهة.»

الجزء الخامس

تتمة حديث تلماك، ثراء جزيرة أقريطش وخصبها وطبائع أهلها ويسرهم بفضل شرائع مينوس الحكيمة، علم تلماك حين وصوله إلى الجزيرة أن ملكها إيدومنه ضحَّى بابنه الوحيد إيفاءً بنذرٍ سخيف، فانتقم الأقريطشيون لدم الابن بأن حملوا الأب على مغادرة بلدهم، وأنهم مجتمعون، بعد ترددٍ طويل، لاختيار ملك آخر، قبول تلماك في هذا المجلس، وفوزه بجوائز ألعابٍ مختلفة، وحلُّه بحكمةٍ نادرة كثيرًا من المسائل الخلقية والسياسية التي عرضها قضاة الجزيرة الشيوخ على المتبارين، إعجاب رئيس هؤلاء الشيوخ بحكمة هذا الشاب الأجنبي واقتراحه على المجلس أن يُتوَّج ملكًا وموافقةُ جميع الشعب على هذا الاقتراح مع الهُتاف الشديد، ومع ذلك فإن تلماك رفض أن يملك الأقريطشيين مفضلًا إيتاك الفقيرة على مجد مملكة أقريطش وثرائها، اقتراح تلماك أن يُنتخب منتور ورفض منتور للتاج، إلحاف المجلس على منتور بأن يختار ملكًا لجميع الأمة فذكر ما علم من فضائل أرستوديم وحمل المجلس على المناداة به ملكًا، لم يلبث منتور وتلماك أن أبحرَا بعد ذلك على مركبٍ أقريطشيٍّ للعود إلى إيتاك، هنالك أراد نبتون أن يعزِّي فينوس الساخطة فأثار إعصارًا هائلًا أسفر عن تحطيم مركبهما، نجاتهما من هذا الخطر بإمساكهما حطام الصاري الذي قذفته الأمواج إلى جزيرة كلبسو.

أخذنا، بعد أن قضينا العجب من هذا المنظر، نبصر جبال أقريطش التي لما نزلْ نجدُ صعوبةً في تمييزها من سحب السماء وأمواج البحر، وذلك أننا لم نلبث أن رأينا ذروة جبل إيدا الذي يعلو جميع جبال الجزيرة الأخرى، وذلك كالأيِّل المسنِّ الذي يعلو بقرونه المتشعبة رءوس صغاره التابعة له في الغابة، ونتبين بالتدريج شواطئ هذه الجزيرة التي تبدو لأعيننا مثل مدرَّج، وتظهر لنا جزيرة أقريطش هذه خصيبةً مزينةً بجميع الثمرات نتيجةً لعمل أهليها وعلى نسبة ظهور جزيرة قبرس لنا مهملةً معطلة، ونلاحظ من كل

ناحية قرًى حسنة البناء وَضِيَعًا تعدل الأمصار ومدنًا رائعة، ولا نجد حقلًا لم تنله يد الفلاح بالزرع، ويُرى في كل مكانٍ أن المحراث قد ترك أتلامًا[1] مجوفة، ولا يعرف هذا البلد كل ما يشغل الأرض من شجر لا خير فيه كالعوسج والعُلَّيْق، ونلاحظ مع المسرة أوديةً صغيرةً يرتع فيها البقر وهو يخور على طول الجداول كما نلاحظ الضأن وهي ترعى على سفح جبلٍ، ونرى الحقول الواسعة زاخرةً بما يعد هبةً من سيرس الخصيبة، ثم نرى الجبال مزخرفةً بغصون الكرم وعناقيد العنب الملوَّن الذي يرجو القاطفون منه هدايا باخوسيةً تفتن أفئدة الناس.

وقد قص علينا منتور أنه كان في أقريطش فيما مضى، ففصَّل لنا ما يعرف عنها، قال منتور: «إن هذه الجزيرة، التي يُعجب بها جميع الأجانب والتي ذاع صيتها بمدنها المائة، تطعم جميع سكانها من غير مشقة وإن كانوا لا يُحصَوْن عددًا، وهذا يعني أنه لا ينضب لأرضها معينٌ في الإفاضة بخيراتها على من يحرثونها، وأنه لا ينفد لباطنها خصبٌ، وكلما وُجد أناسٌ مجدون في بلدٍ نال هؤلاء الناس يُسرًا واستغنوا عن التحاسد، وتُضاعف الأرض، التي هي أمٌّ صالحة، هباتها بنسبة عدد أبنائها المستحقين لثمراتها بعملهم، ويعد حرص الناس وطمعهم وحدهما مصدر مصائبهم، فالناس يريدون حيازة كلِّ شيء، فيغدون تعساء برغبتهم فيما يزيد، ولو أراد الناس أن يعيشوا عيشًا بسيطًا وأن يكتفوا بقضاء حاجاتهم الحقيقية لرُئِيَ الرخاء والسرور والسلام والاتحاد في كل مكان.»

وهذا ما أدركه أحكم جميع الملوك وأصلحهم: مينوس، وكل ما ترون من أمور عجيبة في هذه الجزيرة هو ثمرة شرائعه، وما أمر بمنحه الأولاد من تربية يجعل الأبدان سليمةً قوية، وهو أن أول ما يدربون عليه هو البساطة في الحياة والقناعة في العيش مع الجد، ومما يفترض أن كل شهوةٍ تُخَنِّثُ الروح والبدن، ولا يُعرض عليهم من الملاذ غير المناعة بالفضيلة وغير نيل كثير من المجد، أجل، إنه لا يُقتصر هنا على الاستخفاف بالموت في الحرب وأخطاره عن بسالةٍ، بل يُصار، أيضًا، إلى دوس الثروات الضخمة والملاذ الشائنة تحت الأقدام عن شجاعة، وهنا يعاقَب على ثلاثة عيوب لا تعاقب الأمم الأخرى عليها، وهي: الكنود والرئاء والطمع.

وأما البذخ والتخنث فلا حاجة لإخمادهما مطلقًا ما دامت أقريطش لا تعرفهما، وكل يعمل في أقريطش، ولا أحد فيها يفكر في الاغتناء، وكل في أقريطش يعتقد أنه قد أجزل له

[1] الأتلام: جمع التلم، وهو ما تشقه سكة الفلاح من الأرض.

الأجر على عمله، وذلك بحياةٍ حلوة منتظمة يُتمتَّع فيها بكل ما هو ضروري للعيش مع السلام واليسر حقًّا، وفي أقريطش لا يطاق الأثاث الثمين، ولا الثياب الفاخرة، ولا الولائم اللذيذة، ولا القصور المذهبة، والثياب، وإن كانت من الصوف الناعم والألوان الجميلة، تكون موحدةً ومن غير تطريز، وتكون الوجبات معتدلة، ولا يُشرب غير قليلٍ من الخمر، ويؤلَّف الطعام الرئيس من الخبز مع الفواكه الطازجة ولبن المواشي، ثم يؤكل قليلٌ من اللحم بلا توابل، ويُعنَى في أقريطش بإبقاء أصلح ما يكون في قطعان البقر إنعاشًا للزراعة، وتبدو بيوتها نظيفةً مريحةً ناضرةً، ولكن بلا زخرف، ولا أقصد بهذا أنه لا عهد لأقريطش بفن البناء الزاهي، وإنما قُصر هذا الفن على معابد الآلهة فيها، فلا يُقدم الناس فيها على حيازة منازل مشابهةٍ لبيوت الخالدين، وأعظم ما يتصف به أهل أقريطش من المحاسن هو الصحة والقوة والشجاعة والسلام والوفاق بين الأسر وحرية جميع المواطنين وفيض الأشياء الضرورية وازدراء الزيادات على الحاجات وتعود العمل والنفور من الكسل والتسابق في الفضائل والخضوع للقوانين ومخافة الآلهة العادلين.

وقد سألته عن سلطة الملك فأجابني بقوله: «أجل، إنه مسيطرٌ على الرعايا، ولكن القوانين مسيطرة عليه، وهو، وإن كان ذا سلطان مطلق في صنع الخير، مقيد اليدين إذا أراد صنع الشر، وتأتمنه القوانين على الرعايا كأثمن الودائع كلها، وذلك على أن يكون أبًا لهم، وتهدف القوانين أن يعمل رجلٌ واحدٌ على سعادة أناس كثيرين، لا أن يعمل أناسٌ كثيرون على مُدالاة زهو رجلٍ واحد وترفه بما يكونون عليه من بؤسٍ وعبوديةٍ منحطة، ولا ينبغي للملك أن يعلو الآخرين بغير ما هو ضروريٌّ لتخفيف عناء قيامه بوظائفه الشاقة أو لتعويدهم احترام من يجب عليه تأييد القوانين، ثم إن على الملك أن يكون أكثر من غيره قناعةً وعداوةً للترف، وأن يكون أكثر من سواه بُعدًا من الأبهة والكبرياء، ولا يجوز للملك أن يكون أغنى من غيره وأبلغ لذةً، بل يجب أن يفوق الناس حكمةً وفضيلةً ومجدًا، ومما يجب عليه أن يذود عن الوطن في الخارج بأن يقود الجيوش وأن يكون في الداخل حكمًا بين رعاياه كيما يكونون حكماء سعداء صالحين، ولم يجعله الآلهة ملكًا من أجل نفسه، بل ليكون رجل الرعية، فهو مدينٌ للرعية بجميع أوقاته ورعاياته ومودات، وهو لا يكون أهلًا للمُلك إلا بنسبة نسيانه لنفسه تضحيةً بها في سبيل المصلحة العامة، ولم يُرد مينوس أن يقوم أبناؤه بالمُلك بعده إلا بشرط اتِّباعهم هذه المبادئ، وهو الذي كان يُحب رعيته أكثر من حبه لآلِهِ، وهو الذي قد جعل أقريطش، بمثل هذه الحكمة، بالغة القوة بالغة السعادة، وهو الذي كسف بهذا الاعتدال مجد جميع الفاتحين الراغبين في تسخير الرعايا لعظمتهم

الخاصة، أي لزهو أنفسهم، ثم إنه استحقَّ بعدله أن يكون في مثوى الأرواح قاضيًا بين الأموات.»

وبينما كان منتور ينطق بهذا الكلام نزلنا إلى الجزيرة، فأبصرنا القصر المشهور الذي هو من صُنع البارع ديدال فكان تقليدًا للقصر العظيم الذي رأيناه في مصر، وبينا كنا نشاهد هذا البناء العجيب أبصرنا الشاطئ زاخرًا بالقوم وهم يُهرعون أفواجًا أفواجًا إلى مكان قريب من ساحل البحر، ونسأل عن سبب تسابقهم، فاسمع ما قصَّه المدعو نوزقراط الأقريطشي علينا، قال نوزقراط: «كان إيدومنه بن دقليون وحفيد مينوس قد ذهب لحصار تروادة كما ذهب ملوك اليونان الآخرون، فلما دُمرت هذه المدينة أبحر عائدًا إلى أقريطش، بيد أن عاصفةً ثارت وبلغت من الشدة ما ظن معه ربان مركبه وجميع ربابنة المراكب الأخرى الذين حنكتهم التجارب في أمور الملاحة أن غرق سفنهم صار أمرًا لا مفرَّ منه، ويظهر الموت نُصب عيني كل واحد، وكل يبصر الهوات فاغرةً فاها لابتلاعه، وكل يَرثي لبلائه قانطًا حتى من راحة الأشباح التي تجاوز نهر ستكس بعد الدفن، ويرفع إيدومنه عينيه ويديه إلى السماء ويضرع إلى نبتون قائلًا بصوت عالٍ: أيها الإله القادر! أيها الإله المهيمن على الأمواج! تفضل واستمع إلى تَعِس! إذا ما أعدتني إلى جزيرة أقريطش على الرغم من صولة الرياح ذبحت لك أول رأس يقع عليه نظري.

ويكون ابنه فارغ الصبر في تلك الأثناء فيهرع إلى أبيه كيما يعانقه، ويا لشقاء هذا الآدمي الذي كان يجهل أنه لم يسرع إلا لهلاكه! ويصل الأب إلى الميناء المطلوب ناجيًا من العاصفة، ويشكر لنبتون استجابته لدعوته، ولكنه لم يُعَتِّم أن أدرك ما في سابق نذره من شؤم، وما يساوره من شعور بشقائه يثير فيه ندمًا أليمًا على نذره الطائش، ويخشى أن يبلغ أهله، ويحذر أن يرى أعز الناس عليه، غير أن الإلهة القاسية الفاقدة الرحمة الساهرة على معاقبة الرجال، ولا سيما الملوك المختالون، نميزيس، كانت تدفع إيدومنه بيدٍ خفيةٍ مقدَّرةٍ، ويصل، ولم يكد يرفع عينيه حتى رأى ابنه، ويرتد إلى الوراء مغاضبًا وتبحث عيناه عن رأسٍ آخر أقل قيمةً لديه يُمكن أن يضحِّيَ به، ولكن على غير جدوى.

ومع ذلك فإن الابن يرمي بنفسه على عنق الأب، ويعتريه دهش من سوء ما قابل به حُنُوَّه، وينظر إليه، ويراه يذوب دموعًا، ويقول له: «من أين أتاك هذا الحزن يا أبتِ؟ وهل أنت ساخط، بعد غياب طويل، على رجوعك إلى مملكتك وظهورك مدار بهجةٍ لابنك؟ ماذا صنعت حتى تحول عينيك لكيلا ترياني؟» ولا ينبس الأب بجواب من شدة الألم، ثم يقول بعد تأوهات عميقة: «أي نبتون! بم وعدتك؟! أي ثمن أنقذتني به من غرق السفينة؟!

أعدني إلى الأمواج والصخر التي تحطمني فتنتهي بها حياتي الكئيبة! دع ابني يعيش! مهلًا أيها الإله الطاغي! هذا هو دمي، فصن دمه».»

ويوكِّد له المعبر عن رغائب الآلهة، الشيخ سفرنيم، إمكان إرضاء نبتون من غير أن يذبح ابنه، قال سفرنيم: «كان وعدك خاليًا من الفطنة، فما كان الآلهة ليرضوا أن يمجدوا بعمل فظيع، فاحترز من قرن إثم وعدك بإثم إنجازه خلافًا لسنن الطبيعة، وقدم إلى نبتون مائة ثور أشد بياضًا من ثلج نبتون وانحرها حول مذبحه المتوج بالزهور، وأحرق البخور الذَّكِي! إكرامًا لهذا الإله.»

وكان إيدومنه يستمع إلى هذا الكلام مطرِقًا صامتًا، وكانت عيناه تشتعلان غضبًا، وكان وجهه شاحبًا مشوهًا متقلب اللون في كل لحظة، وكانت أعضاؤه ترتجف كما تُرى، ويقول له ابنه في تلك الأثناء: «ترى، يا أبت، أن ابنك مستعد للموت كيما يهدأ الإله، فلا يحل عليك غضبه، وأموت راضيًا ما دام موتي يقيك من الموت، اضرب يا أبت، ولا تخش أن تجد فيَّ ابنًا غير جديرٍ بك فيرهب الردى.»

وبينا كان إيدومنه بالغ الاضطراب، فيبدو ممزق الفؤاد من قِبَل زبانية جهنم، باغت جميع من يرقبونه عن كثب بأن طعن قلب ابنه بسيفه، وينزع هذا السيف داخنًا يقطر دمًا كيما يغمده في أحشائه لو لم يمسكه من يحيطون به، ويسقط الولد مضرَّجًا بدمه، وتغشى عينيه ظلمات الموت، ويلتمس النور من بين أجفانه، ولكنه لم يكد يجده حتى عاد لا يطيقه، شأن زنبق الحقل الذي يقطعه حد المحراث من جذره فيذبل ولا يظل قائمًا، أجل، إنه لا يفقد ذلك البياض الناصع وذلك البهاء الذي يسحر العيون، غير أن الأرض تعود لا تغذيه وتنطفئ حياته، وهكذا يحصد ابن إيدومنه بقسوةٍ في ميعة شبابه، وهكذا يفقد الأب وعيه في حمَّى ألمه، فلا يدري أين هو، ولا ما صنع، ولا ما يجب أن يصنع، وهو يسير خائرًا نحو المدينة سائلًا عن ابنه.

هنالك تحنن القوم على الولد وساورهم مقت شديد لعمل الأب الفظيع فهتفوا قائلين: إن الآلهة العادلين قضوا بتسليمه إلى الفوري، ويتزودون بسلاحٍ عن غضب، ويتناولون عصيًّا وحجارة، ويلقي إله الشقاق سمًّا قاتلًا في جميع القلوب، وينسى الأقريطشيون الحكماء ما أحبوه من حكمة، وعادوا لا يعترفون بحفيد الحكيم مينوس، وعاد أصدقاء إيدومنه لا يرون له سلامةً إلا بأخذه إلى سفنه، ويبحرون معه ويفرون تحت رحمة الأمواج، ويعود إلى إيدومنه وعيه، ويشكر لهم انتزاعه من أرضٍ رواها بدم ابنه، فلا يستطيع أن يسكنها بعد، وتسوقهم الرياح إلى هسبريه، ويذهبون للبحث عن مملكة جديدة في بلد السلانتين.

وبما أنه عاد لا يكون لدى أهل أقريطش ملك يحكم بينهم فقد عزموا على اختيار ملك يحافظ على القوانين القائمة خالصةً، والتدابير التي اتخذوها للوصول إلى هذا الغرض هي اجتماع جميع وجوه المواطنين في المدن المائة هنا، وكان قد بدئ بتقديم الضحايا، وقد حُشد جميع عقلاء البلدان المجاورة لتأمل حكمة مَن يبدون أهلًا للقيادة، وتعد ألعاب عامة حيث يتبارى جميع الطامعين في العرش؛ وذلك لأنه أريد أن تعطى جائزة الملك لمن يحكم بفوزه على الآخرين عقلًا وبدنًا؛ وذلك لأنه أريد نصب ملكٍ يكون قويَّ الجسم صحيح البدن تزدان نفسه بالحكمة والفضيلة، ويدعى جميع الأجانب إلى هنا.

وقد قال لنا نوزقراط بعد أن روى لنا جميع هذه القصة: «إذن، هلم، أيها الغرباء، إلى مجلسنا حيث تتبارون مع الآخرين، فإذا ما قدر الآلهة أن يفوز أحدكم نصب ملكًا لهذا البلد.»

ونتبعه زاهدين في الفوز، ولكن مع حبٍّ للاطلاع على أمرٍ عجيب بهذا المقدار.

ونصل إلى ملعبٍ كثير الاتساع محاطٍ بغابة كثيفة، وكان وسط الملعب ميدانًا رمليًّا معدًّا للمتبارين، وكان يحيط به مدرَّج كبير مؤلف من عشب نضير يجلس عليه جمهور مصفوف لا يحصى له عدد، فلما وصلنا قُبِلنا بإكرام؛ وذلك لأن أهل أقريطش أكثر أمم الأرض قيامًا بالقِرَى الجميل، ونجلس، ونُدعى إلى المباراة، ويعتذر منتور بعمره، ويعتذر حزائيل بسوء صحته، ولا أجد ما أعتذر به لفتائي وقوتي، ومع ذلك فقد ألقيت على منتور نظرةً كيما أعلم رأيه، فأبصرت أنه يتمنَّى لو اشترك في المباراة؛ ولذا فقد قبلت ما عُرض أمُر بين الحد وبينه لما أبصَرَ من حسن مداراة خيلي واستعدادها لسبقه فلم يرَ لنفسه وسيلةً غير إقفال الطريق، ويجازف؛ ليوفق، بأن يتحطم حيال الحد حيث يكسر عجلته فعلًا، ولم أفكر في غير الالتفاف من فوري لكيلا أتورط في ارتباكه، ويراني بعد هنيهة قد بلغت آخر ميدان السباق، ويهتف الجمهور قائلًا مرةً أخرى: «النصر لابن أوليس، فالآلهة قد أعدوه ليملكنا.»

هنالك سار بنا ألمع الأقريطشيين وأعقلهم إلى غابةٍ قديمة مقدسة بعيدة من أبصار المدنسين حيث أدخلنا مجلس الشيوخ الذي كان مينوس قد أقامه للحكم بين الناس والمحافظة على القوانين، ولم يُقبل هناك غير الذين تباروا في الألعاب، ولم يقبل أحد غيرنا، ويفتح الحكماء مجموعة قوانين مينوس، ويساورني احترام وتواضع عند اقترابي من هؤلاء الشيوخ الذين كان لهم بمشيبهم جلال، ولكن من غير أن ينزع المشيب نشاطهم الذهني، وكانوا جالسين على الترتيب هادئين في أماكنهم، وكانت شعورهم بيضًا، وكان الكثير منهم

صُلْعًا تقريبًا، وكانت وجوههم المتزنة تسطع حكمةً هادئة عذبة، وكانوا لا يتعجلون في الكلام مطلقًا، وكانوا لا ينطقون بغير ما عقدوا النية على قوله، وكانوا، إذا ما تباينت آراؤهم، يبدون من الاعتدال في تأييد ما يفكرون فيه ما يخيل إلى الناظر معه أنهم على رأي واحد، وكان من نتائج تجاربهم الطويلة في الأمور الماضية وتعودهم العمل أن اتفقت لهم بصائر نفاذة في جميع الشئون، ولكن الذي كان يسير بعقولهم نحو الكمال هو دعة أذهانهم الخالية من الأهواء الطائشة ونزوات الشباب، وكانت الحكمة رائدًا لهم، وكانت فضائلهم العظيمة من قهر غرائزهم بحيث يتذوقون بلا عناء لذة الإنصات للعقل الحلوة الكريمة، وإني، إذ أُعجَب بهم، أتمنى لو تقصر حياتي حتى أنتهي بغتةً إلى مشيب جليل بذاك المقدار، وكنت أجد أن الشباب تعس بشدة صولته وبعده الواسع من هذه الفضيلة الهادئة المستنيرة جدًّا.

فتح رئيس هؤلاء الشيوخ سِفْر شرائع مينوس، وكان هذا كتابًا عظيمًا يحفظ عادةً في صندوق من ذهب مع عطور، وقبله جميع هؤلاء الشيوخ تقبيل إجلال؛ وذلك لأنهم يقولون: إنه لا شيء بعد الآلهة، الذين تصدر عنهم القوانين الصالحة، يجب أن يكون موضع تقديسٍ لدى الناس كالقوانين المعدة لجعلهم صالحين عقلاء سعداء، وإنه يجب على من يمسكون بأيديهم قوانين للحكم بين الناس أن يحتملوا الحكم في أنفسهم بالقوانين، فالقانون، لا الرجل، هو الذي يجب أن يحكم، ثم وضع الشيخ الذي كان رئيسًا ثلاثة أسئلة يجب أن يُبتَّ فيها وفق مبادئ مينوس.

فأما المسألة الأولى فهي أن يُعرف من هو أكثر الناس حريةً، فبعضهم أجاب بأنه الملك الذي يتمتع بسلطانٍ مطلقٍ على رعيته والذي يكون منصورًا على جميع أعدائه، ويقول آخرون: إنه الرجل البالغ الغِنَى فيمكنه أن يقضي جميع رغائبه، ويقول فريق ثالث: إنه الرجل الذي لا يتزوج مطلقًا فيسيح في مختلف البلدان مدى حياته من غير أن يخضع لقوانين أية أمة كانت، ويقول فريق رابع: إنه المتوحش الذي يعيش بما يصطاد في الغاب فيكون مستقلًّا عن كل ضابطة وكل ضرورة، ويعتقد فريق خامس أنه الرجل الذي أُعتِقَ حديثًا فيتمتع؛ إذ يُفلت من قيود الرق، بنعم الحرية أكثر مما يتمتع غيره، ويعِنُّ لفريق سادس أنه الرجل المحتضَر الذي ينقذه الموت من كل شيء فلا يكون لجميع الناس أي سلطان عليه، فلما جاء دوري لم أجد عناءً في الجواب لما لم أنسَ ما كان منتور قد قال لي غير مرةٍ، وإليك جوابي: «إن أكثر الناس حريةً هو من يستطيع أن يكون حرًّا في الرق نفسه، والإنسان، من أي بلدٍ كان، ومهما كان أصله، يكون كثير الحرية إذا ما خاف الآلهة

ولم يخف غيرهم، والخلاصة أن الإنسان، الحر حقًّا، هو الذي يكون طليقًا من كل رهبة ورغبة فلا يخضع لغير الآلهة ولغير عقله.»

ويتبسم الشيوخ، ويتبادلون النظرات، ويدهشون إذ يرون أن جوابي هو عين جواب مينوس.

ثم يعرض السؤال الثاني بالنص الآتي، وهو: من هو أشقى الناس؟

فيجيب كلٌّ بما يخطر بباله، فيقول فريق: «إنه ذاك الذي لا يكون ذا مال ولا صحة ولا عزة»، ويقول فريق آخر: «هو الذي لا يكون له صديق»، ويقول فريق ثالث: «هو الذي يكون ذا ولد أعقَّة ليسوا سر أبيهم»، ويأتي حكيم من جزيرة لسبوس ويقول: «إن أشقى الناس هو الذي يعتقد أنه أشقاهم؛ وذلك لأن الشقاء أقل توقفًا على الأمور التي تعانى مما على الجزع الذي يزيد به الإنسان شقاءه.»

هتف جميع المجلس استحسانًا لهذه الكلمة، وظن كل واحد أن هذا الحكيم اللسبوسي هو الذي سينال الجائزة على هذا السؤال، ولكنني سئلت عن رأيي، فأجبت وفق مبادئ منتور قائلًا: «إن أشقى الناس هو الملك الذي يظن نفسه سعيدًا بجعله الآخرين تعساء، وذلك أنه شقيٌّ بعماه شقاءً مضاعفًا؛ أي إنه إذ كان لا يعرف شقاءه لا يُمكن أن يشفي نفسه منه، حتى إنه يخشى أن يعرفه، وليس من الممكن أن تنفذ الحقيقة فريق المنافقين فتنتهي إليه، وإنما تطغى عليه أهواؤه فلا يعرف واجباته مطلقًا، ولا يذوق لذة فعل الخير، ولا يشعر بفتون الفضيلة الخالصة، وهو شقي أهل لأن يكون شقيًّا، ويزيد شقاؤه يومًا بعد يوم، وهو يبحث عن حتفه بظلفه، ويستعد الآلهة لإخزائه بعقابٍ أبدي.»

ويعترف جميع المجلس بأنني فزت على الحكيم اللسبوسي، ويصرِّح الشيوخ بأنني أصبت المعنى الحقيقي الذي قصده مينوس.

ويُسأَل بالسؤال الثالث عن أي الملكين يكون أفضل من الآخر: آلملكُ الفاتحُ الذي لا يُقهر في الحروب أم الملك الذي لا تجربة له في الحروب، وإنما هو صالحٌ لسياسة الرعية في إبَّان السلم.

فذهبت الأكثرية إلى أن الملك الذي لا يُقهر في الحروب أفضل من ذاك، وقد قالت الأكثرية: «ما نفْعُ وجود ملك يعرف حسن الحكم وقت السلم إذا كان لا يعرف أن يدافع عن البلد عند وقوع الحرب؟ ألا يقهره الأعداء ويستعبدون رعاياه؟» وذهب فريق آخر إلى أن الملك المسالم خير من ذاك لخوفه من الحرب واجتنابه إياها بجهوده، وقال فريق ثالث: إن الملك الفاتح يجاهد في سبيل مجد رعيته ومجد نفسه فيجعل هؤلاء الرعية سادة الأمم

الأخرى، وهو في هذا على خلاف الملك المسالم الذي يُمسك رعيته ضمن نطاق من الجبن المخزي.

ويراد الوقوف على شعوري فأقول: «لا يكون الملك الذي لا يعرف الحكم في غير زمن السلم أو زمن الحرب، ولا يكون قادرًا على سياسة رعيته في هاتين الحالين، غير نصف ملك، ولكنكم إذا ما قابلتم بين الملك الذي لا يعرف غير الحرب والملك الحكيم الذي يكون، مع عدم خبرته بالحرب، قادرًا على القيام بها عند الضرورة بواسطة قواده فإنني أفضل هذا على ذاك؛ وذلك لأن الملك الذي يتجه إلى الحرب بكليته يود إيقاد نارها دائمًا، أي إنه يُهلك رعاياه توسيعًا لسلطانه وبسطًا لمجده الخاص، وما فائدة الرعية من قهر ملكهم للأمم الأخرى إذا كانوا تعساء في عهده؟ ثم إن الحروب الطويلة تجر وراءها في كل وقت ذيلًا كبيرًا من الارتباك، فتختل أمور الغالبين أنفسهم في أثناء هذا الارتباك، وانظروا ما دفعت بلاد اليونان من ثمنٍ غالٍ للانتصار على تروادة، فهي قد حُرمت ملوكها مدةً تزيد على عشر سنين، ولما اكتوى الجميع بنار الحرب ذَوتِ القوانين والزراعة والحِرَف، حتى إن أصلح الأمراء، عندما يقومون بحرب، يضطرون إلى إتيان أعظم المفاسد؛ أي إباحة الفجور واستخدام الأشرار، وما أكثر المجرمين الذين يجازون أيام السلم فتقضي الضرورة بمكافأتهم على جرأتهم حين اختلاط الأمور في الحرب! ولم يحدث قط أن كان لأمة ملك غازٍ من غير أن تقاسي نتائج طموحه كثيرًا، ومن عمل الفاتح الثمل بمجده أن يُوجب دمار أمته الغالبة كما يوجب دمار الأمم المغلوبة، ومِن عَمَلِ الأمير الذي لا يتصف بما هو ضروري للسلم ألا يذيق رعاياه ثمرات حرب ختمت بالنصر، وإنما يكون كالرجل الذي يدافع عن حقله حيال جاره والذي يغتصب حقل هذا الجار أيضًا، ولكن من غير أن يعرف حرثه وزرعه فينال أية غلة منه، فرجل مثل هذا يكون قد وُلد ليخرب العالم ويدمره ويقلبه رأسًا على عقب، لا ليجعل الأمة سعيدةً بحكومةٍ رشيدة.»

ولنأتِ الآن إلى الملك المسالم، أجل، إن هذا الملك غير صالح للقيام بفتوح عظيمة؛ أي لم يولد لتكدير سعادة شعبه بعزمه على قهر الأمم الأخرى التي لم يخضعها العدل له، ولكنه إذا كان صالحًا للحكم وقت السلم حقًّا فإنه يكون حائزًا لجميع الصفات الضرورية التي يجعل بها شعبه في أمانٍ حيال أعدائه، وذلك لما يظهر من عدله واعتداله ودماثته نحو جيرانه، فلا يُضمر لهم من النيات ما يمكن أن يكدر به سلامه، ويبدو مخلصًا في محالفاته فيحبه حلفاؤه، ولا يخشونه مطلقًا، ويضعون ثقتهم فيه تمامًا، وإذا ما وُجد جارٌ جائرٌ مختال طامع فإن جميع الملوك المجاورين الآخرين الذين يخافون هذا الجار الباغي والذين

لا يغلي في نفوسهم حسد تجاه الملك المسالم ينضمون إلى هذا الملك الصالح حتى يحولوا دون الاعتداء عليه، وما يتصف به هذا الملك من نزاهةٍ واعتدالٍ وحسن نية يجعله حكمًا بين جميع الدول المجاورة لدولته، وبينا يكون الملك الجريء ممقوتًا لدى الملوك الآخرين عرضةً لأحلافهم يتمتع هذا الملك بشرف كونه أبًا لجميع الملوك الآخرين وصيًّا عليهم، هذه هي المنافع التي تكون له في الخارج، وأما المنافع التي يتمتع بها في الداخل فأمتن منها، وذلك بما أنه صالح للحكم مسالم فإنني أفترض أنه يقوم بالحكم وفق أقوم القوانين، فيقضي على البذخ والترف وجميع الحرف التي لا تنفع لغير ملاطفة العيوب، وتزدهر في عهده الحرف الأخرى التي تُقضَى بها ضرورات الحياة الحقيقية، وتكون الزراعة أخص ما يحض عليه رعاياه، فبهذا تفيض عليهم الحاجيات، وبهذا ينمو، نموًّا لا حد له، هذا الشعب المُجِدُّ البسيط في طبائعه والمدرَّب على الكفاف من الرزق والكاسب لعيشه بزراعة أرَضِيه كسبًا سهلًا، وهذه مملكة لا يُحصِي الرعيةَ فيها عَددٌ، ولكن مع الصحة والقوة والمتانة، وهذه رعية لا تخنثها الشهوات مطلقًا، وهذه رعية ممرنة على الفضيلة غير وَلُوعٍ بنعم الحياة الرخوة اللذيذة، وهذه رعية تستخف بالموت وتفضل الموت على فقد تلك الحرية التي تذوقها في عهد ملك حكيم مُوَطِّن نفسه على ألا يحكم إلا بجعله العقل حَكَمًا، أجل، قد يغزو فاتح مجاور هذا الشعب، فلا يظهر له هذا الملك دَرِبًا، على ما يُحتَمَل، بجمع الجيش في معسكر وصف الجنود للقتال ونصب الآلات لحصار المدن، بيد أنه يجده منيعًا بجماعته وشجاعته وصبره على المكاره وتعوده احتمال الفقر وببأسه في المعارك وبفضيلته التي لا يحطمها حتى أسوأ النتائج، ثم إن الملك إذا لم يكن محنكًا في قيادة جيوشه بنفسه عهد في قيادتها إلى من يصلحون لها فينتفع بهؤلاء من غير أن يخسر سلطانه، وهو ينال عون حلفائه في هذه الأثناء، ويفضل رعاياه أن يموتوا على انتقالهم إلى حكم ملك آخر عسوف ظالم، حتى إن الآلهة يقاتلون نصرًا له، ومن ثم ترون مقدار ما يكون لديه من وسائل بين أعظم الأخطار؛ ولذا فإنني أنتهي إلى النتيجة القائلة: إن الملك المسالم الجاهل لأمور الحرب ناقص جدًّا، ما دام غير عارف أن يقوم بإحدى وظائفه العظيمة التي تهدف إلى قهر أعدائه، ولكن مع قولي: إنه أرفع بمراحل لا حد لها من الملك الفاتح الذي تعوزه الصفات الضرورية للسلم فلا يصلح لغير الحرب.

وأُبصرُ في المجلس أناسًا كثيرين لا يُمكن أن يقع عندهم هذا الرأي موقع الرضا؛ وذلك لأن معظم الناس يفتنون بالأمور الباهرة كالانتصارات والفتوحات فيفضلونها على كل ما هو بسيط هادئ متين كالسلام وحسن سياسة الرعية، غير أن جميع الشيوخ صرَّحوا بأنني تكلمت مثل مينوس.

ويهتف رئيس الشيوخ قائلًا: «أرى تحقيق هتاف أبولون المعروف في جميع جزيرتنا، وذلك أن مينوس كان قد استشار هذا الإله ليعرف مقدار الزمن الذي ستملك به ذريته وفق القوانين التي وضعها، فأجاب هذا الإله بقوله: «سينتهي حُكم عقبك بدخول أجنبيٍّ هذه الجزيرةَ يؤيد شرائعك»، أجل، كنا نخاف أن يأتي أجنبي فيفتح جزيرة أقريطش، بيد أن رزية إيدومنه وحكمة ابن أوليس الذي يفقه شرائع مينوس خيرًا من غيره تَدُلَّانِنَا على معنى ذلك الهتاف، وما أَرَبُنَا بتأخيرنا تتويج هذا الذي أعدته الأقدار ليكون ملكًا لنا.»

وعندما خرج الشيوخ من نطاق الغابة المقدسة أمسكني الرئيس من يدي وأخبر الناس، الذين كان صبرهم قد فرغ انتظارًا للقرار، بأنني فزت بالجائزة، ولم يكد يتم كلامه حتى دوَّى الجمع صراخًا، فقد هتف كل واحدٍ هتاف الفرح، وقد ردد الساحل وجميع الجبال المجاورة هذا الهتاف القائل: «ليكن شبيه مينوس وابن أوليس ملك أهل أقريطش!»

وأنتظر هنيهةً، وأشير بيدي طالبًا أن يُسمَع لي، فهنالك أَسَرَّ منتور إليَّ بقوله: «أَوَ تَعْدِلُ عن وطنك؟ أَوَ يحملك طمعك في الملك على نسيان بنلوب التي تنتظرك عادَّةً إياك آخر أملٍ لها، وأوليس العظيم الذي كان الآلهة قد قضوا بإعادته إليك؟»

نفذت هذه الكلمات فؤادي ودفعت عني ميلي الباطل إلى المُلْك.

ومع ذلك فإن ما ساد هذا الجمع الحافل كله من صمت عميق زودني بوسيلة قول ما يأتي: «أيها الأقريطشيون الأماجد! إنني لا أستحق أن أكون قائدًا لكم مطلقًا، أجل، إن هاتف الغيب الذي رُوِيَ أمره يدل دلالةً صريحةً على نزع الملك من آل مينوس عندما يدخل هذه الجزيرة أجنبي ويجعل السلطان لقوانين هذا الملك الحكيم، ولكن لم يُقَل: إن هذا الأجنبي سيملك، وأود أن أعتقد أنني ذلك الأجنبي الذي دل عليه هاتف الغيب فأقول: إنني حققت هذه النبوءة، فقد جئت هذه الجزيرة وكشفت عن المعنى الصحيح للقوانين، وأرجو أن يكون إيضاحي نافعًا لسيطرة هذه القوانين بواسطة الرجل الذي تختارون، وأما أنا فأفضِّل وطني، أي جزيرة إيتاك الفقيرة الصغيرة، على مدن أقريطش المائة ومجد هذه المملكة ويسرها، واسمحوا باتباعي ما دلت عليه الأقدار، وإذا كنت قد اشتركت في ألعابكم فليس هذا عن أملٍ في نصْبِي ملكًا لهذا البلد، وإنما كان هذا لأفوز بتقديركم وحنانكم، وإنما كان هذا لتعطوني وسائل العود إلى مسقط رأسي بسرعة، وَلَأَنْ أطيعَ أبي أوليس وأكون قرة عينٍ لأمي بنلوب أحبُّ إليَّ من أن أكون ملكًا لأمم الأرض طُرًّا، ترون، يا أهل أقريطش، أن ما يدور في صميم فؤادي هو أن أغادركم، ولكن الموت وحده هو الذي يُنهي شكراني لكم، أجل، سيظل تلماك محبًّا لأهل أقريطش حتى النفَس الأخير، فيلتفت إلى مجدهم التفاتَهُ إلى مجده الخاص.»

ولم أكد أقول هذا حتى ارتفع ضجيج كصوت أمواج البحر التي تتلاطم في أثناء الزوبعة، فيقول فريق: «أهذا إله في صورة إنسان؟» ويقول فريق ثانٍ: «إنه كان قد رآني في بلاد أخرى وإنه يعرفني»، ويقول فريق ثالث: «يجب إلزامه بالقبض على زمام الملك في هذا البلد»، ثم عدت إلى الكلام، فالتزم كل واحد جانب الصمت من فوره غير عارف أنني لا أقبل ما كنت قد رفضت في بدء الأمر، وإليكِ ما خاطبتهم به: «اسمحوا لي، يا أهل أقريطش، بأن أقول لكم: إنكم أحكم من جميع الأمم كما أرى، ولكن الحكمة تقضي بوجود احتراز يفوتكم كما يلوح لي، وذلك أنه لا ينبغي لكم اختيار الرجل الذي هو خير من يتعقل حول القوانين، بل الرجل الذي يزاولها بأثبت ما يكون من فضيلة، وأما أنا فشاب غير مجرِّب، فأكون عرضةً لصولة الأهواء، ويكون خيرًا لي أن أدرب على الطاعة حتى أقود ذات يومٍ من أن أقوم الآن بأمور القيادة، ولذا فلا تبحثوا عن رجل فاز على الآخرين في هذه الألعاب الذهنية والبدنية، ولكنه مغلوب في نفسه، وإنما ابحثوا عن رجل نفذت قوانينكم صميم فؤاده وطبق هذه القوانين في جميع حياته فتكون أعماله، لا أقواله، حافزًا إلى اختياره.»

ويفتن الشيوخ بهذا الكلام، ويقولون لي حين يرون زيادة تصفيق الجمع: «بما أن الآلهة ينزعون منا أمل رؤيتنا إياك ملكًا بيننا فإننا نطلب منك، على الأقل، أن تكون عونًا لنا في البحث عن ملكٍ يجعل السلطان لقوانيننا، فهل تعرف من هو قادر على القيادة بهذا الاعتدال؟»

– أدلكم، من فوري، على رجل اقتبست منه جميع ما كنت به مَدَارَ تقديرٍ لديكم، فحكمته، لا حكمتي، هي التي خاطبْتُكم بها، وهو الذي أوحى إليَّ بجميع الأجوبة التي سمعتموها مني.

هنالك ألقى الجمع أبصاره على منتور الذي أشرت إليه ممسكًا بيده معترفًا برعايته التي حباني بها منذ طفولتي وبالمخاطر التي أنجاني منها وبالمصائب التي صُبَّت عليَّ منذ عدلت عن اتباع نصائحه.

ولم يُنظر إليه في البداءة قط بسبب ثيابه البسيطة المهملة وتواضع هيئته ودوام صمته وفتور ملامحه وتحفظه، ولكنه عندما أُنعِمُ النظر فيه كُشِفَ في محياه ما لا يُعرب عنه من حزم وسمو، ففي عينيه قرئ النشاط كما رُئِيَ بأسه في أدق الأمور، ويُسأل، ويُعجب به، ويُقرَّر نصبه ملكًا.

ويرفض ذلك من غير أن يحرك ساكنًا، ويقول: إنه يفضل نعم الحياة الخاصة على بهاء الملك، وإن أصلح الملوك كانوا تعساء لما لم يصنعوا من خير كانوا يريدون فعله ولِمَا

أتوا، بتأثير المرائين، من شر كانوا لا يريدون صنعه، وإلى هذا أضاف قوله: «ليس الملك أقل بؤسًا من الرق ما دام الملك رقًّا مقنَّعًا، فالرجل، إذا ما كان ملكًا، اتبع جميع من يحتاج إليهم ليطاع، فطوبى لمن لا يضطر إلى القيادة مطلقًا، ولسنا مدينين لغير وطننا بأن نضحي بحريتنا في سبيل المصلحة العامة إذا ما عهد هذا الوطن إلينا في السلطان.»

وهنالك بُهِتَ أهل أقريطش وسألوه عمن يختارون، فإليكِ جوابه: «اختاروا رجلًا يعرفكم جيدًا ويخشى الحكم فيكم ما وجب أن يحكم بينكم، ومن يبتغِ الملك لا يعرفه، وكيف يقوم بواجبات الملك وهو لا يعرفها مطلقًا؟ أجل، إنه يبتغيه لنفسه، وعليكم أن تبتغوا من لا يقبل الملك إلا عن حب لكم.»

ويَذْهَل أهل أقريطش إذ يرون أجنبيينِ يرفضان ملكًا ينشده آخرون كثيرون، فيودون لو يعرفون الرجل الذي جاءوا معه، ويدلهم نوزقراط، الذي كان قد سار بهم من الميناء إلى الميدان حيث تقام الألعاب، على حزائيل الذي أتيت، أنا ومنتور، معه من جزيرة قبرس، ولكنهم زادوا ذهولًا عندما علموا أن منتور كان عبدًا لَحَزائيل، وأن حكمة هذا العبد وفضيلته، إذ أثَّرتا في حزائيل جعل حزائيل هذا منه مستشارًا له وصديقًا مفضلًا لديه، وأن هذا العبد العتيق هو الذي رفض الملك، وأن حزائيل أتى من دمشق السورية ليدرس قوانين مينوس ما ملأ حب الحكمة فؤاده، وقال الشيوخ لحزائيل: «إننا لا نجرؤ أن نرجو منك الحكم فينا، وذلك لما نرى أنك على رأي منتور، ويظهر أنك من كثرة الازدراء للناس بحيث لا تريد أن تحمل نفسك عبء قيادتهم، وذلك فضلًا عن كونك بلغت من الزهد في الثراء وأبهة الملك ما لا تريد معه شراء هذه الأبهة بما يلازم سياسة الرعية من متاعب.»

ويجيب حزائيل عن هذا بقوله: «لا تظنوا، يا أهل أقريطش، أنني أستخف بالناس، كلا، كلا، إنني أعرف مقدار ما في جعلهم سعداء صالحين من عظمة، ولكنني أعرف مقدار ما يشتمل عليه هذا العمل من مشاقَّ وأخطار، وإن ما يلازم هذا العمل من أبهةٍ باطلٌ، ولا يمكن أن يبهر غير النفوس المختالة، ألا إن الحياة قصيرة، ومن شأن العظمة أن تثير الأهواء أكثر من أن تستطيع إرواءها، أي إنني أتيت من بلدٍ بعيد لأتعلم الاستغناء عن النعم الزائفة، لا لبلوغها، وداعًا، إنني لا أفكر في غير الرجوع إلى حياة هادئة بعيدة من الناس حيث تغذي الحكمة فؤادي وحيث أتعزى في هموم مشيبي بآمالٍ تستنبط من الفضيلة في سبيل حياةٍ بعد الموت أطيب من الحياة الدنيا، وإذا كان لي ما أتمناه فليس أن أكون ملكًا، بل ألَّا أُفصَل عن هذين الرجلين اللذين ترون.»

وأخيرًا هتف الأقريطشيون مخاطبين منتور بقولهم: «قل لنا، يا أعظم الناس وأرجحهم عقلًا، مَن نستطيع أن نختاره، إذن، كيما يكون ملكًا لنا، فلن تبرح مكانك حتى تعلمنا ما نصنع لاختيار من يقبض على زمام الملك فينا.»

فأجابهم منتور عن ذلك بقوله: «بينا كنت بين جمع الحضور أبصرت رجلًا لا ينم على التسرع مطلقًا، وهو شيخ على شيء من الحزم، وقد سألت عنه فقيل لي: إنه يسمى أرستوديم، ثم سمعت من قال له: إن ولديه بين المتبارين، فلم تبد عليه علامة فرح، ومما قال: إنه لا يتمنى لأحدهما مخاطر الملك، وإنه يبلغ من حب الوطن ما لا يوافق معه على فوز الآخر بالملك أبدًا، وأدرك بهذا أن هذا الأب يحب أحد ولديه حبًّا صائبًا، يحب هذا الولد لفضله، وأنه لا يرائي الآخر على دعاراته، وأزيد فضولًا، فأسأل عن حياة هذا الشائب فيجيب أحد مواطنيكم بقوله: «إنه ممن حمل السلاح زمنًا طويلًا، وإنه ممن سُتر بدنه بجروح، ولكن نقاء فضيلته ومقته للنفاق جعلاه لا يطاق لدى إيدومنه، وهذا ما حال دون انتفاع هذا الملك به في أثناء حصار تروادة، وهذا لأن الملك خاف رجلًا مثله يسدي إليه بنصائح رشيدة لا يستطيع العزم على اتباعها، حتى إن هذا الملك كان حاسدًا على المجد الذي لا يعوز هذا الرجل أن يناله من فوره، وينسى الملك جميع خِدَمِه، ويَدَعه في هذا البلد فقيرًا محتقَرًا لدى غلاظ القوم وأنذالهم الذين لا يكرمون غير الثراء، ويظل الرجل راضيًا عن فقره، ويعيش مسرورًا في مكان بعيد من الجزيرة حيث يزرع حقله بيديه، ويعمل أحد أبنائه معه، ويتحابُّون حب حنان، ويعدون من السعداء، ويتفق لهم فيض من الأشياء الضرورية لحياة بسيطة بفضل قناعتهم وعملهم، ويُحسن الشيخ الحكيم إلى المرضى المساكين من جيرانه بجميع ما يزيد على حاجاته وحاجات أبنائه، وهو يحمل جميع الشبان على العمل، وهو يستنهضهم ويثقفهم، وهو يحكم في جميع ما يقع بين الجيران من اختلافات، وهو يُحسب أبًا لجميع الأسر، وتظهر مصيبة أسرته في اشتمالها على ابنٍ ثانٍ له راغبٍ عن اتباع أية نصيحة يقدمها أبوه إليه، وأخيرًا يطرده الأب بعد أن قاسى من الجهود ما قاسى لإصلاح عيوبه، ويرخِي الولد لنفسه عِنان طموح طائش وزمام جميع الملاذ»، فهذا، يا أهل أقريطش، هو ما قُصَّ عليَّ، فيجب عليكم أن تعرفوا هل هذه القصة صحيحة أو لا، فإذا كان هذا الرجل كما وُصِفَ فلمَ القيام بألعاب، ولمَ جَمْعُ خلق كثير غير معروفين؟ يرى بينكم رجل يعرفكم وتعرفونه، رجل يعرف الحرب، رجل أثبت بسالته حيال الفقر الفظيع فضلًا عن السهام والنبال، رجل ازدرى الثراء المكتسب بالرئاء، رجل يحب العمل، رجل يعرف مقدار نفع الزراعة للشعب، رجل يحتقر الزهو، رجل لا يلين بحب

أعمى لأولاده، رجل يحب فضيلة ولد له ويَدِينُ رذيلة ولده الآخر، رجل يُحسب أبًا للشعب، فهذا هو ملككم إذا كنتم ترغبون أن يكون السلطان لشرائع الحكيم مينوس عندكم.»

ويهتف الشعب قائلًا: «حقًّا أن أرستوديم كما قلت، فهو جدير بالملك.»

ويناديه الشيوخ، ويبحث عنه بين الجمع حيث اختلط مع عامة الشعب، ويبدو هادئًا، ويصرِّح له بأنه يراد نصبه ملكًا، فيقول: «إنني لا أقبل الملك إلا بثلاثة شروط: فأما الشرط الأول، فهو أنني أترك الملك عند انقضاء عامين إذا لم أجعلكم أفضل مما أنتم عليه وعارضتم القوانين، وأما الشرط الثاني فهو أن أكون حرًّا في الاستمرار على حياة بسيطة زاهدة، وأما الشرط الثالث فهو ألا يكون لأولادي مقام، فإذا مت عوملوا وفق مزيتهم كبقية المواطنين.»

نطق بهذه الكلمات فارتفع في الهواء ألف صوت فرح، ويضع رئيس الشيوخ وحارس القوانين تاج الملك على رأس أرستوديم، وتقدَّم القرابين إلى جوبيتر وغيره من كبار الآلهة، ويقدم أرستوديم إلينا هدايا ببساطةٍ نبيلة بعيدة من أبهة الملوك المعتادة، ويُعطي حزائيل قوانين مينوس المكتوبة بخط مينوس نفسه كما يعطيه مجموعةً عن جميع تاريخ أقريطش منذ ساتورن والعصر الذهبي، ويضع في مركبه ثمراتٍ من جميع الأنواع الصالحة في أقريطش والمجهولة في سورية، ويعرض عليه كل ما يمكن أن يحتاج إليه من مساعدة.

وبما أننا عقدنا النية على الرحيل سريعًا فقد أعد لنا مركبًا مع عدد كبير من الجداف والمسلحين، وقد زود المركب بثياب وميرة لنا، وتهب في الوقت نفسه ريح ملائمة للسفر إلى إيتاك، وتكون هذه الريح معاكسة لحزائيل فتحمله على الانتظار، ويرانا حزائيل ذاهبين فيعانقنا عناق أصدقاء لن يتلاقوا مطلقًا، ويقول: «إن الآلهة عادلون، فهم يرون أن صداقتنا لم تقم على غير الفضيلة، فسيجمعوننا ذات يوم، وذلك أن هذه الحقول السعيدة، حيث يقال: إن العادلين يتمتعون بعد الموت بسلام دائم، ستشاهد التقاء أرواحنا تلاقيًا لا فراق بعده أبدًا، آه! لو كان يمكن ضم رفاتي إلى رفاتكما أيضًا! ...»

قال هذا وعيناه تسكب سيولًا من الدموع وزفراته تخنق صوته، ولم نكن أقل بكاءً منه، وقد سار معنا إلى المركب.

وأما أرستوديم فقد قال لنا: «كنتما سبب نصبي ملكًا، فاذكرا الأخطار التي ألقيتماني فيها، فادعوا الآلهة أن يمنوا عليَّ بالحكمة وارجوا أن أفوق من وُلِّيت أمرهم اعتدالًا كما أفوقهم سلطانًا، وأما أنا فأدعو الآلهة أن يوصلوكما سالمين إلى وطنكما، وأن يردوا كيد أعدائكما إلى نحورهم، وأن يُرُوكما أوليس سالمًا قائمًا هو وبنلوب العزيزة بأمور الملك، وإني أعطيك، يا تلماك، مركبًا جيدًا زاخرًا بجدافٍ ومسلحين يمكن أن يكونوا نافعين لك

حيال أولئك الرجال الباغين الذين يؤذون أمك، وإن لك بحكمتك، يا منتور، ما لا تحتاج معه إلى طلبي لك شيئًا، سِيرَا، واقضيا حياة سعادة معًا، واذكرا أرستوديم، واعلما أنه يمكن الاعتماد عليَّ حتى النفَس الأخير من حياتي إذا ما احتاج أهل إيتاك إلى الأقريطشيين.»

وقد عانقنا، ولم نستطع، حينما شكرنا له ذلك، أن نمنع أنفسنا من سكب الدموع.

وكانت الريح التي نفخت أشرعتنا في تلك الأثناء تبشرنا برحلة بحرية مريحة، وعاد جبل إيدا لا يبدو لأعيننا غير تل، وقد توارت جميع الشواطئ، وأخذت سواحل البلوبونيز تلوح في البحر آتيةً إلينا، وبينا كانت الأمور تسير هكذا فوجئنا بعاصفة دجناء حجبت عنا وجه السماء وأثارت أمواج البحر، فتحول النهار إلى ليل، فلاح الموت لأبصارنا، فيا نبتون أنت الذي حرك، بخطافه الجميل الثلاثي الشوكات، جميع مياه مملكته.

أتت فينوس لملاقاة هذا الإله كيما تنتقم لنفسها على ما كان من ازدرائنا لها في معبدها الستري، فخاطبته متألمةً، وكانت عيناها الجميلتان مغرورقتين، وهذا ما وكده لي منتور المطلع على الأمور الإلهية.

قالت هذه الإلهة: «أتطيق، يا نبتون أن يهزأ هذان الملحدان بسلطاني من غير أن يعاقَبا؟ يشعر الآلهة أنفسهم بهذا السلطان، ثم يجرؤ هذان الآدميان المغامران على تسفيه كل ما يقع في جزيرتي، وهما يدعيان الحكمة عند كل دليل، وهما يَعُدَّان الغرام رعونةً، وهل نسيت أنني ولدت في مملكتك؟ ولمَ تُبَطِّئُ في دفن هذين الرجلين، اللذين لا أستطيع احتمالهما، في هُوِيِّك العميقة؟»

لم تكد فينوس تقول هذا حتى أثار نبتون أمواجًا بلغت السماء، وتضحك فينوس معتقدةً أن غَرَقَنَا أمر لا مفر منه، ويرتبك ربابنا فيصرخ قائلًا: إنه عاد لا يستطيع مقاومة الرياح التي كانت تدفعنا نحو الصخر بعنف، وتكسر هبة ريحٍ صارينا، وتمضي دقيقة فتُحْدِث رءوس الصخر ثغرًا في قعر المركب، ويدخل الماء من كل ناحية، ويغوص المركب، وتصَّعَّد صرخات جدافنا المحزنة في السماء، وأعانق منتور، وأقول له: «هذا هو الموت، فيجب أن نتلقاه ببسالة، ولم ينجِّنا الآلهة من أخطار كثيرة إلا ليهلكونا اليوم، لنمُتْ يا منتور، لنمت، فعزائي أن أموت معك، ومن العبث أن نناضل عن حياتنا حيال العاصفة.»

وإليكِ جواب منتور: «حقًّا أن الشجاعة تجد بعض الوسائل دائمًا، ولا يكفي الاستعداد لتلقي الموت بجنانٍ ثابت، بل يجب على الإنسان، من غير أن يخشى الموت، أن يبذل جميع جهوده درءًا للموت، فلنمسك أنا وأنت، مقعدًا كبيرًا من مقاعد هؤلاء الجدافين، ولا نُضِعْ دقيقةً لا ننقذ فيها حياتنا على حين يأسف هذا الجمع الوجل المرتبك على حياته من غير أن يتخذ وسيلةً لنجاتها.»

ويتناول فأسًا من فوره، ويتم بها قطع ذاك الصاري المحطم الذي كان مائلًا إلى البحر فيميل السفينة إلى جنبها، ويقذف الصاري خارج المركب ويثب فوقه بين الأمواج الهائجة، ويناديني باسمي ويشجعني على اتباعه، ويكون الوضع كحال الدَّوْحَة[٢] التي تُجْمِع الرياح على مهاجمتها فتظل ثابتة الأصول، ولا تصنع الزوبعة غير هز فروعها، ومن الحق أن يقال: إن منتور كان طليق الوجه هادئًا فضلًا عن ثباته وبسالته فيلوح أنه كان يسيِّر الرياح والبحر، وأتَّبِعُه، ومن ذا الذي يستطيع ألا يتَّبعه وقد تلقى الشجاعة عنه؟

ونقود أنفسنا بأنفسنا على هذا الصاري العائم، وكان هذا غوثًا لنا لإمكان جلوسنا عليه ولو وجب علينا أن نسبح بلا انقطاع لم تلبث قوانا أن تُنهك من فورها، وكانت الزوبعة تدير هذه الخشبة الكبيرة غالبًا، فنجد أنفسنا غائصين في البحر، وهنالك كنا نشرب ماء الموج المالح الذي يجري في أفواهنا وأنوفنا وآذاننا، وكنا نضطر إلى مكافحة الموج كيما نكون فوق الصاري، ومما كان يحدث أحيانًا أن تمر من فوقنا موجة عالية كالجبل فنظل ثابتين لكيلا يفلت منا، بهذه الرجة، ذاك الصاري الذي كان مدار أملنا الوحيد.

وبينا كنا على تلك الحالة الكريهة قال لي منتور الذي كان هادئًا هدوءه الآن على هذا المقعد من العشب: «أتظن، يا تلماك، أن تُترك حياتك فريسةً للرياح والأمواج؟ أوَ تظن أنها قادرة على إهلاكك بلا أمر من الآلهة؟ كلا، كلا، إن الآلهة يقضون في كل أمر، فالآلهة، لا البحر، هم الذين يجب أن يُخشوا إذن، ولو كنت في الهُوَى لاستطاعت يد جوبيتر أن تنشلك منها، ولو كنت ترى في جبل الألنب أن النجوم تحت قدميك لاستطاع جوبيتر أن يُلقيك في قعر الهوة، أو أن يدهورك في الدرك الأسفل من النار.»

وكنت أنصت لهذا الكلام وأعجب به، فأجد فيه شيئًا من السلوان، ولكنني لم أكن من حرية الفكر بحيث أجيب عنه، وكان لا يراني مطلقًا، وكنت لا أستطيع أن أراه، ونقضي الليلة كلها مرتجفين بردًا فنبدو من شباه الأموات، وذلك من غير أن نعرف أين تلقينا الزوبعة، ثم أخذت الرياح تسكن، وكان البحر، وهو يهدر، يشابه الرجل الذي دام غضبه طويلًا فلم يبقَ فيه غير قليل كدرٍ وهيجان ما أعياه دوام الصولة، أي إنه يزمجر خفيةً فتكاد أمواجه تماثل الأتلام في الحقل المحروث.

وبينا كنا هكذا فتح الفجر أبواب السماء للشمس مبشرًا بنهارٍ جميل، ويظهر الشرق مشتعلًا نارًا، وتفر الكواكب عند وصول فيبوس، وتتوارى، ونبصر البر من بعيد، وتدنينا

[٢] الدوحة: الشجرة العظيمة المتسعة.

الريح منه، هنالك شعرت بالأمل يدب في قلبي، ولكننا لم نرَ أحدًا من رفقائنا، وقد دلت الظواهر على أنهم فقدوا الشجاعة فأغرقتهم الزوبعة جميعًا مع المركب، ولما صرنا بجانب البر دَفَعَنَا البحر نحو رءوس الصخر التي كانت تحطمنا، ولكننا بذلنا جهدًا في مقابلتها بطرف صارينا الذي جعل منتور منه ما يجعل الربان الماهر من أصلح السكانات، وهكذا تجنبنا هذه الصخور الكريهة ملاقين في نهاية الأمر ساحلًا رائعًا سهلًا حيث سبحنا بلا عناء ونزلنا إلى الرمل، فعلى هذا الرمل أبصرْتِنا أيتها الإلهة العظيمة التي تسكن هذه الجزيرة، وهناك تفضلتِ بقبولنا.

الجزء السادس

بُهرت كلبسو بقصة تلماك فشغفها تلماك حبًّا، وبذلت كل ما تستطيع لتثير فيه عين الإحساس، وجدت عونًا كبيرًا في فينوس التي أتت بكوبيدون إلى الجزيرة آمرةً إياه أن يُصيب قلب تلماك بسهامه، يُصاب تلماك من غير أن يعرف فيرغب متذرعًا بشتى الذرائع أن يقيم بالجزيرة على الرغم من نصائح منتور الحكيمة، لم يلبث تلماك أن شعر بولعٍ شديد نحو الحورية أكاريس فأثار هذا غيرة كلبسو وغضبها، تحلف بستكس أن يخرج تلماك من جزيرتها وتلح على منتور أن ينشئ مركبًا يوصله إلى إيتاك، بينا كان منتور يسير بتلماك نحو الساحل للسفر بحرًا أحرق الحوريات السفينة، ساور تلماك سرور خفي عند رؤية اللهب، وأبصر الحكيم منتور ذلك فألقى تلماك في البحر كما ألقى نفسه، وذلك ليبلغا سبْحًا مركبًا آخر كان راسيًا بالقرب من جزيرة كلبسو.

أتم تلماك حديثه فأخذ جميع الحوريات يتبادلن النظرات بعد أن كنَّ ساكناتٍ محدِّقاتٍ إليه، ويقول بعضهن لبعضٍ مع العجب: «مَن هذان الرجلان العزيزان على الآلهة كثيرًا إذن؟ وهل سُمع وقوع مغامراتٍ عجيبة بهذا المقدار؟ إن ابن أوليس يفوق أباه بلاغةً وحكمة وقيمة، ويا له من وجهٍ! ويا له من جمال! ويا له من لطف! ويا له من تواضع! ويا له من نبل وعظمة! لو لم نعرف أنه ابن إنسان لسهل علينا أن نظن أنه باخوس أو مركور أو أبولون العظيم، ولكن مَن هو منتور هذا الذي يظهر رجلًا بسيطًا غامضًا متوسط الحال؟ إذا ما نُظر إليه عن كثب أُبصِر فيه ما لا يُعبَّر عنه من سموٍّ يعلو به الإنسان.»

وكانت كلبسو تسمع هذا الكلام مضطربةً اضطرابًا لم تقدر على إخفائه، وكانت عيناها التائهتان تترددان بلا انقطاع بين منتور وتلماك، وبين تلماك ومنتور، وكانت تريد أحيانًا أن يبدأ تلماك مجدَّدًا حديثه الطويل عن مغامراته، ثم تسكت عما تريد بغتةً، ثم تنهض فجأةً وتأخذ معها تلماك وحده إلى غابة آسٍ حيث لم يغِب عنها أن تعرف منه هل

منتور إله في صورة إنسان، ولم يستطع تلماك أن يقول شيئًا عن ذلك؛ وذلك لأن منرفا لم تطلعه قط على حقيقة أمرها بسبب شبابه البالغ، وذلك حينما أخذت ترافقه في صورة منتور، ولم تأتمنه على سرها بما فيه الكفاية بعدُ حتى تُودِعَه مقاصدَها، ثم إنها كانت تريد امتحانه بأعظم الأخطار، فلو عرف أن منرفا معه لركن إلى عونها كثيرًا ولم يجد أي عناء في ازدراء أفظع المكاره؛ ولذا فقد كان يحسب أن منرفا هذه هي منتور، فذهبت جميع حيل كلبسو لمعرفة ما كانت ترغب في الاطلاع عليه أدراج الرياح.

وفي تلك الأثناء كان جميع الحوريات المجتمعات حول منتور يجدن لذةً في طرح أسئلة عليه، فسألته إحداهن عن ظروف سفره إلى إثيوبية، وأرادت حورية أخرى أن تعرف ماذا شاهد في دمشق، وسألته ثالثة هل كان يعرف أوليس قبل حصار تروادة، ويجيب عن جميع ذلك بدماثةٍ، وتبدو أجوبته مملوءةً لطفًا، وإن كانت بسيطة.

ولم تدعْ كلبسو هؤلاء في الحديث طويلًا، فقد عادت، وبينما كانت حورياتها يقتطفن زهورًا شادياتٍ لتسلية تلماك أخذت كلبسو منتور على حدةٍ حملًا له على الكلام، وما كان بخار النوم العذب ليسري في رجل موعوك مثقل العينين تَعِبِ الأعضاء سريانًا أرق من كلام الإلهة المدالي بانسيابه في فؤاد منتور لسحره، ولكنها كانت تشعر دائمًا بما لا يُعبر عنه من رفض لجميع جهودها وهزء بفتونها، فقد كان منتور، الساكن في مقاصده الحكيمة، يدعُ كلبسو تلح عليه في السؤال مع ظهوره كالصخرة الوعرة التي تحجب جبهتها في السحب ساخرةً بصولة الرياح؛ أي كان يدعها ترجو إرهاقه بأسئلتها واستخراج الحقيقة من صميم فؤاده، ولكنها، وهي تعتقد إرواء فضولها، كانت آمالها تزول، وذلك أن ما يخيَّل إليها أنها بلَغَتْه كان يفلت منها بغتةً، وذلك أن ما كان يصدر عن منتور من جوابٍ موجز يلقيها في الشكوك ثانيةً.

وهكذا قضت أيامًا تصانع فيها تلماك تارةً، وتبحث، تارةً أخرى، عن الوسائل التي تفصله بها عن منتور بعد أن عادت لا تأمل حمل منتور على الكلام، فقد استعملت حورياتها الحسان لإيقاد نار الغرام في قلب تلماك الشاب وصولًا إلى هذا الغرض، وقد أتت إلهة أقوى منها لمساعدتها على الفوز بهذا.

وكانت فينوس تغلي حقدًا على منتور وتلماك لما أظهرا من ازدراء عبادتها في جزيرة قبرس، ولم تُطِقْ أن ترى ما اتفق لهذين الرجلين المغامرين من نجاةٍ من الرياح والبحر في العاصفة التي أثارها نبتون، فقدمت إلى جوبيتر شكاوى مرةً حول ذلك، غير أن أبا الآلهة هذا لم يُرد أن يطلعها، وهو يتبسم، على أن منرفا، وهي في صورة منتور، هي التي أنقذت

ابن أوليس، وإنما أذن لفينوس في البحث عن وسائل أخرى للانتقام من هذين الرجلين، وتُغادر فينوس جبل الألنب، وتغفل عن العطور الذكية التي تُحرَق في محاريبها ببافوس وسيتر وإدالية، وتطير في عربتها المقرونة بالحمائم، وتنادي ابنها، ويُنعِم الألم على وجهها بألطافٍ جديدة، وتقول: «أترى، يا بني، هذين الرجلين اللذين يزدريان سلطانك وسلطاني؟ ومن يرغب في عبادتنا بعد الآن؟ اذهب وأصب بسهامك هذين القلبين القاسيين؛ ولذا فانزل معي إلى هذه الجزيرة، فسأكلم كلبسو.»

نطقت بهذا، وشقت طبقات الهواء ضمن سحاب ذهبي، وحضرت أمام كلبسو التي كانت، في تلك الدقيقة، وحدها على حافَة عين بعيدة من غارها، وقالت لها: «أيتها الإلهة الشقية! لقد ازدراك أوليس، ويُعِدُّ ابنُه، الذي هو أقسى منه، ازدراءً مماثلًا لك، غير أن رب الغرام «كوبيدون» يأتي بنفسه للانتقام لك، فسأتركه لك، وهو سيقيم بين حورياتك كما كان الصبي باخوس قد أُرضِع من قِبَل حوريات جزيرة نكسوس، وسينظر إليه تلماك مثل ولد عادي، فلا يُمكن أن يحذره، وهو لا يلبث أن يشعر بقوته»، قالت هذا، وصعدت في السحاب الذي خرجت منه، وتركت خلفها رائحةً ذكية سطعت في جميع غاب كلبسو.

وحل رب الغرام بين ذراعي كلبسو، ومع أن كلبسو إلهة فإنها شعرت بلهب سرى في صدرها، وأرادت أن تُسرِّي عن نفسها فلم تُعَتِّم أن دفعته إلى الحورية أكاريس التي كانت بجانبها، ولكن، وا حسرتاه، ما أكثر ما اعتراها بعدئذٍ من ندمٍ على فعلها هذا!

وما كان ليبدو في البداءة شيءٌ أكثر سذاجةً ولطفًا وأنسًا وسلامةً وملاحة من هذا الصبي، ومن يره داعبًا مداليًا باسمًا دائمًا يقطع بأنه لا يصدر عنه غير السرور، ولكن الإنسان لا يكاد يركن إليه حتى يشعر بما يمازجه من سمٍّ لا يعبَّر عنه، فما كان هذا الصبي الماكر المخادع ليلاطف إلا ليخون، وما كان ليضحك إلا عن خبائث قاسيةٍ أتى بها أو يريد أن يصنعها، وما كان ليدنو من منتور الذي يُرهِبُه وقارُه فيشعر بأن هذا المجهول لا يُكْلَمُ فلا يمكن أن يطعنه أيٌّ من سهامه، ولم تلبث الحوريات أن شعرن بما يوقد هذا الصبي الماكر من نار، ولكن مع شدة إخفائهن ما أصاب به قلوبهن من لهيب.

ويرى تلماك هذا الصبي الذي يداعب الحوريات ويدهش من دعته وروعته، ويعانقه، ويضعه على ركبتيه تارةً وبين ذراعيه تارةً أخرى، فيشعر بهمٍّ في نفسه لا يستطيع أن يجد له سببًا، وهو كلما حاول المزاح البريء اضطرب وارتخى، قال تلماك لمنتور: «ترى كثرة اختلاف هذه الحوريات عن نساء جزيرة قبرس اللائي يصدم جمالهن الشعور لعدم احتشامهن، فعلى هؤلاء الحسان الخالدات تبدو البراءة والحياء وفتون السذاجة.»

قال هذا واحمرَّ وجهه من غير أن يعرف السبب، أجل، إنه كان لا يستطيع الإمساك عن الكلام، ولكنه إذا ما أخذ يتكلم لم يقدر على الاستمرار، فقد كان كلامه متقطعًا غامضًا، خاليًا من كل معنى أحيانًا، ويقول منتور له: «أي تلماك، لم تكن أخطار قبرس شيئًا يُذكر إذا ما قابلْتَ بينها وبين التي لا تحذرها الآن، فالمنكر الفاحش يثير النفور وخلع العذار يثير السخط، وأما الجمال المحتشم فأشد خطرًا، وذلك أن الإنسان إذا ما أحب ظن أنه لا يحب غير الفضيلة، وهو لا يدري أنه يقع من حيث لا يشعر فريسة مغرياتٍ خادعةٍ لهوًى لا يُدرك أمره إلا بعد فوات الوقت الذي يُطفأ فيه تقريبًا، فاجتنب، يا تلماك العزيز، هؤلاء الحوريات، اجتنبهن، فهن لا يظهرن رزيناتٍ إلا لخداعك، اجتنب أخطار شبابك، ولكنَّ أخص ما يجب عليك أن تجتنبه هو هذا الصبي الذي لا تعرفه، فهو رب الغرام الذي أتت به أمه إلى هذه الجزيرة لتعاقبك على ما أبديت من ازدراءٍ لعبادتها في سيتر، وقد أصاب فؤاد الإلهة كلبسو التي شغفتَها حبًّا، وقد أشعل لواعج الحب في الحوريات اللائي يحطن بك، وقد ألهبك، أيها الشاب المسكين، من غير أن تعرف ذلك تقريبًا.»

وكان تلماك يقاطع منتور كثيرًا قائلًا له: «لِمَ لا نقيم بهذه الجزيرة؟ فقد هلك أوليس، ولا بُدَّ من أن يكون اليَمُّ قد ابتلعه منذ زمن طويل، وما كانت بنلوب لتقاوم طالبي يدها الكثر بعد أن رأت عدم رجوع أبي، ولا بُدَّ من أن يكون أبوها إيكار قد أكرهها على قبول زوج جديد، وهل أعود إلى إيتاك لأراها ملزمةً بروابط جديدةٍ ناقضةً للعهد الذي قطعته لأبي؟ لقد نسي الإيتاكيون أوليس، ولا نعود إلى إيتاك إلا للبحث عن موتٍ ثابت ما دام جميع عاشقي بنلوب قد شغلوا جميع منافذ الميناء وصولًا إلى هلاكنا عند رجوعنا.»

واسمع جواب منتور: «هذه هي نتيجة الهوى الأعمى، وذلك أنه يُبحَث بدقةٍ عن جميع البراهين التي تسوِّغه، وأنه يُلجَأ إلى اللف والدوران خشية الوقوف على كل دليل ينقضه، ولا يبلغ الإنسان ما يبلغ إلا خَدعًا لنفسه وخنقًا لندمه، وهل نسيت ما صنع الآلهة جلبًا لك إلى وطنك؟ وكيف خرجت من صقلية؟ ألم تتحول جميع المصائب التي لاقيت في مصر إلى يسرٍ بغتةً؟ وأية يدٍ خفية أنقذتك من الأخطار التي كانت تهدد رأسك في مدينة صور؟ وهل تجهل، بعد هذه العجائب، ما تعد لك الأقدار بعد؟ ولكن ما أقول؟ أنت غير أهل لذلك، وأما أنا فإنني ذاهب، وأعرف كيف أخرج من هذه الجزيرة، يا لك من ولد نذل لوالد بالغ الحكمة بالغ الكرم! اقضِ هنا حياة تخنثٍ بين النساء خاليًا من الشرف، اصنع، على الرغم من الآلهة، كل ما اعتقد أبوك أنه غير خليقٍ به.»

أصاب هذا الكلام الساخر تلماك في صميم فؤاده، ولان قلبه حيال منتور، ومازج ألمه حياء، وخاف غضب هذا الرجل البالغ الحكمة، الذي هو مدين له كثيرًا، كما خاف انصرافه،

ولكن ما ساوره من هوًى ناشئ، لا يدري ما هو، حوَّله إلى رجلٍ آخر، قال لمنتور دامع العينين: «ماذا إذن؟! أنت لا تبالي بالخلود الذي عرضته عليَّ الآلهة!»

وإليك جواب منتور: «لا أبالي بشيء يباين الفضيلة ويخالف أوامر الآلهة، فالفضيلة تدعوك إلى وطنك حتى ترى أوليس وبنلوب، والفضيلة تمنعك من الإذعان لهوًى أرعن، والآلهة، الذين أنقذوك من مخاطر كثيرة كيما يعدونك لمجد يعدل مجد أبيك، يأمرونك بمغادرة هذه الجزيرة، ورب الغرام وحده، هذا الباغي المخزي وحده، هو القادر على إبقائك هنا! وَيْ! ما تصنع بحياةٍ خالدة خالية من الحرية والفضيلة والمجد؟ هذه الحياة أكثر شقاءً لعدم نهايتها.»

لم يجب تلماك عن هذا القول بغير تأوهاته، وإنما كان يود، تارةً، لو ينزعه منتور من هذه الجزيرة على الرغم منه، وكان يود، تارةً أخرى، لو يتأخر هو وينصرف منتور فلا يرى أمام عينيه هذا الصديق الشديد الذي كان يلومه على ضعفه، وكانت جميع هذه الأفكار المتناقضة تقلق قلبه تناوبًا فلا يستقر أي منها على حال؛ أي كان قلبه كالبحر الذي تعبث به جميع الرياح المتخالفة، وكان يبقى، في الغالب، مستلقيًا ساكنًا على ساحل البحر، وكان يبقى، في الغالب، قائمًا في أقاصي غابةٍ كئيبةٍ ساكبًا دموعًا سخينة مُعْوِلًا كزئير الأسد، ويضنى، وتغور عيناه مملوءتين لهيبًا، ومن كان يراه شاحبًا كامدًا مشوهًا لم يظن أنه تلماك مطلقًا، ويزول عنه جماله ومزاحه وزهوه النبيل، وكان ينهار، فيشابه الزهرة التي تتفتح صباحًا وتنشر في الحقل روائح ذكيةً حتى إذا اقترب المساء أخذت تذوِي مقدارًا فمقدارًا، وتَمَّحِي ألوانُها اللامعة، وتذبل، وتجف، وينحني رأسها الجميل، ويعود هذا الرأس عاجزًا عن الوقوف، وهكذا كان ابن أوليس على أبواب الموت.

ويُبصر منتور عجز تلماك عن مقاومة هواه العنيف فتلوح له خطة بالغة اللباقة ينقذه بها من خطر عظيم جدًّا، وذلك أنه لاحظ هيام كلبسو بتلماك، وهيام تلماك بالحورية الفتاة أكاريس، عن أذًى من الطاغية رب الغرام الذي يسعى ألا يُحَبَّ الشخصُ من قِبَل من يحب، فعزم منتور على إثارة غيرة كلبسو.

وكان على أكاريس أن تأتي بتلماك للصيد، فقال منتور لكلبسو: «ألاحظ في تلماك ولعًا بالصيد لم أره فيه سابقًا، وقد أخذ هذا اللهو يُلقي فيه نفورًا من أي لهو آخر، فعاد لا يحب غير الغاب والجبال المهجورة، فهل أنتِ، أيتها الإلهة، هي التي أوحت إليه بهذا الكَلَف الشديد؟»

سمعت كلبسو هذا الكلام فاعتراها حزن شديد ممزوج بألم، ولم تستطع أن تتمالك عن الجواب بقولها: «كيف يعجِز تلماك، الذي ازدرى جميع ملاذِّ جزيرة قبرس، عن مقاومة

جمال إحدى حورياتي المتوسط؟ وكيف يباهي بإتيانه أعمالًا عجيبة كثيرة وهو الذي تُلين الشهوة فؤاده بدناءة فيلوح أنه لم يُولد إلا لقضاء حياةٍ خاملة بين النساء؟»

ويلاحظ منتور مقدار الغيرة التي تأكل قلب كلبسو، فلا يزيد شيئًا على ما قال، وذلك خشية إثارة حذرها منه، وإنما أظهر لها وجهًا مكروبًا كامدًا، فأطلعته الإلهة على همومها حول جميع الأمور التي ترى مبديةً تذمرًا بلا انقطاع، وتشتاط غيظًا من نبأ الصيد الذي أخبرها به منتور عالمةً أن تلماك لا يسعى إلا ليتوارى عن الحوريات الأُخر فيكلم أكاريس، حتى إنه عُرض عليه أن يقوم بصيد ثانٍ حيث يصنع ما صنع في الأول كما أبصرت، وتريد أن تفسد تدابير تلماك فتعزم على اتباعهما، ثم لم تستطع تخفيف غضبها فخاطبته بقولها: «ألهذا أتيت، أيها الشاب الجريء هذه الجزيرة، إذن، فارًّا من الغرق العادل الذي كان يعده نبتون لك ومن انتقام الآلهة؟ أَدَخَلت هذه الجزيرة، الموصدة دون كل إنسان؛ لتستخف بسلطاني وتزدري الحب الذي أظهرت لك؟ فيا آلهة الألنب وستكس استمعوا إلى إلهةٍ تعسة! وبادروا إلى خزي هذا الغادر، هذا الكنود، هذا الملحد! وهل تستطيع أن تحتمل مكاره أطول مما احتمل أبوك وأقسى ما دمت أشد قسوةً منه وأكثر جَوْرًا؟ كلا، كلا، أدعو ألا تعود إلى وطنك، إلى إيتاك البائسة الهزيلة التي لم تستحِ من تفضيلها على الخلود! أو أن تهلك في سواء البحر حين ترى وطنك من بعيدٍ فتعبث الأمواج بجسمك وتقذفه فوق رمل هذا الساحل من غير دفن فترى عيناي العِقْبَانَ وهي تأكله وتراه التي تحبها أيضًا، أي تراه، فيمزق منظره فؤادها، وتكون لي سعادة بيأسها!»

وتظهر كلبسو، وهي تقول هذا، محمرة الناظرتين ملتهبة الباصرتين، فلا تستقر عيناها في أية جهةٍ كانت، وتبدوان بما لا يُعرب عنه من كآبة ودجون، وكانت تستر خديها المرتجفتين نقاط سود أو زرق فتغير لونها في كل دقيقة، وما أكثر ما كان يعلو وجهها شحوب قاتل فلا تذرف عيناها كثيرًا كما في الماضي، وكان يلوح أن الغضب واليأس قد استنزفا مآقيهما فلا تكادان تريقان دمعًا على خديها، وكان منتور يلاحظ جميع حركاتها، وعاد لا يكلم تلماك فيعامله مثل مريضٍ مرضًا عُضالًا يُعرض عنه، وكان يُلقي عليه نظرات حنانٍ في الحين بعد الحين.

وكان تلماك يحس عظم ذنبه وأنه غير جديرٍ بصداقة منتور، وكان لا يجرؤ أن يرفع عينيه خشية وقوعهما على عيني صديقه الذي ينطوي صمته على تجريمٍ له أيضًا، ومما كان يحدث أحيانًا أن يبتغي الارتماء على عنقه، وأن يُشهده على مقدار ألمه من ذنبه، ولكنه كان يُمسك عن هذا حياءً تارةً وخشية الذهاب إلى أبعد مما يود اتقاءً للخطر تارةً أخرى؛

وذلك لأن الخطر كان يبدو له عذابًا مستعذبًا؛ ولأنه لم يزل عاجزًا عن العزم على قهر هواه الأرعن.

وكان آلهة الألنب وإلاهاته مجتمعين صامتين صمتًا عميقًا محدقين إلى جزيرة كلبسو ليروا هل يكون الفوز لمنرفا أو لرب الغرام، ورب الغرام هو الذي ألهب الجميع في الجزيرة ضاحكًا على الحوريات، وأما منرفا، الظاهرة في صورة منتور، فقد كانت تستعين بالغيرة، الملازمة للغرام، على رب الغرام نفسه، وكان جوبيتر قد عزم على البقاء محايدًا ناظرًا إلى هذا الصراع.

وفي تلك الأثناء كانت أكاريس تخشى إفلات تلماك منها فتتخذ مئات الحيل تثبيتًا له على صِلاته، وكانت على موعد معه للذهاب إلى الصيد مرةً ثانية فبدت مثل ديانا لباسًا، وقد أسبغت فينوس وكوبيدون عليها فتونًا جديدًا حجب جمالها به جمال الإلهة كلبسو نفسها، وتنظر كلبسو إليها عن بعدٍ وتنظر إلى خيالها في أصفى ينابيعها فيعتريها خجل من الحال التي وجدت نفسها عليها، هنالك توارت في أقصى غارها، وخاطبت نفسها قائلة: «لا يفيدني العزم على تكدير صفو هذين العاشقين، إذن، بأن أعرب عن عزمي على الاشتراك في هذا الصيد، وما أَرَبِي فيه؟ وهل أذهب لنصرها ويكون لجمالي نفع برفع جمالها؟ وهل علي أن أصنع ما يزيد به تلماك ولعًا بأكاريس حين يراني؟ يا لِيَ من شقية! ماذا صنعت؟ كلا، لن أذهب إلى هناك، ولن يذهبا إلى هناك أيضًا، الأفضل أن أمنعهما من ذلك، إني ذاهبة للقاء منتور، وسأرجو منه أن ينقل تلماك، وسيأتي به إلى إيتاك، ولكن ما أقول؟ وما أكون إذا ما انصرف تلماك؟ أين أنا؟ ما يبقى عليَّ أن أفعل؟ أي فينوس القاسية! لقد خدعتِني! يا للعطاء الغادر الذي قدمتِ لي! أيها الصبي المفسد، أي رب الغرام الوبئ! لم أفتح لك فؤادي إلا رجاء عيشي سعيدةً مع تلماك، وأنت لم تحمل لهذا القلب غير الكدر واليأس! لقد تمرد عليَّ حورياتي، وعادت ألوهيتي لا تنفع لغير جعل شقائي أبديًّا، آه! لو كنت مختارةً في قتل نفسي حتى أضع حدًّا لآلامي، أي تلماك، يجب أن تموت ما دمتُ لا أستطيع الموت، سأنتقم لنفسي من جحودك، وسترى الحورية ذلك، وسأطعنك على مشهدٍ منها، ولكنني أضل، أي كلبسو التعسة! ما تريدين؟ أتودين هلاك بريء ألقيتِه بنفسك في هوة المصائب هذه؟ إنني أنا التي ألهبت أحشاء تلماك الطاهر، يا للبراءة! يا للفضيلة! يا لمقت المنكر! يا للشجاعة حيال الملاذ الشائنة! أوَ كان يجب إلقاء السم في فؤاده؟ وليتركني! حسنًا! ألا يجب أن يتركني أو أن أراه مملوءًا ازدراءً لي، فلا يعيش إلا من أجل منافستي؟ كلا، كلا، لا أقاسي غير ما استوجبته، اذهب يا تلماك! اذهب إلى ما وراء البحار، دع كلبسو بلا عزاء،

فلا تحتمل الحياة ولا تجد الموت، دعها بلا عزاء لابسةً ثوب الخزي قانطةً مع أكاريس المختالة.»

هذا ما خاطبت به كلبسو نفسها وهي في غارها وحدها، ولكنها تخرج من فورها صائلةً وهي تقول لمنتور: «أين أنت يا منتور؟ أهكذا تنصر تلماك حيال المنكر الذي يسقط فيه؟ أنت تنام حين يسهر رب الغرام ضدك، لا أستطيع أن أصبر طويلًا على ما تُبدي من عدم اكتراثٍ خسيس، أو تنظر غير مبالٍ إلى ابن أوليس وهو يشين أباه ويهمل مصيره الرفيع؟ وهل وَلَّوْك، أو أنا التي ولَّوْها، أمر العناية به؟ إني أنا التي تبحث عن الوسائل التي يشفى بها فؤاده، وأما أنت فلا تصنع شيئًا، يوجد في أقاصي هذه الغابة أشجار حَوَرٍ كبيرة صالحة لبناء سفينة، وهناك أنشأ أوليس ذاك المركب الذي خرج به من هذه الجزيرة، وفي ذاك المكان تجد غارًا عميقًا حاويًا جميع الأدوات اللازمة للتشذيب ولوصل ما بين جميع قطع المركب.»

ولم تكد كلبسو تنطق بهذه الكلمات حتى ندمت، ولم يُضِع منتور دقيقةً واحدة، فقد ذهب إلى ذلك الغار ووجد الأدوات وشذب أشجار الحور، وبني في يومٍ واحدٍ سفينةً صالحة للسير، ولا غرو، فما عليه منرفا من قدرة ومهارة لا يحتاج إلى وقت طويل لإنجاز عظيم الأعمال.

ويعتري كلبسو ألم نفسي هائل، فتارةً تريد أن ترى تقدُّم عمل منتور، وتارةً تريد عدم ترك مكان الصيد حيث تكون أكاريس تامة الحرية مع تلماك، فما كانت الغيرة التي تساورها لتسمح لها أن تغفل عن العاشقين مطلقًا؛ ولذا فقد سعت أن تحول الصيد إلى الناحية التي تعلم أن منتور يصنع السفينة فيها، فكانت تسمع ضربات الفأس والمدق لما تلقي من السمع، فترتعش عند كل ضربة، ولكن مع خوفها، في الوقت نفسه، أن يؤدي إعمالُ فكرها إلى غفلتها عن حركةٍ أو نظرةٍ يلقيها تلماك نحو الحورية الفتاة.

وكانت أكاريس، حينئذٍ، تقول لتلماك ساخرة: «ألا تخاف أن يلومك منتور على مجيئك للصيد وهو غائب؟ آه! يا لك من إنسانٍ يرثَى له إذ يعيش تحت إشراف سيدٍ جبار! لا شيء يستطيع تخفيف صرامته، وهو يتظاهر بالعداء لكل لذة، فلا يطيق تمتعك بأيٍّ منها، وهو يجعل لك جنايةً من أكثر الأمور براءةً، أجل، يمكن أن تكون تابعًا له أيام كنت قاصرًا عن إدارة نفسك بنفسك، وأما الآن فقد بلغت من الرشد ما لا ينبغي معه أن تعامَل مثل صبي.»

وينفذ هذا الكلام الماكر فؤاد تلماك، ويملَؤُه غيظًا من منتور راغبًا في إلقاء نِيرِه عنه، ويخشى أن يراه ثانية، ولم يُجِب عن قول أكاريس بكلمة ما دام مضطربًا، ثم يحل وقت

المساء وينتهي دور الصيد من الناحيتين على مضضٍ دائم، ويؤتى إلى زاوية في الغابة قريبة من المكان الذي كان منتور يعمل فيه نهاره كله، وترى كلبسو من بعيدٍ أن إنشاء السفينة قد تم فيغشى عينيها في الحال دخان كثيف كالذي يغشى الإنسان عند الموت، وتصطكُّ ركبتاها وتخور، ويستولى على جميع أعضائها عرق بارد، فتضطر إلى الاتكاء على الحوريات اللائي كن بجانبها، وتمد أكاريس يدها إليها دعمًا لها، وتدفعها ملقيةً نظرةً هائلةً عليها.

ويرى تلماك هذا المركب من غير أن يرى منتور الذي انصرف بعد أن أتمَّ عمله، ويسأل الإلهة عن صاحب هذا المركب وعن سبب إعداده فلم تقدر على الجواب في بدء الأمر، ثم قالت: «أمرتُ بصنعه طردًا لمنتور، فلن يزعجك بعد اليوم هذا الصديق الصارم الذي يقاوم سعادتك ويغدو حاسدًا لك إذا ما صرت خالدًا.»

تلماك (هاتفًا): «أو يتركني منتور؟! لا ضير! أي أكاريس! إذا ما فارقني منتور عاد لا يكون لي أحدٌ غيرك.»

نطق تلماك بهذه الكلمة عن وجْد غرامي، ثم رأى أنه أخطأ في قولها، ولكنه لم يكن مختارًا في إعمال فكره حول معنى كلامه، ويظل الجمع صامتًا عن دَهَش، ويحمر وجه أكاريس، وتطرق، وتبقى في الخلف حائرةً غير جَسُورٍ على الظهور، ولكن بينا كان الحياء باديًا على وجهها كان السرور يساور قلبها، وعاد تلماك لا يُدرك حالته النفسية ولا يقدر أن يحسب أنه تكلم بلا رصانة، وما صدر عنه كان يظهر له مثل حلمٍ، ولكنه حلم كان يبدو به مرتبكًا مضطربًا خجلًا.

وتلوح كلبسو أشد صولةً من لبوةٍ خُطفت أشبالها، وتعدو في الغابة هائمةً لا تدري أين تذهب، ثم ترى نفسها في مدخل غارها حيث كان منتور ينتظرها، قالت كلبسو: «اخرجا من جزيرتي أيها الغريبان، فقد جئتما إليها لإقلاق راحتي، ليبتعد عني هذا الشاب الأرعن، وسوف تشعر، أيها الشيخ الوقح، بما يمكن أن يؤدي إليه غضب إلهةٍ مثلي إذا لم تُبعده من هنا حالًا، عدت لا أريد أن أراه، عدت لا أطيق أن تكلمه أية واحدةٍ من حورياتي، ولا أن تنظر إليه، أقسم على ذلك بمياه ستكس، وإنه لقسم يرتجف منه الآلهة أنفسهم، ولكن اعلم، يا تلماك، أن مصائبك لمَّا تنتهِ، وأنك لن تخرج من جزيرتي، أيها الكنود، إلا لتكون فريسة مصائب جديدةٍ، وسأنتقم، وستأسف على كلبسو، ولكن على غير جدوى، فلا يزال نبتون غاضبًا على أبيك الذي جدَّف عليه في جزيرة صقلية، ملتَمَسًا من قِبَل فينوس التي

ازدريتَها في جزيرة قبرس فيعد لك زوبعةً، وسترى أباك الذي لم يمت، ولكن ستراه من غير أن تعرفه، ولن تجتمع به في إيتاك إلا بعد أن يعبث بك أقسى قدر، اذهب، أتوسل إلى الملائكة أن تنتقم لي، وهل تستطيع، وأنت متعلق برءوس صخرةٍ في وسط البحار مصاب بصاعقة، أن تضرع إلى كلبسو التي ستُسَرُّ بعذابك أيَّما سرور!»

قالت كلبسو ذلك، ولكن مع استعدادها لاتخاذ قرارٍ ينقض ذلك؛ وذلك لأن الحب أيقظ في فؤادها ميلًا إلى إبقائه، قالت كلبسو في نفسها: «ليعش هنا، ليقم هنا، فلعله يشعر أخيرًا بما صنعت في سبيله، ولا تستطيع أكاريس أن تمنحه الخلود كما أستطيع، أي كلبسو البالغة العمى! لقد خنت نفسك بيمينك؛ ولذا فأنت ملزمة بعهدك، وما كانت مياه ستكس لتترك لك أملًا بعد القسم الذي صدر عنك»، أجل، لم يسمع أحد بهذا الكلام، ولكن غضب زبانية العذاب كان باديًا على وجهها، كما كان سم كوسيت الوبيء ينسم من فؤادها كما يلوح.

ويشتاط تلماك غيظًا، وتُدرك كلبسو ذلك، وأي شيء لا يُوحي به الغرام الغيور؟ ويضاعف نفور تلماك هيجان الإلهة، فتكون ككاهنة باخوس التي تملأ الهواء هديرًا فتدوِّي به جبال تراكية العالية، وتعدو في الغاب حاملةً سهمًا بيدها مناديةً جميع الحوريات مهددة بطعن كل مَنْ يتخلف منهن، ويركضن جمْعًا مذعوراتٍ بهذا الوعيد، حتى إن أكاريس تتقدم دامعة العينين ناظرةً إلى تلماك من بعيد غير قادرة على الكلام إليه، وترتجف الإلهة إذ تراها بجانبها، وتشعر بغضبٍ جديد يساورها إذ ترى الكرب يزيد أكاريس جمالًا، وذلك بدلًا من أن تهدأ إذ ترى خضوع هذه الحورية لها.

ويبقى تلماك مع منتور وحده في تلك الأثناء، ويقبِّل ركبتيه (لأنه لا يستطيع تقبيله على شكلٍ آخر أو النظر إليه)، ويسكب سيلًا من الدموع، ويريد الكلام، ويخونه صوته، ويُرْتَجُ عليه، ولا يدري ما يجب أن يصنع، ولا ما صنع، ولا ما يريد، وأخيرًا يقول صارخًا: «أي والدي الصادق! أي منتور! أنقذني من مصائب كثيرةٍ، لا أطيق فراقك، ولا أستطيع اتِّباعك، أنقذني من مصائب كثيرةٍ، أنقذني من نفسي، أنعِم عليَّ بالموت.»

ويعانقه منتور، ويواسيه، ويشجعه، ويوصيه بالصبر على نفسه، من غير أن يداري هواه، ويقول له: «يا ابن أوليس الحكيم الذي أحبه الآلهة كثيرًا ولا يزالون يحبونه، إن ما تعاني من مصائب شديدةٍ هو من عمل حبِّهم، وإنَّ مَن لم يشعر بضعفه وصولة هواه لا يكون حكيمًا مطلقًا؛ وذلك لأنه لا يكون عارفًا بنفسه ولا يحذر نفسه أبدًا، لقد ساقك الآلهة حتى طرف الهوَّة كما لو كان هذا بأيديهم كيما يُرُونك عمقها من غير أن يدعوك تسقط

فيها، الآن أدرك ما لم تكن لتدركه لو لم تَبْتَلِهِ، كنت قد حدثت عن مكايد رب الغرام الذي يدالي ليُهلِك، والذي يخفي تحت ظاهر من اللطف أفظع ما يكون من كرب، فلم تسمع، وقد جاء هذا الصبي المملوء فتونًا مع الضحك واللعب والظرف، وقد رأيته، فسلب فؤادك، وطاب لك أن يسلبه، وبحثت عن ذرائع تجهل بها إصابة قلبك، وحاولت أن تخادعني وأن تصانع نفسك، ولم تخشَ أحدًا، وانظر إلى ثمرة تهورك، والآن تطلب الموت، والموت هو الأمل الوحيد الذي بَقِيَ لك، والآن تشابه الإلهة المضطربة نهرًا في جهنم، والآن تلتهب أكاريس بنارٍ أشد من جميع سكرات الموت، والآن يود جميع هؤلاء الحوريات المتحاسدات لو يفترس بعضهن بعضًا، وهذا ما يفعله رب الغرام الغادر الذي يظهر بالغ اللطف! استردَّ بأسك، ويا لشدة محبة الآلهة لك ما فتحوا لك سبيلًا حسنًا لتنجو من رب الغرام وتعود إلى وطنك العزيز! وأنت ترى كلبسو مكرهةً على طردك، وأنت ترى السفينة حاضرةً، ولِمَ نتوانى في مغادرة هذه الجزيرة التي لا مكان للفضيلة فيها؟»

قال منتور هذا وتناول يد تلماك وقاده إلى الشاطئ، ويتبعه تلماك بمشقةٍ ملتفتًا إلى الخلف دائمًا، وينظر متأملًا إلى أكاريس وهي تبتعد عنه، وهو، إذ لم يستطع أن يرى وجهها، كان يلحظ شعرها الجميل المضفور وثيابها المتموجة، وحسن مَيْسِها، وكان يود لو يستطيع أن يقبِّل أَثَر خطاها، وكان يلقي السمع حتى بعد أن غابت عن بصره ظانًّا أنه يسمع صوتها، ويتنورها وإن غابت عنه، فهي مرسومةٌ أمام عينيه كما لو كانت ماثلة بين يديه، ويخيَّل إليه أنه يكلمها لِمَا عاد لا يعرف أين هو، ولِمَا عاد لا يستطيع أن يستمع إلى منتور.

ثم عاد إليه وعيه بعد سُبَات، وقال لمنتور: «لقد عزمت على اتِّباعك، ولكنني لم أودِّع أكاريس بعد، فالموت أحب إليَّ من تركها كنودًا على هذا الوجه، فانتظر كيما أراها لآخر مرةٍ وأودعها وداعًا أبديًّا، واحتمل قولي لها على الأقل: «أيتها الحورية! يكرهني الآلهة الباغون الحاسدون لسعادتي على الرحيل، ولكن لن يحولوا دون تذكرك ما دمت حيًّا»، ويا أبتِ دعني أتمتع بهذا العزاء الأخير العادل جدًّا أو انزِع حياتي الآن، كلا، لا أريد الإقامة في هذه الجزيرة ولا الاستسلام إلى الغرام، فلا مكان للحب في فؤادي، ولا أشعر بغير صداقة وشكرٍ لأكاريس، ويكفيني أن أقول لها: وداعًا مرةً أخرى، ثم أسافر معك من فوري!»

واسمع جواب منتور: «يا لرثائي لك! لقد بلغت من صولة الهوى ما لا تشعر به، أنت تظن أنك هادئ القلب، ثم تطلب الموت! أنت تدَّعي أنك لم تُقهر بالغرام، ثم لم تستطع أن تتخلص من الحورية التي تحب! أنت لا ترى غيرها، ولا تسمع سواها، أنت أعمى، أنت

أصم حيال البقية، يقول من يبلغ درجة الهذيان بالحمى: لست مريضًا، أي تلماك الأعمى! أنت كنت مستعدًّا للعدول عن بنلوب التي تنتظرك، وعن أوليس الذي ستراه في إيتاك، وعن إيتاك التي ستملكها ذات يوم، وعما وعدك به الآلهة من مجد ومصير رفيع بشتى الآيات التي أتوها في سبيلك! أنت تعدل عن جميع هذه المنافع لتقضي حياةً فاضحةً بجانب أكاريس! ثم تقول: إن الغرام لا يربطك بها مطلقًا! وما الذي يقلقك إذن؟ ولمَ تريد الموت؟ ولمَ تكلمت أمام الإلهة بتلك الصبابة؟ إنني لا أتهمك بسوء النية مطلقًا، وإنما أُرثِي لعماك، فرَّ يا تلماك! فرَّ! لا يُغلَب رب الغرام إلا بالفرار، تقوم الشجاعة الحقيقية حيال مثل هذا العدو على الوجل والفرار، ولكن على الفرار من غير تفكير ونظر إلى الوراء، أنت لم تنسَ ما حبوتك به من رعايةٍ منذ صباك وما نجوت بنصائحي من أخطارٍ، فإما أن تؤمن بي، وإما أن أتركك، ليتك تعلم مقدار ما اعتراني من ألمٍ حينما كنت أراك تسعى وراء هلاكك! ليتك تعلم مقدار ما عانيت من ألمٍ حينما أحجمت عن مخاطبتك! لم تعانِ أمك حين الطَّلق من الآلام كما عانيتُ، لقد سكتُّ وكبتُّ ألمي وخنقت أنَّاتي لأرى هل تعود إليَّ، فيا بنيَّ! يا بني العزيز! أزل عني العناء، أعد إلي مَن هو أغلى من مهجتي، أعد إليَّ تلماك الذي أضعتُ، أعد نفسك إلى نفسك، إذا ما قهرَتْ حكمتُك غرامَك عشتُ، عشتُ سعيدًا، ولكن إذا ما سرتَ مع الهوى على الرغم من الحكمة عاد منتور غير قادرٍ على الحياة.»

وبينا كان منتور يقول ذلك كان يسير نحو البحر، وبما أن تلماك عاد لا يكون من القوة بحيث يتبع منتور طوعًا كان من القوة بحيث يقوده منتور كرهًا، ولكن بلا مقاومة، وتُوارِي منرفا، وهي في صورة منتور دائمًا، تلماك بمِجَنَّتِها من حيث لا يرى، وتنشر حوله شعاعًا ربانيًّا، فتشعره ببسالةٍ لم تتفق له منذ وجوده في هذه الجزيرة، وأخيرًا يصلان إلى مكانٍ من الجزيرة يظهر الشاطئ فيه وعرًا، فهذه صخرةٌ يلطمها الموج المزبد دائمًا، وينظران من فوقها: ألا تزال السفينة التي أعدها منتور في المكان عينه، غير أنهما يبصران منظرًا محزنًا.

وبيان ذلك أن رب الغرام اشتاط غيظًا إذ أبصر انتزاع ذاك الشيخ الغريب لتلماك فضلًا عن عدم تأثر ذاك الشيخ بأسارير وجهه، ويبكي حزنًا ممزوجًا بغضب، وينطلق ليجد كلبسو الهائمة في الغابات القاتمة، ولم تستطع كلبسو أن تمنع نفسها من الأنين حينما رأته شاعرةً أنه ينكأ جروح قلبها، قال رب الغرام لها: «أنتِ إلهة، ثم يغلبك أسير في جزيرتك! ولمَ تتركينه يخرج منها؟»

فأجابته بقولها: «لا أريد، يا رب الغرام الشقي، أن أستمع لنصائحك الضارة بعد الآن، فأنت الذي سلب مني سلامًا حلوًا عميقًا كيما تدهورني في هوَّةٍ من المصائب، ومما وقع أن أقسمت بمياه ستكس أن أترك تلماك يسافر، حتى إن أبا الآلهة جوبيتر نفسه، مع كل ما أوتي من قوة، لا يجرؤ على مخالفة هذا القسم العظيم، وليخرج تلماك من جزيرتي، واخرج منها أيضًا أيها الولد المفسد، فأنت جلبت إليَّ من النوائب أكثر مما جلب!»

ويكفكف رب الغرام دمعه، وتظهر عليه ابتسامة ساخرة ماكرة، ويقول: «حقًّا أن تلك ورطة كبيرة! دعيني أفعل ما أرى، حافظي على يمينك، فلا تعارضي سفر تلماك مطلقًا، وأما أنا وحورياتك فلم نقسم بمياه ستكس أن ندعه يسافر، فسأوحي إليهن بفكرة إحراق تلك السفينة التي صنعها منتور على عجل بالغ، ولن ينفع جِدُّه الذي دهشنا له، وسيدهش منتور بدوره، ولن تبقى له وسيلة ينزع بها تلماك منك.»

فبهذه الكلمات المدالية سرى الأمل والجذل حتى الصميم من فؤاد كلبسو، وكان لهذا الكلام من الفعل في تسكين يأس الإلهة مثل ما تفعل طراوة النسيم على حافة الجدول من إراحة القطاع الذابلة التي تُضنيها حرارة الصيف، ويبدو وجهها طليقًا، وتهدأ عيناها، وتزول، لوقتٍ، همومها القاتمة التي تقضم فؤادها، وتبتسم، وتلاطف رب الغرام اللعوب، ولم تعلم أنها تعد بهذه الملاطفة آلامًا جديدةً لنفسها.

ويَقَرُّ رب الغرام عينًا بإقناعها، ويذهب لإقناع الحوريات أيضًا، لإقناع هؤلاء الحوريات اللاتي كن هائماتٍ متفرقاتٍ في كل جبل، شأن قطيع الضأن الذي أدت صولة الذئب الجائع إلى فراره مبتعدًا عن الراعي، ويجمعهن رب الغرام، ويقول لهن: «لا يزال تلماك قبضتَكن، فبادرن إلى إحراق هذا المركب الذي صنعه منتور المغامر للفرار.»

ويوقدن المشاعل من فورهن، ويُهرَعن إلى الشاطئ، ويرتجفن، ويولولن وينفضن شعورهن الشاعثة كالكاهنات الباخوسيات، ويتصاعد اللهب، ويلتهم المركب المصنوع من خشب جاف والمطلي بقطران، وترتفع زوابع من الدخان واللهب في السحاب.

ويرى تلماك ومنتور النار من فوق الصخرة، ويسمعان صيحات الحوريات، وتبدو على وجه تلماك علامات الفرح، ففؤاده لَمَّا يُشْفَ، ويلاحظ منتور أن هواه كالنار التي لم تنطفئ جيدًا، فتظهر من تحت الرماد في الحين بعد الحين، وترمي بشررٍ شديد.

ويقول تلماك: «إذن، هذا أنا ذا ملزمٌ بصِلاتي ثانية! وليس لدينا أمل بأن نغادر هذه الجزيرة.»

ويُبصر منتور أن تلماك سيعود إلى سابق ضعفه، وأنه لا يجوز إضاعة دقيقة من الوقت، ويشاهد على بُعْدٍ مركبًا بين الأمواج، فلا يجرؤ على الاقتراب من الجزيرة؛ وذلك

لأن جميع الملاحين كانوا يعلمون أن جزيرة كلبسو محظورة على الآدميين، ويدفع منتور الحكيم تلماك، الجالس على طرف الصخرة، إلى البحر، ويقذف بنفسه في البحر معه أيضًا، ويُبهَت تلماك من هذا السقوط العنيف، ويشرب من الماء المِلحِ، وتعبث به الأمواج، ولكنه، إذ عاد إليه وعيه وشاهد منتور مادًّا إليه يده ليساعده على السباحة، عاد لا يفكر في غير الابتعاد عن الجزيرة المشئومة.

وتخرج من الحوريات، اللائي كن يرين إمساكهما أسيرين، صرخات مملوءة غيظًا لعدم إمكان منعهما من الفرار، وتعود كلبسو الحزينة إلى غارها وتملؤه عويلًا، ويرى رب الغرام تحول نصره إلى هزيمة مخزية، ويرتفع في الهواء هازًّا جناحيه طائرًا إلى غابة إدالية حيث تنتظره أمه، ويبدو الولد أشد مجونًا فلا يتسلى إلا ضاحكًا معها حول جميع المصائب التي أوجبها.

وكلما كان تلماك يبتعد عن الجزيرة كان يشعر مسرورًا ببعث شجاعته وحبه للفضيلة، ويقول لمنتور بصوت عالٍ: «أختبر ما كنت تقول لي وما كنت لا أصدق عن عدم تجربةٍ، وهو أن المنكر لا يُقهر إلى بالفرار منه، فيا أبتِ ما أشد حب الآلهة لي بما حبوني من مساعدتك! كنت أستحق حرماني ذلك وأن أوكل إلى نفسي! وقد عدت لا أخاف البحار ولا الهواء ولا الزوابع، وقد عدت لا أخاف غير أهوائي، فالأجدر أن يُخشى الغرام وحده أكثر من أن يُخشى الغرق.»

الجزء السابع

يتقدم منتور وتلماك نحو السفينة الفنيقية الواقفة بالقرب من جزيرة كلبسو، فيحسن قبولهما من قبل أدوام الذي هو أخ لنربال وربان لهذه السفينة، يعرف أدوام تلماك فيعده من فوره بأن يوصله إلى إيتاك، يخبره بموت ملك صور «بغمليون»، وبموت أسترابه ثم بارتقاء بليازار الذي فقد حظوته لدى أبيه الطاغية بتأثير هذه المرأة، يقصُّ تلماك عليه بدوره نبأ مغامراته منذ مغادرته صور، أقام أدوام وليمةً لتلماك ومنتور فجمع أشتواس، بصوته العذب وكنارته وربابه، جميع آلهة البحر وغيلانه حول السفينة تناول منتور كنارةً وعزف عليها بحذق، فطرح أشتواس كنارته كمدًا، ثم حدث أدوام عن عجائب البيتيك، ووصف حسن جو هذا البلد وثراءه وما يقضي أهلوه من حياة طيبة مع بساطةٍ في الطباع.

كانت السفينة الواقفة التي تقدَّما إليها مركبًا فنيقيًّا ذاهبًا إلى إبيريه، وكان هؤلاء الفنيقيون قد رأوا تلماك في أثناء الرحلة المصرية، ولكن لم يخطر ببالهم أن يكون تلماك بين الأمواج فيعرفوه، فلما بلغ منتور درجةً يسمعه مَن في المركب منها رفع رأسه من الماء وقال بصوت جهير: «أيها الفنيقيون النصراء لجميع الأمم، لا تضنوا بالحياة على رجلين ينتظرانها من كرمكم، وإذا كان للآلهة حرمة لديكم فاقبلونا في مركبكم، فسنذهب حيث تذهبون.»

فأجاب الربان بقوله: «سنقبلكما مسرورين، ونحن لا نجهل ما يجب أن يصنع نحو الغرباء الذين يلوح أنهم بالغو البؤس.»

وهكذا قُبلا في السفينة حالًا.

ولم يكد الاثنان يدخلان المركب حتى بدوا جامدين لعجزهما عن التنفس، ولا عجب، فقد سبحا وقتًا طويلًا وبذلا جهدًا كبيرًا لمقاومة الأمواج، وتعود قواهما إليهما مقدارًا فمقدارًا، ويُعطَيَان ثيابًا أخرى؛ وذلك لأن ثيابهما ثقلت بالماء الذي نفذ منها فيسيل من جميع نواحيها.

ولَمَّا صارا في حالٍ يقدران على الكلام معها أراد أولئك الفنيقيون، الملتفُّون حولهما بلهفةٍ، أن يعرفوا مغامراتهما، فقال لهما الربان: «كيف دخلتما هذه الجزيرة التي خرجتما منها؟ فقد روي أن إلهةً باغيةً تسكنها ولا تطيق النزول إليها مطلقًا، كما أنه يحيط بها صخر هائلة يلطمها البحر برعونة فلا يقترب منها مركب من غير أن يغرق.»

ويقول منتور: «لقد قُذفنا هنا: ونحن من الأغارقة، وجزيرة إيتاك، القريبة من إبيرية التي تذهبون إليها، هي وطننا، وإذا لم ترغبوا في الرسو في إيتاك الواقعة على طريقكم، كفانا أن تأتوا بنا إلى إبيرية حيث نجد من الأصدقاء مَن يساعدوننا على قطع المسافة القصيرة الباقية، فنكون مدينين لكم إلى الأبد بما يتفق لنا من بهجةٍ حين نرى أعز ما لدينا في الدنيا.»

وهكذا فإن منتور هو الذي تناول الكلام، وإن تلماك التزم جانب الصمت تاركًا الحديث لمنتور؛ وذلك لأن الخطأ الذي اقترف في جزيرة كلبسو زاده حكمةً، وكان يحذر نفسه شاعرًا بوجوب اتباع نصائح منتور الحكيمة دائمًا، وكان، عند عدم الكلام إليه ليسأله عن رأيه، يشاور عينيه ويسعى أن يطَّلع منهما على جميع أفكاره.

ويحدق الربان الفنيقي إلى تلماك معتقدًا سابق رؤيته له كما يذكر، ولكن هذه ذكرى غامضةٌ لا يستطيع أن يتنورها، قال الربان لتلماك: «اسمح لي أن أسألك: هل تذكر أنك شاهدتني فيما مضى كما يخيل إلي أنني أذكر سابق رؤيتي لك، فليس وجهك مجهولًا لديَّ مطلقًا، وقد وقف نظري أول وهلة، ولكنني لا أعرف أين رأيتك، ومن المحتمل أن تستعين ذاكرتي بذاكرتك على ذلك.»

هنالك أجابه تلماك حائرًا مسرورًا: «أجل، إن ما عَنَّ لك حيالي عَنَّ لي حيالك، أجل، إنني رأيتك، وإنني أعرفك، ولكنني لا أقدر أن أذكر هل كان هذا في مصر أو في صور.»

هنالك قال هذا الفنيقي صارخًا من فوره، وقد كان هذا الفنيقي كمَن يفيق صباحًا فيذكر بالتدريج ما رأى في منامه من حلمٍ عابر يغيب عنه عند يقظه: «أنت تلماك الذي اتخذه نربال صديقًا عندما عدنا من مصر، وأنا أخوه الذي حدثك عنه كثيرًا لا ريب، وقد تركتك له بعد الحملة المصرية، وقد كان عليَّ أن أذهب إلى ما وراء جميع البحار حيث بتيك[١]

[١] هي القسم الجنوبي من إسبانية، وكانت تسمى الأندلس، وتشتمل على ولايتي إشبيلية وغرناطة في الوقت الحاضر.

المشهورة القريبة من عمد هركول، فلم أجتمع بك إلا قليلًا، فلا تعجب، إذن، من عناءٍ لاقيته في معرفتك بعد أن وقع نظري عليك في هذه المرة.»

فقال تلماك: «إنك لَأنت أدوام، وأنا، أيضًا، لم أرَكَ في ذلك الحين إلا قليلًا، وإنما عرفت حالك من أحاديث نربال، وَيْ! أي سرورٍ أجد بإطلاعي على أخبار أخيك الذي أحبه كثيرًا! هل هو في صور دائمًا؟ وهل يعاني معاملةً قاسية من قِبَل الظنان الغليظ: بغمليون؟»

أدوام (مقاطعًا): «اعلم يا تلماك أن حسن الطالع أودعك عند رجلٍ سيحبُوك بكل رعاية، فسآتي بك إلى جزيرة إيتاك قبل الذهاب إلى إيبيرية، ولن تجد لديَّ مودةً أقل مما وجدت عند أخي نربال نفسه.»

وبينا كان أدوام يقول هذا أبصر أن الريح التي ينتظر أخذت تهب، فأمر برفع المراسي ونصب الشُّرُع وشق البحر بالمقاذيف، ثم انفرد بمنتور وتلماك كيما يحادثهما، قال أدوام وهو ينظر إلى تلماك: أريد أن أُرضِيَ فضولك فأخبرك بأن بغمليون قد هلك، وأنقذ الآلهة العادلون منه الأرض، وذلك أنه كان لا يثق بأحدٍ فلم يستطع أحد أن يثق به، وأن الصالحين كانوا يكتفون بالأنين واجتناب مظالمه من غير أن ينووا مسه بسوء، وأن الأشرار لم يروا ضمان حياتهم إلا بالقضاء على حياته، وأنه لم يكن في صور أحد ناجيًا من خطر حذره، وأن رجال حرسه كانوا عرضةً لحذره أكثر من غيرهم، أي بما أن حياته كانت قبضتهم فإنه كان يخافهم أكثر من خوفه بقية الناس، فكان يضحي بهم كيما يضمن نفسه، وهكذا فإنه كان عاجزًا عن ضمان نفسه حيث يبحث عن هذا الضمان، وهكذا فإنه كان يحيق بحياة أمنائه خطر حذره الدائم وكانوا لا يستطيعون الخلاص من هذه الحال الهائلة إلا بهلاك هذا الطاغية مانعين بذلك ظنونه الجائرة.

وكانت المستهترة أسترابه التي سمعتَ الشيء الكثير عنها أول من عزم على إهلاك الملك، وذلك أنها كانت شديدة الولع بالشاب الصوري الثري المدعو جوازار، فكانت تأمل نصبه على العرش، وهي لكي تفوز في هذا المقصد أقنعت الملك بأن أكبر ولديه، فدايل، قد استعجل جلوسه على العرش فائتمر به ليقتله، فوجدت شهودًا كاذبين لإثبات المؤامرة، ويأمر الملك الشقي بقتل ابنه البريء، ويرسل ابنه الثاني، بليازار، إلى ساموس كيما يتعلم طبائع اليونان وعلومهم ظاهرًا، ولكي يبعده باطنًا؛ وذلك لأن أستارابه أوعزت إلى الملك بوجوب إقصائه منعًا له من الاتصال بالساخطين، ولم يكد يذهب حتى اتخذ ربابنة السفينة، الذين رشتهم هذه المرأة الباغية، من التدابير ما تغرق به هذه السفينة ليلًا، وينجون سبحًا حتى الزوارق الأجنبية التي كانت تنتظرهم قاذفين بالأمير الشاب في قعر البحر.

ومع ذلك لم تكن معاشق أسترابه خافيةً على أحد غير بغمليون الذي كان يخيَّل إليه أنها لا تحب سواه، وهكذا كان هذا الأمير البالغ الحذر مملوءًا ثقةً عمياء بهذه المرأة الخبيثة، ولا غرو، فالغرام هو الذي كان يعميه إلى هذا الحد المتناهي، وكذلك كان الطمع يحفزه إلى البحث عن ذرائع لإهلاك الشاب جوازار الذي شغف أسترابه حبًّا، فلم يكن ليفكر في غير سلب أمواله.

ولكن بينا كان يتسلط على بغمليون حذره وغرامه وطمعه بادرت أسترابه إلى نزع حياته، فربما كانت تظن أنه اطلع على معاشقها الشائنة مع هذا الشاب، وهذا فضلًا عن أنها كانت تعلم كفاية الطمع لحمل الملك على اتخاذ تدبير جائر حيال جوازار، وهذا ما جعلها ترى أنه لا ينبغي فوات دقيقة واحدة منعًا لشره، وتعاشر أهم رجال البلاط المستعدين لغمس أيديهم في دم الملك، وتسمع في كل يوم حديثًا عن مؤامرة جديدة، ولكنها كانت تخشى الاعتماد على مَن يمكن أن يخونها، ثم لاح لها أن سم بغمليون أضمن لبلوغ الغرض.

وكان بغمليون يأكل معها وحدها في الغالب، وكان يعد بنفسه جميع طعامه معتمدًا على يديه فقط، وكان ينفرد في أبعد مكان من قصره إمعانًا في حذره ولكيلا يلاحظ حين إعداد طعامه، وكان لا يطلب شيئًا من أطايب المائدة؛ أي كان لا يركن إلى أكل شيءٍ لا يستطيع طهيه بنفسه، وهكذا حرم على نفسه جميع اللحوم التي يعللها الطهاة بالتوابل كما حرم الخمر والخبز والملح واللبن وكل طعام معتاد، فلا يأكل غير الفواكه التي اقتطفها بيده في حديقته والخضَر التي زرعها بيده وطبخها بنفسه، ثم إنه كان لا يشرب من الماء غير ما يتناول من حوضٍ مقفل في قصره مع احتفاظه بمفتاحه، وكان، على ما يُظهر من ثقة مطلقة بأسترابه، لا يخلو من حذر حيالها أيضًا، فقد كان يحملها في كل وقتٍ على الأكل والشرب قبله من كل ما يصلح أن يكون وجبةً له، وذلك لكيلا يُسَمَّ من دونها، ولكيلا يكون لها أملٌ في التعمير أطول منه، بيد أنها ظفرت بترياقٍ من عجوزٍ أخبث منها، من هذه العجوز التي كانت موضع سر معاشقها فأمدتها به، فلما نالت هذا الترياق عادت لا تخاف سَمَّ الملك.

وإليك كيف بلغت مرادها: أقامت هذه العجوز ضجةً عند الباب حينما أوشكا أن يأكلا، ويرتبك الملك، الذي كان دائم الاعتقاد بأنه يراد قتله، ويُهرع إلى الباب ليرى هل هو مغلق جيدًا أو لا، وتنزوي العجوز، ويظل الملك حائرًا لا يدري ما يرى حيال ما سمع، ومع ذلك فإنه لم يجرؤ على فتح الباب ليقف على الحقيقة، وتسكن أسترابه رُوعَه، وتلاطفه،

وتلحف عليه أن يأكل، وكانت قد ألقت السم في كوبٍ من ذهبٍ حين ذهابه نحو الباب، ويحملها بغمليون على الشرب قبله وفق عادته، وتشرب غير خائفةٍ معتمدةً على الترياق، ويشرب بغمليون أيضًا، ولم يمضِ غير قليل وقتٍ حتى وقع مغشيًّا عليه.

وطفقت أسترابه، التي كانت تعرف قدرته على قتلها عند أقل شبهة، تمزق ثيابها وتنتف شعرها وتنوح، وأخذت تقبل الملك المحتضر وتضمه بين ذراعيها وترويه بوابلٍ من الدموع، والدموع مما كان لا يكلِّف هذه المرأة المحتالة شيئًا، ثم لما رأت هذه المرأة انهيار قوى الملك، وأنه كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة، خشيت أن يعود إليه وعيه فيأمر بموتها معه فانتقلت من طور اللطف وأنعم ما يكون من علامات المودة إلى أفظع صولةٍ وانقضت عليه وخنقته، ثم نزعت الخاتم الملكي من إصبعه كما نزعت منه التاج وأدخلت جوازار وأنعمت عليه بهما.

وقد ظنت أنه لا يعوز جميع مريديها أن يتبعوا هواها فينادَى بعاشقها ملكًا، غير أن مَن كانوا يتهافتون على إرضائها مرتزقة أنذال عاجزون عن خالص الود، ثم إنهم كانوا خالين من الشجاعة فيخشون أعداء أسترابه، ثم إنهم كانوا يخشون كبرياء هذه المرأة المستهترة ومكرها وقسوتها، فيود كل واحد هلاكها ضمانًا لنفسه.

ويسود القصر ضجيج هائل في تلك الأثناء، ويسمَع في كل مكان صيحات من يقولون: «مات الملك!» ويذعر بعضهم ويحمل السلاح آخرون منهم ويخشى الجميع سوء العواقب، ولكن مع ارتياح لما وقع، ويذيع الخبر في مدينة صور العظيمة كلها، ولا يُرَى فيها مَن أَسِفَ على الملك، ولا عَجَبَ؛ فموته ينطوي على إنقاذ للرعية وتعزية لها.

ويُدهش نربال من هذه الضربة الهائلة جدًّا، ويرثي نربال الصالح لمصيبة بغمليون الذي خان نفسه باعتماده على المستهترة أسترابه، والذي فضل أن يكون طاغية فظيعًا شنيعًا على ظهوره أبًا لرعيته كما يقتضيه واجب الملك، ويفكر نربال في مصلحة الدولة ويُهرع إلى جمع رجال الخير لمقاومة أسترابه التي سيكون عهدها أكثر طغيانًا من العهد الذي انتهى.

وكان نربال يعلم أن بليازار لم يغرق حينما قذف في البحر، وكان الذين أخبروا أسترابه بهلاكه مع التوكيد قد أنبأوها ذلك معتقدين هلاكه، والواقع أنه نجا سبحًا في الظلام، وأن بعض صيادي السمك من أقريطش قبلوه في قاربهم عن شفقةٍ، وأنه لم يجرؤ على الرجوع إلى مملكة أبيه لما رأى من عزم سابق على إهلاكه ولخوفه غيرة بغمليون الجائرة وحِيَل أسترابه، وأنه ظل طائفًا متنكرًا زمنًا طويلًا في شواطئ البحر بسورية حيث تركه صيادو

السمك الأقريطشيون، وأنه اضطر إلى رعي قطيعٍ من الغنم كسبًا لعيشه، وأنه وجد وسيلةً لإنباء نربال بالحال التي كان عليها، وأنه رأى إمكان إيداع سرِّه وحياته لدى رجلٍ فاضلٍ محنَّك مثل نربال، وأن نربال لم ينفك يحب ابن الملك الذي آذاه أبوه ويسهر على مصالحه، ولكنه لم يُعْنَ به إلا ليحول دون تقصيره فيما هو واجب عليه نحو أبيه ولحمله على احتمال سوء طالعه صابرًا.

وكان بليازار قد أوصل إلى نربال قوله: «إذا رأيت إمكان اجتماعي بك، فأرسل إلي خاتمًا من ذهب فحينئذٍ أدرك أن وقت لقائك قد حل»، ولم يرَ نربال من المناسب إحضار بليازار ما دام بغمليون حيًّا؛ وذلك خشية المخاطرة بحياته وحياة الأمير، وذلك لصعوبة اتقاء تحريات بغمليون الوثيقة، فلما نال هذا الملك الشقي جزاء جرائمه بادر نربال إلى إرسال الخاتم الذهبي إلى بليازار، ويسافر بليازار من فوره، ويصل إلى أبواب صور في وقت كان يسود هذه المدينة شغب حول معرفة مَن يخلف بغمليون، وتعرف هوية بليازار من قِبَل وجوه صور وأهلها كافة، ويُحَبُّ بليازار لحلمه واعتداله، لا عن حبٍّ لأبيه الملك المرحوم، ومن نتائج مصائبه الطويلة أن نالت صفاته الطيبة كلها رونقًا لا يُعبَّر عنه فَلَانَتْ بذلك قلوبُ جميع الصوريين نحوه.

ويجمع نربال زعماء الشعب وأعضاء مجلس الشيوخ وكهنة إلهة فنيقية العظيمة، ويحيي جميع هؤلاء بليازار مثل ملكٍ لهم، ويأمرون المنادين بإعلان ذلك، ويقابل الجمهور ذلك بألف هتاف سرور.

وتسمع أسترابه تلك الهتافات من أقصى القصر حيث كانت منزويةً هي والنذل القبيح جوازار ويتخلى عنها جميع الأشرار الذين كانت تستعين بهم في أثناء حياة بغمليون؛ وذلك لأن الأشرار يخافون الأشرار ويحذرونهم ولا يرون الاعتماد عليهم؛ وذلك لأن الفاسدين يعرفون مقدار إفساد أمثالهم للسلطة وما يصدر عنهم من عنفٍ، وأما الأبرار فيرتضيهم الأشرار؛ وذلك لما يرجون أن يجدوا فيهم كثيرًا من الاعتدال والتساهل، وهكذا لم يبقَ حول أسترابه غير شركائها في أفظع الجرائم، غير هؤلاء الشركاء الذين لا ينتظرون سوى النَّكال.

ويُقتحَم القصر، ولم يستطع هؤلاء المجرمون أن يقاوموا طويلًا، ولم يُفكروا في غير الفرار، وتتنكر أسترابه في زي أمة قاصدةً إنقاذ نفسها بين الجمهور، ويعرفها جندي، ويقبض عليها، وتلاقي مشقة في منع تمزيقها من قِبَل الشعب الهائج، وكان قد بدئ بجرها في الوحل، فانتشلها نربال من الرعاع.

هنالك طلبت أسترابه أن تخاطب بليازار راجيةً بهره بسحرها، وجعله يأمل أن تبوح له بأسرار مهمة، وما كان بليازار ليستطيع رفض السماع إليها، وكان أول ما صنعت أن

أبدت، مع جمالها، دماثةً وحشمةً يؤثر بهما حتى في أكثر القلوب غضبًا، وتلاطف بليازار بأكثر المدائح رقةً وفتنةً، وتُظهر له مقدار حب بغمليون لها، وتناشده برفاته أن يرحمها، وتبتهل إلى الآلهة كما لو كانت تعبدهم مخلصةً، وتسكب سيولًا من الدموع، وتقع على ركبتي الملك الجديد، ثم لم يغِبْ عن بالها شيء يحمله على الارتياب بأوفى خَدَمه ويجعله كارهًا لهم إلا ذكرته، ومن ذلك أن اتهمت نربال بأنه اشترك في مؤامرةٍ ضد بغمليون، وأنه حاول إغواء الشعب لينادَى به ملكًا ضرًّا ببليازار، وأن أضافت إلى ذلك قولها: إنه كان يريد سم هذا الأمير، وقد اختلقت مثل هذه الافتراءات ضد جميع ذوي الفضل من أهل صور، وقد كانت ترجو بهذا أن تجد في قلب بليازار مثلما كانت تجد في قلب أبيه الملك من الحذر والارتياب، بيد أن بليازار ضاق ذرعًا بمكر هذه المرأة السيئ فقاطعها ونادى أناسًا من الحرس، وتُعتقَل، ويعهَد إلى أعقل الشيوخ أن يستقصوا جميع أعمالها.

ويُكتشف، مع الاشمئزاز، أنها سمت بغمليون وخنقته، وأن جميع حياتها سلسلة من الجرائم الفظيعة، فيُحكم عليها بالعذاب الذي يعاقب به في فنيقية على الجنايات الكبرى؛ أي أن تُحرق في نار خفيفة، وتُدرِك أنه لم يبقَ لها أمل في الحياة فتغدو مثل زبانية جهنم، وتبلع السم الذي تحمله معها كيما تنتحر به عندما يُقضى بأن تذوق أشد العذاب، ويشاهد مَن يقومون بحراستها أنها تتلوَّى ألمًا، ويريدون إغاثتها، ولا تجيبهم، وإنما تومئ بأنها لا ترغب أن يسكَّن وجعها مطلقًا.

وتُحدِّث عن عدل الآلهة الذين أغضبتهم، فتنظر إلى السماء نظر ازدراء وكبرياء، وذلك كما لو كانت تجدف عليهم، وذلك بدلًا من إبداء ما تستحقه ذنوبها من همٍّ، ندم، وتَظْهَر سَوْرَةُ الإلحاد مرسومةً على وجهها الفاني، وعاد لا يُرى شيءٌ من ذلك الجمال الذي كان سبب مصائب رجال كثيرين، وقد زالت جميع ألطافها، وقد أخذت عيناها الخامدتان تدوران في رأسها وتلقيان نظراتٍ نافرة، وتتشنج شفتاها، وينفغر فوها، ويعلو وجهها الشاحب المتقلص كدرةٌ كريهة، وتستولي على بدنها كله زرقة ضاربة إلى سواد وبرودة قاتلة، ويلوح انتعاشها أحيانًا، ولكن للعويل فقط ثم يفيض روحها فتملأ جميع من رأوها نفورًا وذعرًا، وتهوي نفسها الكافرة، لا ريب، في تلك الأماكن الكئيبة حيث الدنائيد الباغيات يغترفن الماء في آنيةٍ مثقوبة دائمًا، وحيث إكسيون يدير دولابه إلى الأبد، وحيث تنتال يحترق عطشًا فلا يستطيع جرع الماء لإفلاته من بين شفتيه، وحيث سيزيف يدحرج صخرةً على غير جدوى لوقوعها بلا انقطاع، وحيث تيتي يشعر، أبد الدهر، بعقابٍ يقضم أحشاءه فتتجدد هذه الأحشاء على الدوام.

تخلَّص بليازار من هذا الغول، فأعرب عن شكره للآلهة بتقديمه ما لا يُحصَى من القرابين، ويبدأ عهده بسيرة تباين سيرة بغمليون مباينةً تامة، ويعكف على إنعاش التجارة التي كانت تذبل كل يوم، ويعمل بنصائح نربال في الأمور المهمة من غير أن يدار به مطلقًا، وذلك لرغبته في مشاهدة كل شيء بنفسه، ويُلقي السمع إلى جميع الآراء التي يُراد تقديمها إليه، ثم يستقر رأيه على كل ما يلوح له أنه أصلح من غيره، وتحبه الرعية، وهو إذ يملك القلوب يملك من الكنوز ما يزيد على ما جمع أبوه بطمعه الجائر؛ وذلك لأنك لا تجد أسرةً لا تعطيه جميع ما عندها من مال إذا ما ألحت عليه الضرورة، وهكذا فإن ما يتركه لها يعد ذخيرةً له أنمَى مما يأخذه غصبًا، وهو لا يُضطر إلى الحذر ضمانًا لحياته، فحب الرعية له أضمن حرسٍ له، ولا يوجد أحد من رعيته لا يخاف افتقاده، فيَضَن بحياته الخاصة حفظًا لحياة ملك بالغ هذه الدرجة من الصلاح، وهو يعيش سعيدًا، ويُحسَب جميع شعبه سعيدًا مثله، وهو يخشى إرهاق رعاياه كثيرًا، ويخشى رعاياه ألا يقدموا إليه قسمًا كبيرًا كافيًا من أموالهم، وهو يدع رعاياه راتعين يسرًا، ولا يكون هؤلاء الرعايا وُقُحًا جامحين بهذا اليسر؛ وذلك لأنهم رجال جِدٍّ عاكفون على التجارة ثابتون في المحافظة على صفاء القوانين القديمة، فالحق أن فنيقية ارتقت إلى أعلى درجات عظمتها ومجدها وأنها مدينة لملكها الشاب بهذا الازدهار الوافر.

ويقوم نربال بأمور الحكم تابعًا له، ولو رآك الآن، يا تلماك، لغمرك بالهدايا مسرورًا، وأية لذةٍ يجد في إعادتك بأبهةٍ إلى وطنك! ألستُ سعيدًا بأن أصنع ما كان يود أن يصنع نربال بنفسه فأذهب إلى جزيرة إيتاك وأرفع ابن أوليس على العرش كيما يحكم فيها بحكمةٍ كما يحكم بليازار في صور؟

فُتن تلماك بما قص أدوام الفنيقي، وأكثر من ذلك فتونه بما لقي من مودته في مصيبته، فعانقه عناق حنان، ثم سأله أدوام عن مغامرته في دخول جزيرة كلبسو، فقصَّ تلماك عليه، بدوره، قصة سفره إلى صور ومروره من جزيرة قبرس وكيف لقي منتور ونبأ رحلتهما إلى أقريطش وما أقيم فيها من ألعاب عامة وصولًا إلى انتخاب ملك لها بعد فرار إيدومنه، وما كان من غضب فينوس، وما كان من حسن قبول كلبسو إياهما، وما كان من حسد هذه الآلهة لإحدى حورياتها ومن عمل منتور الذي قذف بصديقه في البحر عندما رأى السفينة الفنيقية.

ويقيم أدوام، بعد هذه الأحاديث، وليمةً فاخرة إظهارًا لأعظم سرور، ويجمع في هذه الوليمة كل ما يمكن أن يتمتع به من الأطايب والملاذ، وبينما كانت الوليمة قائمةً، ويقدم

الطعام فتيان من الفنيقيين لابسون ثيابًا بيضًا ومتوَّجون بأكاليل من زهور، كانت تحرق أطياب شرقية ممتازة، وكانت جميع مقاعد الجداف زاخرةً بالعازفين على الناي، وكان أشتواس يقاطعهم في الحين بعد الحين بمطابقاتٍ عذبةٍ بين صوته وكنَّارته جديرةٍ بأن تسمع على مائدة الآلهة وتفتن أُذُنَي أبولون نفسه، وكان التريتون والنرئيد وجميع الآلهة الخاضعين لنبتون، حتى غيلان البحر، يخرجون من مغاورهم الرطيبة العميقة ويأتون جماعاتٍ جماعاتٍ حول السفينة مفتونين بهذ الألحان، وقد قام فوج من الفتيان الفنيقيين، بارع الجمال ولابسٌ ثيابًا من الكتان أشد بياضًا من الثلج برقصاتٍ فنيقية دامت طويلًا، ثم قام برقصاتٍ مصرية ورقصاتٍ يونانية، وقد كان الموج يردد في الشواطئ البعيدة صدى الأبواق حينًا بعد حين، وقد كان هذا المنظر يزيد روعةً بسكون الليل وهدوء البحر، وبنور القمر المترجرج على وجه الموج، وبزرقة السماء المرصعة بكواكب ساطعة.

وكان تلماك، الحاد الطبع والدقيق الإحساس، يذوق جميع هذه الملاذ، ولكن من غير أن تستحوذ على فؤاده، وذلك أن جميع الملاذ، حتى البريء منها، كان يُخيفه ويثير ريبه، وذلك منذ اختباره في جزيرة كلبسو، مع كثير خجلٍ، مقدار استعداد الشباب للالتهاب، وكان تلماك ينظر إلى منتور ويبحث في وجهه وعينيه عما يجب أن يفكر فيه حيال جميع هذه المتَع.

وكان منتور يرتاح عند ملاحظة هذا الارتباك في تلماك، وكان يتظاهر بأنه لا يرى ذلك، وأخيرًا يقول له متأثرًا بهذا الاعتدال: «أُدرك ما تخشى، وهذا ما تُحمد عليه، ولكن لا ينبغي الإفراط في الخوف، فلا أحد مثلي يتمنى لك تذوق اللذات، وذلك على ألا تستهويك ولا أن تخنثك على الإطلاق، والمتع التي تحتاج إليها هي التي تريحك، لا التي تجتذبك، والملاذ العذبة المعتدلة هي التي أرجو لك، لا التي تنزع عقلك وتجعلك كالسباع الصائلة، والآن حل الوقت المناسب الذي تستريح فيه من جميع متاعبك، فلاطف أدوام وذُق ما يقدِّم إليك من متع، وتمتع يا تلماك، تمتع، وليس التقشف والاكتئاب من الحكمة، والحكمة هي التي تُنعم بالملاذ الحقيقية، والحكمة وحدها هي التي تعرف أن تُتَبِّل الملاذ لتجعلها صافيةً دائمة، والحكمة هي التي تعرف أن تمزج بين اللعب والمرح والأشاغيل الجدية الرصينة، والحكمة هي التي تُعِدُّ اللذة بالعمل، وتريح من العمل باللذة، ولا تستحي الحكمة من المزاح عند ما يجب.»

نطق منتور بهذا وتناول كنارةً، وبلغ من الإجادة في العزف ما أسقط معه أشتواس، الذي أكلته الغيرة، كنارته غمًّا، وتلمع عيناه، ويكفهِرُّ وجهه، وكان الجميع يُبصر ألمه

وحياءه لو لم يسلب منتور بكنارته قلوب الحضور، ولم يكد أحد يجرؤ على التنفس خشية الإخلال بالسكون وفوات شيء من هذا الغناء الرباني، وكان أخوف ما يخاف الحاضرون هو أن يفرغ منتور من غنائه سريعًا، وكان صوت منتور خاليًا من حلاوة التخنث، ولكنه كان لينًا جَهْوَريًّا يأخذ بمجامع القلوب.

وكان أول ما شدا به منتور هو إشادته بالثناء على أبي الآلهة والناس وملكهم، جوبيتر، الذي يزلزل الأرض بإشارةٍ من رأسه، ثم مثَّل منرفا التي تخرج من رأسه، أي الحكمة التي يصورها هذا الإله في باطنه ثم يصدرها عن نفسه لتثقيف الطائعين من الناس، وبلغ منتور من الترنيم بهذه الحقائق بصوتٍ بالغ التقوى والسمو ما خيل معه إلى جميع مَن في المجلس أنه انتقل إلى قمة الألنب مواجهًا جوبيتر الثاقب البصر أكثر من رعده، ثم شدا منتور بشقاء الشاب نرجس الذي أولع بجماله الخاص ناظرًا إليه على حافة حوض بلا انقطاع فضنِيَ ألمًا وتحول إلى زهرة تحمل اسمه، وأخيرًا شدا بموت أدونيس الجميل الذي مزقه رتٌّ[٢] فلم تستطع فينوس الوَلُوعُ به أن تحييه بما أتته في السماء من نياحات مرة.

ولم يستطع جميع من سمعوه أن يمسكوا دموعهم، وكان كل منهم يجد بالبكاء لذةً لا يعبَّر عنها، ولما أتم غناءه أخذ الفنيقيون، وقد قضوا منه كل العجب، يتبادلون النظرات، فقال أحدهم: «هذا أُرْفِه، إذ استطاع بكنارةٍ أن يؤنِّس الوحوش ويسحر الغاب والصخر، ويفتن سربر، ويقف عذاب إكسيون والدنائيد ويؤثر في بلوتون العادم الرحمة إخراجًا لأريسيد الحسناء من الجحيم»، ويقول آخر هاتفًا: «كلا، إن هذا لينوس بن أبولون»، ويقول ثالث: «أنت مخطئ، فهذا أبولون نفسه»، ولم يكن تلماك أقل دهشًا من الآخرين، ولا غرو، فهو لم يخطر بباله قط أن منتور يتقن الغناء والعزف على الكنارة بهذا المقدار.

وأخذ أشتواس، الذي اتفق له من الوقت ما يكتم فيه غيرته، يثني على منتور، ولكن وجهه احمر حين كان يمدحه، ولم يستطع أن يتم كلامه، ويرى منتور ارتباكه فيتناول الكلام كما لو كان يريد أن يقاطعه ويبذل جهده في تفريج غمِّه مثنيًا عليه بما يستحق، وما كان السلوان ليدخل قلبه، فقد شعر، أيضًا، بأن منتور يفوقه بتواضعه أكثر مما بسحر صوته.

---

[٢] الرت: الخنزير البري.

وفي تلك الأثناء يقول تلماك لأدوام: «أذكر أنك ذكرت لي أمر رحلةٍ قمت بها في البتيك بعد سفرنا من مصر، والبتيك بلد يُروَى الكثير عن عجائبه التي لا يكاد الإنسان يصدق خبرها.»

أدوام: «يسرني أن أصف لك هذا البلد المشهور الذي هو جدير بفضولك والذي يفوق جميع ما قيل عنه.»

وإليك ما أخذ أدوام يقول: «يجري نهر بتيس[٣] في بلد خصيب، وتحت سماءٍ طيِّبٍ رائق دائمًا، وقد أُطلِق على هذا البلد اسم هذا النهر الذي يصب في البحر المحيط بالقرب من عمد هركول، فمن هذا المكان الذي حطم البحر الصائل أسداده فصلت أرض ترسيس[٤] من إفريقية الكبرى، ويظهر أن هذا البلد يتمتع بنعيم العصر الذهبي، وذلك أن شتاءه فاتر ولا تهب رياح الشمال الشديدة مطلقًا، وأن حر صيفه يُعدَّل بنسيمٍ عليل يأتي لتلطيف الهواء في وسط النهار، وهكذا لا تكون أيام سنته كلها غير عرس مبارك اتفق عليه الربيع والخريف، وأن أرضها في الأودية والحقول المستوية تؤتي أكلين في كل عام، وأنه يحيط بُطرقها من الجانبين شجر الغار والرمان والياسمين وغير ذلك من الأشجار الخضر المزهرة دائمًا، وأن جبالها زاخرة بالقطعان التي تقدم الصوف الناعم المرغوب فيه لدى جميع الأمم المعروفة، وأنه يوجد كثير من مناجم الذهب والفضة في هذا البلد الجميل، ولكن مع العلم بأن أهليه البسطاء السعداء لا يلتفتون إلى هذين المعدنين في حساب ثرواتهم وأنهم لا يقدرون غير ما تُقضَى به حاجات الإنسان بالحقيقة، وإننا لما أخذنا نتاجر لدى هؤلاء القوم وجدناهم يستعملون الذهب والفضة في صنع المحاريث كما يستعملون الحديد مثلًا، ولا عجب، فهم، إذ كانوا لا يقومون بأي عمل تجاري خارج بلادهم، لم يحتاجوا إلى أي نقدٍ كان، وتراهم كلهم من الرعاة والفلاحين تقريبًا، ولا ترى بينهم غير قليلٍ من الصناع؛ لما لا يطيقون من الحرف غير ما تقتضيه حاجات الإنسان، وكل ما يتمسك به رجال هذا البلد، وأكثرهم عاكف على الزراعة ورعي القطاع، هو ما تحتاج إليه من الحرف حياتهم البسيطة القائمة على القناعة.

---

[٣] هو النهر المعروف بالوادي الكبير.

[٤] هي القسم الجنوبي من إسبانية الواقع بين وادي أنه ووادي لكة.

ويغزل النساء ذلك الصوف الرائع ويحكن منه نسائج ناعمةً بالغة البياض، ويصنعن الخبز ويهيئن الطعام، ويسهل عليهن هذا العمل لاعتماد الناس في معاشهم هناك على الفواكه واللبن مع عدم تناولهم لحمًا إلا نادرًا، وهنَّ يتخذن جلد الغنم لصنع نعالٍ خفيفةٍ لأنفسهن ولأزواجهن وأولادهن، وهن يصنعن خيامًا من الجلد المشمع أو قشر الشجر، وهن يحبكن جميع ثياب الأسرة ويغسلنها، وهن يرتبن البيوت ويجعلنها نظيفةً إلى الغاية، وتكون ملابسهم سهلة الصنع؛ وذلك لأنه لا يُلبَس في هذا الإقليم المعتدل غير قطعة من النسيج الناعم الخفيف الذي لا يفصل مطلقًا فيلفه كل واحد حول بدنه طولًا سترًا للعورة ويعطيه الشكل الذي يريد.»

وإذا عدوت زراعة الأرضين ورعي القطعان لم تجد للرجال حرفةً يمارسونها غير استعمال الخشب والحديد، وهم لا ينتفعون بالحديد إلا في الآلات التي تقتضيها الفلاحة، وهم لا يجدون نفعًا في جميع الحرف ذات الصلة بفن البناء؛ وذلك لأنهم لا يُنشئون بيوتًا، ومن قولهم: إن من شدة الارتباط في الأرض أن يقام منزل يدوم أكثر مما ندوم، وإن مما يكفينا أن ندرأ عن أنفسنا تقلبات الهواء، وأما جميع المهن الأخرى ذات الحظوة لدى الأغارقة والمصريين وغيرهما من الأمم الحسنة الإدارة فيمقتونها لعدهم إياها من اختراعات الزهو والترف.

وهم إذا ما حدثوا عن الأمم التي عندها فن إقامة المباني الرائعة، وصنع أثاثٍ من الذهب والفضة، وصنع نسج مزخرفة بضروب التطريز والحجارة الثمينة، وصنع أطيب العطور وألذ الأطعمة، وصنع آلات الطرب التي تفتن النفوس بأنغامها، قالوا: «إن من شقاء هذه الأمم أن تنفق هذا المقدار الكثير من العمل والمهارة لإفساد نفسها بنفسها! فهذا الزائد يخنث الحائزين له ويغرهم ويضرهم، وهو يغري المحرومين إياه بنيله ظلمًا وعدوانًا، وهل يمكن أن يُذكر زائدٌ لا يجعل الناس أردياء؟ وهل أهل هذه البلاد أصح منا بدنًا وأقوى عضلًا؟ وهل هم أطول منا عمرًا؟ وهل هم أكثر منا اتحادًا؟ وهل يقضون حياةً أكثر حريةً وهدوءًا وسرورًا؟ إنهم متغايرون، فيأكلهم الحسد النذل الأسود ويهزهم الحرص والخوف والطمع، ولا تعرف الملاذ الصافية البسيطة إلى نفوسهم سبيلًا ما داموا عبيدًا لضروراتٍ باطلةٍ كثيرة يقيمون سعادتهم عليها.»

ويقول أدوام مداومًا: «هذا ما يقوله هؤلاء الحكماء الذين لم يتعلموا الحكمة إلا من دراسة الطبيعة الصرفة، ويمقت هؤلاء لينا، ومن الإنصاف أن يعترف بأنهم ذوو لينٍ بالغٍ في بساطتهم اللطيفة، فكلهم يعيشون معًا من غير اقتسامٍ للأرضين، ويدير كل أسرةٍ

رئيسها الذي هو ملك حقيقي لها، ويحق لرب الأسرة أن يعاقب أولاده وحفدته على أي ذنبٍ يقترفونه، ولكنه لا يجازي قبل أن يأخذ رأي بقية الأسرة، ولا سبيل لهذه العقوبات تقريبًا ما ساد طهر الطباع وحسن النية والطاعة ومقت المنكر هذه الديار المباركة، ويظهر أن أستره التي يروى خبر انزوائها في السماء لا تزال مستترة بين هؤلاء الناس في هذه الدنيا، فلا يحتاج هؤلاء الناس إلى قاضٍ يحكم بينهم ما دام ضميرهم يقضي بينهم، وتعد جميع أموالهم مشاعةً بينهم، فثمار الشجر وبقول الأرض ولبن القطاع ثروات بلغت من الوفرة ما لا ضرورة إلى قسمتها معه عند هؤلاء القوم البالغي القناعة والاعتدال، وتنقل كل أسرة، جائلةٍ في هذا البلد الجميل، خيامها من مكانٍ إلى آخر بعد استهلاكها ثمرات المكان الضاربة فيه واستنفادها لمراعيه، وهكذا لا يجدون لأنفسهم نفعًا في نصر بعضهم على بعض، وهكذا يتحابون حبًّا أخويًّا لا يكدر صفوه شيء، وهكذا تجد سر هذا السلام والاتحاد والحرية في تحصنهم حيال الثروات الباطلة واللذات الخادعة، وهم أحرار متساوون، ولا يمتاز بعضهم من بعض إلا بما يصدر عن تجربة الشيوخ الحكماء أو عن حكمةٍ خارقةٍ للعادة في بعض الشبان المساوين لذوي الفضل من الشيوخ، وما كان للخداع والغصب وشهادة الزور والقضايا والحروب أن تُسمع صوتها الجافي الوبيء في هذا البلد العزيز على الآلهة، ولم يحدث، قط، أن لُطِّخت هذه الأرض بدم إنسان، ولا يكاد يُرَى فيها إراقة دمِ خرافٍ، وإذا ما حُدِّث هؤلاء الناس عما يُرَى لدى الأمم الأخرى من المعارك الدامية والفتوح السريعة وانهيار الدول اعتراهم دهش وقالوا: ماذا! أليس الموت لاحقًا بالناس حتى يستعجلوه؟ يظهر أن الحياة تبدو لهم طويلةً جدًّا مع أنها قصيرة إلى الغاية! وهل وُلدوا حتى يمزق بعضهم بعضًا ويجعلوا أنفسهم تعساء مقابلةً؟»

ولا يجد أهل البتيك معنًى للإعجاب بالفاتحين الذين يدوخون الممالك العظيمة، ومن قولهم: يا لحماقتهم في إقامة سعادتهم على الحكم في الآخرين الذين تنطوي حكومتهم على كثير من المشاقِّ إذا ما أريد الحكم بينهم وفق العقل والعدل! وما لذة الحكم فيهم على الرغم منهم؟ إن كل ما يمكن الرجل أن يفعل هو أن يبتغي الحكم في شعب طيِّع عَهِدَ الآلهة إليه في القيام بأموره أو في شعبٍ يرجو أن يكون أبًا راعيًا له، وأما الحكم في الأمم خلافًا لإرادتها فأمر يجعل الحاكم بائسًا من حيث يطلب المجد باستعبادها، وما الفاتح إلا رجل حَبَا الآلهة، الساخطون على النوع البشري، به الأرضَ عن غضبٍ كيما يخرب الممالك وينشر الذعر والبؤس واليأس في كل مكان، وكيما يحول الأحرار إلى عبيد، أفلا يجد طالب المجد ما فيه الكفاية من المجد بحسن سياسته من ولَّاه الآلهة أمرهم؟ وهل يظن أنه لا

يستحقُّ أكاليل المدح إلا بظهوره عنيفًا ظالمًا متكبرًا غاصبًا جبَّارًا نحو جميع جيرانه؟ ألا لا يجوز أن يُلجَأ إلى الحرب إلا للدفاع عن الحرية، ويا لسعادة من ليس عبدًا لغيره فلا يكون من الطموح الأرعن بحيث يجعل الآخرين عبيدًا له! يشابه هؤلاء الفاتحون العظماء، الذين يصورون لنا مع كثير مجد، أنهارًا طافحةً تظهر جليلةً، ولكن مع تخريبها جميع الحقول الخصيبة التي يجب أن تقتصر على إروائها.

فتن تلماك بهذا الوصف الذي أتاه أدوام عن البتيك فوجَّه إلى أدوام أسئلةً طريفةً كثيرة، ومنها: «أيشرب هؤلاء القوم خمرًا؟»

أدوام: «إنهم لا يأبهون لشربها لرغبتهم عن صنعها، ولا يعني هذا أن العنب يعوزهم، فلا أرض تحمل عنبًا ألذ من عنبهم، وإنما يقنعون بأكلهم العنب كما يأكلون الفواكه الأخرى، وهم يخافون الخمر كمُفسدةٍ للناس، ومن قولهم: إن الخمر ضرب من السم يصول به الإنسان؛ أي إن هذا السم، وإن لم يقتل الإنسان، يجعله حيوانًا، والناس بلا خمرٍ يمكنهم أن يحفظوا صحتهم، والناس بالخمر يعرضون أنفسهم لخطر إتلاف صحتهم وإضاعة حسن أخلاقهم.»

ويقول تلماك بعد هذا: «أريد أن أعلم أيُّ القوانين ينظم أمر الزواج لدى هؤلاء القوم.»

أدوام: «لا يستطيع الواحد منهم أن تكون له غير زوج واحدة، ويجب أن يقتصر عليها ما دامت حيَّةً، ويتوقف عِرض الرجال في هذا البلد على وفائهم لنسائهم كما يتوقف عِرض النساء في البلدان الأخرى على وفائهن لأزواجهن، ولا تجد قومًا كهؤلاء القوم صلاحًا وغيرةً وطهرًا، ونساء هذا البلد جميلاتٌ ظريفات، ولكن مع البساطة والحياء والجد، والزواج عند هؤلاء القوم هادئٌ خصيبٌ نقيٌّ، فيلوح أن الزوجين شخص واحد في جسمين، ويقتسم الزوجان جميع الأمور المنزلية فيما بينهما، فأما الرجل فيقوم بجميع الشئون الخارجية، وأما المرأة فتقوم بتدبير منزلها وتسرِّي عن زوجها، وتظهر أنها لم تخلق إلا لتروقه، وهي تفوز بثقته وتفتنه بفضيلتها أكثر مما تفتنه بجمالها، ويدوم هذا الفتون الحقيقي في عشرتهما ما دامت حياتهما، وما يتصف به هؤلاء القوم من قناعةٍ واعتدالٍ وصفاء طبعٍ ينعم عليهم بحياة طويلة خالية من الأمراض، ومما يشاهد لدى هؤلاء القوم وجود شيوخ بلغوا من العمر مائة عام أو عشرين ومائة عام مع بقاء مرحهم ونشاطهم.»

تلماك: «بقي عليَّ أن أعلم ما يصنعون لاجتناب نشوب الحرب بينهم وبين الأمم الأخرى المجاورة.»

أدوام: «إن الطبيعة فصلتهم عن الأمم الأخرى بالبحر من ناحيةٍ وبجبال عالية من جهة الشمال، ثم إن الأمم الأخرى تكرمهم بسبب فضيلتهم، فمما يحدث، في الغالب، ألا تستطيع الأمم الأخرى أن تتفق فيما بينها فتتخذهم حَكمًا للفصل في خصوماتها وتأتمنهم على المدن التي هي موضوع اختلافها، وبما أن هؤلاء القوم العقلاء لم يقوموا بأي عنفٍ قط فإنك لا تجد أحدًا يحذرهم، وهم يضحكون إذا حُدِّثوا عن ملوكٍ لا يستطيعون تعيين حدود دولهم فيما بينهم، ومن قول هؤلاء القوم: «أيُخشَى أن تعوز الناس أرض؟ يوجد من الأرضين، دائمًا، أكثر مما يستطيعون زراعته، ولا نود حتى الدفاع عن أرَضينا حيال جيرانٍ يأتون لشغلها ما وجدت عندنا أرض بور أو مَوَات»، ولا ترى بين جميع سكان البتيك زهوًا ولا كبرياء ولا سوء نية ولا رغبة في بسط سلطانهم على غيرهم، وهكذا لا يوجد لدى جيرانهم ما يخافونه منهم ولا لديهم ما يخافونه من جيرانهم؛ ولذا فإن جيرانهم لا يكدرون صفوهم، ويفضل هؤلاء القوم أن يهجروا بلدهم أو أن يبادوا على قبول العبودية، ومن ثم يصعب إخضاعهم كما يعجزون عن إخضاع الآخرين، وهذا هو سر ما تبصر من سلمٍ عريقٍ بينهم وبين جيرانهم.»

ويختم أدوام كلامه هذا ببيانه كيف يقوم الفنيقيون بتجارتهم في البتيك، قال أدوام: «لقد اعترى هؤلاء القوم دهش حينما رأوا غرباء يأتون بطريق البحر من بلدٍ بعيدٍ جدًّا، وقد أذنوا لنا في إقامة مدن في جزيرة قادس، حتى إنهم تقبلونا على استحياء وجعلوا لنا حصةً في جميع ما لديهم بلا مقابل، ثم إنهم عرضوا أن يجودوا علينا بما يبقى من أصوافهم بعد أن يأخذوا ما يحتاجون إليه منها، والواقع أنهم أرسلوا إلينا هدية ثمينة وأن مما يطيب لهم أن يعطوا الأجانب ما يفيض عندهم.»

وأما المناجم فلم يجدوا أي عناء بتركها لنا ما دامت غير نافعة لهم، فمما يلوح لهم أن من غير الحكمة أن يبذل الناس جهودًا عظيمة للبحث في بطن الأرض عن شيء لا يجعلهم سعداء ولا يمكن أن يقضي أي احتياج حقيقي لهم، ومن قولهم لنا: «لا توغلوا في حفر الأرض كثيرًا، واكتفوا بحرثها، فهي تنعم عليكم بأموال حقيقية تغذيكم، وأنتم تنالون منها ثمرات أفضل من الذهب والفضة ما دام الناس لا يريدون هذين المعدنين إلا ليشتروا بهما ما يقوِّمون به حياتهم من الأطعمة.»

وما أكثر ما أردنا تعليمهم الملاحة وأن نأتي بفتيان بلدهم إلى فنيقية، ولكنهم لم يريدوا قط أن يقتبس أولادهم طراز حياتنا، وقد قالوا لنا: «يؤدي هذا إلى تعلمهم أن يكون عندهم احتياج إلى جميع الأشياء التي صارت ضروريةً لديكم، فيريدون حيازتها ويتخلون

عن الفضيلة نيلًا لها بأسوأ احتيال، ويغدون كمن له ساقان فيفقد عادة المشي ويتعود، عند الضرورة، أن يُحمل مثل مريض دائمًا»، وأما الملاحة فيعجبَون بها لما تقتضيه هذه المهنة من مهارة، ولكن مع اعتقادهم ضرر هذه المهنة، وقد قالوا: «إن لهؤلاء الناس في بلدهم ما تقضى به حاجة العيش بما فيه الكفاية، فما أَرَبهم بالذهاب إلى بلد آخر لكي يطلبوه فيه؟ أو لا يكتفون بما تُقضَى به الحاجات الطبيعية؟ أجل، إنهم يستحقون الغرق ما داموا يبحثون عن الموت بين العواصف إرواءً لطمع التجار ومداراة لأهواء أناسٍ آخرين.»

فُتِن تلماك بسماع كلام أدوام هذا، ومما سُرَّ له وجود قومٍ في العالم يتبعون حقوق الفطرة فيكونون كلهم بالغي الحكمة بالغي السعادة، وقد قال: «وَيْ! ما أعظم الفرق بين طباع هؤلاء القوم والطباع الباطلة الطامحة لدى الأمم الأخرى التي يُعتقد أنها أكثر الشعوب حكمةً! لقد بلغنا درجةً من الفساد لا نكاد نصدق معه إمكان صحة هذه البساطة الفطرية، فنحن نَعُدُّ طباع هؤلاء القوم أسطورة جميلة، وهم يَعُدون طباعنا حلمًا مزعجًا.»

الجزء الثامن

يدوم غضب فينوس على تلماك فتطلب من جوبيتر أن يهلكه، ولكن الأقدار لا تسمح بهلاكه فتلتمس هذه الإلهة وسائل من نبتون يكون بها بعيدًا من إيتاك التي يسير به أدوام إليها، لم يلبث نبتون أن ساق إلى الربان أقماس إلهًا ماكرًا سحر حواسه فجعله يدخل سفينته إلى ميناء سلنتة معتقدًا وصوله إلى إيتاك، أحسن إيدومنه قبول تلماك ومنتور وزار معهما معبد جوبيتر حيث أمر بتقديم قرابين نيلًا للنصر في حربٍ وقعت بينه وبين المندوريين، تأملَ الكاهن المقرِّب في أحشاء القرابين فملأ إيدومنه أملًا وأخبره بأنه مدين بحظه الحسن لضيفيه الجديدين.

بينا كان تلماك وأدوام ماضيين في حديثهما على ذاك الوجه غافلين عن النوم، ولم يبصرا أن الليل في منتصف مجراه، كان يبعدهما إله عدو مخادع من إيتاك التي يبحث ربانهما أقماس عنها على غير جدوى، وذلك أن نبتون، وإن كان عاطفًا على الفنيقيين، لم يُطِقْ طويلًا نجاة تلماك من الزوبعة التي كان قد قذفه بها نحو صخر جزيرة كلبسو، وأكثر من ذلك غضب فينوس إذ رأت قهر ذلك الشاب لرب الغرام وضروب فتونها، وتهجر فينوس، عن ألم بالغ، سيتر وبافوس وإدالية وكل تمجيدٍ لها في جزيرة قبرس؛ أي تغادر تلك الأمكنة التي عادت لا تستطيع الإقامة بها بعد أن استخف تلماك بسلطانها فيها، وتصعد في جبل الألنب الزاهر حيث كان الآلهة ملتفين حول عرش جوبيتر، وكانوا ينظرون إلى النجوم التي تتدحرج تحت أقدامهم، وكانوا يرون الكرة الأرضية مثل كتلةٍ من الطين، وكانت البحار العظيمة لا تبدو لهم غير قطراتٍ من الماء تبلل تلك الكتلة قليلًا، وكانت أعظم الممالك لا تظهر لهم غير قليل من الرمل يستر وجه ذلك الطين، وكانت الأمم التي لا يحصيها عدد والجيوش البالغة القوة لا تلوح لهم غير نمالٍ تتنازع تبنةً على تلك الكتلة الطينية، ويضحك الخالدون من الأمور البالغة الجدية التي تهز الآدميين الضعفاء عادِّين

إياها ألعاب أولاد، ولا يتراءى لهؤلاء الآلهة الأعلين ما يسميه الناس عظمةً ومجدًا وسلطانًا وسياسةً بعيدة الغور غير بؤسٍ وضعف.

ففي هذا المكان البالغ الارتفاع فوق الأرض نصب جوبيتر عرشه الثابت، وتنفذ عيناه حتى المهاوي، وتنيران حتى آخر خبايا الأفئدة، وتنشر نظراته العذبة المشرقة سكونًا وسرورًا، ويقع عكس هذا إذا ما هزَّ شعره، فهو بهذا يزعزع السماء والأرض، حتى إن الآلهة، الذين يبهرون بشعاع المجد الذي يحيط به، يرتجفون إذا ما دنوا منه.

وكان جميع آلهة السماء بجانبه في تلك الأثناء، وتحضر فينوس بكل ما يطفح به صدرها من فتون، ويظهر رداؤها المتموج أسطع من جميع الألوان التي تزين بها إيريس بين السحب الداجنة حينما تأتي لتنبئ الناس المذعورين بنهاية الزوابع وتخبرهم برجوع الجو إلى صفائه، وكان رداؤها مشدودًا بذاك النطاق المشهور الذي تبدو به محاسنها، وكان شعر هذه الإلهة المرسل معقودًا من الخلف بخصلةٍ من الذهب، ويدهش جميع الآلهة بجمالها كأنهم لم يشاهدوها قبل ذلك قط، وتبهر عيونهم كما تبهَر عيون الناس عندما يأتي فيبوس بعد الليل الطويل لإنارتها بأشعته، وينظر بعضهم إلى بعض عن إعجاب، وذلك مع إلقاء بصرهم إلى فينوس دائمًا، غير أنهم أبصروا ما كان من ذريف عيني هذه الإلهة وما هو مرسوم على وجهها من ألمٍ شديد.

وتتقدم فينوس نحو عرش جوبيتر، وهي تميس بخطوٍ حلوٍ خفيف كطيران الطائر الذي يشق طبقات الهواء الواسعة بسرعة، وينظر جوبيتر إليها ملاطفًا، ويبتسم لها ابتسامًا عذبًا، وينهض، ويقبِّلها، ويقول لها: «أي ابنتي العزيزة! ما كربك؟ لا أستطيع أن أمنع نفسي من التأثر عندما أنظر إلى عبراتك، فلا تخافي أن تُطلعيني على ما يدور في فؤادك، وأنت تعرفين رأفتي ومعروفي.»

وتجيب فينوس قائلةً بصوتٍ عذب، ولكن مع تقطعه بتنهد عميق: «أي أبا الآلهة والناس، أيها البصير بكل شيء، أيمكن أن تجهل سبب كربي؟ لم تكتفِ منرفا بتدمير مدينة تروادة الرائعة التي كنت أدافع عنها وبالانتقام من باريس الذي فضَّل جمالي على جمالها، بل سارت في جميع الأرضين وجميع البحار بابن أوليس القاسي المدمر لتروادة؛ أي إن منرفا رافقت تلماك، فحال هذا دون اتخاذها لمكانها هنا بين الآلهة الآخرين، وهي قد ساقت هذا الشاب الجريء إلى جزيرة قبرس لإهانتي، فاستخف بسلطاني، ولم يكتفِ بعدم إحراق بخورٍ في محاريبي، بل أظهر نفورًا من الأعياد التي تقام تمجيدًا لي، وقد أوصد فؤاده دون جميع لذَّاتي، ومن العبث، إذن، استجابة نبتون لدعائي وإثارته الرياح

والأمواج حياله معاقبةً له، فقد قذف حادث غرقٍ بتلماك في جزيرة كلبسو وانتصر حتى على رب الغرام الذي أرسلتُه إلى هذه الجزيرة ليُلِين قلب هذا الفتى اليوناني، وما كان شبابه، ولا فتون كلبسو وسحر حورياتها، ولا ملامح رب الغرام الملتهبة؛ لتستطيع أن تتغلب على حيل منرفا التي اختطفته من هذه الجزيرة، وها أنا ذا مضطربة إذ أرى ولدًا يفوز عليَّ!»

واسمع قول جوبيتر لفينوس كيما يُلقي سلوانًا فيها: «أجل، يا بنيتي، إن منرفا تدرأ عن فؤاد هذا الشاب اليوناني جميع سهام ابنك مُعدَّةً إياه إلى مجدٍ لم يستحقه شاب قبله، وقد ساءني استخفافه بمحاريبك، ولكن لا يمكنني أن أجعله خاضعًا لسلطانك، وأجدني موافقًا، عن حبٍّ لك، أن يستمر تسكعه برًّا وبحرًا وأن يعيش بعيدًا من وطنه معرَّضًا لضروب الرزايا والأهوال، غير أن الآلهة لا يسمحون بهلاكه ولا بسقوطه في الملاذ التي تدالين بها الرجال، فاهدئي، يا بنيتي، واقنعي، إذن، بأن تمسكي في دولتك كثيرًا من الأبطال والخالدين الآخرين.»

وكان جوبيتر يقول ذلك لفينوس مبديًا لها ابتسامًا طافحًا لطفًا وجلالًا، وكان يسطع من عينيه نور ثاقب كنور البرق، وقد قبَّل فينوس قبلة حنان فانتشرت رائحة ذكية عمت جبل الألنب، ولم تتمالك هذه الإلهة أن تأثرت بهذا اللطف الصادر عن أعظم الآلهة، فَعَلا وجهَها سرورٌ على الرغم من دموعها وألمها، وتسدل برقعها سترًا لاحمرار خديها وما اعتراها من ارتباك، ويدوِّي مجلس الآلهة بالهتاف استحسانًا لكلام جوبيتر، ولا ترى فينوس إضاعة دقيقةٍ واحدة، للاجتماع بنبتون؛ أي تذهب من فورها كيما تتفق معه على الوسائل التي يُنتقم بها من تلماك.

وتقص على نبتون ما قاله جوبيتر، ويقول نبتون: «كنت أعرف حكم الأقدار الذي لا تبديل له، ولكن إذا كنا لا نستطيع إغراق تلماك في البحر فلا ننسى شيئًا نجعله به تعسًا ونعوق رجوعه إلى إيتاك على الأقل، ولا يمكنني أن أوافق على إتلاف السفينة الفنيقية التي ركبها، فأحب الفنيقيين، وهم شعبي، ولا يوجد في العالم قوم آخرون يتعهدون مملكتي كما يتعهدها الفنيقيون، وبفضل هؤلاء صار البحر أداة اتصال بين جميع أمم الأرض، وهم يكرمونني بما يقدمون من القرابين في مذابحي، وهم منصفون حكماء مجدون في التجارة، وهم ينشرون البركة والرفاهية في كل مكان، كلا، أيتها الإلهة، لا أحتمل أن يغرق أي واحد من مراكبهم، وإنما أصنع ما يضل به الربان طريقه، وما يبتعد معه عن إيتاك التي يريد الذهاب إليها.»

رضيت فينوس بهذا الوعد وضحكت عن خبثٍ، وعادت إلى عربتها، وطارت فوق مروج إدالية الزاهرة حيث تبدي إلهات الألطاف والألعاب والدعابات سرورهن برؤيتها ثانيةً راقصاتٍ حولها فوق الزهور التي تعطر ذاك المكان الفتان.

ولم يعتم نبتون أن أرسل إلهًا ماكرًا مشابهًا للأحلام، وذلك مع الفارق القائل: إن الأحلام لا تخادع إلا في المنام، وإن هذا الإله يسحر حواس الناس حين السهاد، ويأتي هذا الإله المؤذي المحاط بجمٍّ غفير من رسل الكذب المرفرفين حوله ويسكب سائلًا لطيفًا مسحورًا في عيني الربان أقماس وهو يلاحظ بدقةٍ، وعلى نور القمر، سير النجوم وساحل إيتاك الذي كان قد أبصر صخوره الوعرة قريبةً منه، وتعود عينا الربان في تلك الساعة لا تدُلَّانه على شيء حقيقي، وتبدو له سماءٌ وهمية وأرض مختلقة، وتظهر الكواكب كما لو كانت قد غيَّرت سيرها وأنها ترجع إلى الوراء، ويلوح جبل الألنب أنه يتحرك وفق سُنن جديدة، حتى البر قد تغير، وما انفكت إيتاك خيالية تسنح للربان إلهاءً له على حين تبتعد إيتاك الحقيقية عنه، وكان كلما تقدم نحو خيال هذا الساحل الخادع كان هذا الخيال يرجع إلى الوراء فارًّا أمامه غير عارف سر هذا الفرار، وكان، في الحين بعد الحين، يخيل إليه أنه يسمع لغطًا صادرًا عن الميناء، ومما استعد له، وفق أمر كان قد تلقاه، أن يذهب للرسو سرًّا في جزيرةٍ قريبة من الجزيرة الكبرى إخفاءً لعودة تلماك حيال عشاق بنلوب المؤتمرين به، ومما كان يحدث أحيانًا أن يخشى الصخور القائمة على هذا الساحل فيخيل إليه أنه يسمع هدير الأمواج التي تتكسر عليها، ثم يلاحظ من فوره أن البر لا يزال بعيدًا كما يظهر، ولم تكن الجبال لتبدو له، بهذا البعد، غير سحب صغيرة يظلم بها الأفق حين غياب الشمس، وهكذا حار أقماس، وهكذا أسفر أثر الإله الماكر الذي سحر عينيه عن شعوره بحالٍ وجديةٍ غير معروفة لديه قبل ذلك الحين، حتى إنه كان يخيل إليه أنه غير ساهرٍ وأنه سابح في أوهام حلم، وبينا كان الوضع كذلك أمر نبتون ريح الشرق بأن تهب فتلقي المركب في شواطئ هسبرية، وتطيع الريح بصولةٍ، ولم تلبث السفينة أن وصلت إلى الساحل الذي عيَّنه نبتون.

وينمُّ الفجر على النهار، وتذهب الكواكب التي تخاف أشعة الشمس عن غيرةٍ لتواري في البحر المحيط نيرانها الكابية، ويهتف الربان قائلًا: «نكاد نلمس جزيرة إيتاك، فابتهج يا تلماك! فقد لا تمضي ساعة حتى ترى بنلوب، وربما تجد أوليس جالسًا على عرشه!»

ويفيق تلماك، الذي كان ساكنًا بين ذراعي النوم، عند سماع هذا الصوت، وينهض، ويصعد فوق سكان السفينة، ويعانق الربان، ويحدق بعينيه، اللتين لم يكد يفتحهما، إلى الشاطئ المجاور، ويئنُّ لما لم يجد شواطئ وطنه مطلقًا، ويقول: «آه! أين نحن؟ ليست

إيتاك العزيزة هناك! لقد خدعت يا أقماس، أنت سيئ المعرفة بهذا الشاطئ البعيد من بلدك كثيرًا.»

أقماس: «كلا، كلا، لا يمكن أن أُخدَع عند النظر إلى شواطئ هذه الجزيرة، وما أكثر ما دخلت مرفأكم! أنا أعرف حتى أدق صخوره، ولست أحسن تمثلًا لشاطئ صور من تمثلي لشاطئكم، اعرف هذا الجبل الذي يتقدم، وانظر إلى هذه الصخرة القائمة كالبرج، ألا تسمع الموج الذي يتكسَّر على الصخور الأخرى حينما يلوح أنها تهدد البحر بسقوطها؟ ألا تلاحظ معبد منرفا الذي يناطح السحاب؟ هذا هو ذا حصن أبيك أوليس ومنزله.»

تلماك: «أنت مخطئٌ يا أقماس، إني أرى شاطئًا مرتفعًا بعض الارتفاع مع الاستواء، وأرى مدينةً ليست إيتاك، وا آلهتاه! أهكذا تعبث بالناس يا أقماس؟»

وبينا كان ينطق بهذه الكلمات تغيرت عينا أقماس بغتةً، فقد انقطع السحر، ورأى الشاطئ كما هو حقيقةً، وأدرك خطأه، وقال صارخًا: «أعترف لك، يا تلماك، بأن إلهًا عدوًّا سحر عينيَّ، فاعتقدتُ أنني أبصرت إيتاك، وتمثلت لي صورتها تمامًا، ولكنها غابت الآن مثل حلم، وصرت أرى مدينة أخرى، ولا ريب في أن هذه هي مدينة سلنتة التي أنشأها في هسبرية المطرود من أقريطش: إيدومنه، وتراني أشاهد الأسوار التي تقام ولما يتمَّ بناؤها، والميناء الذي لما يحصَّن تمامًا.»

وبينما كان أقماس يلاحظ مختلف الأشغال التي تمت في هذه المدينة الناشئة جديدًا، وكان تلماك يرثي لبلائه، أدت الريح، التي جعلها نبتون تهب، إلى دخول المركب، منشور القلوع، في مرفأٍ طبيعي أمين قريبٍ من الميناء.

ولم يبدِ منتور، الذي كان لا يجهل انتقام نبتون، ولا مكر فينوس القاسي، غير ابتسامٍ تجاه خطأ أقماس، ولما صاروا داخل ذاك المرفأ الطبيخعي قال منتور لتلماك: «إن جوبيتر يبتليك يا تلماك، ولكنه لا يريد هلاكك، وإنما يبتليك ليفتح لك طريق المجد، واذكر أعمال هركول، ولا تغِبْ عنك أعمال أبيك، ومن لم يصبر على الألم لم يكن ذا قلب كبير على الإطلاق، وليكن لك بصبرك وبأسك ما تتعب به الطالع الجافي الذي يسره إزعاجك، وخوفي عليك أن تكون عرضةً لأفظع فقدٍ للحظوة عند نبتون أقل من خوفي عليك أن تكون عرضةً لملاطفات الإلهة التي أمسكتك في جزيرتها، ولمَ التريث؟ لندخل هذا الميناء، هذا شعب صديق، الأغارقة هم الذين نصل إليهم، سيكون إيدومنه الذي أذلَّه الطالع رءوفًا بالتعساء.»

ويدخلون مدخل ميناء سلنتة من فورهم ويقبل المركب الفنيقي بلا مشقة لما كان من سلامٍ وتجارةٍ بين الفنيقيين وجميع أمم العالم.

ويعجب تلماك بهذه المدينة الناشئة المشابهة لنباتٍ حديث يزَّيَّن في الصباح بأشعة الشمس بعد أن يتغذى بندى الليل العذب، وينمو هذا النبات، ويفتح براعمه الناعمة، وينشر أوراقه الخضر، ويخرج أزهاره العطرية على ألف لونٍ جديد، فإذا ما نظر إليه في كل دقيقة وجد له لمعانٌ طريف، وهكذا كانت تزدهر مدينة إيدومنه الجديدة على ساحل البحر، وهكذا كانت سلنتة تنمو بهيةً فتبدي للأجانب من البحر زخارف معماريةً حديثةً تبلغ السماء، وكان جميع الشاطئ يدوي بأصوات العمال وضربات المداقِّ، وكانت الحجارة معلقةً في الهواء بمرافع ذات حبال، وكان الرؤساء يحثون الناس على العمل منذ ظهور الفجر، وكان الملك إيدومنه يصدر الأوامر بنفسه في كل مكان فيوجب تقدم الأعمال بنشاطٍ يفوق الوصف.

ولم يكد المركب الفنيقي يصل إلى الميناء حتى أظهر الأقريطشيون لتلماك ومنتور جميع آيات المودة الخالصة، ويُهرَع إلى إيدومنه من يخبره بوصول ابن أوليس، ويهتف إيدومنه قائلًا: «ابن أوليس! ابن الصديق الغالي أوليس! ابن هذا البطل الحكيم الذي دمَّرنا مدينة تروادة بفضله! إيتوا به إلى هنا! إيتوا به لأظهر له مقدار حبي لأبيه!»

ويقدم تلماك إليه حالًا، ويطلب تلماك منه أن يضيفه، ويذكر تلماك له اسمه، ويجيبه إيدومنه بوجهٍ طليقٍ بَاسمٍ قائلًا: «ما كان ليفوتني أن أعرفك ولو لم تذكر لي من أنت، فأنا أرى أوليس نفسه: أرى عينيه الناريتين الدالتين على الحزم، كما أرى ملامحه الفاترة المتحفظة التي تخفي تحتها كثير نشاطٍ ولطف، وقد عرفت فيك ابتسامته الدقيقة، وعمله البعيد من التكلف، وكلامه العذب البسيط الفتان المقنع بلا احتراز، أجل، إنك ابن أوليس، ولكنك ستكون ابنًا لي أيضًا، أَي بني! أَي بني! أية مغامرةٍ أتت بك إلى هذا الشاطئ؟ أللبحث عن أبيك؟ آه! ليس عندي خبر عنه، وقد جار الطالع علي وعليه، وكان من بؤسه أن عجز عن العود إلى وطنه، وكان من بؤسي أن وجدت وطني طافحًا بغضب الآلهة علي.»

وبينما كان إيدومنه ينطق بهذا الكلام كان يحدق إلى منتور فيراه رجلًا لا يجهل وجهه وإن لم يعرف اسمه.

ويجيبه تلماك دامع العينين قائلًا: «اغفر لي، أيها الملك، ألمي الذي لا أستطيع كتمه في وقتٍ يجب علي ألا أظهر لك فيه غير السرور والثناء على إحسانك، وذلك أنك أشعرتني، بالأسف الذي أظهرته لي على فقد أوليس، بعدم إمكان لقاء والدي، وأنه مضى وقت طويل علي وأنا أبحث عنه في جميع البحار، وأن الآلهة الغاضبين لا يأذنون لي في رؤيته ثانيةً ولا في معرفتي هل غرق أو أن من الممكن أن يعود إلى إيتاك حيث تضنى بنلوب رغبةً في

إنقاذها من عشاقها، وأنني اعتقدت، فيما مضى، أن أجدك في جزيرة أقريطش حيث علمت قسوة مصيرك، وأنني ما كنت أظن اقترابي من هسبرية التي أقمت فيها مملكةً جديدة، غير أن الطالع، الذي يسخر من الناس فجعلني أهيم على وجهي في جميع البلدان بعيدًا من إيتاك، قذفني في سواحلك، فهذه المصيبة وحدها هي التي أحتمل مختارًا، فهي، وإن كانت تبعدني من وطني، عرفتني بأكثر الملوك كرمًا.»

هنالك عانق إيدومنه تلماك عناق حنان، وأتى به إلى قصره، وقال له: «مَن ذاك الشيخ المتحرز الذي يرافقك؟ يخيل إليَّ أنني شاهدته كثيرًا فيما مضى.»

تلماك: «هذا منتور، هذا صديق أوليس منتور، هذا منتور الذي وكلني إليه أبي طفلًا، ومن يستطيع أن يصف لك مقدار ما أنا مدين له به؟»

هنالك تقدم إيدومنه نحو منتور، ومدَّ يده إليه، وقال له: «لقد اجتمعنا سابقًا، أو تذكر سابق رحلتك إلى أقريطش وما قدمت إليَّ من نصائح صالحةٍ؟ بيد أنني كنت أتبع حرارة الشباب وأندفع وراء باطل اللذات، وكان لا بُدَّ لي من التعلم بالمصائب حتى أطَّلِعَ على ما كنت راغبًا عن اعتقاده، يا ليتني صدقتك ووثقت بك! ومما يثير عجبي أنك لم تتغير تقريبًا مع مرور سنين كثيرةٍ على ذلك الحين، فأراك محافظًا على نضارة وجهك واستقامة قامتك وقوة نشاطك، وشعرُك وحده هو الذي وَخَطه الشيب.»

منتور: «لو كنت مصانعًا، أيها الملك العظيم، لقابلتك بقولي: إنك لا تزال محافظًا على زهرة الشباب التي كانت تسطع على وجهك قبل حصار تروادة، ولكنني أفضل ألا أروقك على الإضرار بالحق، وهذا إلى أنني أبصر من خلال كلامك الحكيم أنك تكره النفاق وأنه لا ضير إذا ما خوطبت بإخلاص، والواقع أنك تغيرت كثيرًا وأنني أجد مشقةً في معرفتي إياك، ويتجلى السبب لي واضحًا، فأنت قاسيت في مصائبك كثيرًا، ولكن مع كسبك كثيرًا مما قاسيت ما دمت قد فزت بالحكمة، ومما يجب أن يتعزَّى عنه بسهولةٍ ما يظهر على الوجه من غضونٍ ما مرن القلب على الفضيلة وصار عامرًا بها، ثم اعلم أن الملوك يَضْنَوْن أكثر من ضنى الآخرين دائمًا، وذلك أنهم يشيبون قبل الأوان بالشدائد وآلام النفس وأعمال البدن، وأكثر مما بأعمال الحرب ضناهم بملاذ الترف، فلا شيء أوخم من الملاذ التي لا يمكن الاعتدال فيها، ومن ثم يرى أن الملوك في السلم والحرب يجدون من المشاق والملاذ ما يجيء بالمشيب قبل العمر الذي يُهرَم فيه عادةً، وما يُقضى من حياة منظمة جدية قائمة على القناعة والاعتدال والبساطة والعطل من الهموم والأهوال يحفظ في أعضاء الإنسان الحكيم شبابًا فيَّاضًا يطير على أجنحة الزمان، دائمًا، بغير احتياط.»

وكان إيدومنه، المفتون بكلام منتور، يستمع إليه زمنًا طويلًا لو لم يخبر بأمر قربان يجب أن يقدمه إلى جوبيتر، ويتبعه تلماك ومنتور محاطين بجمعٍ كبير من الشعب ناظرٍ إلى هذين الغريبين نظر فضول واهتمام، ويقول بعض أهل سلنتة لبعض: «يا لاختلاف هذين الرجلين! فأما الشاب فيتصف بما لا يعبر عنه من نشاط وأنس، ويطفح وجهه وجميع بدنه بجميع محاسن الجمال والفَتَاء، ولكن مع خلو هذا الجمال من الترهل والتخنث، وهو يظهر، مع نضارة الشباب الناعمة، قويًّا عصلبيًّا أهلًا للعمل، وأما الآخر، وإن كان أكثر تقدمًا في السن، لم يفقد شيئًا من قوته بعد، ويبدو، أول وهلةٍ، أنه ذو هيئةٍ أقل طولًا وذو وجهٍ أقل لطافةً، ولكنه إذا ما نظر إليه عن كثب وجدت علامات الحكمة والفضيلة في بساطته مع نبل يثير العجب، ولو هبط الآلهة إلى الأرض ليعاشروا الناس لاتخذوا مثل صورة هذين الغريبين المسافرين.»

ويبلغ معبد جوبيتر الذي جمَّله إيدومنه، وهو من سلالة هذا الإله، بكثير من الزخارف البهية، فقد كان يحيط به صفا عمد من رخام اليصب وكانت تيجان العمد مصنوعةً من الفضة، وكان المعبد مُلبَسًا بمرمرٍ ذي نقوشٍ بارزة تمثل جوبيتر متحولًا إلى ثور ومغتصبًا لِأُرُبَّةَ وذاهبًا بها إلى أقريطش بين الأمواج، وتلوح الأمواج مُجِلَّةً لجوبيتر وإن ظهر على شكلٍ غريب، ثم ترى ولادة مينوس وشبابه، ثم يشاهد هذا الملك الحكيم في سن متقدمة وهو ينعم بشرائع على جميع جزيرته جعلًا لها مزدهرةً إلى الأبد، ويلاحظ تلماك في المعبد، أيضًا، صور أهم المغامرات حين حصار تروادة حيث نال إيدومنه شهرة قائدٍ عظيم، ويبحث تلماك عن أبيه بين صور المعارك فيعرفه وهو قابض على خيل ريزوس الذي قتله ديوميد، ثم يراه وهو ينازع أجكس أسلحة أشيل أمام جميع قواد الجيش اليوناني المجتمعين، ثم يراه وهو خارج من الحصان الخشبي المنحوس كيما يسفك دماء كثير من التروادين.

ويعرف تلماك أباه، أول وهلة، من مآثره المشهورة التي سمع عنها الشيء الكثير والتي قص نسطور نفسه خبرها عليه، ويسيل الدمع من عينيه، ويتغير لونه، وتظهر علامات الاضطراب على وجهه، ويبصر إيدومنه ذلك وإن أدار تلماك ظهره كتمًا لاضطرابه.

قال له إيدومنه: «لا تخجل من إطلاعنا على مقدار انفعالك حيال ما نال أبوك من مجد وما لقي من مصائب.»

ويتجمع الناس في تلك الأثناء تحت الأروقة التي تكونت من صفي العمد المحيطة بالمعبد، وتشاهَد كتيبتان من الفتيان والفتيات تنشدان أشعارًا حمدًا للإله الذي يرسل الصواعق، وتظهر لهؤلاء الأولاد الحسان شعور طويلة متموجة على الأكتاف، ويبدون

مطيبين متوجين بأكاليل من ورد لابسين ثيابًا بيضًا، ويقدم إيدومنه مائة ثور قربانًا إلى جوبيتر استنصارًا له في حرب نشبت بينه وبين جيرانه، ويتصاعد دخان دم الضحايا من كل ناحية، ويُرى الدم وهو يسيل في أكوابٍ عميقة من ذهب وفضة.

وكان صديق الآلهة وكاهن المعبد، الشيخ تيوفان، يستر رأسه في أثناء تقديم القرابين بطرف ردائه الأرجواني، ثم تأمل هذا الكاهن المقرب في أحشاء الضحايا التي كانت تختلج، ثم اعتلى الكرسي المقدس الثلاثي الأرجل وقال بصوتٍ جهير: «أيها الآلهة! مَن هذان الرجلان اللذان نزلا من السماء إلى هذه الأمكنة؟ فلولاهما لغدت الحرب القائمة شؤمًا علينا، ولدُمرت سلنتة قبل أن يتم قيامها على أسسها، وأُبِصرُ بطلًا شابًّا تقوده إلهة الحكمة بيدها، ولا يؤذن لذي فمٍ فانٍ أن يقول أكثر من هذا.»

نطق الكاهن المقرِّب بهذا الكلام، وظهر عَبوسًا متوقد النظر كأن الشرر يتطاير من عينيه، ولاح أنه يرى أمورًا غير التي تبدو أمامه، ويضطرب، ويفقد وعيه، ويزبئر شعره ويزبد فمه، وتجمد ذراعاه المرفوعتان، ويكون صوته المهتز أقوى من أي صوت بشري كان، ويضيق نفَسه، ولا يستطيع أن يحبس في صدره ما يحركه من روح إلهي، ويقول بصوت جهْوري أيضًا: «أَيْ إيدومنه السعيد! ما أرى! يا للمصائب التي اجتُنبت! يا للسلام الهادئ في الداخل! ولكن يا للمعارك في الخارج! يا للانتصارات التي تُنال! أَيْ تلماك! إن مآثرك تفوق مآثر أبيك، فالعدو المتجبر يئن في العجاج تحت حسامك، والأبواب النحاسية والأسوار المنيعة تسقط تحت قدميك، أيتها الإلهة العظيمة، إن أباه جرى منه وله ما جرى: وأنت أيها الشاب لا بُدَّ أن ترى ما ترى.»

ولم تكد هذه الكلمات تخرج منه حتى تلجلج، وساده، على الرغم منه، صمت مع الدهش.

ويجمد جميع الشعب فزعًا، ويرتجف إيدومنه هلعًا، ولا يجرؤ على مطالبته بإتمام ما بدأ، ويدهش تلماك أيضًا، ولا يكاد يدرك ما سمع، ولا يكاد يصدق أنه سمع هذه البشارة العالية، ومنتور وحده هو الذي لم تَحَرْ نفسه الربانية قط، قال منتور لإيدومنه: «أنت تسمع عزم الآلهة، فمهما يكن من القوم الذين تحارب فإن النصر يكون حليفك، وستكون مدينًا في حسن حظ سلاحك للشاب ابن حبيبك، ولا تأخذك منه غيرة، واقتصر على الانتفاع بما يعطيك الآلهة إياه على يده.»

وبما أن إيدومنه لم يُفِقْ من دهشه بعد فإنه كان يحاول التكلم على غير جدوى، فقد ظل لسانه معقودًا، ويكون تلماك أكثر نشاطًا، فيقول لمنتور: «لا أتأثر بمجدٍ موعود، ولكن

ما معنى قوله: لا بُدَّ أن ترى ...؟ فهل أرى أبي، أو أرى إيتاك فقط؟ آه! ليته أتم كلامه! لقد تركني أشد ارتيابًا مما كنت! أَيْ أوليس، أَيْ والدي! أتكون أنت الذي لا بُدَّ أن أرى؟ أيتحقق هذا؟ ولكنني أعلل نفسي بالأمل! أَيْ هاتفَ الغيب الجافي! أنت تتلذذ بالهزء من بائس! كلمة أخرى تملؤني سعادة!»

واسمع جواب منتور: «احترم ما يكشف عنه الآلهة، ولا تحاول كشف ما يريد الآلهة كتمه، إن كل ذي فضولٍ متهورٍ يستحق أن يُخزى، إن من حكمة الآلهة البالغة اللطف أن يخفوا عن الناس مصايرهم في ليل مدلهمٍّ، إن من المفيد أن نبصر ما يدخل ضمن خيارنا كيما نحسن صنعه، ولكن ليس أقل من هذا فائدةً أن نجهل ما لا خيار لنا فيه وتريد الآلهة أن يصنعوه بنا.»

ويتأثر تلماك بهذا الكلام، ويضبط نفسه على مضض.

ويأخذ إيدومنه، الذي ذهب عنه دهشه، يثني، من ناحيته، على جوبيتر العظيم الذي أرسل إليه الشاب تلماك والحكيم منتور نصرًا له على أعدائه، وتقام وليمة فاخرة بعد تقريب القربان، ويخاطب الغريبين على انفراد بما يأتي: «أعترف بأنني كنت غير عارف بفن الحكم عندما عدت إلى أقريطش بعد حصار تروادة، وأنتما تعرفان، أيها الصديقان، أمر المصائب التي حرمتني الحكم في هذه الجزيرة الكبيرة ما دمتما توكِّدان لي أنكما كنتما فيها بعد خروجي منها، ولكن من حسن حظي أن انتفعت بأقسى ضربات الطالع في تثقيفي وجعلي أكثر اعتدالًا، وأجوب البحار فارًّا من انتقام الآلهة والناس، ولم تنفع عظمتي السابقة إلا لجعل سقوطي أشد خِزيًا وأكثر وِقْرًا، وألجأ مع آلهتي المنزلية إلى هذا الشاطئ المهجور الذي لم أجد فيه من الأرض غير البور المستور بالعوسج والزعرور، وغير الغاب القديمة قِدَمَ العالم، وغير الصخر الوعرة حيث تأوي الوحوش، وأجدني ملزمًا بالاغتباط بحيازة هذه الأرض المقفرة أنا وقليل من الجنود والأصحاب الذين أرادوا اتباعي في مصائبي وبجعلي منها وطني ما دام رجائي قد انقطع من الرجوع إلى تلك الجزيرة السعيدة التي قضى الآلهة بولادتي فيها حتى أملكها، وأقول في نفسي: «آه! يا للتحول! يا لي من مَثَلٍ هائل للملوك! يجب إظهاري عبرةً لجميع ملوك العالم يعتبرون بها! يخيَّل إلى هؤلاء الملوك أنه لا يوجد ما يخشون بسبب ارتقائهم فوق بقية الناس! ماذا؟! إن ارتقاءهم هو الذي يجب أن يحملهم على الخوف! لقد خافني أعدائي، وأحبتني رعيتي، وقدت شعبًا قويًّا محرابًا، وقد ذاع صيتي في أقصى البلدان، وقد حكمت في جزيرة خصيبة جميلة، وقد جعلت لي مائة مدينة خرجًا سنويًّا يؤخذ من ثرواتها، وكان أولئك القوم يعدُّونني ملكًا

من ذرية جوبيتر ولد في بلدهم، وكانوا يحبونني مثل حفيدٍ للحكيم مينوس الذي جعلتهم شرائعه بالغي القوة بالغي السعادة، وهل كان يعوزني، لكمال سعادتي، غير معرفتي أن أتمتع مع الاعتدال؟ بيد أن خيلائي وما كنت أسمع من الرثاء دك عرشي، وهكذا سيسقط جميع الملوك الذين يسيرون وأهواءهم ويعملون بآراء ذوي النفاق».»

وكنت في النهار أبذل جهدي لأظهر طليق الوجه كثير الأمل دعمًا لإقدام من اتبعوني، وكنت أقول لهم: «هيا بنا نبنِ مدينةً جديدة نتعزى بها عن كل ما فقدنا، وتحيط بنا شعوب لنا بها قدوة حسنة في هذا السبيل، وها هي ذي ترانت التي تقوم بالقرب منا، وفلنت، مع رجاله من أهل لكدمونية، هو الذي أقام هذه المملكة الجديدة، وفلكتيت هو الذي أطلق اسم بتلية على مدينة عظيمة شادها على الشاطئ نفسه، وأقول مثل هذا عن مستعمرة متابنت، وهل نصنع أقل مما صنع هؤلاء الغرباء الهائمون على وجوههم مثلنا؟ ليس الطالع أقسى علينا.»

وبينا كنت أسعى في تخفيف آلام رفقائي بهذا الكلام كنت أخفى ألمًا قاتلًا في صميم فؤادي، وكان من سلواني أن يتركني نور النهار وأن يكتنفني الليل بظلامه فأكون حرًّا في الرثاء لمصيري البائس، وكان يجري من عيني سيلان من الدموع المرة فلا يعرف النوم سبيلًا إليهما، وكنت أعود إلى أعمالي في الصباح بهمةٍ جديدة، وهذا، يا منتور، هو سبب ما ترى من مشيبي.

ولما فرغ إيدومنه من حديثه عن مشاقه طلب من تلماك ومنتور العون في الحرب التي وقعت، وقد قال لهما: «سأعيدكما إلى إيتاك بعد أن تضع الحرب أوزارها، وسأرسل، في أثناء ذلك، مراكب إلى أقصى السواحل لنيل أخبار عن أوليس، وسأنشله من أية أرض معروفة قذفته زوبعة فيها، فأرجو الآلهة أن يكون باقيًا في قيد الحياة، وأما أنتما فسأرجعكما في أصلح ما صنعته جزيرة أقريطش من المراكب، فهي قد أنشئت من خشب قطِّع فوق جبل إيدا الحقيقي حيث ولد جوبيتر، وليس هذا الخشب مما تهلكه الأمواج، وهو خشب تخشاه الرياح والصخور وتحترمه، حتى إن نبتون، في أتم غضبه، لا يجرؤ أن يثير الأمواج تجاهه؛ ولذا فاطمئنا إلى أنكما ستعودان عودًا سعيدًا، وبلا مشقة، إلى إيتاك، وذلك من غير أن يستطيع أي إله عدو أن يجعلكما تهيمان على وجوهكما في بحار كثيرة، والمسافة قصيرة، والرحلة مريحة؛ ولذا فاصرفا السفينة الفنيقية التي أتت بكما إلى هنا، ولا تفكرا في غير نَيلكما فخر إقامة مملكة إيدومنه الجديدة تلافيًا لمصائبه، وهذا، يا ابن أوليس، ما يقضَى به أنك سر أبيك، وإذا كانت الأقدار القاسية قد قضت بنزول أبيك إلى مملكة بلوتون المظلمة فإن جميع بلاد اليونان المفتتنة ستعتقد أنها تراه فيك.»

وهنا قطع تلماك كلام إيدومنه بقوله: «لنسرِّح السفينة الفنيقية، ولم نتأخر في الهجوم على أعدائك؟ لقد أصبح هؤلاء الأعداء عدوًّا لنا، وإذا كنا قد نصرنا في قتالنا بصقلية من أجل عدو اليونان الترواديِ، أسست، أفلا نكون أشد حماسةً وأعظم نيلًا لعطف الآلهة إذا ما حاربنا في سبيل أحد الأبطال الذين دمروا مدينة بريام؟ ما كان هاتف الغيب الذي سمعناه ليدع مجالًا للشك في هذا.»

الجزء التاسع

بيَّن إيدومنه لمنتور سبب نشوب الحرب بينه وبين المندوريين وما اتخذ من التدابير ضد غاراتهم، بيَّن منتور له نقص هذه الوسائل واقترح عليه وسائل أخرى أكثر تأثيرًا، ظهور المندوريين أمام أبواب سلنتة في أثناء هذا الحديث، وذلك مع جيش عظيم مؤلف من عدة أقوام مجاورين أتوا لنصر المندوريين، خروج منتور من سلنتة وحده وعَرْضُه على الأعداء إنهاء الحرب من غير سفك دماء، لم يلبث تلماك أن اتَّبَعه ليطلع على نتيجة هذه المفاوضة، عرض الاثنان أن يكونا رهنًا لدى المندوريين، وذلك ضمانًا لإخلاص إيدومنه في العمل بشروط السلم التي يقترحها، إذعان المندوريين بعد قليل مقاومةٍ لنصائح منتور، والإتيان بإيدومنه حالًا كيما يقرر أمر السلم بنفسه، قبول هذا الأمير، من غير تردد، جميع الشروط التي اقترحها منتور، تبادل الرهان واشتراك الفريقين في تقديم القرابين توكيدًا للحلف، رجوع إيدومنه، بعد ذلك، إلى مدينة سلنتة مع ملوك حلفاء المندوريين وأهم رؤسائهم.

نظر منتور بِدَعَةٍ وسكونٍ إلى تلماك الذي كانت تساوره حماسة نبيلة لخوض غمار المعارك، وقال: «أجدني مرتاحًا إلى مشاهدتي فيك، يا ابن أوليس، شوقًا جميلًا إلى المجد، ولكن اذكر أن أباك لم ينل ذلك الجاه العريض بين الأغارقة، في أثناء حصار تروادة، إلا بإثباته أنه أكثرهم حكمة واعتدالًا، ومع أن أشيل كان منيعًا لا يمكن جرحه، ومع أنه كان يحمل الهول والموت إلى كل مكان يقاتل فيه، فإنه عجز عن الاستيلاء على تروادة، وسقط قتيلًا عند أسوار هذه المدينة التي انتصرت على قاتل هكتور هذا، بيد أن أوليس، الذي يتذرع بالحذر في شجاعته، قد حمل النار والحديد إلى وسط التروادين، فكان سقوط تلك الأبراج المنيفة التي هددت جميع بلاد اليونان المؤتمرة مدة عشر سنين، وعلى قدر ما تكون منرفا فوق مارس تفوق الشجاعة القائمة على الحذر والاحتراز كل شجاعة فوارة جامحة، ولنبدأ، إذن، بالاطلاع على ظروف هذه الحرب التي يجب تأييدها، أجل، إنني لا أحجم عن

أي خطر كان، ولكنني أرى، يا إيدومنه، أن تبين لي، قبل كل شيء، هل حربك عادلة، ثم أن تبين لي الفريق الذي تقوم بها حياله، ثم أن تعطيني بيانًا عن قواتك التي ترجو بها نتيجةً موفقة.»

وإليك جواب إيدومنه: وجدنا، عند بلوغنا هذا الشاطئ، شعبًا متوحشًا متنقلًا في الغاب معتمدًا في عيشه على الصيد وعلى ما تحمله الأشجار بنفسها، ويذعر هؤلاء القوم، الذين يطلق عليهم اسم المندوريين، حينما رأوا مراكبنا وسلاحنا، ويرتدُّون إلى الجبال، ولكن بما أنه ساور جنودنا ميل إلى الطواف في البلد، وأرادوا تعقب الأيائل، فقد لقوا هؤلاء الهاربين المتوحشين، فقال لهم رؤساء هؤلاء: «لقد هجرنا شواطئ البحر تاركين إياها لكم، ولم يبقَ لنا غير جبال وعرة تقريبًا، فمن الإنصاف، إذن، أن تدعونا نعيش فيها أحرارًا آمنين، ونراكم متسكعين مشتتين ضعفاء أكثر منا، ونرى أننا قادرون على ذبحكم وأن نحول حتى دون علم أصحابكم بمصابكم، غير أننا لا نريد سفك دماء بشر مثلنا، اذهبوا واذكروا أنكم مدينون بحياتكم لشعورنا الإنساني، ولا تنسوا أنكم تتلقون هذا الدرس في الاعتدال والكرم من قوم تسمونهم أجلافًا متوحشين.»

ويرجع الجنود، الذين ردهم أولئك البرابرة، إلى المعسكر، ويقصون ما لاقوا، ويهيج جنودنا، ويعتريهم خجل من مشاهدتهم أناسًا من أهل أقريطش مدينين بحياتهم لتلك الزمرة الفارة التي يرونها أكثر مشابهةً للدببة مما للآدميين، ويذهبون إلى الصيد أكبر عددًا حاملين جميع أنواع السلاح، ويصادفون المتوحشين من فورهم، ويغيرون عليهم، ويحمَى الوطيس، وتتطاير السهام من الفريقين كتطاير البرد في الحقل حين العاصفة، ويُكرَه المتوحشون على الارتداد إلى الجبال الوعرة حيث لم يجرؤ رجالنا على الإيغال.

ويرسل هؤلاء القوم إليَّ، بعد قليل زمنٍ، شيخين من أكثرهم حكمة ويلتمسان مني السلام، ويقدمان إليَّ هديةً مؤلفةً من جلود وحوشٍ كان القوم قد اصطادوها، وهديةً من ثمرات البلد، ويمسك كل منهما سيفًا بيدٍ وغصن زيتون باليد الأخرى، ويقولان لي: «ترى، أيها الملك، أننا نمسك سيفًا بيد وغصن زيتون باليد الأخرى، وهذه هي السلم، وهذه هي الحرب، فاختر، ونحن نفضل السلم، ونحن، حبًّا للسلم، لم نجد عارًا في تنزلنا لك عن شاطئ البحر الجميل حيث الشمس تجعل الأرض خصيبةً منتجةً لكثير من الثمرات اللذيذة، ونعُدُّ السلم أطيب من جميع هذه الثمرات، ومن أجل السلم لجأنا إلى هذه الجبال العالية المكسوة ثلجًا وجليدًا والتي لا يُرى فيها زهر الربيع ولا ثمر الخريف الزاخر، ونَمْقُت تلك الفظاعة التي تخرب الدول باسم الطموح والمجد تخريبًا طائشًا والتي تقوم على سفك دماء من

هم إخوة في الإنسانية، وإذا كان هذا المجد الزائف يفتنك فاعلم أننا نأبى أن نحسدك عليه، وأننا نرثِي لك سائلين الآلهة أن يحفظونا من مثل هذه الصولة، وإذا كانت العلوم التي يُعنى الأغارقة بتعلمها، وإذا كانت الآداب التي يباهون بها، لا توحي إليهم بغير هذا الجور الكريه فإننا نعتقد أننا من السعداء لعَطَلِنا من هذه المنافع، وأما نحن فنباهي بأن نكون برابرةً جاهلين دائمًا، ولكن مع العدل والرأفة والصدق والنزاهة والقناعة وازدراء الترف الذي يزيد الإنسان احتياجًا، وكل ما نقدر هو الصحة والزهد والحرية وقوة الجسم وكمال العقل وحب الفضيلة ومخافة الآلهة والحَدَب على الأقرباء وحب الأصدقاء والإخلاص لجميع الناس والاعتدال في السراء والتجمل في الضراء، والشجاعة في قول الحق دائمًا، ومقت النفاق، فهؤلاء القوم هم الذين نقدم إليك مثل جيران وحلفاء، فإذا كان الآلهة الغاضبون يُعمُون بصيرتك فيجعلونك ترفض السلم فإنك ستعلم، ولكن بعد الأوان، أن الذين يحبون السلم عن اعتدال هم أكثر من يُرهَب في الحرب.»

وبينا كان هذان الشيخان يخاطبانني بهذا الأسلوب لم أسأم من النظر إليهما، فوجدتهما ذوي لحية طويلة مع إهمال، وشعر قصير مع بياض، وحاجبين كثيفين، وبصر ثاقب، ونظر ثابت، وحزم في الهيئة، واتزان في الكلام، وزيادة في الوجاهة، وبساطة في الأوضاع، وسذاجة في الأطوار، وكان الجلد الذي يلبسان معقودًا على الكتف فلم يَحُلْ دون تبيني أن أعصاب أذرعهما وعضلهما أقوى من أعصاب المصارعين وعضلهم، وأجيب هذين الرسولين بأنني أبغي السلم، ونضع معًا شروطًا كثيرة عن حسن نية، ونشهد جميع الآلهة على ذلك، وأعطي هذين الرجلين هدايا وأصرفهما.

بيد أن الآلهة الذين طردوني من مملكة أجدادي لم يسأموا من اضطهادي بعد، وذلك أن صيادينا، الذين لم يمكن إخبارهم حالًا بأمر السلم الذي وضعناه لاقوا في اليوم نفسه جمعًا كبيرًا من هؤلاء البرابرة كان يصحب رسوليهم عند عودتهما من معسكرنا، ويهجمون على هؤلاء بصولة، ويقتلون بعضهم ويتعقبون الباقين في الغاب.

وها هي ذي الحرب قد اشتعلت، ويرى هؤلاء البرابرة أنه لا يمكن الاعتماد على وعودنا، ولا على أيماننا.

وهم، لكي يكونوا أعظم قوةً حيالنا، يستنصرون علينا باللكريين والأبوليين واللكانيين والبروتيين وأهل كروتون ونريت وبرند، ويأتي اللكانيون بعربات مسلحة بمناجل كبيرة قاطعة، ويلبس كل واحد من الأبوليين جلد وحش قتله، ويحمل الأبوليون دبابيس ذات عقد كبيرة كثيرة ومجهزةً بمسامير، ويظهرون ذوي قامات كقامات العلوج، وتبدو أجسامهم من العُصْلبية بفعل التمرينات الشاقة التي يزاولونها ما يلقي منظرها وحده في القلوب رعبًا،

ولا يزال اللكريون، الذين جاءوا من بلاد اليونان، يشعرون بأصلهم اليوناني، ويكونون أكثر رأفةً من الآخرين، وقد أضافوا إلى ما عندهم من تدريب الكتائب اليونانية المحكم بأس البرابرة وتعوُّدهم شظف العيش فصار من المتعذر قهرهم، ويحمل اللكريون تروسًا خفيفةً مصنوعة من ليف الخيزران ويلبسون جلودًا، ويتقلدون سيوفًا طويلة، ويشابه البروتيون الأيائل والنعام خفَّةَ عَدْوٍ فيخيل إلى الناظر أن أطرى الكلأ لم يوطأ بأرجلهم إذا ما مروا عليه، ولا تكاد أقدامهم تترك أثرًا على الرمل، ويلُوحون منقضِّين على أعدائهم بغتةً، ثم يتوارون بمثل السرعة التي أتوا بها، ويحذق أهل كروتون رمي النبال، وما كان الرجل اليوناني المدرب ليستطيع أن يوتر قوسًا كما يرى عند الكرتونيين على العموم، ولو حدث اشتراكهم في ألعابنا لفازوا بالجوائز، وتسقَّى سهامهم بعصارة بعض الأعشاب السامة التي تنبت على شواطئ بحيرة أفرن على ما يقال والتي يميت سمها، وأما أهل نريت وبرند ومسابيه فلا نصيب لهم من جميع ذلك غير قوة الأبدان والشجاعة بلا مهارة، وما يخرجون من أصوات مزعجة، عندما يرون العدو، يبلغ عنان السماء، أجل، إنهم يجيدون الرمي بالمقاليع، ويكدِّرون الجو بوابلٍ من الحجارة التي يرشقونها، غير أنهم يقاتلون بلا نظام، وهذا ما تريد أن تعرفه يا منتور، والآن تعلم أصل هذه الحرب ومن هم أعداؤنا.

وكان تلماك الفاقد الصبر يظن، بعد هذا الإيضاح، أنه لم يبقَ عليه غير تناول السلاح، ويزجره منتور، ويقول منتور لإيدومنه ما يأتي: «وما السبب، إذن، في كون اللكريين الذين أتوا من بلاد اليونان قد انضموا إلى البرابرة ضد الأغارقة؟ وما السبب في ازدهار كثير من المستعمرات فوق هذا الساحل من البحر من غير قيامها بحروبٍ كالتي تقومون بها؟ أنت تقول، يا إيدومنه: إن الآلهة لما يسأموا من اضطهادك، وأنا أقول: إنهم لما يتموا تأديبك، فما عانيت من مصائب لَمَّا يعلِّمْك ما يجب أن تصنع لتحُول دون وقوع الحرب، أجل، إن ما قلت عن حسن نية هؤلاء البرابرة يكفي للدلالة على إمكان تمتعك بسلام نحوهم، بيد أن الكبرياء والخيلاء تؤديان إلى أخطر الحروب، وقد كان يمكنكم أن تتبادلوا الرهائن، وقد كان من السهل أن ترسل مع سفيريهم بعض رؤسائك لإيصالهم بأمان، وقد كان من الواجب منذ تجديد هذه الحرب، أن تسكنهم ببيانك لهم أن مهاجمتهم نشأت عن جهل للاتفاق الذي عُقد، وقد كان يجب أن تقدم إليهم جميع الضمانات التي يطلبونها وأن تفرض عقوبات شديدةً على كل من يخل بالاتفاق من رعاياك، ولكن ماذا حدث منذ بدء الحرب؟»

ويجيب إيدومنه عن ذلك بقوله: «لقد اعتقدت أننا لا نستطيع، من غير ذل، أن نقصد هؤلاء البرابرة الذين جمعوا على عجل جميع الرجال الصالحين للقتال والذين التمسوا

العون من جميع الأمم المجاورة التي جعلونا ممقوتين عندها مشتَبَهًا فينا لديها، وقد لاح لي أن أضمن وسيلة تُتَّخذ هو أن نستولي بسرعة على بعض المسالك في الجبال التي كانت سيئة الحراسة، وقد استولينا عليها بسهولة فانتهينا بذلك إلى إلقاء الحزن في نفوس هؤلاء البرابرة، وقد أقمت عليها أبراجًا يمكن أن تمطر كتائبنا منها جميع الأعداء، الذين يأتون بلدنا من الجبال، وابلًا من النبال، ونستطيع بهذه الوسيلة أن ندخل بلدهم وأن نخرب منازلهم متى أردنا، ونستطيع بهذه الوسيلة أن نقاوم بقوَّاتٍ متفاوتة هذا الجمع الذي لا يحصى له عدد من الأعداء المحيطين بنا، ثم إن تقرير السلم بيننا وبينهم أصبح صعبًا؛ وذلك لأننا لا نترك لهم هذه الأبراج من غير أن نعرض أنفسنا لغاراتهم، ولأنهم يعدونها قلاعًا نتخذها لاستعبادهم.»

وهذا جواب منتور: «أنت ملك حكيم، أنت تريد أن تُكشف لك الحقيقة من غير تلطيف، أنت لست كأولئك الرجال الضعاف الذين يخافون أن يروها سافرةً، والذين يعوزهم من الشجاعة ما يقوِّمون به سلوكهم، فلا يستعملون سلطانهم إلا لتأييد الخطأ الذي يأتون؛ ولذا فاعلم أن هؤلاء القوم من البرابرة ألقوا عليك درسًا عجيبًا حينما جاءوك ليسألوك سلمًا، وهل طلبوه عن ضعف؟ وهل تعوزهم الشجاعة والوسائل حيالك، كلا، كما ترى، وذلك ما داموا أهل حرب، وما داموا مؤيدين من قبل جيران مرهوبين كثيرين، ولم لا تقتدي بهم اعتدالًا؟ ألا إن حياءً سيئًا ومجدًا باطلًا ألقياك في هذه المصيبة! لقد خشيتَ أن تجعل العدو بالغ الزهو، ولم تخشَ أن تجعله بالغ القوة بتأليب أمم كثيرة عليك عن سلوك منك قائم على الغطرسة والبغي، وما نفعُ هذه الأبراج التي تُطريها كثيرًا إن لم يكن إلزام جميع جيرانك بأن يهلكوا أو يهلكوك اتقاء عبودية آتية؟ لم تقم هذه الأبراج إلا لتكون في أمان، ولم تدرِ أنها سبب خطرٍ كبير عليك، ولم تدرِ أن أضمن حصن للدولة هو العدل والاعتدال وحسن النية واطمئنان جيرانك إلى أنك عاجز عن اغتصاب أملاكهم، أجل، يمكن سقوط أقوى الأسوار بحوادث كثيرة غير منتظرة، وإن الطالع جامح متقلب في الحرب، بيد أن حب جيرانك لك وثقتهم بك، إذا ما شعروا باعتدالك، يجعلان دولتك حصينةً لا تقهر مطلقًا كما يحولان دون مهاجمتها أبدًا تقريبًا، وإذا ما أغار جار جائر عليها لم تلبث جميع الدول الأخرى، التي يهمها بقاؤها، أن تلجأ إلى السلاح للدفاع عنها، فتأييد من الأمم التي ترى مصالحها الحقيقية في دعم مصالحك يكون أقوى من هذه الأبراج التي تجلب من المصائب ما لا يمكن تلافيه، ولو فكرت منذ البداءة في اجتناب غيرة جميع جيرانك لازدهرت مدينتك الناشئة في سلم مبارك ولكنت حكمًا بين جميع أمم هسبرية.»

ولنقتصر الآن، إذن، على البحث عن الوجه الذي يمكن به إصلاح الماضي بالمستقبل، وقد أخذت تقول لي: إنه يوجد على هذا الشاطئ مستعمرات يونانية كثيرة، فكان يجب أن تستعد هذه المستعمرات لمساعدتك، وهي لم تنسَ اسم مينوس بن جوبيتر الكبير، ولا ما قمت به من أعمال مجيدة في أثناء حصار تروادة حيث امتزت بين أمراء الأغارقة قتالًا عن بلاد اليونان، ولم لم تضمن انحيازها إليك؟

إيدومنه: «ذلك لأنها عزمت على البقاء محايدةً، ولا يعني هذا أنها لا تميل إلى مساعدتي، وإنما هالها ما تم لهذه المدينة من ازدهار منذ نشأتها، ويساور هؤلاء الأغارقة، كما يساور غيرهم من الأمم، خوفُ وجود نيات مبيتةٍ لدينا حيال حريتهم، ومما يفكرون فيه أن نوسع نطاق طموحنا بعد أن قهرنا برابرة الجبال، والخلاصة أن كل شيء إلْبٌ علينا، وأن من لم يجهروا بشهر الحرب علينا يتمنون إذلالنا، وأن الحسد لا يترك لنا حليفًا.»

منتور: «يا للشَّططِ العجيب! إنك تقوض سلطانك من حيث تريد الظهور بالغ السلطان، وبينما تكون في الخارج موضع وجل وحقد لدى جيرانك تضنى في الداخل بما لا مَعْدِل عنه من جهود قيامًا بمثل تلك الحرب، فيا أيها الشقي البالغ الشقاء إيدومنه الذي لم يؤدبه الشقاء غير نصف تأديب! أوَ تحتاج إلى سقوطٍ ثانٍ حتى تبصر المصائب التي تهدد أعظم الملوك؟ دعني أدبر، وإنما حدثني مفصلًا عن هذه المدن اليونانية التي تأبى محالفتك.»

إيدومنه: «أهمها مدينة ترانت التي أنشأها فلنتوس منذ ثلاث سنين، وقد جمع فلنتوس في لكونية عددًا كبيرًا من الشبان الذين ولدوا من نساءٍ نسين أزواجهن الغائبين في أثناء حرب تروادة، فلما عاد الأزواج لم يرَ هؤلاء النساء غير تهدئتهم بإنكار ذنوبهن، وبما أن هؤلاء الفتيان الكثيرين، الذين هم أبناء سفاح، لم يعرفوا لهم أبًا ولا أمًّا فقد قضوا حياة تحلُّل لا حد لها، وتقمع شدة القوانين فجورهم، ويجتمعون تحت قيادة فلنتوس الذي هو زعيم جريء مقدام طموح يعرف أن يكسب القلوب بحيله، ويأتي بهؤلاء الشبان اللكونيين إلى هذا الشاطئ ويجعلون من ترانت لكدمونيةً ثانية، وقد أقام في هذا الجوار فلكتيت، الذي نال جاهًا عظيمًا في أثناء حصار تروادة بحمله إليها نبال هركول، أسوار بتلية التي هي أقل قوةً في الحقيقة، ولكن مع كونها أحسن إدارةً من ترانت، ثم إنه يوجد بالقرب منا أيضًا مدينة متيونت التي أقامها الحكيم نسطور برجاله البيليين.»

منتور: «ماذا! لديك نسطور في هسبرية، ثم لم تعرف أن تلزمه بما فيه نفعك! نسطور الذي رآك تقاتل التروادين عدة مرات وتربطك به أواصر الصداقة!»

إيدومنه: «لقد خسرْتُه بمكر هؤلاء الأقوام الذين هم برابرة بالاسم، وقد كانوا من سعة الحيلة ما أقنعوه معه بأنني أريد جعل نفسي طاغيةَ هسبرية.»

منتور: «سنزيل ضلاله، فتلماك قد اجتمع به في بيلوس قبل أن يأتي لإنشاء مستعمرته وقبل أن نقوم برحلتنا العظيمة للبحث عن أوليس، وما كان لينسى هذا البطل بعد ولا آيات العطف التي حبا بها ابنه تلماك، ولكن أهم ما في الأمر هو أن يشفى من حذره، وذلك أن هذه الحرب اشتعلت بالريب التي ساورت جميع جيرانك، وأن هذه الشكوك الباطلة إذا ما بُددت أمكن إطفاؤها، وأعود فأقول: دعني أدبر.»

فلما سمع إيدومنه هذه الكلمات عانق منتور ورق ولم يقدر على الكلام، ثم نطق، مع المشقة، بالكلمات: «أعترف لك، أيها الشيخ الحكيم الذي أرسله الآلهة لإصلاح جميع زلاتي، بأنني كنت أغضب على أي واحد كان لو خاطبني بمثل صراحتك، وأعترف لك بأنك الوحيد الذي يمكن أن يكرهني على طلب الصلح، وذلك أنني كنت قد عزمت على الهلاك أو قهر جميع أعدائي، ولكن من الإنصاف أن يسلَّم بنصائحك الحكيمة، لا بهواي، وما أسعدك، يا تلماك، بالحصول على هذا المرشد الذي لن تضل بفضله كما ضللت بعملي فيما مضى! وأنت المعلم يا منتور، وأنت حائز لكل ما عند الآلهة من حكمة يا منتور، وما كانت منرفا نفسها لتستطيع الإنعام بنصائح أنفع مما تنعم به أنت، فاذهب، وعِدْ، وعاهد، وأعطِ كل ما عندي، فسيوافق إيدومنه على كل ما تراه صوابًا.»

وبينا كان يؤتَى بالبراهين على هذا الوجه سُمع بغتةً دوي مختلط صادر عن عرباتٍ وخيلٍ صواهل ورجال يخرجون من الزعق ما هو هائل وأبواق تملأ الجو بصوت مقاتل، ويصرخ الناس بقولهم: «هؤلاء هم العدو الذين قاموا بدورةٍ كبيرة اجتنابًا للمسالك المحروسة! هؤلاء هم العدو الذين جاءوا لحصار سلنتة!»

ويظهر الشيوخ والنساء مذعورين قائلين: «آه! هل كان من الواجب أن نغادر وطننا الغالي الخصيب: أقريطش، وأن نتبع ملكًا منكود الحظ مجاوزين بحارًا كثيرةً كيما نقيم مدينةً ستتحول إلى رماد كما جرى لتروادة؟»

وكان يُرى، من فوق الأسوار التي بنيت حديثًا، وذلك في الحقول الواسعة، ما كان يلبس الأعداء من خوذٍ ودروعٍ وتروسٍ تلمع بنور الشمس فتبهر العيون، وكان تُرى، أيضًا، حراب شائكة ساترة للأرض كما لو كانت هذه الأرض مستورة بغلات وافرة أعدتها سرس في حقول إنة بصقلية، أيام الصيف الحارة، كيما تكافئ الفلاح على جميع مشاقه، وتلاحظ العربات المجهزة بمناجل كبيرة قاطعة، ويسهل تمييز كل شعب أتى إلى هذه الحرب.

ويصعد منتور في برج عال حتى يطَّلع على أولئك جيدًا، ويتبعه إيدومنه وتلماك عن كثب، ولم يكد منتور يبلغ المكان المقصود من البرج حتى أبصر فلكتيت من جهة ونسطور وابنه بزسترات من جهة أخرى، وكان من السهل أن يُعرف نسطور بسبب جلال مشيبه.

ويصيح منتور قائلًا: «ماذا إذن! كنت تعتقد، يا إيدومنه، أن فلكتيت ونسطور يكتفيان بعدم مساعدتك، فانظر كيف يحملان السلاح حربًا عليك، وأقول، إذا لم يتطرق الوهم إلي، إن هذه الكتائب الأخرى التي تمشي مشيًا وئيدًا منتظمًا هي كتائب لكدمونية بقيادة فلنتوس، والخلاصة أن الجميع إلْب عليك وأنه لا يوجد جار في هذه الناحية لم تجعله عدوًّا لك من غير أن تدبر أمرك معه.»

قال منتور هذا ونزل من البرج مسرعًا، ويتقدم نحو باب المدينة الذي يزحف نحوه الأعداء، ويأمر بفتحه، ولا يجرؤ إيدومنه، الدَّهِش من الهيبة التي أتى منتور بها هذه الأمور، على سؤاله عن مقصده، ويشير منتور بيده لكيلا يتبعه أحد، ويذهب أمام الأعداء الذين حاروا إذ رأوا رجلًا يتقدم بمفرده نحوهم، ويريهم، من بعيد، غصن زيتون دليلًا على السلام، فلما بلغ مكانًا يمكن أن يسمعوه منه طلب منهم أن يجمعوا جميع رؤسائهم، فلما اجتمع هؤلاء الرؤساء خاطبهم بما يأتي: «أيها الرجال الأكرمون المجتمعون من أمم كثيرة تزدهر في هسبرية الغنية! أعلم أنكم أتيتم هنا نفعًا للحرية، وإن أحمدكم على غيرتكم، ولكن اسمحوا لي بأن أعرض عليكم وسيلةً سهلة للمحافظة على الحرية وعلى مجد جميع شعوبكم، وذلك من غير سفك دم إنسان، فيا نسطور، يا نسطور الحكيم، الذي أراه في هذا المجلس، أنت لا تجهل مقدار شؤم الحرب حتى على من يقومون بها مع العدل وتحت حماية الآلهة، وأن الحرب أعظم المصائب التي يحزن الآلهة بها الناس، وأنت لن تنسى ما قاسى الأغارقة أمام تروادة الشقية في عشر سنين، وأي انقسام لم يقع بين الزعماء! وأي تقلب لم يُبدِه الطالع! وأي تقتيل لم يصب به الأغارقة على يد هكتور! وأي بلاءٍ لم تُبتَلَ به أقوى المدن في أثناء غياب ملوكها الطويل بسبب الحرب؟! ولما عاد هؤلاء ابتلي بعضهم بغرق عند رأس كَفْره، ولقي بعضهم حتفه بين أحضان الأزواج، ويا أيها الآلهة! إن غضبكم هو الذي أعد الأغارقة لتلك الحملة المجيدة! ويا أهل هسبرية! إنني أدعو الآلهة ألا يمنوا عليكم بمثل ذلك النصر الكثير الشؤم، أجل، لقد تحولت تروادة إلى رماد، ولكنه كان الأفضل للأغارقة أن يكون قد بقي لها كامل مجدها، وألا يزال النذل باريس يتمتع مطمئنًّا بمعاشقه الشائنة مع هيلانة، وأنت يا فلكتيت، الذي ظل بائسًا مهمَلًا زمنًا طويلًا في جزيرة ليمنى، ألا تخاف أن تلقى مثل هذه المصائب في مثل هذه الحرب؟ وإني أعلم أن

أهل لكونية عانوا، أيضًا، اضطرابات بسبب غياب أمرائها وقوادها وجنودها الذين ذهبوا لمحاربة التروادين، ويا أيها الأغارقة، الذين أتوا هسبرية، إنكم لم تأتوها إلا نتيجةً للمصائب التي أسفرت عنها حرب تروادة!»

ويتقدم منتور، بعد هذا الكلام، نحو البيليين، ويتقدم نسطورالذي عرفه ليحييه أيضًا، قال نسطور: «أستقبلك مسرورًا يا منتور، وقد اجتمعت بك منذ سنين كثيرة في فوسيد للمرة الأولى، وكنت في الخامسة عشرة من سنيك، وأبصرت في ذلك الحين أنك ستكون حكيمًا كما وقع بعد ذلك، ولكن بأية مغامرة غدوت هنا؟ وما الوسائل التي عندك لإنهاء هذه الحرب؟ إن إيدومنه هو الذي حملنا على مهاجمته، وقد كنا لا نطلب غير السلام، وقد كان لدى كل واحد منا نفعٌ مُلحٌّ في ابتغائه، ولكن عدنا لا نطمئن إليه؛ وذلك أنه نقض جميع عهوده حيال أقرب جيرانه، وأن السلم معه لا تكون سلمًا مطلقًا، وأنه لا ينتفع بالسلم إلا ليقضي على حلفنا الذي هو وسيلتنا الوحيدة، وأنه نم على مقاصده الجامحة التي تهدف إلى استعباد جميع الشعوب ولم يترك لنا أي مخرج ندافع به عن حريتنا غير الجهاد للقضاء على مملكته الجديدة، فترانا مضطرين، لسوء نيته، إلى إهلاكه أو قبول نِير العبودية منه، فإذا كنت تجد طريقة تمكننا من الثقة به ونضمن بها سلمًا صالحًا تخلت جميع الشعوب التي ترى هنا عن السلاح مختارةً واعترفنا لك، طيِّبي الخاطر، بأنك تفوقنا حكمةً.»

منتور: «أنت تعلم، يا نسطور، أن أوليس ائتمنني على ابنه تلماك، ومما حدث أن هذا الشاب، الذي فرغ صبره بحثًا عن مصير أبيه، مر عليك في بيلوس، وأنك استقبلته بأحسن رعايةٍ يمكن أن ينتظرها من صديق لوالده، وجعلت ابنك رفيقًا دليلًا له، ثم قام برحلات بحرية طويلة فطاف في صقلية ومصر وجزيرة قبرس وجزيرة أقريطش، وتقذفه الرياح، وإن شئت فقل: الآلهة، في هذا الساحل وهو يريد الرجوع إلى إيتاك، ونصل إلى هنا في الوقت المناسب حتى نكفيكم شر قتالٍ فظيع، فابن الحكيم أوليس ومنتور، لا إيدومنه، هما اللذان يجيبان عن جميع الأمور التي تُوعَدون بها.»

وبينا كان منتور يخاطب نسطور بهذا الأسلوب بين الكتائب المتحالفة كان إيدومنه وتلماك وجميع الأقريطشيين المسلحين ينظرون إليهما من فوق أسوار سلنتة لملاحظة الوجه الذي يُقبَل به كلام منتور، وكانوا يودون لو يسمعون تحاور هذين الشيخين الحكيمين، وكان نسطور يعد أكثر ملوك اليونان حنكةً وفصاحةً في كل وقت، وكان نسطور نفسه هو الذي يسكِّن، في أثناء حصار تروادة، غضب أشيل الفائر وخيلاء أغاممنون وزهو أجكس

وصولة ديوميد، وكان الإقناع الحلو يجري من شفتيه كما لو كان جدول عسل، وكان صوته وحده هو الذي يُسمع من قِبَل هؤلاء الأبطال، وكان لا يكاد يفتح فمه حتى يَكُمَّ الجميع أفواههم، وكان لا يوجد غيره من يستطيع رتق الشقاقِ المستَحِرِّ في المعسكر، أجل، إنه أخذ يبتلي نوازل المشيب الفاتر، ولكن مع بقاء كلامه طافحًا قوةً وطلاوة، أجل، إنه كان يثقف الشباب بتجاربه، ولكن مع بيانها بلطافة وقليل تؤدة، فهذا الشائب الذي كان محل إعجاب جميع بلاد اليونان لاح أنه فقد جميع بلاغته وجلاله حينما ظهر منتور معه، كما ظهر أن مشيبه ذاوٍ خامد بجانب مشيب منتور الذي كان يلوح أن السنين احترمت فيه قوة المزاج ونشاطه، وعلى ما كان من رصانة كلام منتور وبساطته كان هذا الكلام رشيقًا نافذًا نفاذًا يعوز كلام نسطور، وكان كل ما ينطق به منتور مختصرًا دقيقًا متينًا، وما كان ليعيد القول مطلقًا، وما كان ليحدث عن غير الأمر الضروري الذي يجب تقريره، وكان إذا ما اضطر إلى الكلام غير مرةٍ عن الأمر عينه كيما يرسخ في الذهن، أو لكي يبلغ درجة الإقناع، فعل هذا بمداورات جديدة وقياساتٍ محسوسة دائمًا، حتى إنه كان يبدو مداعبًا مازحًا، بما لا يعرَب عنه، متى أراد تناول احتياجات الآخرين وتلقينهم بعض الحقائق، والخلاصة أنه كان يتألف من هذين الرجلين الجليلين منظر مؤثر في نفوس الأقوام الكثيرين المجتمعين.

وبينا كان جميع أعداء سلنتة المتحالفين يتدافعون حتى يشاهدوهما عن كثب ويسمعوا كلامهما الحكيم، كان إيدومنه وذووه يبذلون جهدهم ليكتشفوا بعيونهم النهَّامة المتعجلة ما تعني حركاتهم وملامحهم.

ويبدو تلماك في تلك الأثناء هلوعًا فيتوارى من الجمع المحيط به ويُهرع إلى الباب الذي كان منتور قد خرج منه ويأمر بفتحه، ولم يلبث إيدومنه الذي كان يظنه بجانبه أن حار إذ رآه يعدو في الحقول ويصل إلى نسطور، ويعرفه نسطور، ويسارع إلى لقائه بخُطًا متزنةٍ وئيدة، ويعانقه تلماك ويضمه بين ذراعيه بشدة من غير أن ينطق بكلمة، ثم يقول بصوت عالٍ: «أيْ والدي! لا أخشى أن أدعوك بهذا الاسم، فما أصابني من رزية عدم لقاء والدي الحقيقي، وما أشعرتني به من لطفٍ، يمنحني حق استعمال هذا الاسم المؤثر، أي والدي! أي والدي العزيز! أراك ثانيةً، فهل يقدَّر لي أن أرى أُوليسَ كما رأيتك؟ إذا ما وُجد شيءٌ يمكن أن أتعزى به عن حرماني إياه فهو أن أجد فيك أوليسًا آخر.»

ولم يستطع نسطور أن يضبط دموعه عند سماع هذا الكلام لما ساوره من سرور حفي ولما أبصر من سيل عبرات على خدي تلماك سيلاً يثير العجب بلطفه، وقد دهش

جميع الحلفاء من جمال هذا الشاب الغريب الذي مر من غير احتراز بين كتائب من الأعداء كثيرة كما دهشوا من دماثته ونبل طمأنينته، وقد قالوا: «أليس هذا ابنًا لذاك الشيخ الذي جاء ليخاطب منتور؟ أجل، إنَّ هذه هي نفس الحكمة في العمرين المتباينين أشد تباين في الحياة، وذلك مع الفارق القائل: إنها تزدهر في أحدهما وإنها تحمل في الآخر أنضج الثمرات بكثرة.»

وسر منتور إذ رأى مبلغ الحنان الذي استقبل به نسطور تلماك، فاغتنم هذا الوضع الرائع وقال لنسطور: «ها هو ذا ابن أوليس العزيز كثيرًا على جميع بلاد اليونان وعليك أيضًا أيها الحكيم نسطور! وها أنا ذا أقدمه إليك رهنًا لضمان إخلاص إيدومنه في وعوده، رهنًا يعد أثمن ما يمكن أن تُعطاه في هذا السبيل، ومن ثم ترى أنني لا أريد، بعد فقد الأب، فقد الابن فتلومني بنلوب البائسة على تضحيتي بابنها في سبيل طموح ملك سلنتة الجديد، وإني، مع هذا الرهن الذي جاء من تلقاء نفسه ليقدمها والذي أرسله إليكم محبو الصلح من الآلهة، أبدأ بتقديمي إليكم، أيها المتحالفون المجتمعون المنتسبون إلى أمم كثيرة، اقتراحات أقيم بها سلمًا متينًا إلى الأبد.»

ولم يكد ينطق بكلمة السلم حتى سمع لغط بين صفٍّ وصف، وأخذت هذه الأمم كلها ترتجف غضبًا معتقدةً أن الآفة في التأخير، وذلك لما عنَّ لها أن هذه الخطب لم يؤتَ بها إلا لتخفيف صولتها وتخليص صيدها، وأخص ما في الأمر هو جزع المندوريين أن يأمل إيدومنه مخادعتهم بذلك مرةً أخرى، وما أكثر ما قاطعوا منتور وهو يتكلم خشية أن يستطيع، بكلامه المملوء حكمةً، فصل حلفائهم عنهم، ولسرعان ما أخذوا يشكون في جميع الأغارقة الذين كانوا في المجلس، ويبصر منتور هذا فيبادر إلى زيادة هذا الشك ملقيًا بذور الخلاف في نفوس هؤلاء الأقوام كلهم، قال منتور: «أعترف بأنه يحق للمندوريين أن يتوجعوا من أضرارٍ أصابتهم وأن يطلبوا تعويضًا منها، ولكن ليس من الإنصاف، أيضًا، أن يكون الأغارقة، الذين أقاموا مستعمراتٍ على هذا الساحل، موضع شبهةٍ لدى أهل هذا البلد الأقدمين، وعلى العكس يجب على الأغارقة أن يتَّحدوا فيما بينهم وأن يحملوا الآخرين على حسن معاملتهم، على أن يكونوا معتدلين وألا يحاولوا اغتصاب أَرَضِي جيرانهم، وأعلم أن من سوء حظ إيدومنه كونكم في همٍّ منه، ولكنَّ من السهل شفاءكم من هذا الحذر، وذلك أنني أنا وتلماك نقدم أنفسنا إليكم مثل رهان دالة على حسن نية إيدومنه، وسنبقى قبضتكم حتى إنجاز الأمور التي توعدون بها إنجازًا خالصًا، والذي يغضبكم، أيها المندوريون، هو استيلاء كتائب الأقريطشيين على مسالك جبالكم بغتةً، وأن يكونوا في حال

يستطيعون بها، متى أرادوا، أن يدخلوا قسرًا ذلك البلد الذي ارتددتم إليه لتتركوا لهم البلد السهليَّ الواقع على ساحل البحر، ومن ثم تكون هذه المسالك، التي حصنها الأقريطشيون بأبراج زاخرة بأناس مسلحين، سبب هذه الحرب الحقيقي، فقولوا لي: هل يوجد سبب آخر؟»

هنالك تقدم رئيس المندوريين وقال ما يأتي: «ما الذي لم نصنع لاجتناب هذه الحرب؟ والآلهة شهود على أننا لم نعدل عن السلم إلا بعد أن أفلت السلم منا بلا وسيلة نتيجةً لطموح الأقريطشيين الذي يورث الغم ونتيجةً لما أوجبوا من تعذر ثقتنا بعهودهم، ويا لتلك الأمة الحمقاء التي ألزمتنا على الرغم منا بضرورة سلوك سبيل كريه أملاه القنوط منها، سلوك سبيل قائلة بألا نبحث عن سلامتنا إلا بهلاك هذه الأمة! ولا ننفك نعتقد أن هؤلاء القوم يريدون غصب أرضينا واستعبادنا ما حافظوا على هذه المسالك، ولو كانوا لا يفكرون في غير السلام حيال جيرانهم بالحقيقة لاكتفوا بما تنزَّلنا لهم عنه بلا عناء، وما أُولعوا بالمحافظة على مسالك في بلد لا يضمرون لحريته أي مقصد قائم على الطمع، ولكنك لا تعرفهم أيها الشيخ الحكيم! ولكننا عرفناهم بعد مصائب، فكف أيها الرجل الذي تحبه الآلهة عن تأخير هذه الحرب العادلة الضرورية التي لا يمكن هسبرية أن ترجو سلامًا دائمًا بغيرها، ويا لكِ من أمة جاحدة خادعة ظالمة أتى بها الآلهة إلينا ليكدروا سلامنا وليعاقبونا على ذنوبنا! ويا أيها الآلهة، ستنتقمون لنا بعد أن عاقبتمونا، ولن تكونوا أقل عدلًا حيال أعدائنا مما كنتم حيالنا.»

ولم يكد ذاك الرئيس يتم كلامه حتى لاح المجلس كله هائجًا، فكأن مارس وبلون كانا يسيران من صفٍّ إلى صفٍّ موقدان في القلوب نار حرب يحاول منتور إطفاءها، ويعود منتور إلى الكلام، ويقول: «لو اقتصرت على وعودٍ أقدمها لأمكنكم عدم الثقة بها، ولكنني أعرض عليكم أمورًا ثابتة حاضرة، فإذا كنتم لا تكتفون بأخذي وأخذ تلماك رهنًا صنعت ما تعطَون معه اثني عشر رجلًا من أنبل الأقريطشيين وأشجعهم زيادةً على ذلك، ومن العدل أن تُعطوا رهانًا من ناحيتكم أيضًا؛ وذلك لأن إيدومنه الذي يريد السلم مخلصًا يريدها بلا وَجَل ولا ذل، أجل، إنه يرغب في السلم عن حكمةٍ واعتدالٍ مثل رغبتكم فيها كما تقولون، ولكن لا عن حبٍّ لحياة الترف ولا عن ضعفٍ حيال أخطار تهدد الحرب بها الناس، أجل، إنه مستعد ليهلك أو يغلب، ولكنه يفضل السلم على أروع نصر، أجل، إنه يخجل من خوف الغلب، ولكنه يخاف أن يكون جائرًا ولا يستحي من عزمه على إصلاح خطئه، وهو يعرض عليكم صلحًا والسلاح بيده، وهو لا يريد فرض شروطه متكبرًا؛ وذلك لأنه لا يقيم وزنًا لسلمٍ تتم قهرًا، وهو يريد سلمًا يرتاح له جميع الأفرقاء، يريد سلمًا يقضي

على كل حسد، يريد سلمًا يلطف كل حقد، يريد سلمًا يشفي من كل حذر، والخلاصة أنه يساور إيدومنه من المشاعر ما اراكم تريدونها له، ولا يتوقف الأمر على غير إقناعكم، ولا يتم إقناعكم إلا باستماعكم لي بروحٍ طليقٍ هادئ.»

فاستمعوا، إذن، أيها الأقوام البالغو الإقدام، وأيها الرؤساء المتحدون البالغو الحكمة، إلى ما أعرض عليكم بالنيابة عن إيدومنه: «ليس من العدل أن يستطيع إيدومنه دخول أملاك جيرانه كما أنه ليس من العدل أن يستطيع جيرانه دخول أرضيه، وهو يوافق أن تقوم بحراسة المسالك، التي حصنت بأبراج عالية، كتائب محايدة، وأنت يا نسطور، وأنت يا فلكتيت، من أصل يوناني، ولكنكما خصمان لإيدومنه في الوقت الحاضر؛ ولذا لا يمكن اتهامكما بالعطف على مصالحه، وإنما الذي يهمكما هو مصلحة السلم المشتركة ومصلحة حرية هسبرية، فكونا حارسين أمينين لهذه المسالك التي تسبب الحرب، فأنتما لا تقلَّان حرصًا على منع شعوب هسبرية القديمة من تدمير سلنتة التي هي مستعمرةٌ إغريقية جديدة مشابهة للمستعمرات التي أقمتما عن حرصكما على منع إيدومنه من اغتصاب أملاك جيرانه، وحافظا على التوازن بين هؤلاء وأولئك، واحتفظا بشرف كونكما حكمين ووسيطين بدلًا من حمل الحديد والنار إلى إحدى الأمم، أجل، إنكما ستقولان لي: إن هذه الشروط رائعة كما يلوح إذا ما اطمأننتما إلى إخلاص إيدومنه في القيام بها، ولكنني سأصنع ما يرضيكما.

يوجد ضمان متبادل بالرهان التي حدثتكما عنها، وذلك إلى الحين الذي تصبح جميع المسالك وديعةً في أيديكما، فإذا ما قبضتما على ناصية سلام هسبرية بأسرها وسلام سلنتة فهل تكونان راضيين؟ وممن تحذران بعد ذلك؟ أمن أنفسكما؟ أنتما لا تثقان بأن يريد إيدومنه، وهو عاجزٌ عن مخادعتكما، أن يفوض أمره إليكما، إي والآلهة، إنه يريد أن يوليكما أمر راحة رعيته وحريتهم وحياتهم وحياة نفسه، فإذا كنتما راغبين في سلم صالحة فها هي ذي السلم تعرض عليكما، وتنزع منكما كل ذريعةٍ لتأخيرها، وأعود فأقول: لا تتصورا أن الخوف هو الذي أملى عليه هذا العرض، بل الحكمة والعدل هما اللذان يحملانه على سلوك هذا السبيل غير مبالٍ بأن تعزوا إلى الخوف ما يصنع عن فضيلةٍ بالحقيقة، والواقع أنه اقترف بعض الخطايا في البداءة، ولكنه جعل من مجده أن يعترف بها فيما عرض من فوره، ومن ضعفه وزهوه وجهله الفظيع لمصلحته الخاصة أن يرجو كَتْم خطيئاته بأن يتكلف تأييدها عن استعلاء وكبرياء، ومن يعترف لعدوه بخطاياه ويعرض عليه أن يصلحها يدل على غدوه عاجزًا عن اقترافها، وعلى العدو أن يخشى مثل هذا السلوك القائم

على الحكمة والثبات ما لم يعقد صلحًا، واحترزا من صنع ما يجعلكما في موقف المخطئ بدوره، وإذا ما رفضتما السلم والعدل اللذين يسعيان إليكما فإن العدل والسلم ينتقمان لنفسهما، وذلك أن إيدومنه الذي وجب أن يخشى غضب الآلهة عليه يحول هؤلاء الآلهة عليكما، وسنحارب أنا وتلماك دفاعًا عن الحق، وإني أشهد جميع آلهة السماء والنار على الشروط العادلة التي أعرضها عليكما.

ولما أتم منتور هذا الكلام رفع ذراعه وأظهر للحضور غصن الزيتون الذي كان في يده علامةً على السلام، ويدهش الرؤساء الذين ينظرون إليه عن كثبٍ ويبهرون بالنور الرباني الذي كان يسطع من عينيه، وقد لاح من جلاله وسلطانه ما بدا به أرفع من جميع خواص الناس، وكان فتون كلامه العذب القوي يأخذ بمجامع القلوب فيشابه السحر الذي يقف القمرَ والكواكبَ عند سكون الليل العميق وفي وسط الألنب، ويسكن البحر الهائج ويسكت الرياح والأمواج ويحبس الأنهار السريعة عن الجريان، وكان منتور، بين هؤلاء الأقوام الصائلين، مثل باخوس المحاط بالنمور إذ تنسى قسوتها فتلحس رجليه بفعل صوته العذب وتنقاد بالملامسة، وكان أول ما وقع حدوث صمت عميق في جميع الجيش، ونظر بعض القواد إلى بعضٍ عاجزين عن مقاومة هذا الرجل غير مدركين هويته، وتحدق جميع الكتائب إليه ساكنةً، ولا يجرؤ أحد على الكلام خشية بقاء شيء عنده يعبر عنه، ومخافة عدم سماعه، ومع أنه لم يوجد شيء يضاف إلى ما تكلم عنه فقد تمنى الحضور لو دام كلامه زمنًا طويلًا، ويبقى جميع ما قال منقوشًا على جميع القلوب، ولا غرو؛ فهو إذا ما تكلم حبب نفسه إلى الناس، وحمل الناس على الإيمان به، وظل كل واحد حائرًا يطمع لو يعي أدق ما يمكن أن ينطق به.»

والخلاصة أنه سمع، بعد صمتٍ طويل، صوت بهيم أخذ ينتشر مقدارًا فمقدارًا وعاد لا يسمع ذاك اللغط المختلط المحتدم عن سخط، بل همسٌ عذب لطيف، ومما لوحظ على الوجوه ما لا يعبَّر عنه من بشر واطمئنان، ويشعر المندوريون، الذين بلغوا الغاية من الغضب، بأن الأسلحة تسقط من أيديهم، ويدهش فلنتوس مع أتباعه من اللكدمونيين، ويُرى أن أحشاءه الحديدية لانت، ويتنفس الآخرون الصعداء بهذا الصلح الذي لوِّح لهم به، ولم يستطع فلكتيت، الذي هو أشد إحساسًا من سواه بما ابتلى من مصائب، أن يمسك دمعه من السيلان، ولم يقدر نسطور على الكلام عن وجد ألقاه فيه كلام منتور فعانق منتور عناق حنان من غير أن ينطق بكلمة، ولم يلبث جميع الأقوام أن هتفوا قائلين: «لقد أطفأت غضبنا أيها الشيخ الحكيم! السلم! السلم!»

ولما ذهب عن نسطور الوجد أراد أن يتكلم، ولكن جميع الكتائب التي فرغ صبرها خافت أن يقيم بعض العقبات فعادت إلى هتافها: «السلم! السلم!» وما كان ليمكن فرض الصمت عليها إلا بهتاف جميع قادة الجيش معها: «السلم! السلم!»

ويرى نسطور أنه ليس حرًّا في القيام بخطبة متسقة، فيكتفي بقوله: «ترى، يا منتور، ما يكون من أثر لرجل الخير، فإذا ما تكلمت الحكمة والفضيلة سكنتا جميع الأهواء، وتتحول أحقادنا العادلة إلى صداقة ورغبةٍ في سلمٍ دائمة، ونحن نرضى بها كما تقدمونها إلينا»، ويمد جميع الرؤساء أيديهم علامةً على القبول.

ويهرع منتور إلى باب المدينة كيما يأمر بفتحه ويدعو إيدومنه إلى الخروج من سلنتة بلا احتراز.

ويقبل نسطور تلماك في تلك الأثناء، ويقول: «أي ابن أحكم جميع الأغارقة المحبوب، أيمكن أن تكون مثله حكمةً وأكثر منه سعادةً؟ وهل اطلعت على شيء حول مصيره؟ إن ذكرى أبيك الذي تشابهه ساعدت على كظم غيظنا»، ومع أن فلنت قاسٍ فظٌّ، ومع أنه لم يرَ أوليس قط، تحركت عاطفته حيال مصائب أوليس ومصائب ابنه.

وبينما كان يُلحَف على تلماك أن يقص خبر مغامراته رجع منتور مع إيدومنه وجميع من تبعه من الشبيبة الأقريطشية.

ولما رأى الحلفاء إيدومنه أحسوا فوران غضبهم، ولكن كلام منتور أطفأ هذه النار التي كادت تلتهب، قال منتور: «وما يمنعنا من عقد هذا الحلف المقدس الذي نشهد الآلهة عليه ويكونون حماةً له؟ ولتنتقم الآلهة من كل ملحد يقدم على نقضه، ولتبعد جميع دوائر الحرب من كل شعب مخلص بريء، ولتدُرْ على رأس كل طامع لعين يدوس حقوق هذا الحلف المقدسة، وليغدُ هذا الطامع ممقوتًا لدى الآلهة والناس، ولا يتمتع بثمرات مكره، ولتثُرْ زبانية جهنم، وهي على أقبح الوجوه، غيظه ويأسه، وليهلك غير راجٍ لنفسه رمْسًا، وليكن بدنه طعمةً للكلاب والعقبان، وليكن مقره في الدرك الأسفل من النار حيث يعذب بأشد مما ينال تنتال وإكسيون والدنائيد، ولكن ليكن هذا السلم راسخًا كصخور أتلاس التي تُمسك السماء، وليكرم جميع الأقوام هذا السلم وليذوقوا ثمره جيلًا بعد جيل، وليدر اسم واضعيه في أفواه أعقاب الأعقاب عن حبٍّ وإجلال، وليصبح هذا السلم القائم على العدل وحسن النية نموذجًا لكل سلم يتم في المستقبل عند جميع أمم الأرض، ولنفكر جميع الشعوب التي تريد السعادة باتحادها في الاقتداء بشعوب هسبرية!»

ولما أتم منتور كلامه عقد إيدومنه والملوك الآخرون ذاك الصلح وفق الشروط المذكورة، ويقدم كل من الفريقين رهانًا عددها اثنا عشر، ويحب تلماك أن يكون من الرهان التي

قدمها إيدومنه، ولكن لا يوافق على كون منتور منها؛ وذلك لأن الحلفاء أرادوا بقاءه بجانب إيدومنه ليجيب عن سلوكه وسلوك مستشاريه حتى تنفذ جميع الأمور الموعود بها، ويُذبَح بين سلنتة وجيش الأعداء مائة عجلٍ أبيض كالثلج كما يذبح مئة ثور أبيض، كالثلج أيضًا، ذات قرون مذهبةٍ مزخرفة بأكاليل من الزهور والغصون، وتدوِّي الجبال المجاورة بما يصدر عن القرابين التي تسقط تحت السكين المقدس من خوار مرهوب، ويسيل الدم الداخن من كل ناحية، ويُكثَر من صب الخمر الصالحة لإكرام الآلهة، ويُنعِمُ العرافون نظرهم في الأحشاء التي لا تزال تختلج، ويحرق الكهنة المقربون بخورًا في المذابح يؤلف سحابًا كثيفًا فينشر في جميع الحقول رائحةً ذكية.

ويكف جنود الفريقين عن نظر بعضهم إلى بعض نظر عداء، ويتحادثون حول مغامراتهم، ولا غرو، فقد استراحوا من أعمالهم وتذوقوا حلاوة السلم مقدمًا، ويعرف كثير ممن رافقوا إيدومنه في حصار تروادة رجال نسطور الذين اشتركوا في تلك الحرب أيضًا، ويتعانقون عناق حنان، ويتبادلون الحديث عما حدث لهم بعد تدمير هذه المدينة الرائعة التي كانت حِلْية جميع آسية، وينامون على الأعشاب، ويتوجون أنفسهم بأكاليل من الزهور، ويشربون معًا من الخمر ما يجلبون من سلنتة بآنية عظيمةٍ تكريمًا لذاك اليوم المبارك.

وبينا كانت الأمور تسير هكذا خاطب منتور الملوك والقواد المجتمعين بما يأتي: «لن تكونوا غير أمة واحدة بعد الآن مهما اختلفت الأسماء وكثر الرؤساء، وهكذا فإن الآلهة العادلين المحبين للناس الخالقين إياهم يريدون أن يكونوا رابطةً أبديةً لتمام اتفاقهم، وليس جميع الجنس البشري غير أسرة واحدة موزعة فوق البسيطة، وإنما الناس إخوة يجب أن يتحابوا، وإن الويل لأولئك الملاحدة الذين يبحثون عن المجد الجائر في دم إخوتهم الذي هو دمهم الخاص! أجل، إن الحرب أمر ضروري أحيانًا كما هو الحق، ولكن من العار على الجنس البشري أن تكون الحرب أمرًا لا مفر منه في بعض الأحوال، ويا أيها الملوك! لا تقولوا بوجوبها نيلًا للمجد ما دام المجد الحقيقي داخل الإنسانية، ومن يفضل مجده الخاص على المشاعر الإنسانية يعد غولَ صَلَف، لا إنسانًا، أي إنه لا ينتهي إلى غير مجدٍ باطل، والمجد الحقيقي لا يوجد إلا في الاعتدال واللطف، أجل، يمكن أن يُراءى الملك إرواءً لزهوه السخيف، ولكن مع القول عنه سرًّا عندما يراد الحديث بإخلاص: «إنه كلما أراد المجد عن هوًى جائرٍ قل استحقاقه له، ولا ينبغي للناس أن يقدروه ما قل تقديره للناس وأسرف في بذل دمائهم في سبيل عجب جافٍ»! ويا لسعادة الملك الذي يحب رعيته فتحِبه، وطوبى للملك الذي يثق بجيرانه فيثقون به، وطوبى للملك الذي يجتنب شهر

الحرب عليهم، ويحول دون وقوعها بينهم، وطوبى للملك الذي يحرك غيرة جميع الأمم الأجنبية حول سعادة رعاياه بكونه ملكًا لهم! وأنتم، يا من وُلُّوا أمر الحكم في مدن هسبرية العظيمة، فكروا، إذن، في اجتماع بعضكم إلى بعض حينًا بعد حين، واعقدوا في كل ثلاث سنين مجلسًا عامًّا يشترك فيه جميع الملوك الحاضرين هنا لتجديد الحلف بعقد جديد، ولِشَدِّ أواصر الصداقة الموعودة، وللتشاور في جميع المصالح العامة، وستلاقون داخل هذا البلد الجميل سلامًا ومجدًا ورخاءً، ولن يكون في الخارج غالب لكم أبدًا ما دمتم متحدين، ولا يوجد غير الشقاق الذي يصدر عن الجحيم لتعذيب الناس ما يمكن أن يكدر صفو السعادة التي يعدها الآلهة لكم.»

واسمع جواب نسطور: «ترى من سهولة عقدنا للسلم مقدار بعدنا من كل رغبة في شهر الحرب نيلًا لمجد باطل أو طمعًا في توسيع بلدنا توسيعًا جائرًا إضرارًا بجيراننا، ولكن ما يمكن أن يُصنَع حيال أمير عَسُوف لا يعرف قانونًا غير منفعته فلا يضيع فرصةً في الاستيلاء على أملاك الدول الأخرى؟ ولا تظن أنني أتكلم عن إيدومنه، كلا، بل عاد لا يساورني عن إيدومنه مثل هذا الفكر، وإنما ملك الدونيين؛ أدرست، هو الذي يثير خوفنا كثيرًا، وذلك أنه يزدري الآلهة، وأنه يعتقد أن جميع أهل الأرض لم يولدوا إلا ليبذلوا أنفسهم في سبيل مجده مثل عبيد، وأنه لا يريد وجود رعايا يكون ملكًا أبًا لهم، وأنه يريد أن يكون رعاياه عبيدًا عبَّادًا له منتحلًا مقام الربوبية، ولم يصدر عن الطالع الأعمى حتى الآن غير إقراره على أشد غاراته جورًا، ولم نبادر إلى مهاجمة سلنتة إلا للخلاص من أضعف عَدُوَّيْنا الذي أخذ يستقر بهذا الساحل، ثم لتوجيه سلاحنا إلى ذلك العدو الأقوى الذي استولى على كثير من مدن حلفائنا والذي خسر أهل كروتون معركتين حياله، وهو يتخذ جميع أنواع الوسائل إرواءً لطمعه، وهو لا يفرق بين القوة والحيلة في إرهاق أعدائه، وقد جمع أموالًا وافرة، وقد درب جنوده وزادهم عددًا، قادته محنكون، وخدمته حسنة، وتراه يرقب جميع من يعملون بلا انقطاع، وتراه يعاقب بشدةٍ على أصغر زلة، وتراه يكافئ بكرمٍ على ما يقدَّم إليه من خِدَم، وما عنده من بسالة يدعم بسالة جميع جنوده ويشجعهم، أجل، إنه يكون بذلك ملكًا كاملًا لو اتخذ العدل وحسن النية رائدين له في سيره، ولكنه لا يخاف الآلهة، ولا يخشى تأنيب الضمير، ولا يكترث حتى للسمعة التي يعدها وهمًا باطلًا لا ينبغي أن تردع غير ذوي النفوس الضعيفة، ولا يحسب من الخير الحقيقي الثابت النافع غير ما يحوز به ثروات عظيمةً وما يكون به مرهوبًا من الناس وما يدوس به جميع الجنس البشري، وقد لا يمضي وقت قصير حتى يظهر جيشه في أرَضِينا، وإذا كان اتحاد هذه الشعوب الكثيرة

لا يمكننا من مقاومته فقدنا كل أملٍ في الحرية، ومن مصلحتنا ومصلحة إيدومنه أن نصد هذا الجار الذي لا يطيق من هو حر في جواره، ولو قُهِرْنا لوقعت سلنتة في مثل مصيبتنا، فلنبادر إلى سبقه إذن.»

وبينا كان نسطور يقول هذا كان يُسَارُ نحو مدينة سلنتة؛ وذلك لأن إيدومنه كان قد التمس من جميع الملوك ومن أهم الرؤساء أن يدخلوها لقضاء الليلة فيها.

الجزء العاشر

اقترح الحلفاء على إيدومنه دخول حلفهم حيال الدونيين، موافقة هذا الأمير على ذلك ووعده بأن يمدهم بجنود، لوم منتور إياه على توريط نفسه في حرب جديدة مع أنه محتاج إلى سلم طويل يوطد فيه، بما يقيم من معاهد، دعائم مدينته ومملكته اللتين لم تكادا تقومان، اعتراف إيدومنه بخطئه وعمله بنصيحة منتور الذي رأى أن يكتفي الحلفاء بوجود تلماك مع مائة شاب أقريطشي في جيشهم، بينا أوشك تلماك أن يذهب ويودع منتور أبدى دهشه لسلوك إيدومنه، اغتنام منتور لهذه الفرصة في إشعار تلماك بالحيف في الاسترسال في انتقاد أولياء الأمور، تدقيق منتور، بعد انصراف الحلفاء، في شئون مدينة سلنتة ومملكتها وحالِ تجارتها وجميع أقسام إدارتها، إلزامه إيدومنه بوضع نظم حكيمة عن التجارة والإدارة، وحمله إيدومنه على تقسيم الرعية إلى سبع طبقات وتمييز ما بينها باللباس، إبطاله للترف والمهن غير المفيدة حملًا للصناع على مزاولة الحرف التي لا بُدَّ منها في التجارة ولا سيما الزراعة، رد كل شيء إلى البساطة، نتائج هذا الإصلاح الطيبة.

إن كلمة «التهور» تؤذيك كما أرى جيدًا، ومن الخطأ أن يستعملها غيري ما وجب تبجيل الملوك ومداراة نزقهم، حتى عند لومهم، ولا عجب، فالحقيقة نفسها تؤذيهم ولو لم تستعمل معهم عبارات قوية، وأما أنا فقد ظننت أنك تحتمل مخاطبتي إياك بلا تلطيف كيما أكشف لك خطأك؛ وذلك لأنني كنت أهدف إلى تعويدك أن تسمع دعوة الأشياء بأسمائها وأن تدرك أن الآخرين لا يجرءون على تبليغك جميع ما يرون عندما ينصحونك حول سلوكك، ومما يجب، إذا ما أردت ألا تُخدَع، أن تدرك، دائمًا، أكثر مما يقولون لك عن الأمور التي تضرك، وإني، وإن كنت أود تلطيف كلامي وفق ميلك، أرى أن مما ينفعك أن يخاطبك الرجل الخالي من الغرض والأَرَب بلهجة قاسية إذا ما كلمك سرًّا، ولا يوجد غيري من يقدم على قوله لك: إنك لا ترى الحقيقة إلا ناقصةً مستترة ضمن غُلف لطيفة.

فلما سمع إيدومنه هذه الكلمات ذهب عنه غضبه الأول، وأظهر حياءه من نزقه، وقال لمنتور: «ترى ما توجبه في الإنسان عادة مداراته، وأراني مدينًا لك بسلامة مملكتي الجديدة، ولا أرى حقيقةً لا أجدني سعيدًا بسماعها من فمك، ولكن ألطف بملكٍ سمَّه نفاق الناس، فلم يجد، حتى في أثناء مصائبه، رجالًا بلغوا من الكرم ما يُقدِمون معه على قول الحقيقة له، كلا، لم أجد أحدًا بلغ من حبه لي ما يريد معه ألا يروقني بتبليغه الحقيقة كاملةً إلي.»

قال إيدومنه هذا دامع العينين، وعانق منتور عناق حنان.

هنالك قال له الشيخ الحكيم: «يؤلمني أن أضطر إلى تبليغك أمورًا قاسية، ولكن أيمكنني أن أخونك بإخفائي عنك الحقيقة؟ إنك إذا ما خدعت حتى الآن فلأنك أردت أن تُخدع ولأنك خشيت الناصحين البالغي الإخلاص، وهل بحثت عمن هم أكثر الناس خلوًّا من الغرض وأعظمهم استعدادًا لمعارضتك؟ وهل وددت لو تحمل على الكلام أقل الناس مبادرةً إلى الوقوع عندك موقع الرضا وأكثرهم قدرةً على ذم أهوائك ومشاعرك الجائرة؟ ومتى وجدت منافقين فأقصيتهم عنك؟ ومتى حَذِرْت من المرائين؟ كلا، كلا، إنك لم تصنع قط صنع من يحبون الحقيقة فيُعَدُّون أهلًا لمعرفتها، ولننظر الآن هل لديك من الشجاعة ما تُزريك به الحقيقة التي تدينك.»

ولذا أقول: «إن الذي يجلب إليك كثيرًا من الثناء لا يستحق غير العَذْل، وذلك أنك، بينما كان لك عدو كثير في الخارج يهددون مملكتك التي لم تزل سيئة الوضع، لم تفكر في غير القيام بآثار فخمة في داخل مملكتك الجديدة، وهذا ما أورثك ليالي سيئةً كما اعترفت لي، وقد استنفدت ثراءك، ولم تفكر في زيادة عدد رعيتك ولا في زراعة أَرَضِي هذا الساحلِ الخصيبة، أوَ لا تَعُدُّ الأمرين الآتيين أساسيين لضمان سلطانك، وهما: اشتمالك على رجال صالحين وحيازتك أرَضِين حسنة الزراعة لتغذيتهم؟ كان لا بُدَّ من سلم طويل في البداءة وصولًا إلى زيادة عدد رعيتك، وكان من الواجب ألا تفكر في غير الزراعة ووضع أقوم القوانين، وكان يخامرك من العُجْب الباطل ما دفعك إلى طَرَف الهُوَّة، وكدت تقضي على عظمتك الحقيقية من حيث أردت أن تظهر عظيمًا، فبادر إلى إصلاح خطئك، وقف جميع مشاريعك الكبيرة، ودع عنك هذا البذخ الذي يقوض دعائم مدينتك الجديدة، وأمتع رعاياك بالسلام، واسع أن ينالوا يسرًا تسهيلًا للزواج، واعلم أنك لست ملكًا إلا بوجود رعايا تملكهم، وأن من الواجب ألا يقاس سلطانك باتساع الأرضين التي تملك، بل بعدد من يسكنون هذه الأرضين ويودون أن يطيعوك، واملك أرضًا صالحة ولو كانت بين بين، واعمرها برعايا كثيرين مجدين مؤدبين، وحبب نفسك إلى هؤلاء الرعايا، تَغْدُ، إذن، أقوى من جميع الفاتحين الذين يخربون الممالك وأكثر منهم سعادةً وأعظم مجدًا.»

إيدومنه: «وما أفعل، إذن، حيال هؤلاء الملوك؟ أأعترف لهم بضعفي؟ نعم، إنني أهملت الزراعة والتجارة التي يسهل عليَّ أمرها في هذا الشاطئ، نعم، إنني لم أفكر في غير إقامة مدينة فخمة، فهل علي إذن، يا منتور العزيز، أن أفضح نفسي في مجلس يضم ملوكًا كثيرين وأن أَنِمَّ على غفلتي؟ إنني أصنع هذا عن خيارٍ إذا ما قضت الضرورة بذلك، إنني أصنع هذا بلا تردد مهما كلفني الأمر؛ وذلك لأنك علمتني أن على الملك الحقيقي الذي جُعل لرعاياه والذي هو مدين لهم بكل شيء أن يفضل سلامة مملكته على سمعته الخاصة.»

منتور: «هذا الشعور جدير بأبي الشعب، وبهذا الحلم، لا ببهاء مدينتك الباطل، ما أعرف فيك قلب الملك الحقيقي، ولكن لا بُدَّ من مداراة كرامتك من أجل مصلحة مملكتك، فدعني أدبر، فسأخبر هؤلاء الملوك بأنك ألزمت نفسك بإعادة أوليس إلى سلطانه في إيتاك إذا كان قَيْدَ الحياة بعدُ أو نَصْبِ ابنه في مكانه على الأقل وبأنك تريد أن تطرد منها بالقوة عشاق بنلوب، ولا يعسر على هؤلاء الملوك أن يدركوا أن هذه الحرب تستلزم كتائب كثيرةً، وهكذا فإنهم سيوافقون على ألا تمدهم في البداءة بغير مدد قليل حيال الدونيين.»

ويبدو إيدومنه عند سماع هذه الكلمة كمن أزيح عنه حمل ثقيل، ويقول لمنتور: «إنك تنقذ، يا صديقي العزيز، شرفي وشهرة هذا البلد الناشئ الذي تكتم ضناه عن جميع جيراني، ولكن ما ظاهر الحق في قولك: إنني أريد إرسال كتائب إلى إيتاك لأعيد إليها أوليس أو ابنه تلماك على الأقل مع أن تلماك متطوع بالذهاب لمحاربة الدونيين؟»

منتور: «لا تقلق بالك مطلقًا، فستذهب المراكب التي ترسلها لتوطيد تجارتك إلى ساحل إيبرية كيما تقوم بأمرين معًا، أي إنها ستدعو إلى شاطئك تجارًا من الأجانب كانت المكوس الثقيلة تبعدهم من سلنتة، وإنها ستتلمس أخبارًا عن أوليس، فإذا كان أوليس حيًّا بَعْدُ وَجَبَ أن يكون في هذه البحار التي تفصل بلاد اليونان عن إيطالية ما روي، مع التوكيد، أنه رئي عند الفياسيين، وإذا ما فقد كل أمل في لقائه قامت سفنك بخدمة لابنه مرموقة، وذلك بأن تذيع في إيتاك وجميع البلدان المجاورة هول اسم الشاب تلماك الذي يعتقد أنه ميت مثل أبيه، وسيدهش عشاق بنلوب إذ يعلمون أنه يوشك أن يعود مستعينًا بحليف قوي، ولن يجرؤ أهل إيتاك على خلع النير عنهم، وسينفرج الغم عن بنلوب، وستصر على رفضها اختيار زوج جديد، وهكذا تكون قد خدمت تلماك مع قيامه مقامك بجانب حلفاء هذا الشاطئ الإيطالي حيال الدونيين.»

إيدومنه: «طوبى للملك المؤيَّد بنصائح حكيمةٍ! لَأَنْ يكون للملك صديق عاقل مخلص خير من أن يكون له جيش منصور، ولكن سعادة الملك تتضاعف حين يشعر بسعادته

ويعرف أن ينتفع بهذه السعادة باتخاذ أصلح النصائح! وإن مما يحدث غالبًا أن يبعد الملك من حقل ثقته ذوي الحكمة وذوي الفضيلة الذين يخشى فضلهم مستمعًا إلى المنافقين الذين لا يخشى خيانتهم، وقد سقطت في هذا الخطأ بنفسي، وأخبرك بأن مصائبي أتتني من صديق زائف كان يداري أهوائي راجيًا أن أداري أهواءه بدوري.»

ويسهل على منتور تبليغ الملوك المتحالفين وجوب تدبير إيدومنه لأمور تلماك في أثناء ذهاب تلماك معهم، ويكتفي هؤلاء الملوك بأن يشتمل جيشهم على الشاب ابن أوليس مع مائة من الشبان الأقريطشيين جعلهم إيدومنه يرافقونه، وكان هؤلاء الشبان زهرة طبقة الأشراف الفَتِيَّة التي جاء بها الملك من أقريطش، الغالب، ومَن يفضل طموحه الباطل على سلامة الباعث العام يستحق العقاب لا الجوائز.

ولذا فاحترز، يا بني، من طلب المجد فاقدَ الصبر، وأصدق وسيلة لنيله هو أن تنتظر الفرصة الملائمة هادئًا، وتكون الفضيلة أدعى إلى الحمد بالبساطة والاعتدال ومقتِ كل زهو، وكلما زادت ضرورة تعريض الإنسان نفسه للخطر وجب عليه أن يتذرع بوسائل احتراس وبسالة جديدة متزايدة دائمًا، واذكر، مع ذلك، أنه لا ينبغي إثارة حسد أحد، ولا تكن، من ناحيتك، حاسدًا للآخرين على نجاح أصابوه، وأثنِ عليهم في كل ما يستحق الثناء، ولكن مع الاحتراز، وذلك كأن تقول خيرًا وأنت مسرور، وألا تجهر بالسوء، وألا تتصوره إلا متألمًا، ولا تسبق هؤلاء القادة القدماء في القطع بأمر لما لديهم من تجارب لا يمكن أن تكون عندك، واستمع إليهم مع التوقير، وشاورهم، وارجُ من أمهرهم أن يزودك بمعارف، ولا تخجل من عزوك إلى ما تزودت من معارفهم كلَّ ما صنعت به من أمر صالح، ثم لا تُلقِ سمعك إلى كلام يراد به إثارة حذرك أو حسدك حيال الرؤساء الآخرين، وخاطب هؤلاء واثقًا صادقًا، وإذا ما آنست منهم عدم مراعاة لك فأطلعهم على ما يساورك واشرح لهم ما عندك من أسباب، فإذا كانوا أهلًا لإدراك نبل هذا السلوك أخذت بمجامع قلوبهم ونلت كل ما تنتظر منهم، وإذا لم يكونوا من الصواب بحيث يدركون مشاعرك أدركت بنفسك ما يعانَى من جورهم واتخذت من التدابير حتى نهاية الحرب ما لا تتصل معه بهم إلا بمقدار، ولا لوم عليك، وأخص ما يجب عليك هو ألا تخاطب أهل النفاق فيما تألم به من قادة الجيش لما يلقي المنافقون من بذور الشقاق.

وسأبقى هنا لمساعدة إيدومنه في كل ما يضمن سعادة رعيته ولإصلاح كل خطأٍ أدى إليه مستشارو السوء والمنافقون في قيام مملكته الجديدة.

هنالك لم يستطع تلماك أن يمنع نفسه من إبدائه لمنتور دهشه وازدراءه حيال سلوك إيدومنه، ولكن منتور تناوله بلهجة شديدة، قال له منتور: «أَوَ تعجب من كون أدعى الناس

إلى الاحترام هم من الآدميين الذين يبدون ما يلازم الإنسان من ضعف بين ما لا يفصل عن الملك من أشراكٍ وارتباكٍ لا يحصى لهما عدد؟ أجل، كان إيدومنه قد نُشِّئ في حقل من مبادئ البذخ والكبرياء، ولكن أي فيلسوف كان يصون نفسه من عامل النفاق لو كان في مكانه؟ أجل، إنه أفرط في العمل بما كان يشير عليه به معشر ثقته، ولكن مع العلم بأن أحكم الملوك يُخدَعون غالبًا مهما اتخذوا من وسائل الحذر، ولا يستطيع ملك أن يستغني عن وزراء يخففون حمله ويعول عليهم ما دام غير قادر على صنع كل شيء بنفسه، ثم إن الملك أقل معرفة من الأفراد بمن يحيطون به، أي إن من هم حوله يكونون مُقنَّعين دائمًا فيتخذون ضروب الحِيَل لمخادعته، آه! يا تلماك العزيز، ستختبر ذلك كثيرًا! ولن ترى في الناس فضيلةً ولا ما تقتضيه الفضيلة من مناقب، وكلما دُرِسَ الناس وأُنعِمَ النظرُ فيهم أُخْطِئَ في تقدير أمرهم، ولا ينجح حتى في صنع أناس صالحين للقيام بالشئون العامة كما تقتضيه الضرورة، وذلك لما يساور هؤلاء من عناد وتنافٍ وتحاسد، ولا يمكن إقناع هؤلاء ولا إصلاحهم مطلقًا.»

وكلما كثر عدد الرعايا الذين يحكم فيهم وجب وجود وكلاء يقومون بما لا يقدر الناس عليه بأنفسهم، وكلما وقع احتياج إلى أناسٍ يقومون بأمر السلطة تطرق الخداع في اختيارهم، ومن يوجه اليوم سهام النقد إلى الملوك بلا هوادة فيعهد إليه في الملك غدًا يكُ دونهم صلاحًا بمراحل، ويقترف مثل خطاياهم مع خطيئاتٍ أخرى أعظم منها بدرجات، وذلك أنه إذا ما أضيف إلى وضع مَن يكون خارج الحكم شيء من حسن البيان سُتِرت جميع عيوبه الطبيعية وبدت مناقبه البراقة ودل هذا على رجلٍ أهلٍ لجميع المناصب البعيدة منه، ولكن السلطة هي التي تضع جميع المناقب على محكِّ الاختبار وتكشف عن أعظم العيوب.

وما العظمة إلا كبعض الزجاج الذي يجسم جميع الأشياء، فجميع العيوب تبدو كبيرةً في هذه المناصب العالية حيث يكون لأقل الأمور عظيم النتائج وحيث يؤدي أخف الهَنَات إلى أعنف الصدمات، ولا غرو، فجميع الناس عاملون على رقابة رجل واحد في كل ساعة وعلى الحكم في أمره بكل شدة، ولا يوجد في من يقضون في أمره أية تجربة عن الحال التي يكون فيها، ولا يشعرون بمشكلاته مطلقًا، ولا يريدونه بشرًا ما طالبوه بالكمال، ولا يدرون أن الملك بشر مهما بلغ من الصلاح والحكمة، ويُرى لعقله حدود كما يُرى لفضله، ويرى له من المزاج والأهواء والعادات ما لا يسيطِر عليه تمامًا، ويلازمه أناس من ذوي المكر والمآرب، ولا يجد ما يبحث عنه من عون مطلقًا، ويصاب بخيبة أمل كل يوم، وذلك بفعل أهوائه تارةً وبفعل عماله تارةً أخرى، ولا يكاد يصلح خطأً حتى يسقط في خطأٍ آخر، فهذه هي حال أكثر الملوك نورًا وفضلًا.

ويعد أطول العهود وأحسنها من القِصَر والنقص ما لا يكفي لإصلاح ما فسد في البداءة من غير قصد، ويحمل المُلْك في ثنياته جميع هذه المشاق، ويرزح تحت حمل مرهِق، ويجب أن يُرثى للملوك وأن يُعذروا، ألا يرثى لهم لأنهم يقومون بالحكم في أناس كثيرين لا حدَّ لاحتياجاتهم فيجد من يريد الإجادة في الحكم فيهم مصاعب عظيمة؟ ولو أردنا الصراحة في القول لرثينا للناس ما رأينا ملكًا من البشر مثلهم يحكم فيهم، وما وجب أن يقوم الآلهة بتقويم الناس، ولكن مع العلم بأن الملوك ليسوا أقل من الناس محلًّا للرثاء ما داموا بشرًا، ضعفاء ناقصين كبقية البشر، عُهِد إليهم في الحكم في ذلك الجمع المؤلف من أناس ماكرين فاسدين لا يُحصى عددهم.

تلماك (بعنف): «لقد أضاع إيدومنه مملكة أجداده في أقريطش بخطأٍ اقترفه، وكاد يخسر مُلك سلنتة لولا نصائحك.»

منتور: «أعترف بأنه اقترف ذنوبًا عظيمة، ولكن ابحث في بلاد اليونان، وفي أحسن البلدان إدارةً، عن ملكٍ لم يأتِ ما لا يُعذَر عليه، وإذا ما نُظِر إلى مزاج أعاظم الملوك وسجاياهم وجدت لهم معايب يندفعون وراءها، ووجد أن أجدرهم بالثناء هم الذين كانوا من الشجاعة بحيث يعرفون غواياتهم ويصلحونها، أَوَ تظن أن أباك أوليس العظيم، الذي هو عنوان ملوك اليونان، كان خاليًا من النقص والمعايب؟ وما أكثر ما كان يقع في المهالك والهموم التي يُلقيه الطالع فيها لو لم تسيره منرفا خطوةً بعد خطوة، وما أكثر ما أمسكته منرفا أو قوَّمته لتسوقه إلى المجد، دائمًا، بسلوك سبيل الفضيلة! لا تنتظر، حتى عندما تراه يحكم في إيتاك بالغ أوْجِ المجد، أن تجده مبرَّءًا من النقائص، وإنما توقع أن تراه على شيءٍ منها لا ريب، وقد أعجبت به بلاد اليونان وآسية وجميع جزائر البحار على الرغم من هذه النقائص التي كان يُغضَى عنها بفعل مئاتٍ من صفاته الرائعة، وستكون سعيدًا إذ تعجب به أيضًا، وإذ تدرسه بلا انقطاعٍ مثل قدوةٍ لك.

ولذا فعود نفسك، يا تلماك، ألا تنتظر وجود رجال أعظم من الذين تستطيع البشرية أن تنجب بهم، ومن شأن الشبيبة غير المجربة أن تُكِبَّ على نقد قائم على العُجب تنفر به من كل مثال تحتاج إلى الاقتداء به، ويلقيها في حقل من الجماح لا يُشفَى منه، ولا ينبغي لك أن تَقصِر همك على حب أبيك والاقتداء به ولو لم يبلغ أوْج الكمال، بل يجب عليك أن تحمل أسمى توقير لإيدومنه أيضًا، وذلك على الرغم من جميع سهام اللوم التي وجهتها إليه؛ وذلك لأنه مخلص بفطرته مستقيم منصف كريم محسن بالغ الشجاعة مبغض للخداع إذا ما عرفه سائر مع ميل فؤاده سيرًا حرًّا، ولأن جميع مناقبه الظاهرة عظيمة تناسب مقامه،

ولأن بساطته في الاعتراف بخطئه، وحلمه، وصبره على ما كل ما أوجِّه إليه من قوارص الكلام، وشجاعته حيال نفسه لإصلاح زلاته جهرًا، وجعله نفسه فوق كل نقد من الناس، أمور تدل على نفسه العظيمة حقًّا، أجل، إن السعادة أو نصيحة الآخرين يمكن أن تصون الملك القليل الذكاء من بعض السيئات، ولكن لا يوجد غير الفضيلة النادرة ما يستطيع أن يحض الملك، الذي أغواه النفاق زمنًا طويلًا، على إصلاح خطئه، وعندي أن النهوض بعد السقوط أدعى للمجد من عدم السقوط، ولا مراء في أن إيدومنه أتى من الزلات كما أتى جميع الملوك تقريبًا، غير أنك لا تجد من الملوك، تقريبًا، من صنع صنعه لإصلاح نفسه، ولا يسعني إلا الإعجاب به حين يسمح لي بمعارضته، فاعجب به يا تلماك العزيز، وإني أسوق إليك هذه النصيحة من أجل منفعتك أكثر مما في سبيل سُمْعَتِه.»

وقد أشعرَ منتور تلماكَ في هذا الكلام بمقدار الجور في توجيه سهام النقد إلى الآخرين، ولا سيما أولئك الذين يحملون هموم الحكم ومشاكله.

ثم قال منتور لتلماك: «لقد أتى وقت الرحيل، وداعًا، واذكر، يا تلماك العزيز، أن الذين يخافون الآلهة لا يرون في الناس ما يخافون، وستلاقي أهوالًا، ولكن اعلم أن منرفا لن تتركك مطلقًا.»

فلما سمع تلماك هذه الكلمات أيقن أنه يشعر بحضور الآلهة، وكان يذهب إلى أنها هي التي تتكلم لتملأه ثقةً لو لم تأتِ الآلهة به إلى خيال منتور حين قال له: «لا تنسَ، يا بني، جميع ما حبوتك به من رعاية في أثناء صباك كيما أجعلك حكيمًا شجاعًا مثل أبيك، ولا تصنع شيئًا لا يكون خليقًا بمُثُله العظيمة وبمبادئ الفضيلة التي بذلتُ وُسْعِي في تلقينك إياها.»

وتطلع الشمس، وتُذَهِّب ذرى الجبال، ويغادر الملوك مدينة سلنتة ليلحقوا بكتائبهم، وتسير هذه الكتائب، المعسكرة حول هذه المدينة، بقيادة قوادها، ويُرى من كل ناحيةٍ الْتِمَاع حديد الحِراب الشائك ولمعان التروس الذي يبهر العيون، وتَصَاعُدُ ضباب من الغبار حتى السحاب، ويرافق الملوك المحالفين في الحقول منتورُ وإيدومنه، ويبتعدان عن أسوار سلنتة، ثم يفترق كل من الفريقين عن الآخر بعد تبادل إشارات الصداقة الحقيقية، وعاد الحلفاء لا يشكون في دوام السلم عندما عرفوا طيبة قلب إيدومنه الذي كان قد قدم إليهم على خلاف حقيقته، أي إنه كان يحكم في أمره وفق حال المستشارين المنافقين الذين وَكَل نفسه إليهم.

ويأتي إيدومنه بمنتور إلى جميع أحياء المدينة بعد انصراف الجيش، قال منتور لإيدومنه: «لنطلع على عدد ما عندك من رجال في المدينة وفي الأرياف المجاورة، ولنقم

بإحصاءٍ للوصول إلى هذا الغرض، ولنقف كذلك على عدد الفلاحين بين هؤلاء الرجال، ولنعلم مقدار ما تنتج أَرَضُوك في السنين العادية من بُرٍّ وخمر وزيت وغيره من الأشياء المفيدة، وسنعلم بهذه الوسيلة هل تزود الأرض بما يطعم جميع سكانها أو لا، وهل تبلغ فضلة ما تنتج مقدارًا يصلح للتجارة مع البلدان الأجنبية أو لا، ولنبحث كذلك عن عدد ما عندك من سفن وملاحين، فبهذا كله يمكن أن يُحكَمَ في قوَّتك.»

ويزور منتور الميناء ويدخل كل سفينة، ويسأل عن البلدان التي يقصدها كل مركبٍ للتجارة، وعن نوع السلع التي يجلب إليها، وعما يأتي به في العودة، وعن نفقات المركب في أثناء السفر، وعن القروض التي ينالها بعض التجار من بعض، وعن الشركات التي يؤلفونها فيما بينهم وهل هي عادلة وتراعَى شروطها بإخلاص، ثم عن مخاطر غرق السفن وغيره من مصائب التجارة، وذلك لتدارك من فضة مع خاتم، ومن غير وسام، ويلبس أصحاب المرتبة الثالثة ثيابًا خضرًا من غير أهدابٍ ولا خاتم، ولكن مع وسام، ويلبس أصحاب المرتبة الرابعة ثيابًا صفرًا ذهبية، ويلبس أصحاب المرتبة الخامسة ثيابًا حمرًا وردية، ويلبس أصحاب المرتبة السادسة ثيابًا رمادية سماوية، ويلبس أصحاب المرتبة السابعة، وهي آخر طبقات الأمة، ثيابًا صفرًا بيضًا، وهذه هي ثياب الطبقات السبع الحرة، وأما ثياب جميع العبيد فتكون رمادية، وهكذا يُماز كل واحد وفق طبقته ومن غير طبقته، وهكذا يُقصَى من سلنتة جميع الحرف التي لا تصلح لغير بقاء البذخ، وهكذا يُستخدَم أرباب الحرف الضارة في المهن الضرورية القليلة العدد، أو في التجارة، أو في الزراعة، وهكذا لا يعانَى أي تحول في طبيعة النُّسُج، ولا في شكل الثياب؛ وذلك لأن من غير المناسب أن يتلهى أناس، أُعِدُّوا لحياة جدٍّ ونبل، باختراع حُلِي خادعة، ولا أن يبيحوا لنسائهم، اللائي تحسب تلك الأُلْهِيات أقل سببًا لحيائهن، أن يركبن متن هذا الشطط.

ويبدو منتور كالبستاني الماهر الذي يقطع العيدان غير النافعة من أشجاره المثمرة فيسعى، على هذا الوجه، أن يبتر البذخ غير المفيد الذي يفسد الأخلاق، أي أن يرد كل أمر إلى بساطة أصيلة قائمة على القناعة، وقُلْ مثل هذه عن تنظيمه لغذاء المواطنين والعبيد، قال منتور: «يا للعار في إقامة أرقى الناس عظمتهم على الأطعمة المعللة التي يخنِّثون بها نفوسهم ويقوِّضون بها صحة أبدانهم على وجه غير محسوس! يقضي الواجب بأن يقيموا سعادتهم على اعتدالهم، وإمكان صنعهم خيرًا للآخرين، وعلى الصيت الذي ينالون بأعمالهم الصالحة، ومن عملِ القناعة جعلُ أبسط الأطعمة لذيذًا إلى الغاية، والقناعة، مع الصحة الجيدة، هي التي تنعم بأصفى الملاذ وأثبتها؛ ولذا فإن من الواجب أن تقتصروا

في وجباتكم على أطيب اللحوم، ولكن مع الطبخ بلا تعليل بالتوابل، والتعليل بالتوابل فن لتسميم الناس بتحريك شهوة الطعام فيهم زيادةً على احتياجهم الحقيقي.»

أجل، إن إيدومنه أدرك جيدًا أن من الخطأ تركه أهل مدينته الجديدة يخنثون طباعهم ويفسدون أخلاقهم بمخالفتهم جميع شرائع مينوس في القناعة، غير أن الحكيم منتور جعله يلاحظ أن الشرائع نفسها، وإن جُددت، تبقى غير مجدية إذا كان الملك لا يؤيدها بمثاله الذي لا يمكن أن يأتي من غيره، ولَسُرعان ما نظم إيدومنه مائدته التي عادت لا تشتمل على غير خبز طيب وقليل من خمر البلد القوية اللذيذة وعلى لحومٍ بسيطة، كما كان يأكل مع الأغارقة الآخرين في أثناء حصار تروادة، ولم يجرؤ أحد على التوجع من نظامٍ فرضه الملك على نفسه، وهكذا شفى كلٌّ نفسه من الإسراف والتأنق اللذين كان قد أكب عليهما في الوجبات.

ثم أبطل منتور الموسيقا الناعمة المخنَّثة التي كانت تفسد الشباب، وليس أقل من هذا قضاؤه بشدة على الموسيقا الباخوسية التي لا تقل عن الخمر إسكارًا، والتي تسفر عن طبائع مملوءةٍ هيامًا وسفاهةً، وقد قصر جميع الموسيقا على الأعياد في المعابد ترنيمًا لمدائح الآلهة والأبطال الذين جعلوا من أنفسهم مثلًا لأعز الفضائل، وكذلك لم يسمح لغير المعابد بالزخارف البنائية كالعمد والأروقة والمثلثات في المقدم، وقد وضع نماذج لفن بناء بسيط ظريف تقام على حسبه بيوت معتدلة باسمة طليقة حسنة المنظر ملائمة للأسر الكثيرة العدد سهلة التنظيف والتنظيم قليلة النفقات، وقد أراد أن يشتمل كل بيت واسعٍ بعض الاتساع على بهوٍ ودهليزٍ صغير وغرفٍ ضيقة لجميع العزاب، ولكنه نهى بشدةٍ عن كثرة الزيادات في المنازل وعن فخامة المساكن، ومما أدى إليه اختلاف نماذج البيوت باختلاف كبر الأسر تزيين قسم من المدينة بنفقات قليلة وجعل هذه المدينة منتظمة، وأما القسم الآخر منها، وكان قد أُتِم وفق هوى الأفراد وبذخهم، فقد كان أقل لطافةً وراحةً على الرغم من فخامته، ولم يتطلب بناء هذه المدينة غير وقت قليل جدًّا لما كان الشاطئ المجاور من بلاد اليونان يزود بمهندسين معماريين ماهرين ولما كان من جلب بنائين كثيرين من إيبرية وغيرها من البلدان الأخرى، وذلك بشرط استقرارهم حول سلنتة بعد إنجازهم أشغالهم وبشرط أخذهم أرضين للإحياء ومساعدتهم، بذلك، على عَمْر الحقول.

ولاح التصوير والنحت لمنتور من الفنون التي لا يجوز تركها، ولكنه أراد ألا يسمح بمزاولتها في سلنتة إلا لأناس قليلين، فأنشأ مدرسةً يرأسها معلمون من ذوي الذوق الرفيع ليقوموا بامتحان التلاميذ، قال منتور: «لا ينبغي أن ينطوي هذان الفنَّان، اللذان هما غير

ضروريين، على ما هو خسيس ضعيف، ومن ثم لا يجوز أن يقبل في هذه المدرسة غير فتيانٍ من النوابغ يرجى منهم إنتاج وافر ويهدفون إلى الإتقان، وأما الفتيان الآخرون فقد ولدوا ليقوموا بفنونٍ أقل نبلًا، وليستخدموا في قضاء احتياجات الدولة العادية، ولا يجوز اتخاذ النحاتين والمصورين إلا للمحافظة على ذكرى أعاظم الرجال وجليل الأعمال، وفي المباني العامة والضرائح ما يجب تصوير ما كان قد صنع في خدمة الوطن مع الفضل البالغ.»

ومع ذلك فإن اعتدال منتور وزهده لم يحُولا دون إباحته قيام أبنيةٍ عظيمة معدة لسباق الخيل والعربات ومبارزة المصارعين ومباراة الملاكمين وما إليها من التمرينات التي ترعى الأبدان جعلًا لها أكثر رشاقةً وأشد قوةً.

ويحذف عددًا هائلًا من التجار الذين كانوا يبيعون نُسُجًا مصنوعةً في البلدان الأجنبية، ومطرزاتٍ عالية الثمن وآنيةً من ذهبٍ وفضة مشتملةً على صور للآلهة والناس والحيوان، ومشروباتٍ وعطورًا، ويريد أن يكون أثاث كل منزلٍ بسيطًا متينًا يدوم طويلًا فيأخذ أهل سلنتة، الذين كانوا شديدي التوجع من فقرهم، في الشعور بمقدار ما كان من بُطْل ثرائهم، من عدم جدوى هذا الثراء الخادع الذي كان يفقرهم، ويغدون أغنياء، بالحقيقة، كلما غدوا من الشجاعة بحيث يتجردون منه، وقد قال أهل سلنتة فيما بينهم: «حقًّا أن سر الغنى هو في ازدراء مثل هذه الثروات التي تستنزف الدولة، وفي تقليل الحاجات بردِّها إلى مقتضيات الطبيعة.»

ويبادر منتور إلى زيارة مصانع الأسلحة وجميع المخازن ليعلم هل الأسلحة وجميع عدد الحرب في حال جيدة، وذلك لما يرى من وجوب الاستعداد لمصيبة الحرب دائمًا درءًا لاحتمال حمل الدولة عليها، ويجد نقص كثير من أمورها في كل مكان، ولسرعان ما جُمع عمال للعمل في الحديد والفولاذ والنحاس، فصار يرى قيام أفران حامية تتصاعد منها أعاصير من الدخان واللهب كالتي يقذفها جبل إتنة، ويطرق المدق على السندان ويئن السَّندان تحت الضربات الهائلة، وتدوِّي الجبال وسواحل البحر بذلك، فيخيل إلى الإنسان أنه مقيم بتلك الجزيرة التي يحض فلكن فيها السكلوب ويطرق الصواعق لأبي الآلهة، وهكذا يرى جميع أُهَب الحرب ضمن سلم عميق نتيجةً لاحتراسٍ عريق.

ثم خرج منتور من مدينة سلنتة مع إيدومنه ووجد مساحات واسعةً من الأرضين الخصيبة المهجورة كما بدت له أرضون أخرى مزروع نصفها عن إهمال الفلاحين أو فقر في الحُرَّاث الذين يُعْوِزُهم الناس فتعوزهم الشجاعة وقوة البدن اللتان لا بُدَّ منهما للسير بالزراعة نحو الكمال.

ويقول منتور للملك حينما شاهد هذه الحقول التي عمها الخراب: «أجل، إن الأرض لا تطلب هنا غير إغناء الأهلين، ولكن الأهلين يسيئون إلى الأرض، ولنأتِ، إذن، بجميع أولئك الصناع الذين غدوا غير نافعين في المدينة والذين يتصرف فيه الفقراء، أي إن كلًّا سيكون ذا أرض، ولكن صغيرة يُحَث على زرعها جيدًا لصغرها، وإذا ما قلت الأرضون هنا مع الزمن أنشئت مستعمرات تنمو بها هذه الدولة.

ومما أرى أن تحترز من السماح بانتشار الخمر كثيرًا في مملكتك، فإذا ما أكثر من غرس الكَرْمة وجب قلعها، فالخمر مصدر أعظم الشرور بين الرعية، وهي علة الأمراض والمنازعات والاضطرابات والفراغ والنفور من العمل واختلال الأسر؛ ولذا فلتكن الخمر ضربًا من العلاج أو مشروبًا نادرًا لا يستعمل إلا لتقريب القرابين أو في الأعياد غير العادية، ولكن لا تأمل حمل الناس على مراعاة قاعدة مهمة كهذه إذا لم تجعل من نفسك قدوةً لهم.

ثم يجب أن تأمر الناس باتباع شرائع مينوس في تربية الأولاد، وأن تنشِئَ مدارس عامةً لتعليم الطلبة مخافة الآلهة وحب الوطن واحترام القوانين وتفضيل الشرف على الشهوات وعلى الحياة نفسها وأن تنصب حكامًا يرقبون الأسر وسلوك الأفراد، وارقب بنفسك أنت الذي ليس ملكًا، أي راعيًا للشعب، إلا ليلاحظ رعيته ليل نهار، فبهذا تحول دون وقوع ما لا يحصى من الجرائم والمفاسد، وكن شديد العقاب من فورك على ما لا تستطيع أن تمنع حدوثه منها، ومن الرحمة أن توجد، منذ البداءة، عِبَرٌ تَقِفُ مجرى الفسادِ، وإذا ما أريق قليل دم في الوقت المناسب حقن دم كثير فيما بعد، وهاب الناس وليَّهم، وعاد صاحب الأمر لا يحتاج إلى استعمال الشدة في الغالب.

ولكن أي مبدأٍ ممقوت لا يقوم على اعتقاد الملك ضمان سلامته باضطهاد رعيته! وهل عدم تعليم الرعية، وعدم سوقهم إلى الفضيلة، وعدم الوقوع موقع الحب من نفوسهم، ودفعهم بالهول إلى اليأس، وجعلهم في وضع كريه لا يستطيعون أن يتنفسوا معه بحرية، أو يضطرون معه إلى خلع نِيرك الجائر عنهم، وسيلة صحيحة للحكم بلا اضطراب؟ وهل هذا هو السبيل الصحيح الذي يؤدي إلى المجد؟

واذكر أن البلاد التي يكون سلطان أولياء الأمر فيها مطلقًا هي التي يكونون فيها أقل اقتدارًا، وذلك أنهم يستأثرون بكل شيء ويقوضون كل شيء ويتصرفون في الدولة وحدهم، فتَهِنُ الدولة بأسرها، وتبور الحقول، وتقفر تقريبًا، وتنقص المدن كل يوم، وتنضب التجارة، وبما أن الملك لا يستطيع أن يكون ملكًا وحده، ولا يكون عظيمًا إلَّا برعاياه، فإنه يضمحل على مهل باضمحلال رعاياه مقدارًا فمقدارًا، باضمحلال هؤلاء الرعايا الذين

ينال منهم ثراءه وسلطانه، وتنفَدُ دولته مالًا ورجالًا، وهذا هو الخسران المبين، وهذا هو الخسران الذي لا يمكن تلافيه.

أجل، إن من مقتضيات سلطانه المطلق صنع عبيد من جميع رعاياه، أجل، إنه يدالَى، أجل، يتظاهر الناس بعبادته، أجل، إنه يرتجف عند أقل نظرة منه، ولكن انتظر أقل ثورة، تَرَ أن هذا السلطان الفظيع البالغ البَغْي لا يستطيع أن يدوم، ولا غرو، فهو خالٍ من أي منبعٍ في قلب الشعب أي إنه يكون قد أعيا جميع عناصر الدولة وغاظها، فيتنفس الصعداء، بعد الانقلاب، جميع أعضاء هذا الكيان عن اضطرار، ويكبكب الصنم عند أول صدمة توجه إليه، ويحطم، ويداس، ولا غرو، فالاحتقار والحقد والخوف والغيظ والارتياب وجميع الآلام، كما هو مجمل القول، تجتمع ضد سلطان ممقوت بهذا المقدار، ولا غرو، فالملك، الذي لا يجد في دور إقباله الباطل من يجرؤ على قول الحق له، لن يجد في دور إدباره من يتفضل بالتماس عذرٍ له أو بالدفاع عنه حيال أعدائه.»

ويقنع إيدومنه بما قال منتور، ويسرع في توزيع الأرضين الخالية، ويحشر فيها جميع من لا نفع فيهم من أرباب الحرف، وينفذ كل أمر قُطع فيه، وإنما احتفظ للبنائين بالأرضين التي كان قد أعدها لهم فلا يستطيعون زرعها إلا بعد تمام أشغالهم في المدينة.

وتجتذب حكومة إيدومنه اللينة المعتدلة، من كل ناحية، جماعاتٍ كثيرةً لتندمج في حكومته ولتبحث عن سعادتها تحت سلطانٍ محبوب جدًّا، وتبشر تلك الحقول، التي ظلت مكسوة عوسجًا وشوكًا زمنًا طويلًا، بغلات وافرة وثمراتٍ كانت غير معروفة حتى ذلك الحين، وتفتح الأرض صدرها للمحراث القاطع، وتُعِد خيراتها لمكافأة الفلاح، ويسطع الأمل من كل جهة، وتشاهد في الأودية الصغيرة وعلى التلال قطاعٌ من الضأن التي تقفز فوق الكلأ كما تشاهد قطعان كبيرة من البقر والعجول التي يُدَوِّي بخوارها أعلى الجبال، وتنفع هذه المواشي في تسميد الحقول، ومنتور هو الذي وجد وسيلةً لحيازة هذه المواشي، وذلك أنه أشار على إيدومنه بأن يعطي قبائل البوسيت المجاورة جميع الزوائد التي عاد لا يُسمح بها في سلنتة ويأخذ في مقابلها القطاع التي يعوزها السلنتيون.

وكانت مدينة سلنتة والقرى المجاورة لها زاخرة، في الوقت نفسه، بشبابٍ أوهنهم البؤس زمنًا طويلًا فلم يجرءوا على الزواج خشية زيادة بلائهم، فلما أبصر هؤلاء الشبان أن إيدومنه انتحل لنفسه مشاعر إنسانيةً وأراد أن يكون أبًا لهم عادوا لا يخافون الجوع وغيره من الآفات التي تصيب السماءُ بها الأرض، وعاد لا يُسمع غير أصوات الفرح وأغاني الرعيان والفلاحين الذين يحتفلون بأعراسهم، فكان يخيل إلى الناظر أنه يرى الإله «بان»

يرقص مع الساتير والفون والحوريات على أنغام الناي تحت ظل الغاب، وكل كان هادئًا ضاحكًا، ولكن مع اعتدالٍ في الفرح وعدم صلاح اللهو لغير الراحة بعد العمل الطويل، وكل كان يظهر أكثر نشاطًا وأشد نقاءً.

ويدهش الشيوخ من مشاهدتهم ما لم يجرءوا على رجائه في أثناء عمرهم الطويل، ويبكون فرحًا شديدًا ممزوجًا بحنان، ويرفعون أيديهم إلى السماء ويقولون: «أي جوبيتر العظيم، بارك للملك الذي يشابهك والذي هو أعظم هبةٍ أنعمت بها علينا، هو قد وُلد لخيرنا، أعطه جميع الخيرات التي ننالها منه، سيكون ذرارينا، الذي تسفر عنهم هذه الزواجات المحببة إليه، مدينين له بكل شيء، حتى بولادتهم، وسيكون أبًا لجميع رعاياه لا ريب.»

وكان الفتيان، ومن تزوجوا من الفتيات، لا يظهرون سرورهم إلا بشدو المدائح عن ذاك الذي هو مصدر هذا السرور العذب، وكان اسمه يملأ الأفواه والقلوب بلا انقطاع، وكان الواحد يرى نفسه سعيدًا برؤيته، وكان يُخشى افتقاده، ما دام فقده منبع حزن شديد لدى كل أسرة.

هنالك اعترف إيدومنه لمنتور بأنه لم يشعر في حياته بلذةٍ مؤثرةٍ كلذة كونه محبوبًا ولذة جعله أناسًا كثيرين من السعداء، قال إيدومنه: «ما كنت أعتقد، كما يلوح لي، إلا أن عظمة الأمراء كلها تقوم على الإرهاب، وأن بقية الناس خلقوا من أجلهم، وأن ما سمعت من ظهور ملوك كانوا مدارَ حب الرعايا وسعادتهم هو من الأقاصيص الصِّرفة، فالآن أعترف بحقيقة ذلك، ولكن يجب أن أقص عليك كيف سمم فؤادي منذ نعومة أظفاري حول سلطة الملوك، وهذا ما أدى إلى جميع مصائب حياتي.»

وقد أخذ إيدومنه يسرُد هذه القصة.

الجزء الحادي عشر

قصَّ إيدومنه على منتور عِلَّة جميع مصائبه، ثقته العمياء ببروتيزيلاس، وحِيَل هذا المقرب كيما ينفر من الحكيم الفاضل فلكلس، كيف حذر من هذا تحذيرًا اعتقد معه ائتماره به، وإرسال تمقراط ليقتله في أثناء حملةٍ عُهِد إليه في قيادتها، أخطأته ضربة تمقراط، فقبض عليه، كشف تمقراط عن خيانة بروتيزيلاس، اعتزال فلكلس في جزيرة ساموس بعد أن سلم قيادة الأسطول إلى بوليمن وفق أوامر إيدومنه، اطلاع إيدومنه على حيل بروتيزيلاس، ولكن مع عدم القبض عليه ومع دوامه على الاستسلام إليه تاركًا المخلص المسكين، فلكلس، في عزلته، فتح منتور عيني إيدومنه حول هذا الجور، وحمله على سوق بروتيزيلاس وتمقراط إلى جزيرة ساموس، وعلى استدعاء فلكلس ليرد إليه سابق حظوته، تنفيذ إجزيب هذا الأمر مسرورًا، وصوله مع الخائنين إلى ساموس حيث وجد صديقه فلكلس راضيًا عن قضائه حياة فقر واعتزال، موافقته على العَود إلى ذويه بعد عناء كبير؛ أي بعد أن علم أن الآلهة يريدون هذا العود، إبحاره مع إجزيب ووصوله إلى سلنتة حيث أحسن إيدومنه قبوله واتفق معه على توطيد حكومته.

كان بروتيزيلاس أسن مني قليلًا، وكان أكثر من أحببت من الشبان، وكان ما اتصف به من نشاط وجرأة قد لاءم ميلي، وقد وافق لَهْوي وصانع أهوائي، وقد جعلني أرتاب بشاب آخر كنت أحبه، وكان يسمى فلكلس، وكان فلكلس هذا يخاف الآلهة، وكان عظيم النفس، ولكن مع الاعتدال، وكانت عظمته تقوم على قهر نفسه وعلى الترفع عن النقائص، وكان يخاطبني بكل صراحةٍ حول عيوبي، وكنت، عند عدم جرأته على عدم الحديث إلي، أجد في صمته وكآبة وجهه ما أدرك به ما يريد أن يلومني عليه.

وكان هذا الإخلاص يروقني في البداءة، وكنت أصرِّح له، في الغالب، بأنني أستمع له واثقًا ما دمت حيًّا، وذلك لأقي نفسي من المنافقين، وكان يحدثني في كل ما يجب علي أن

أصنع كيما أسير على غرار جدي مينوس، ولكي أجعل مملكتي سعيدة، أجل، لم يكن عنده مثل حكمتك البالغة يا منتور، بيد أنَّ مبادئه صالحة، وهذا ما أعترف به الآن، وتحملني حيل الحاسد الطافح طموحًا، بروتيزيلاس، على مقت فلكلس، ولم يبالِ هذا بالأمر، وترك الآخر ينتصر عليه، وقد قنع بأن يقول الحق لي دائمًا متى أردت أن أنصت له، وخيري، لا حَظُّ نفسه، هو الذي كان يسعى إليه.

ويقنعني بروتيزيلاس، من حيث لا أدري، بأن فلكلس ذو نفسٍ مكتئبة متكبرة تتناول بالنقد جميع أفعالي، ولا تسألني شيئًا؛ وذلك لأنه من الزهو بحيث لا يريد أن يطلب مني شيئًا ولأنه يصبو إلى صيت رجل يرقى فوق كل شرف، ومما أضاف إلي أن هذا الشاب، الذي يخاطبني عن عيوبي بكل صراحة، يحدث الآخرين عن هذه العيوب بمثل هذه الصراحة، وأنه لا يوقرني مطلقًا، وأنه يريد، بتشويه سمعتي وظهوره فاضلًا زاهدًا، أن يشق لنفسه سبيل الملك.

أجل، إنني لم أصدق، أول وهلة، أن فلكلس يريد خلعي، وذلك لما ينطوي عليه فضله الحقيقي من بساطة وسلامة طوية لا يوجد ما ينكِّره ولا ما يُرتاب منه، وذلك على أن يُنتَبَه إليه، بيد أن حزم بروتيزيلاس حيال ضعفي أخذ يعييني، وما كان من ملاطفات بروتيزيلاس ومكره الذي لا ينضب له معين في اختراع ملاذٍّ لي جعلني أشعر، جزوعًا، بصرامة الآخر حيالي.

وبما أن بروتيزيلاس لم يطق عدم تصديقي لكل ما يقول عن عدوه رأى أن يكف عن الحديث إليَّ عنه وأن يقنعني بما هو أقوى من كل كلام، وذلك أنه نصحني بأن أولِّيَ فلكلس قيادة السفن التي تغزو مراكب كرباتية، وقد قال لي: ليحملني على هذا، ما يأتي: «أنت تعلم أنني غير متهمٍ في ثنائي عليه، فأنا أعترف ببسالته ونبوغه في الحرب، وسيكون لك نافعًا أكثر من سواه، وأفضل مصلحَتَك على ما يساورني من ضغائن نحوه.»

وأفتن إذ أجد هذا الصدق والإنصاف في قلب بروتيزيلاس الذي عهدت إليه في إدارة أعظم شئوني، وأعانقه سرورًا، وأراني سعيدًا باعتمادي على رجلٍ ظهر لي أنه فوق كل مصلحة وكل هوًى، ولكن، آه! ما أحوج الأمراء إلى الرحمة! إن هذا الرجل يعرفني أكثر من معرفتي لنفسي، وذلك أنه يعلم أن الملوك حذرون متوانون عادةً، حذرون بما اتفق لهم من اختبارٍ مستمر عن مكر من يحيط بهم من الرجال الفاسدين، متوانون لسيرهم والشهوات ولتعودهم تفويض أناسٍ أن يفكروا باسمهم من غير أن يكلفوا أنفسهم عناء التفكير بأنفسهم، ويدرك، إذن، أنه لا يجد كبير مشقةٍ في إثارة غيرتي من رجلٍ لا يعوزه أن

يقوم بأعمالٍ جليلة، ومن شأن غياب هذا الرجل أن يسهل على بروتيزيلاس نصب حبائل حياله.

ويتوقع فلكلس، حين سفره، ما يمكن أن يقع له، فقد قال لي: «اذكر أنني عدت لا أستطيع الدفاع عن نفسي، وأنك لن تسمع لغير عدوي، وأنني، إذ أخدمك مخاطرًا بحياتي، لا أنال من الجوائز غير غضبك.»

وأقول له: «أنت مخطئ، إن بروتيزيلاس لا يتكلم عنك كما تتكلم عنه، فهو يثني عليك، وهو يُجلك، وهو يعتقد أنك أهل لأهم المناصب، وهو يفقد ثقتي به إذا ما حدثني ضدك، ولا تخف إذن، واذهب، ولا تفكر في غير خدمتي جيدًا.»

ويسافر، ويدعني في وضع غريب.

ولا مناص لي من الاعتراف لك، يا منتور، بأنني أبصرت بجلاءٍ مقدار ما تقضي به الضرورة من وجود رجالٍ كثيرٍ أستشيرهم، وأنه لا شيء أضر على سمعتي ونجاحي في أعمالي من أن أَكِلَ أمري إلى رجل واحد، ولا عجب، فقد شعرت بأن نصائح فلكلس صانتني من خطايا خطرة كاد عُجب بروتيزيلاس يوقعني فيها، وقد كنت أشعر بأنه يوجد في صميم فلكلس أساس من النزاهة والمبادئ العادلة ما لا يُرى في بروتيزيلاس، ولكن مع اقتباسي من بروتيزيلاس وضعًا قاطعًا لم أستطع مقاومته، وذلك أنني سئمت من وجودي بين رجلين لم أقدر أن أوفق بينهما، وأنني، وأنا في هذا الملال، أحببت أن أخاطر بأمور على حساب أمور، وأن أذوق طعم الحرية، وأنني لم أجرؤ على تحديث نفسي بسبب مخزٍ كهذا حين انحيازي لأحد النجدين، بيد أن هذا السبب المخزي الذي لم أجرؤ على بيانه لم ينفك يحوك في صدري سرًّا ويكون علة كل ما صنعت.

ويباغت فلكلس سفن الأعداء، وينال نصرًا مؤزَّرًا ويُسرع في الرجوع ليتدارك المكايد التي يخشاها، بيد أن بروتيزيلاس، الذي لم يكن عنده من الوقت ما يخدعني فيه، كتب إليه يخبره بأنني راغب في النزول إلى جزيرة كرباتية انتفاعًا بالنصر الذي تم، والواقع أنه أقنعني بأنه يسهل عليَّ فتح هذه الجزيرة، ولكن مع بيانه لي أنه يعوز فلكلس أشياء ضرورية كثيرة في قيامه بهذه الغارة، ولكن مع جعله خاضعًا لأوامر تضع عراقيل في سبيل هذه الحملة.

وفي تلك الأثناء يستعين بخادم عندي كثير الفساد كان يلاحظ أدق الأمور ليبلغه إياها، وإن كان الرجلان يظهران على غير اتفاق، واسم هذا الخادم تمقراط، ويأتيني هذا الخادم ذات يوم ليبوح إليَّ بسرٍّ اكتشفه حول أمر بالغ الخطر، قال تمقراط: «يريد فلكلس أن يستخدم أسطولك لينادي بنفسه ملكًا على جزيرة كرباتية، ولا غرو، فقد أولع رؤساء

الكتائب به، وقد كسب الجنود بما أسبغ عليهم من نعم، وبما أباح لهم من تحلل، وقد شمخ أنفه بما نال من نصر، وإليك كتابًا أرسله إلى صديق له حول توخيه المُلك، ولا يمكن الشك في الأمر بعد هذا الدليل الواضح جدًّا.»

وأقرأ هذا الكتاب، ويظهر لي أنه بخط فلكلس، وذلك أنه أتقن تقليد خطه، وبروتيزيلاس هو الذي وضعه مع تمقراط.

ويلقيني هذا الكتاب في حيرة غريبة، وأتلوه، وأكرر تلاوته بلا انقطاع، ولم يسطِع إقناعي أنه من صنع فلكلس ما تذكرت في نفسي المضطربة جميع البراهين المؤثرة التي ألقاها في رُوعي عن نزاهته وحسن نيته، وما يمكنني أن أصنع مع ذلك؟ وما الوسيلة لمقاومة كتاب اطمأننت إلى أنه من خط فلكلس؟

ولما أبصَرَ تمقراط أنني عدت عاجزًا عن مقاومة حيلته أفرط في مكره، وقال لي مترددًا: «أوَ يمكنني أن أوجه نظرك إلى كلمة وردت في هذا الكتاب؟ لقد قال فلكلس لصديقه: إنه يمكنه أن يخاطب بروتيزيلاس واثقًا حول أمر لا يشير إليه إلا بالأرقام، ولا مراء في أن بروتيزيلاس شريك فلكلس في مقاصده، وأنهما تصالحا على حسابك، وأنت تعلم أن بروتيزيلاس هو الذي أصر عليك لترسل فلكلس إلى قتال الكرباتيين، وأنه انقطع عن الكلام ضده، منذ زمن طويل، خلافًا لما كان يصنع غالبًا، وأنه يثني عليه، ويعذره عند كل مناسبة، وأنهما يظهران النزاهة منذ وقت ما، ولا ريب في أن بروتيزيلاس اتخذ هو وفلكلس من التدابير ما يقتسمان معه ثمرة فتح كرباتية، وأنت ترى أنه أحب حتى القيامَ بهذه الحملة خلافًا لكل قاعدة، وأنه يعرِّض أسطولك للخطر إرواءً لطمعه، وهل تعتقد أنه أراد خدمة مقاصد فلكلس لولا أنهما متواطئان؟ كلا، كلا، لا يمكن الشك في كون هذين الرجلين متفقين على الارتقاء معًا إلى سلطان عظيم، إلى قلب عرشك على ما يحتمل، وأعلم أنني، إذ أخاطبك هكذا، أعرِّض نفسي لنقمتهما إذا ما أبقيتَ سلطانك قبضتهما على الرغم من نصائحي، وما أهمية هذا ما بلغتك الحقيقة؟»

وقد كان لكلام تمقراط هذا أثر عظيم في نفسي، وعدت لا أشك في خيانة فلكلس، وصرت أحذر من بروتيزيلاس حذري من صديقه، ويقول تمقراط مواصلًا: «إذا كنت تنتظر فتح فلكلس لجزيرة كرباتية فات وقت إحباطك لأغراضه، فبادر إلى تدارك الأمر ما استطعت.»

وكنت شديد المقت لعمق نفاق الناس، ولم أدرِ على من أعتمد، وإني، بعد أن اطلعت على خيانة فلكلس، عدت لا أجد في العالم رجلًا أطمئن إلى فضيلته، وأول ما عزمت عليه هو إهلاك هذا الغادر من فوري، ولكنني كنت أخشى بروتيزيلاس، ولم أدرِ ما أصنع حياله،

وقد خفت أن أجده مذنبًا، وأن أستمر على ائتمانه، ثم إنني، وأنا بالغ الارتباك، لم أستطع أن أمنع نفسي من تبليغه أن فلكلس غدا موضع ارتيابي، ويبدي دهشه، ويذكر لي استقامته واعتداله، ويسهب في بيان خِدَمه، ويبذل جهده في إقناعي أنه على وئام معه كما هو حاصل القول، ولم يقصر تمقراط من ناحيته في جعلي ألاحظ هذا الاتفاق وحملي على إهلاك فلكلس قبل فوات الوقت، فانظر، يا منتور العزيز، مقدار ما عليه الملوك من شقاء وما هم عرضة له من عبث الرجال بهم على حين يرتجف هؤلاء الرجال عند أقدامهم.

وقد اعتقدت أنني أقوم بعمل سياسي بعيد الغور، أحبط به ما سعى إليه بروتيزيلاس، بإرسالي إلى الأسطول تمقراط سرًّا كيما يقتل فلكلس، ولم يألُ بروتيزيلاس جهدًا في إتقان نفاقه، وبلغ من الإفراط في خداعي ما بدا معه مثل رجل يخادع.

ويسافر تمقراط إذن، ويجد فلكلس مرتبكًا في أمر نزوله إلى الجزيرة لما يعوزه من كل شيء؛ وذلك لأن بروتيزيلاس كان لا يعرف هل يؤدي الكتاب المزور إلى هلاك عدوه أو لا، فالتمس وسيلةً أخرى توغر صدري على فلكلس عند عدم نجاح تلك الحملة التي جعلتني أعقد أعظم أمل عليها، ويمد فلكلس هذه الحرب بشجاعته وعبقريته وبما تكنُّ الكتائب له من حب، ومع أن الجميع كان يعد هذا النزول إلى تلك الجزيرة أمرًا هيِّرًا[1] مشئومًا على الأقريطشيين، فإن كل واحد كان يبذل جهده ليكلل بالنجاح عادًّا حياته وشرفه مرتبطينِ في هذا الفوز، وكان كل راضيًا ببذل حياته في كل ساعة تحت قيادة رئيس مثل فلكلس بالغ الحكمة دءوب في تحبيب نفسه.

وكان كل شيء يحمل تمقراط على الخوف من قتل هذا الرئيس الذي بلغ ولع الجيش به درجة العبادة، بيد أن الحرص الصائل أعمى، وذلك أن تمقراط استسهل كل شيء كيما يرضي بروتيزيلاس الذي عنَّ له أن يسيطر علي بعد هلاك فلكلس، وما كان بروتيزيلاس ليطيق وجود رجل خير تنطوي نظرته على تعزير خفي حيال جرائمه فيستطيع بها أن يبطل جميع مقاصده بتوجيه نظري إليها.

ويستأمن تمقراط رُبَّانين كانا يلازمان فلكلس بلا انقطاع، ويعدهم جوائز عظيمة باسمي، ثم قال لفلكلس: إنه جاء ليبلغه أمورًا سرية من قبلي وألا يكون هذا إلا أمام ذينك الربانين، ويخلو فلكلس إليهما وإلى تمقراط، وهناك يطعن فلكلس بخنجر، وتزلَق الطعنة، ولا تغترز فيه مطلقًا، ولا يذعر فلكلس، وينزع الخنجر من تمقراط ويستعمله ضده وضد

[1] الهير: القائم على التهور.

الآخرين، ويصرخ في الوقت نفسه، ويُهرع من سَمِع، ويكسر الباب، ويخلَّص فلكلس من أيدي هؤلاء الرجال الثلاثة الذين ارتبكوا فضعفت مهاجمتهم إياه، ويُقبض عليهم، وكاد الجمع يمزقهم إرْبًا إرْبًا عن غيظ بالغ لو لم يمنعه فلكلس من هذا، ثم خلا فلكلس إلى تمقراط وسأله برفق عن الذي حمله على اقتراف عمل قذر كهذا، ويبادر تمقراط الذي خشي القتل إلى إبراز الأمر الخطِّي الذي أعطيته إياه كيما يقتل فلكلس، وبما أن الخائنين خائفون دائمًا فإن تمقراط لم يفكر في غير إنقاذ حياته بكشفه النقاب لفلكلس عن خيانة بروتيزيلاس الجامعة.

وقد هال فلكلس ما أبصر من خبث الناس المتناهي، فرأى سلوك سبيل الاعتدال، فصرح لجميع الجيش ببراءة تمقراط، وجعله في أمان، وأعاده إلى أقريطش، وسلم الجيش إلى بوليمن، الذي وليته أمر القيادة في أمري الخطِّي، عند قتل فلكلس، ثم حث الكتائب على بقاء ولائها نحوي، وركب زورقًا خفيفًا ليلًا وانطلق به وحده إلى جزيرة ساموس حيث قضى حياة فقر وعزلة هادئًا عاكفًا على صنع تماثيل كسبًا لعيشه، راغبًا عن سماع حديث عن كل رجل خادع باغٍ، ولا سيما الملوك الذين يعتقد أنهم أشقى الناس وأكثرهم عمًى.

فلما وصل إيدومنه إلى هذا المكان من حديثه وقفه منتور وقال له: «حسنًا! هل مكثت طويلًا حتى اطلعت على الحقيقة؟»

إيدومنه: «كلا، فقد اطلعت بالتدريج على دسائس بروتيزيلاس وتمقراط اللذين تفاسدا؛ وذلك لأن مما يشق على الأشرار أن يبقوا متحدين، وقد ظهر لي بشقاقهم عمق الهوة التي ألقياني فيها.»

منتور: «حسنًا! وهل سلكت سبيل الخلاص منهما؟»

إيدومنه: «آه! أتجهل، يا منتور العزيز، ما عليه الأمراء من ضعفٍ وتردد؟ إنهم إذا ما فوضوا أمورهم، ذات مرة، إلى أناس فاسدين وقحين ماهرين في فرض أنفسهم عادوا لا يرجون أية حرية كانت، وصار أكثر من يزدرون أحسن من يعاملون ويغمرون بأجزل النعم، أجل، كنت أكره بروتيزيلاس، ولكنني كنت أدع له كل سلطان، ويا للوهم الغريب! أجل، كنت أعرف بروتيزيلاس، ولكن لم يكن لدي من القوة ما أسترد معه سلطتي التي تركتها له مختارًا، وكنت أجده، من جهةٍ أخرى، دمثًا ملاطفًا أربًا في مداراة أهوائي نشيطًا في أمر مآربي، وكان لدي ما أعتذر به عن ضعفي، وذلك أنني كنت غير عارف بالفضيلة الحقيقية معتقدًا أنه لا وجود لها في الدنيا وأن النزاهة خيال ما دمت جاهلًا اصطفاء الأخيار، وقد كنت أقول: «وما فائدة إحداث ضجةٍ كبيرة في التخلي عن رجل فاسد والتمسك

بآخر ليس أكثر منه نزاهةً أو إخلاصًا؟» ويعود الأسطول الذي يقوده بوليمن في تلك الأثناء، وأعدل عن فتح جزيرة كرباتية، ولا يكتم بروتيزيلاس غمه البالغ من وجود فلكلس في مأمنٍ بجزيرة ساموس.»

وهنا يقطع منتور كلام إيدومنه بسؤاله عن استمراره، بعد هذه الخيانة الفظيعة، على تفويض جميع أموره إلى بروتيزيلاس، واسمع جواب إيدومنه: «كنت من شدة المقت لشئون الدولة والتواني في أمورها بحيث لا أستطيع الخلاص منه، وكان الوصول إلى هذا يقضي بقلب النظام الذي أقمت في سبيل رفاهيتي وتدريب رجل حديث، وهذا ما كنت غير قادر عليه، وكنت أفضل إغضاء العين عن حيل بروتيزيلاس، وكنت أجد عزائي في قولي لمن أعتمد إنني لا أجهل سوء نيته، وهكذا كان يخيل إليَّ أنني نصف غافل ما عرفت أنني أخادع، وكنت أُشعر بروتيزيلاس في الحين بعد الحين، بأنني أحتمل نيره فارغ الصبر، وكان يطيب لي في الغالب أن أخالفه، وأن أجهر بإنكاري عليه أمورًا قام بها، وأن أقضي بما يناقض إحساسه، ولكن بما أنه كان يعرف صلفي وكسلي فإنه لم يعبأ بكروبي عائدًا إلى عمله بعناد، وكان يتخذ أوضاعًا حازمة تارةً، وكان ينتحل المرونة والإغراء تارةً أخرى، وكان أخص ما يصنع عندما يراني مكتئبًا منه أن يضاعف جهوده لتزويدي بلهو جديد يُلينُني أو يوقعني في بعض المشكلات حتى أرجع إليه ويُظهر غيرته من أجل سمعتي.»

وكان يستهويني بأسلوبه في مداراة أهوائي مهما احترزت منه، أي إنه كان يكشف الغم عني في أثناء ارتباكي، وكان يجعل جميع الناس يرتجفون بسلطاني، أجل، إنني لم أستطع إزالته، ولكنني كنت، باحتفاظي به حيث هو، أُبعِدُ رجال الخير من إطلاعي على مصالحي الحقيقية، وعاد لا يُسمع في مجالسي، منذ هذا الحين، أي قولٍ حر كان، وتبتعد الحقيقة عني، ويعاقبني الخطأ، الذي يعد سقوط الملوك، على تضحيتي بفلكلس في سبيل مطامع بروتيزيلاس الجائرة، أي إن الذين بلغوا غاية الغيرة من أجلي وأجل الدولة رأوا أنهم غدوا في حِل من إزالة ضلالي بعد هذا المثال الهائل، وكنت، يا منتور العزيز، أخاف أن تخرق الحقيقة كل حجاب فتصل إليَّ على الرغم من المنافقين؛ وذلك لأن نورها يزعجني بعد أن عدت عاجزًا عن اتباعها، ومما كنت أشعر به في نفسي هو شدة ما أورثنيه ذلك من تأنيب ضمير بالغ مع عجزي عن الخلاص من عهدي المشئوم، وما كان من ارتخائي، وما نال بروتيزيلاس من سلطانٍ عليَّ بالتدريج، جعلني أقنط من رجوع حريتي إلي، وما كنت راغبًا أن أرى حالًا مخزيًا كهذا ولا أن أُطلع عليه الآخرين، وأنت تعرف، يا منتور العزيز، ما ينشأ عليه الملوك من زهو باطل ومجد زائف، وأن الملوك لا يريدون أن يُخطَّأوا،

وأنه يرتكب مئة خطأ لستر خطأ واحد يقترفونه، وأنهم يفضِّلون أن يُخدعوا مدى الحياة على الإقرار بأنهم خُدعوا، وهذه هي حال ضِعاف الأمراء، وهذه هي حال الأمراء الجاهلين، وهذه هي الحال التي كنت عليها تمامًا عندما قُضي بأن أسافر لحصار تروادة.

وأسافر، وأدع بروتيزيلاس مُسَيِّرًا للأمور، ويقوم بإدارة هذه الأمور في غيابي قيام متكبر جبار، وتئِنُّ مملكة أقريطش بأسرها تحت طغيانه، ولكن مع عدم إقدام أحد على إخباري بظلم الرعية، لما هو شائع من خوفي مواجهة الحقيقة ومن تركي لجور بروتيزيلاس كل من يحاول الكلام ضده، ولكن كلما قل إقدام الناس على الانفجار زاد الشر، ثم حملني بروتيزيلاس على طرد الشجاع مريون الذي اتبعني في حصار تروادة مكللًا بالمجد؛ وذلك لأنه غدا حاسدًا له كحسده لكل من أحب وكل من يُظهر بعض الفضيلة.

واعلم، يا منتور العزيز، أن ذلك مصدر جميع مصائبي، ولم يكن ما نلت من عصيان الأقريطشيين بسبب قتل ابني ليعدل ما أصابني من انتقام الآلهة الساخطين على ضعفي، ومن حقد الرعية، بسبب بروتيزيلاس، ولما سفكت دم ابني فرغ صبر الأقريطشيين الذين أعياهم هذا الحكم القاسي، ولم يؤدِّ اقتراف هذا العمل إلى غير إظهار ما كان يساور النفوس منذ زمن طويل.

وقد اتبعني تمقراط في حصار تروادة، وكان في كتبه إلى بروتيزيلاس يخبره سرًّا بكل ما كان يطلع عليه، وكنت أشعر بأنني أسير، ولكن مع محاولتي ألا أفكر في هذا قانطًا من تلافيه، ولما ثار أهل أقريطش عند وصولي كان بروتيزيلاس وتمقراط أول من فر، وكانا يتخليان عني، لا ريب، لو لم أُكرَه على الفرار بُعَيْدَهما تقريبًا، واعلم، يا منتور العزيز، أن من يكونون عتاةً في السراء يكونون ضعافًا رعاديد في الضراء دائمًا، ولا تلبث رءوسهم أن تصاب بدوارٍ عندما يزول سلطانهم المطلق، ولا يلبثون أن يُرَوا صاغرين على قدر ما كانوا متجبرين، وهم ينتقلون من أقصى حد إلى أقصى حد في أقرب من لمح البصر.

منتور: «ولكن ما السبب في إبقاء هذين الخبيثين بجانبك وأنت عارف بهما معرفةً أساسية كما أرى؟ لست أدهش من اتباعهما إياك ما داما لا يجدان خيرًا من هذا، وأُدرك أنك أتيت عملًا كريمًا بإيوائهما إلى مملكتك الجديدة، وإنما أسأل: لِمَ تُصِرُّ على تفويض أمورك إليهما بعد كثيرٍ من المحن؟»

إيدومنه: «أنت لا تعرف مقدار عدم فائدة المحن لدى الأمراء المترفين المتوانين الذين يعيشون بلا تأمل ولا تفكير، والذين يكونون مستائين من كل شيء عاطلين من أية جرأة على تقويم شيء، وقد كانت أعوام العادة سلاسل من حديدٍ قيدني بها هذان الرجلان، وقد

تسلَّطا عليَّ في كل حين، وهما ما انفكا، منذ وجودي هنا، يلقياني فيما تعلم من نفقات متناهية، فاستنفدا هذه الدولة الناشئة، وقد جلبا إليَّ هذه الحرب التي كانت تثقل كاهلي لولا وجودك، وقد كدت أُبتلى في سلنتة بمثل المصائب التي ابتُليت بها في أقريطش، بيد أنك فتحت عينيَّ أخيرًا وأوحيت إليَّ بالشجاعة التي كانت تعوزني منقذًا إياي من الاستعباد، ولا أدري ماذا صنعت فيَّ، وإنما أشعر بأنني صرت رجلًا آخر.»

ويسأل منتور إيدومنه عن سلوك بروتيزيلاس بعد هذا الانقلاب، فيجيبه بما يأتي: لا شيء أشد مكرًا واحتيالًا مما صنع بعد وصولك، فهو لم يغفل عن شيء في إلقاء الحذر في نفسي على وجه غير مباشر، أي إنه لم يقل شيئًا عنك، وإنما أتاني أناس كثير ليبلغاني وجوب الارتياب كثيرًا من هذين الغريبين، ومما قيل: «إن أحدهما هو ابن الماكر أوليس، وإن الآخر رجل غامض عميق النفس، وقد تعودا الطواف بين مملكة ومملكة، وما يدريك أنهما بيَّتا أمرًا لهذه المملكة؟ يروي هذان المغامران نفسُهما أنهما أوجبا اضطراباتٍ كبيرةً في جميع البلدان التي مرَّا عليها، وها هي ذي مملكة ناشئة غير ثابتةٍ يمكن أن تقضي عليها أقل حركة»، أجل، إن بروتيزيلاس لا يقول شيئًا، ولكنه يحاول أن يجعلني ألمح خطر جميع هذه الإصلاحات التي تحملني على القيام بها، وما تنطوي عليه من شطط، وهو يتناولني من ناحية مصلحتي، ويقول لي: «إذا ما جعلت الأهلين موسرين عادوا لا يعملون وغدوا بطرين جامحين مستعدين للعصيان، ولا يوجد غير الضعف والبؤس ما يصيِّرهم مرنين ويحول دون مقاومتهم للسلطة»، ومما يسعى إليه غالبًا أن يسترد سابق سلطانه كيما يقودني، وهو يتعلل في هذا بذريعة الغيرة على خدمتي، وهو يقول لي: «إنك تخفض سلطة الملك من حيث تريد التخفيف عن الأهلين، وأنت بهذا تقترف حيال الشعب خطأ لا يمكن إصلاحه؛ وذلك لأن الشعب يحتاج إلى خفضه من أجل راحته خاصةً.»

وأُجيب عن جميع هذا بأنني أعرف جيدًا أن أحمل الأهلين على الواجب بتحبيب نفسي إليهم، وبعدم إرخاء سلطتي مع التخفيف عنهم، وبتشديد العقوبة على كل مذنب، وبمنح الأولاد تربيةً حسنة، وبإعطاء جميع الشعب نظامًا يقضي به حياةً بسيطة قائمة على القناعة والجد، ومن قولي: «ماذا! ألا يمكن جعل الشعب خاضعًا من غير إماتته جوعًا؟ يا لها من قسوة! يا لها من سياسة فظيعة! وما أكثر ما نرى من شعوب عوملت برفق وظلت مخلصةً لأمرائها! إن الذي يثير الفتن هو طمع أكابر الدولة وهلعهم إذا ما أُغضِيَ عن تحللهم وأُغْمِضَ عن امتداد أهوائهم إلى ما لا حد له، إن الذي يثير الفتن هو جمع الأكابر والأصاغر الذين يقضون حياة تخنث وترف وكسل، هو فيض اليسر لدى رجال الحرب

وإهمال هؤلاء الرجال لجميع الأعمال النافعة التي يجب أن يتخذوها أيام السلم، هو يأس الرعايا الذين تساء معاملتهم، هو جور الملوك وكبرياؤهم وترفهم الذي يجعلهم عاجزين عن السهر على جميع أعضاء الدولة فلا يحولون دون وقوع الاضطرابات، ذلك ما يوجب الفتن، لا الخبز الذي يؤذَن للفلَّاح أن يأكله مطمئنًا بعد أن يكسبه بعرق جبينه.»

ولما رآني بروتيزيلاس ثابتًا كل الثبات على هذه المبادئ اتخذ وضعًا مناقضًا كل المناقضة لسابق سلوكه، فأخذ يتبع هذه المبادئ التي لم يستطع تقويضها، وأخذ يتظاهر بأنه يتذوقها، وبأنه قنع بها، وبأنه مدين لي بإنارة بصيرته حولها، وصار مجدًّا في صنع ما أرجو من التخفيف عن الفقراء، وظهر أول من يعرض علي احتياجاتهم، ومَن يرفع عقيرته حيال الإفراط في النفقات، واعلم، أيضًا، أنه يثني عليك، ويبدي ثقته بك، ولا يغفل عن شيء يرضيك، وأما تمقراط فقد طفق يكون على خلاف مع بروتيزيلاس، وقد رأى أن يظهر مستقلًّا، فبدا بروتيزيلاس له حاسدًا، فأجدني مدينًا لاختلافهما بعض الشيء باكتشافي خداعهما.

منتور (متبسمًا): «ماذا إذن! هل كنت من الضعف بحيث بغى عليك، في سنين كثيرة، خائنان تعرف خيانتهما؟»

إيدومنه: «آه! أنت لا تعرف ما يستطيع أن يصنع رجلان ماكران في ملك ضعيف متوان سلم إليهما جميع أموره، ثم إنني بلغتك أن بروتيزيلاس يشاطرك الآن جميع وجهات نظرك في مسألة النفع العام.»

هنالك تناول إيدومنه الكلام برصانة كما يأتي: «لا أرى غير الكثير من تغلب الأشرار على الأبرار عند الملوك، ويا لك من مثال هائل على ذلك! أنت تقول: إنني فتحت عينيك حول بروتيزيلاس، مع أنهما لا تزالان مغمضتين عن ترك شئون حكومتك قبضة رجل لا يستحق الحياة، فاعلم أن الأشرار غير عاجزين عن صنع الخير مطلقًا، وإنما يصنعونه غير مفرقين بينه وبين الشر إذا ما كان خادمًا لمطامعهم، أجل، لا يكلفهم صنع الشر شيئًا ما خَلَوْا من زاجر قائم على مشاعر الطيبة ومبادئ الفضيلة، بيد أنهم يصنعون الخير بلا عناء؛ وذلك لأن فسادهم يحملهم على صنع الخير كيما يظهرون صالحين ويخادعون بقية الناس، وإذا ما نُظر إلى الأمر على وجهه الصحيح وجدوا قاصرين عن الفضيلة، وإن ظهروا مزاولين لها، وإنما يبدون قادرين على إضافة الرئاء، الذي هو أفظع العيوب، إلى معايبهم الأخرى، وكلما أردت صنع الخير وجدت بروتيزيلاس مستعدًّا لصنعه معك كيما يحافظ

على سلطته، ولكنه إذا ما أحس فيك ميلًا إلى الارتخاء لم يغفل عن إلقائك في سابق ضلالك وعن رجوعه إلى مكره الفطري الضاري، وهل تستطيع أن تقضي حياة شرف وراحة ما ظل هذا الرجل ألصق بك من ظلك وأنت الخبير بالعاقل الصادق المسكين، فلكلس، الذي يقيم إقامة ذل بجزيرة ساموس؟

وأنت تعرف جيدًا، يا إيدومنه، أن الرجال الأجرئاء الماكرين الحاضرين يجتذبون ضعاف الأمراء، ولكنه يجب عليك أن تضيف إلى هذا وجود بلاءٍ لدى الأمراء ليس أقل من ذاك، وهو سهولة نسيانهم فضيلة رجل، بعيد من العين، وخِدَمَه، ومن شأن كثرة من يحيطون بالأمراء ألا يؤثَّر فيهم تأثير بالغ، وهم لا يتأثرون إلا بمن يكون حاضرًا مرائيًا لهم، وأما البقية فلا تلبث أن تُنسى، والفضيلة هي أقل ما يعمل في نفوسهم على الخصوص؛ وذلك لأنها تعارضهم، وتدينهم عند ضعفهم، وهل تعجب إذا لم يحبوا مطلقًا ما داموا غير أهل لأن يُحبُّوا، وما داموا لا يحبون غير عظمتهم ولهوهم؟»

ولما فرغ منتور من هذا الكلام أقنع إيدومنه بضرورة طرد بروتيزيلاس وتمقراط حالًا، استدعاءً لفلكلس، والصعوبة الوحيدة التي عاقت الملك هي خوفه شدة فلكلس، قال الملك: «أعترف بأنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أخاف عودته بعض الخوف وإن كنت أحبه وأقدِّره، وذلك أنني مرنت منذ نعومة أظفاري على المدائح والمبادرات والملاطفات التي لا أطمع أن أجد مثلها عند هذا الرجل، فإذا ما صدر عني شيء لا يستصوبه دلني اكتئابه على أنه يدينني، وإذا ما خلا إليَّ دلت أوضاعه على الإجلال والاعتدال، ولكن مع الجفاف.»

واسمع جواب منتور: «ألا ترى أن الأمراء الذين أفسدهم الرئاء يجدون كل حر صادق جافًّا عبوسًا؟ يخيل إلى الأمراء أن الرجل لا يكون غيورًا في خدمتهم ولا مُحبًّا لسلطانهم إذا كان خاليًا من روح الدناءة غير مستعد لتملقهم في أشد ما يكون ظلمًا عند مزاولتهم سلطانهم، ويظهر كل كلام صادق كريم لهم مشتملًا على زهو وتعزير وتمرد، ويبلغون من دقة الإحساس ما يعدون معه كل ما لا ينطوي على نفاق جارحًا لهم مثيرًا لغضبهم، ولكن لنذهب إلى ما هو أبعد من هذا، ولأفترض أن فلكلس جاف عبوس فعلًا، أفلا يكون عبوسه أفضل من نفاق مستشارَيْك المضر؟ وهل تجد رجلًا مبرَّأً من كل عيب؟ ألا ترى أن عيب من يقول لك الصدق بجرأة فائقة هو أقل ما يجب أن تخشى؟ ألا يكون هذا عيبًا لا بُدَّ منه لإصلاح عيوبك ولقهر كل نفور من الفضيلة ألقاك فيه النفاق؟ أنت محتاج إلى رجل لا يحب غيرك وغير الفضيلة، أنت محتاج إلى رجل يحبك أكثر من أن تعرف حبك لنفسك، أنت محتاج إلى رجل يقول لك الحق على الرغم منك، أنت محتاج إلى رجل يقتحم جميع

متاريسك، أنت محتاج إلى فلكلس، ألا فاعلم أن الأمير يكون بالغ السعادة إذا ما ظهر في عهده رجل حائز لمثل هذا النبل، إذا ما ظهر هذا الرجل الذي هو أثمن كنز في الدولة، ألا فاعلم أن أشد ما يجب على الملك أن يخاف من عقاب الآلهة هو أن يفقد مثل هذا الرجل لجهله الانتفاع به، وعدم استحقاقه إياه لهذا السبب.»

وأما معايب الأخيار فيجب أن تُعرف، وإنما يجب ألا يُعدَل عن الانتفاع بهم، وقوِّم اعوجاجهم، ولا تَسِرْ ومناحيَ غيرتهم غيرِ الرصينة سيرًا أعمى، وإنما استمع إليهم مع حسن الالتفات، وأكرم فضلهم وأثبت للجمهور أنك قادر على تمييزه، وأخص ما يجب أن تحترز منه هو ألا تصر على ما أنت عليه كما صنعت حتى الآن، أجل، يكتفي الأمراء المدللون، كما كنت، بازدراء أرباب الفساد مع الاعتماد على خدمهم وغمرهم بالإحسان، ويباهون بمعرفة ذوي الفضل من الرجال، ولكن هؤلاء الأمراء لا ينعمون على هؤلاء بغير الثناء الفارغ غير مبيحين لأنفسهم استخدامهم ولا معاشرتهم ولا منحهم عطايا.

هنالك قال إيدومنه: إنه خجِلٌ من تأخيره كثيرًا إنقاذ ذاك البريء المضطهد، ومن مجازاة ذينك اللذين خدعاه، ولم يجد منتور كبير عناءٍ في حمل الملك على إقصاء ذاك المقرَّب إليه، ولا عجب، فالأمراء، إذا ما انتهوا إلى عد المقربين موضع شبهة وإزعاج لهم بعد عياءٍ وتردد، عادوا لا يرون غير الخلاص منهم، وتزول الصداقة، وتُنسى الخِدَم، ولا يُكلفهم سقوط المقربين إليهم شيئًا، وذلك على ألا يروهم مطلقًا.

ولسرعان ما أمر الملك هجزيب، الذي كان من أهم رجال البلاط، بأن يقبض على بروتيزيلاس وتمقراط، وأن يسوقهما، آمنين، إلى جزيرة ساموس، وأن يتركهما فيها، وأن يأتي بفلكلس من هذا المنفى، ويُدهش هجزيب من هذا الأمر، ولا يستطيع أن يمنع نفسه من البكاء فرحًا.

قال هجزيب للملك: «الآن تفتن قلوب رعيتك، فقد أوجب هذان الرجلان جميع مصائبك ومصائب رعيتك، وقد جعلا أهل الصلاح يئنون، مدة عشرين سنة، من غير أن يجرؤ أحد على الشكاية منهما لشدة طغيانهما، وقد كانا يجوران كل الجور على كل من يحاول الوصول إليك من طريق غير طريقهما.»

ثم أطلع هجزيب الملك على عدد كبير من أعمال الغدر والجور التي اقترفها هذان الرجلان من غير أن يسمع الملك خبرًا عنها لعدم جرأة أحد على اتهامهما، ومما قص عليه أنه اكتشف مؤامرة سرية تهدف إلى قتل منتور، فقَفَّ[٢] شعر الملك من هول ما أبصر.

[٢] قف الشعر: قام لشدة الفزع.

ويُسرع هجزيب إلى منزل بروتيزيلاس ليقبض عليه فيه، وقد كان أصغر من منزل الملك، ولكنه كان أبهج منه وأكثر منه إراحةً، وكان فن بنائه غايةً في حسن الذوق، وكان بروتيزيلاس قد زخرفه بنفقات امتُصت من دم البائسين، وكان وقتئذٍ في ردهةٍ من رُخام قريبةٍ من حماماته مضطجعًا متوانيًا على سرير أُرجواني ذي وشيٍ ذهبي، ويظهر تعِبًا مُضْنًى بأعماله، وكان يُستَشَفُّ من عينيه وحاجبيه كل اختلاجٍ ودجون وقسوة، وكان أكابر الدولة ملتفين حوله جالسين على سرر ثمينة مواجهين له ملاحظين أدق لمحاته، وكان الجميع، إذا ما كاد بروتيزيلاس يفتح فاه، يهتف إعجابًا بما يقول، وكان أحد الرؤساء يقص على بروتيزيلاس، مع المبالغة المثيرة للضحك، ما صنع بروتيزيلاس نفسه للملك، وكان يقول له رئيس آخر، مع التوكيد، إن جوبيتر أغوى أمه فوهب له الحياة، فكان ابنًا لأبي الآلهة هذا، وكان أحد الشعراء يُنشد أشعارًا مؤكدًا فيها أن بروتيزيلاس تخرَّج على عرائس الشعر المعروفات بالموز فساوى أبولون في جميع أعمال الأدب، ووجد هناك شاعر آخر أكثر نذالةً وأشد رعونةً فلقبه في شعره بمخترع الفنون الجميلة وبأبي الرعايا الذين جعلهم سعداء، ووصفه بالقابض على قرن الرخاء.

وكان بروتيزيلاس يستمع إلى جميع هذه المدائح جافيًا ساهيًا مزدريًا كما لو كان يعلم جيدًا أنه يستحق ما هو أعظم منها، وأن من فضله أن يتفضل بسماع ذلك، ووجد منافق آخر أباح لنفسه أن يهمس إليه بما يثير السخرية حول ما يحاول منتور توطيده من إدارة، ويتبسم بروتيزيلاس، ويأخذ جميع الحاضرين في الضحك من غير أن يعرف معظمهم ما قيل، غير أن بروتيزيلاس لم يلبث أن اتخذ وضع العابس المتكبر فاستولى على الجميع خوف وصمت، وكان كثير من الأشراف بين هؤلاء ينتظرون الدقيقة التي يلتفت بروتيزيلاس فيها إليهم، وكانوا يبدون مضطربين مرتبكين طالبين لطفه، وكان وضعهم الضارع ينطق بما يودون أن يقولوا، وكانوا يظهرون خاضعين كالأم حين تسأل الآلهة، عند أسفل المحاريب، أن يشفوا ابنها الوحيد، وكان كل واحد يلوح راضيًا رقيقًا مملوءًا إعجابًا ببروتيزيلاس، وإن كان الجميع يغلي حقدًا عليه في صميم الفؤاد.

وبينما كان الأمر هكذا دخل هجزيب وقبض على سيف بروتيزيلاس وأنبأه باسم الملك أنه سيأخذه إلى جزيرة ساموس، فلما قال هذا سقط جبروت هذا المقرب كصخرةٍ انفصلت عن ذروة جبل وعر، وها هو ذا يرتمي مرتجفًا مضطربًا على قدمي هجزيب، ويبكي، ويترنح، ويتلجلج، ويترجرج، ويقبِّل ركبتي هذا الرجل الذي ما كان ليتفضل عليه بنظرة قبل ساعة، ولما رآه جميع أولئك، الذين كانوا يتملقونه، قد سقط بلا حيلة حولوا نفاقهم إلى شتائم بلا هوادة.

ولم يرد هجزيب أن يترك له من الوقت ما يودع فيه أسرته، ويأخذ هجزيب بعض الأوراق السرية، ويُحجز كل شيء ويُحمل إلى الملك، ويُقبض على تمقراط في الوقت نفسه، ويُدهش تمقراط إلى الغاية، وذلك لاعتقاده أن تفاسدهما يحول دون سقوطه، ويسافرون في مركب كان قد أعد، ويبلغون ساموس، ويترك هجزيب هذين الشقيين فيها، ويدعهما معًا إمعانًا في شقائهما، ويتلاومان في ساموس متصاولينِ حول الجرائم التي اقترفاها فكانت سبب سقوطهما، ويقنطان من الرجوع إلى سلنتة محكومًا عليهما بالعيش بعيدين من أسرهما وأولادهما، ولا أقول بعيدين من أصدقائهما لعدم وجود صديق لهما مطلقًا، وهكذا سِيقا إلى أرض غريبة عاطلينِ من أية وسيلة للعيش غير عملهما بعد أن تمتعا في أعوام بضروب الأبهة والنعيم، وهكذا غدا كل واحد منهما مستعدًّا لتمزيق الآخر كالضواري.

وفي تلك الأثناء يسأل هجزيب عن مكان إقامة فلكلس في الجزيرة، ويقال له: إنه يسكن مكانًا بعيدًا بعض البعد من المدينة، أي يسكن كهفًا واقعًا على جبل، وكلٌّ يكلم هجزيب عن هذا الغريب مع الإعجاب، وقد قيل له: «لم يسئ هذا الغريب إلى أحد منذ استقراره بهذه الجزيرة، وكل ينظر بعين العطف إلى صبره وعمله وهدوئه، وهو يظهر قانعًا بعُدْمه دائمًا، وهو، مع بعده من كل تجارة وعَطَله من المال والسلطان، ما زال يتفضل على من يستحق، ولديه ألف وسيلة يبهج بها جميع جيرانه.»

ويتقدم هجزيب نحو هذا الكهف، ويجده مفتوحًا خاليًا؛ وذلك لأن فقر فلكلس وبساطة طبعه كانا يوحيان إليه، عند خروجه منه، بعدم وجود ضرورة إلى إغلاق بابه، وكان يتخذ حصيرًا غليظًا من الأسَل[٣] فِراشًا له، وكان من النادر أن يوقد نارًا ما زهد في الطعام المطبوخ، وكان، في الصيف، يأكل فواكه طازجةً، وكان، في الشتاء، يأكل تمرًا وتينًا مجففًا، وكان يرتوي من ماء صافٍ ينزل من صخرة إلى حوض، وكان كهفه لا يشتمل على غير أدوات النحاتة وبعض كتب يطالعها في بعض الساعات، لا لتزيين ذهنه، ولا لإرواء فضوله، بل ليتثقف في أوقات فراغه من العمل وليتعلم أن يكون صالحًا، وهو لم يزاول النحاتة إلا لترويض بدنه وللخلاص من البطالة وليكسب عيشه من غير أن يحتاج إلى أحد.

ويدخل هجزيب الغار، ويُعجب بالآثار التي كان قد بدئ بصنعها، ويلاحظ تمثالًا لجوبيتر يسهل على الناظر أن يستدل بوجهه المشرق الطافح جلالًا على أنه أبو الآلهة والناس، وكان تمثال مارس يبدو، من جهة أخرى، عاتيًا متوعدًا، وكان تمثال حامية

[٣] الأسل: نبات دقيق الأغصان طويلها.

الفنون، منرفا، أكثر ما يظهر تأثيرًا، فقد كان وجهها ينمُّ على النبل واللطف، وكان قَدُّها طويلًا فارعًا، وكانت من الوقع في النفس بحيث يُظن أنها تسير.

ويخرج هجزيب من الغار بعد أن قضى العجب من هذه التماثيل، ويبصر من بعيد فلكلس وهو يقرأ على الكلأ تحت شجرة عظيمة، ويتقدم نحوه، ويقول فلكلس في نفسه، وهو لا يكاد يصدق ما يرى: «أذاك هجزيب الذي عشت معه زمنًا طويلًا في أقريطش؟ ولكن ما وجه مجيئه إلى هذه الجزيرة البعيدة جدًّا؟ أليس طيفه هو القادم بعد موته من ضفاف ستكس؟»

وبينا كان هذا الارتياب يساوره بلغ هجزيب من القرب إليه ما لا يمكن معه ألا يعرفه وألا يعانقه.

فلكلس: «أية عارضة، أية عاصفة، ألقتك في هذا الشاطئ يا صديقي العزيز القديم؟ لمَ غادرت جزيرة أقريطش؟ وهل نزعت من وطننا بقارعة حلت بك كما حل بي؟»

هجزيب: «لطف الآلهة، لا فَقْدُ الحظْوَة، هو الذي جاء بي إلى هنا.»

ولم يلبث هجزيب أن قص على فلكلس ما كان من بغي بروتيزيلاس ودسائس تمقراط، ومصائب إيدومنه التي ألقياه فيها، وسقوط هذا الأمير، وفراره إلى شواطئ إيطالية، وإنشاء مدينة سلنتة، وقدوم منتور وتلماك، والمبادئ الحكيمة التي ملأ منتور بها ذهن الملك، ونكبة ذينك الخائنين، وزاد هجزيب على ذلك خبر جلبهما معه إلى جزيرة ساموس حيث يقاسيان ألم النفي كما أديا إلى معاناة فلكلس له، وختم كلامه بتبليغه أمر المجيء به إلى سلنتة حيث اطَّلع الملك على براءته وأراد أن يفوض إليه أمور البلد ويغمره بالإحسان، وإليك جواب فلكلس: «ألا ترى هذه المغارة التي هي أصلح مكان لتواري الضواري من صلاحها لإيواء الآدميين؟ ذقت فيها، منذ سنين كثيرة، دعةً وراحةً أكثر مما في قصور جزيرة أقريطش الذهبية، عاد الناس لا يغرُّونني لما عدت لا أرى الناس، عدت لا أسمع كلامهم المسموم القائم على النفاق، عدت لا أحتاج إليهم، يسهل على يدي، الجاسئتينِ من العمل، أن تُنعما عليَّ بقوت بسيط أقوِّم به أوَدي، لا أحتاج إلا إلى نسيج خفيف أستر به عورتي، وما أرَبِي إلى الناس الحاسدين الخادعين المتقلبين بعد أن عدت غير ذي حاجات، بعد أن صرت أتمتع بسكون عميق واستقلال عريق انتهيت إليهما بفضل حكمة كتبي؟ كلا، كلا، يا هجزيب العزيز، لا تحرمني سعادتي مطلقًا، لقد خان بروتيزيلاس نفسه حين أراد خيانة الملك وأراد هلاكي، إنه لم يضرني قط، إنه حباني بأطيب النعم، إنه أنقذني من ضوضاء شئون

الدولة واستعبادها، أجدني مدينًا له بعزلتي العزيزة، أجدني مدينًا له بالملاذ التي أذوق فيها.

فارجع يا هجزيب، ارجع إلى الملك، وساعده على احتمال بؤس العظمة، واصنع لديه ما تريد أن أصنع له، وليبقَ عنده ما تسمونه منتور ما أوجب هذا الرجل الحكيم فتح عينيه بعد أن بقيتا مغمضتين عن الحقيقة زمنًا طويلًا، وأما أنا فإنني بعد غرقي لا أرى من المناسب أن أترك الميناء الذي كان من حسن الحظ قذف الزوبعة إياي فيه وأن أقع تحت رحمة الرياح مرةً أخرى، وَيْ! ما أحق الملوك بالرثاء لهم! وَيْ! ما أحق من يخدمونهم بالشفقة! وَيْ! ما أكثر ما يؤذون الناس، وما يعدون لأنفسهم من عذاب في التَّرْتر الأسود، إذا ما كانوا أشرارًا! وَيْ! ما أكثر ما عليهم أن يذللوا من مصاعب، وأن يجتنبوا من حبائل، وأن يقاسوا من مضار، إذا ما كانوا أبرارًا، وأعود فأقول لك، يا هجزيب، دعني في فقري المبارك.»

وبينما كان فلكلس يقول ذلك بشدة كان هجزيب ينظر إليه حائرًا، وذلك أنه كان يراه نحيفًا شاحبًا منهوكًا في أقريطش حيث كان يقوم بأعظم الأعمال، وذلك أن حدة طبعه وصرامته كانتا تضنيانه في العمل، وذلك أنه كان لا يستطيع أن يرى العيب بلا عقاب من غير أن يغضب، وذلك أنه كان يحب أن يرى في الأمور العامة ما لا يوجد فيها من سداد، وهكذا كانت خِدَمه تقوض صحته الضعيفة، وأما في ساموس فقد رآه هجزيب بادنًا ضليعًا، وأن وجهه يشع شبابًا على الرغم من تقدم السنين، وأن ما قضى من حياة قناعة وهدوء وكد أسبغ عليه مزاجًا جديدًا كما يلوح.

هنالك قال فلكلس باسمًا: «لقد عجبتَ حين رأيت تغيري بهذا المقدار، فاعلم أن عزلتي هي التي أنعمت علي بهذه النضارة والصحة التامة، وأعدائي هم الذين حبوني بما كنت أعجز عن نيله في كمال إقبالي، أو تريد أن أخسر أصح النعم طلبًا لزائفها وأن أغرق في سابق شقائي مرةً أخرى؟ لا تكن أشد قسوةً من بروتيزيلاس، أو لا تحسدني على السعادة التي نلت منه على الأقل.»

هنالك عرض عليه هجزيب كل ما يعتقد أنه يؤثر فيه، ولكن على غير جدوى، قال هجزيب: «أأنت، إذن، جافي الفؤاد حيال بهجة رؤيتك أقرباءك، وأصدقاءك الذين يتحرقون شوقًا إلى رجوعك، والذين يقوم أملهم الوحيد على معانقتك مملوئين نضرةً وسرورًا؟ ولكن ألا تأبه، أنت الذي يخاف الآلهة ويحب واجبه، لخدمة مليكك ولمساعدته على كل خير يريد صنعه ولإلقاء السعادة في نفوس الرعايا الكثيرين؟ وهل من الجائز أن تُكب على فلسفة نافرة فتؤثر نفسك على بقية الناس وتفضل راحتك على سعادة مواطنيك؟ ومع ذلك فإن

رغبتك عن رؤية الملك ستعزى إلى غل يغلي في صدرك، وإذا كان الملك قد أراد بك سوءًا فذلك عن عدم معرفته إياك مطلقًا، وليس فلكلس الصادق الصالح العادل هو الذي أراد إهلاكه، بل رجل يختلف عنك كل الاختلاف هو الذي شاء جزاءه، وأما الآن فبما أنه يعرفك، ولا يذهب إلى أنك غيرك، فإنه يشعر ببعث سابق صداقته في قلبه، وتراه ينتظرك، وتراه يمد ذراعيه إليك ليعانقك، وتراه يَعُد الأيام والساعات فاقدَ الصبر، وهل بلغت من قسوة القلب بحيث لا تَرِقُّ لمليكك وجميع أصدقائك الذين هم أكثر الناس حنانًا؟»

ويعود فلكلس، الذي لان فؤاده عندما عرف هجزيب، إلى عبوسه حين سماعه هذا الكلام، ويبدو كالصخرة التي تنطحها الرياح على غير جدوى، والتي تتكسر عليها جميع الأمواج وهي تئن، فتبقى راسخةً، ولا يجد كل تضرع وكل برهان سبيلًا إلى قلبه، ولكن بينما أخذ هجزيب يقنط من إقناع فلكلس شاور فلكلس الآلهة وأبصر بزجر الطير، وبأحشاء الضحايا وبجميع الفئول وكل طيرة، وجوب اتباعه هجزيب، فعاد لا يقاوم واستعد للرحيل، وهذا مع الأسف على البرية التي قضى فيها سنين كثيرةً، قال فلكلس: «آه! أيجب أن أغادرك أيها الغار المحبوب حيث يسفر النوم الهادئ في كل ليلة عن زوال متاعب العمل في النهار؟ هنا كان البَرْك يغزلن لي أيامًا من ذهب وحرير في أثناء فقري.»

ويخر ساجدًا لنائيد التي أروته بمائها الصافي زمنًا طويلًا، وللحوريات اللائي كن يسكن في جميع الجبال المجاورة، وتسمع إيكو حسراته فترددها لجميع آلهة الأرياف بصوت حزين.

ثم أتى فلكلس المدينة مع هجزيب ليُبحِرا منها، وقد ظن فلكلس أن الشقي بروتيزيلاس، المملوء حياءً وغيظًا، لا يرغب في رؤيته، بيد أنه أخطأ فيما ذهب إليه؛ وذلك لأن أرباب الفساد يكونون خالعي العذار مستعدين لكل دناءة دائمًا، وذلك أن فلكلس اختبأ متواضعًا خشية أن يراه هذا البائس فيزيد بؤسه بإظهاره له إقبال عدو على أنقاضه، وأن بروتيزيلاس بحث عن فلكلس بنشاط، قاصدًا إثارة رحمته وحضه على سؤال الملك أن يسمح له بالرجوع إلى سلنتة، وكان فلكلس من الصدق بحيث لم يَعِدْه بالسعي لاستدعائه، لما يعلم أكثر من كل إنسان آخر ما يؤدي إليه رجوعه من ضرر، وإنما كلمه بلطف، وأبدى له رأفته، وحاول أن يفرج الغم عنه، وحثه على تسكين الآلهة بالأخلاق الطيبة وبالصبر الجميل على مصائبه، وبما أنه علم أن الملك صادر جميع أمواله التي اكتسبها ظلمًا فإنه وعده بأمرين أنجزهما فيما بعد، وهما: أن يُعنَى بزوجه وأولاده الذين ظلوا في سلنتة يقضون حياة فقر مدقع، وأن ترسَل إليه في هذه الجزيرة البعيدة إعانة مالية يخفِّف بها بؤسه.

وفي هذه الأثناء ينتفخ شراع السفينة بريح ملائمة، ويبدو هجزيب هلوعًا فيسرع إلى حمل فلكلس على السفر، ويرى بروتيزيلاس إبحارهما، وتشخص عيناه إلى الساحل، ولا يرتد طرفه عن المركب الذي يشق عباب البحر ويبتعد دائمًا، ويتمثل المركب حتى بعد أن عاد لا يبصره، ثم يظهر مضطربًا هائجًا قانطًا، فينتف شعره، ويتمرغ في الرمل، ويلوم الآلهة على قسوتهم، ويدعو الموت الشديد إلى إنجاده، ولكن على غير جدوى، فالموت الأصم لا ينقذه من أوصابه الكثيرة بتقبل دعائه، وهو لا يكون من الجرأة بحيث يقتل نفسه.

ولم تلبث السفينة التي يسر نبتون سيرها أن وصلت إلى سلنتة، ويقال للملك: إنها دخلت الميناء ويُهرَع الملك إلى فلكلس مع منتور، ويعانقه عناق حنان، ويبدي له أسفًا مؤثرًا على اضطهاده إياه مع جور كثير، ولا يحسب هذا الاعتراف دليل ضعف في الملك، بل عده جميع أهل سلنتة مظهر روح كبير يسمو فوق خطاياه الخاصة بالإقرار بها إقرار شجاعة وصولًا إلى إصلاحها، ويبكي جميع الناس فرحًا بمشاهدتهم رجل الخير وسماعهم الملك ينطق عن حكمة ولطف، ويتقبل فلكلس قبول احترام وتواضع ما حباه به الملك من وداد، ويتمنى لو يتوارى عن هتاف الناس، ويتبع الملك إلى القصر، ولم يُعَتِّم كل من منتور وفلكلس أن صار موضع ثقة الآخر، كما لو قضيا جميع حياتهما معًا وإن لم يجتمعا فيما مضى، ومعنى هذا أن الآلهة الذين أبوا على الأشرار أن يعرفوا الأبرار قضوا بأن يتعارف الأبرار، ولا غرو، فمن يميلون إلى الفضيلة لا يمكنهم أن يجتمعوا من غير أن يتحدوا في الفضيلة التي يحبون.

ولسرعان ما التمس فلكلس من الملك أن يسمح له بالانزواء في جوار سلنتة حيث يقضي حياة فقر كالتي قضاها في ساموس، وكان الملك ومنتور يزورانه كل يوم تقريبًا في محل عزلته، ففي هذا المكان كانوا يبحثون عن وسائل توطيد سلطان القوانين وإعطاء الحكومة شكلًا ثابتًا من أجل سعادة الجمهور.

وكانت تربية الأولاد وطريقة العيش بأمان أهم الأمور التي يدرسون.

قال منتور عن الأولاد: «إنهم ملك للدولة أكثر من أن يكونوا ملكًا لأبويهم، أي إنهم أولاد للشعب ومحل أمله وقوته، فإذا ما فسدوا فات وقت إصلاحهم، وليس من الصعب أن يُقْصَوا عن المناصب إذا ما كانوا غير أهل لها، وأفضل من هذا أن يدرأ الشر قبل وقوعه، ويُعَدُّ الملك، الذي هو أب لجميع رعيته، أبًا لجميع الشبان الذين هم زهرة جميع الأمة، وفي الزهرة ما يجب أن تعد الثمار، ولا يستخف الملك، إذن، برقابة التربية التي يعطاها الأولاد، ولا يغفل عن الأمر بالسهر على هذه التربية أيضًا، وليوطن نفسه على إلزام الناس بمراعاة شرائع مينوس التي تأمر بتنشئة الأولاد على احتقار الألم والموت، وليُحَضوا على اجتناب

الشهوات والثروات، وليعدوا الظلم والكذب والكنود والترف من العيوب الشائنة، وليعلَّموا، منذ نعومة أظفارهم، إنشاد مدائح الأبطال الذين أحبهم الآلهة وقاموا بأعمال كريمة في سبيل وطنهم وأثبتوا شجاعتهم في المعارك، ولتفتن الموسيقى نفوسهم إلانةً لطبائعهم وتصفيةً لها، وليتعلموا الرفق بأصدقائهم والوفاء لحلفائهم والإنصاف نحو جميع الناس ولو كانوا من أشد أعدائهم، وليخافوا تأنيب ضميرهم أكثر من أن يخافوا الموت والآلام، وليعلم أن الأولاد إذا ما ملئت أذهانهم بهذه المبادئ العظيمة، وأفعمت قلوبهم بحلاوة النشيد، لم يبقَ واحد منهم غير ملتهب الفؤاد بحب المجد والفضيلة.»

ويضيف منتور إلى ذلك بيانه أن من المهم إقامة مدارس عامة يتعود الشبان فيها أقسى التمرينات البدنية ويتجنبون بها عوامل الترف والفراغ المفسدينِ لأروع الطباع، ويريد منتور تنوعًا كبيرًا في الألعاب والمناظر التي تنعش جميع الشعب، ولا سيما ما تكون الأبدان بها رشيقةً مرنةً قوية، ويقول منتور بوضع جوائز تثير تنافسًا نبيلًا في نفوسهم، ولكن أشد ما تمناه منتور من عوامل حسن الأخلاق هو أن يقدم الشبان على الزواج باكرًا، وأن يخلوَ الآباء من كل غرض فيتركوا لأولادهم أمر اختيار من يمكن أن يتعلقوا بهن من النساء المقبولات روحًا وبدنًا.

ولكن، بينا كانت تعد وسائل حفظ الشباب نقيًّا بريئًا مُجدًّا مطيعًا ولوعًا بالمجد، قال فلكلس، الذي كان يحب الحرب، لمنتور ما يأتي: «من العبث أن تشغلوا الشبان بهذه التمرينات إذا ما تركتموهم يذوون في سلم دائم حيث لا يبتلون الحرب ولا يحتاجون إلى اختبار الشجاعة، واعلموا أنكم توهنون الأمة بذلك وهنًا غير محسوس، فالبسالة ترتخي وتوجب النعم فساد الأخلاق، ولا تجد الشعوب الأخرى عناءً في قهرها، وهي بهذا تعاني استعبادًا فظيعًا من حيث تريد اجتناب المصائب التي تؤدي إليها الحرب.»

واسمع جواب منتور: «إن مصائب الحرب أفظع مما تتصور، فالحرب تنهك الدولة، وتلقيها في خطر الهلاك دائمًا ولو نالت أعظم الانتصارات، ومهما يُنَلْ من فوائد في بدئها لا يؤمن ختامها بأفجع انتكاس، ومهما يكن من تفوق قواكم التي تشترك في المعركة فإن أقل غلط في الحساب، أو أي ذعر مفاجئ، أو أي أمر تافه، يمكن أن ينزع منكم النصر الذي كان في يدكم وأن ينقله إلى أعدائكم، ولو حدث أن تم لأحد الفريقين نصر عزيز في القتال لقوض هذا الفريق نفسه بتقويضه أعداءه، وذلك بإقفار بلده وإهمال أرضه وارتباك تجارته، وأسوأ من هذا ما يقع من ضعف سلطان القوانين وفساد الأخلاق، وإعراض الشباب عن الثقافة، وما يظهر في الكتائب من فجور ضار عن حاجة مُلحة، وما يعاني القضاء والإدارة

بسبب هذه الدعارة، ويحسب بالملك الذي يوجب سفك دماء أناس كثير، ويسبب كثيرًا من المصائب كيما ينال قليل مجد، أو يوسع حدود مملكته، غير أهل للمجد الذي يطلب، ويستحق أن يخسر ما يملك عقابًا له على قصده اغتصاب ما لا يملك.

ولكن إليك وسيلة ممارسة بسالة الأمة في أيام السلم: فقد رأيت ما أقمنا من تمرينات بدنية، وما وضعنا من جوائز تثير التنافس، وما يملأ نفوس الأولاد، منذ المهد، من مبادئ المجد والفضيلة بإنشادهم مآثر الأبطال، وإلى هذا أضيفوا حياةً قائمة على القناعة والجد، وإلى هذا أضيفوا الأمر القائل: إنه إذا ما خاض شعب حليف لأمتكم غمار حرب وجب عليكم أن ترسلوا إليها زهرة شبابكم، ولا سيما من يلاحظ فيه علم بفن الحرب ويكون أهلًا للانتفاع بالتجارب، وهذا ما تنالون به صيتًا رفيعًا لدى حلفائكم، وهذا ما يُطلب به حلفكم، وهذا ما يخشى به زوال هذا الحلف، وهذا ما يكون لكم به شباب جسور مدرب على الحرب دائمًا، وهذا من غير أن تسير الحرب في بلدكم وعلى حسابكم، ومهما يتم لبلدكم من سلام بذلك فإنه يجب عليكم أن تعاملوا نبغاء الحرب بكرم بالغ؛ وذلك لأن الوسيلة الحقيقية لإبعاد شبح الحرب والتمتع بسلام طويل تتجلى في مزاولة السلاح وإكرام من يجيدون هذه المهنة، وفي اشتمال البلاد على أناس مارسوها في البلدان الأجنبية فيعرفون القوات والنظام العسكري والأسلوب الحربي لدى الأمم المجاورة، وفي عدم إيقاد الحرب عن طموح وعدم الخوف منها عن تخنث، وهكذا يُنتَهَى، بالاستعداد لها دائمًا، إلى عدم الاكتواء بها تقريبًا.

وإذا ما كان الحلفاء على أهبة الاحتراب وجب عليكم أن تقوموا بدور الوسيط، فبهذا تنالون مجدًا أمتن من مجد الفاتحين وأوطد، وبهذا تكتسبون حب الأجانب وتقديرهم، وبهذا يحتاج جميع الأجانب إليكم، أي إنكم تحكمون فيهم عن اطمئنان كما تحكمون في رعاياكم عن سلطان، وتظلون أمناء سرهم، وحكَمًا في معاهداتهم، ومالكين لقلوبهم، ويذيع صيتكم في أقاصي البلدان ويصبح اسمكم كالمسك الذي يسطع شذاه بين بلد وبلد لدى أبعد الأمم، وإذا حدث، في هذه الحال، أن هاجمكم شعب مجاور، خلافًا لمبادئ العدل، وجدكم أهلًا للحرب مستعدين لها، ووجدكم محل حب جيرانكم وموضع عونهم، وذلك أن جميع هؤلاء الجيران يذعرون من أجلكم معتقدين أن سلامتكم ضمان لسلامة الجميع، وهذا متراس أضمن من جميع أسوار المدن ومن جميع أحصن الأماكن، وهذا هو المجد الحقيقي، ولكن ما أقل الملوك الذين يعرفون أن يبحثوا عنه ولا يبتعدون عنه مطلقًا! فالملوك يسعون وراء طيف خادع، ويَدَعون الشرف الحقيقي وراءهم عن جهل به.»

ولم يكد منتور يتم كلامه حتى أخذ فلكلس يحدق إليه دهشًا، ثم رجع بصره إلى الملك، وقد سحر من حرص إيدومنه على تلقيه، في صميم فؤاده، جميع الكلمات التي كانت تتدفق من فم هذا الغريب كنهر من الحكمة.

وهكذا فإن منرفا، في صورة منتور، كانت تقيم في سلنتة أصلح قوانين الحكم وأنفع مبادئه كيما تطلع تلماك، عند رجوعه، على مثال محسوس حول ما يمكن أن تصنعه الحكومة الرشيدة لإسعاد رعاياها ومنح الملك مجدًا دائمًا، وذلك أكثر من حرصها على ازدهار مملكة إيدومنه.

الجزء الثاني عشر

نال تلماك، في أثناء إقامته بين الحلفاء، حب رؤسائهم، حتى حب فلكتت الذي لم يرتح إليه في البداءة بسبب أبيه أوليس، قص عليه فلكتت خبر مغامراته وسبب حقده على أوليس، فأطلعه على نتائج الغرام الهائم الذي انتهى بقصة موت هركول الفاجعة، علم تلماك منه كيف نال من هذا البطل سهامًا فاتكةً ما كانت تروادة لتسقط بغيرها، وكيف عوقب على إفشائه سر موت هركول بجميع البلايا التي عاناها في جزيرة ليمني، وكيف انتفع أوليس بنيوبتوليم حملًا له على الاشتراك في حصار تروادة حيث شفاه ابنا إسكولاب من جرحه.

أثبت تلماك، في تلك الأثناء، بسالته حيال أخطار الحرب، وجدَّ، عقب مغادرته سلنتة، في نيل محبة الرؤساء الذين بلغوا الغاية من الصيت، وعامله مثل ولد له نسطور الذي كان قد اجتمع به في جزيرة بيلوز، والذي ما فتئ يحب أوليس، وأطلعه نسطور على معارف دعمها بأمثلة كثيرة، وقص عليه نسطور نبأ مغامرات شبابه وجميع ما شاهد من أعمال أشهر الأبطال في الجيل الماضي، ولا غرو، فذاكرة هذا الشيخ الحكيم، الذي عاصر ثلاثة أجيال من الناس، تعد مثل تاريخ للأزمنة القديمة منقوش على الرخام أو النحاس.

ولم يكن فلكتت ليحمل من العطف نحو تلماك مثلما كان يحمل نسطور، فما يغلي في قلبه من غل حيال أوليس كان يبعده من ابنه، فلم يطق إلا بمشقة أن يرى ما يعد الآلهة من منافع يساوي بها هذا الشاب أولئك الأبطال الذين دمروا مدينة تروادة، بيد أن اعتدال تلماك تغلب على أحقاد فلكتت كلها، في آخر الأمر، وعاد فلكتت هذا لا يستطيع منع نفسه من حبه لهذا الفاضل الدَّمِث المتواضع، ويتناول تلماك ويقول له: «أي بني، وهذا ما لا أخاف أن أدعوك به، أعترف بأنني بقيت أنا وأبوك متعاديين زمنًا طويلًا، وأعترف، أيضًا، بأن قلبي لم يهدأ ثائره قط بعد إسقاطنا مدينة تروادة الرائعة، ولما وقع نظري عليك شق

علي أن أحب الفضيلة في ابن أوليس وقد لمت نفسي على هذا غالبًا، بيد أن الفضيلة إذا ما قامت على الاعتدال والبساطة والصدق والتواضع ذللت كل شيء.»

ثم وجد فلكتت، من حيث لا يشعر، أن يقص على تلماك ما أوقد في فؤاده من حقد كبير على أوليس، قال فلكتت: «ولْأتناولْ قصتي من الأعلى، فقد اتبعت في كل مكان هركول العظيم الذي أنقذ الأرض من غيلان كثير، والذي لم يكن الأبطال الآخرون أمامه إلا كالقصب الهزيل بجانب دوحة من البلُّوط، أو كالنُّغَير[1] بجانب النسر، وقد أتت مصائبي ومصائبه من هوًى يؤدي إلى أفظع البلايا، أتت من الغرام، وذلك أن هركول، الذي قهر كثيرًا من الغيلان، لم يستطع أن يقهر هذا الهوى الفاضح، وأن الصبي القاسي كوبيدون عبث به، ولم يكن ليقدر أن يذكر، من غير أن يحمر وجهه خجلًا، أنه نسي مجده ذات مرة فغازل ملكة ليدية؛ أنفال، كأنذل جميع الناس وأكثرهم تخنثًا، ما سار عن غرام أعمى، وما أكثر ما اعترف لي بأن هذه الناحية من حياته قد ثَلَمت فضيلته ومحت مجد جميع أفعاله تقريبًا.

ويا للآلهة! ويا لضعف الرجال وتقلبهم! والرجال يبيحون كل شيء لأنفسهم، ولا يردون شيئًا، آه! إن هركول العظيم عاد فوقع في أشراك رب الغرام الذي كان كثير الازدراء له، وأولع بدجانيره، وما أعظم ما يكون سعيدًا لو ثبت على الكلف بهذه المرأة التي صارت زوجًا له! ولكن ما أسرع ما فتن فؤاده بفَتَاءِ يُولَ التي كانت الألطاف مرسومةً على وجهها! وتحترق دجانيره غيرةً، وتذكر ذاك القميص المشئوم الذي كان الغول نسوس قد تركه لها حين موته مثل وسيلة ثابتة لإيقاظ غرام هركول في كل مرة يظهر هاجرًا لها محبًّا لغيرها، وكان هذا القميص، الملطخ بدم الغول السام، مشتملًا على سم السهام التي طعن بها هذا الغول، وأنت تعلم أن سهام هركول، القاتل للغول المخاتل، كانت قد سُقيت بدم أفعوان لرن، فسم هذا الدم تلك السهام، وصارت جميع الجروح التي تؤدي إليها ممتنعة الشفاء.»

ولم يلبث هركول بعد لُبس هذا القميص أن شعر بنار مفنية تنساب حتى المخ من عظامه، فصار يصرخ صراخًا هائلًا ردد صداه جبل إيتا ودوَّت به جميع الأودية العميقة، حتى البحر اهتز به كما ظهر، ولم تكن الثيران الهائجة، التي تخور في صراعها، لتخرج أصواتًا أفظع من ذلك، ويجرؤ الشقي ليخاس الذي أتاه بهذا القميص من قِبَل دجانيره، على الاقتراب من هركول، ويتناوله هركول هذا في سورة من الألم، ويديره كما يدير الرامي بالمقلاع حجرًا في مقلاعه كيما يقذفه إلى مسافة بعيدة، وهكذا فإن ليخاس، الذي قُذف من

[1] النغير: تصغير النغر، وهو فرخ العصفور.

فوق الجبل بيد هركول القوية، سقط في البحر، وتحول من فوره إلى الصخرة التي لا تزال على صورة البشر، والتي تلطمها الأمواج الهائجة دائمًا فتثير ذعر أحكم الربابنة.

ورأيت، بعد مصيبة ليخاس هذه، أنني لا أستطيع الركون إلى هركول، فعنَّ لي أن أختفي في أعمق الكهوف، وأبصره وهو يقلع بيد واحدة، ومن غير عناء، أشجار الصنوبر العالية وأشجارى البلوط القديمة التي استخفَّت بالرياح والزوابع منذ قرون كثيرة، وأبصره وهو يحاول أن يخلع القميص المشئوم عن ظهره على غير جدوى، فقد لصق بجلده، وبدا كالمدمَّج في أعضائه، وكان كلما مزقه مزق جلده ولحمه وسال دمه وبل الأرض، ثم تغلبت قوة نفسه على ألمه، وقال بصوت جهير: «ترى، يا فلكتت العزيز، ما أصابني به الآلهة من سوء، فالآلهة عادلون، وأنا الذي خالفهم، وذلك أنني نقضت مقتضى الحب بين الأزواج، وذلك أنني بعد أن قهرت أعداء كثيرين قُهرت بحب امرأة باهرة الجمال، وأَهْلِكُ، وأرْضَى بهلاكي تسكينًا للآلهة، ولكن، آه! أين هربت يا صديقي العزيز؟ أجل، إن فرط الألم حفزني إلى اقترافي قسوةً حيال البائس ليخاس ألوم نفسي عليها، حيال هذا البائس الذي لم يعرف أي سم قدَّم إليَّ، حيال هذا البائس الذي لا يستحق ما أوجبتُ من عذابه، ولكن أتعتقد أنني أستطيع نسيان ما أنا مدين لك به من صداقة فأنزع حياتك؟ كلا، كلا، لن أكف عن حب فلكتت الذي سيشهد موتي القريب، عن حب فلكتت الذي سيجمع رفاتي، أين أنت، إذن، يا فلكتت العزيز؟ أين أنت يا فلكتت الذي هو موضع رجائي الوحيد في هذه الدنيا؟»

وأهرع إليه عند سماعي هذه الكلمات، ويمد إلي ذراعيه، ويريد أن يعانقني، ولكنه يمسك عن هذا خشية أن يشعل في أحشائي تلك النار الجافية التي احترق بها، ويقول: «آه! حتى هذا السلوان أُحْرَمُه!»

قال هذا وهو يُكَوِّم فوق الجبل تلك الأشجار التي اجتثها، ويصعد في الكومة هادئًا، ويبسط جلد أسد نيمه الذي كان يستر به كتفيه حينما كان يطوف بين طرفي الأرض لجندلة الغيلان وإنقاذ البائسين، ويتوكأ على دبوسه، ويأمرني بإيقاد الكومة، ولم تستطع يداي المرتجفتان أن ترفضا تنفيذ هذا الفرض القاسي؛ وذلك لأن الحياة عادت لا تكون هبةً من الآلهة في نظره ما بدت شؤمًا عليه بهذا المقدار، وقد خشيت أن يحفزه ألمه البالغ إلى قيامه بأمر لا يناسب هذا الفضل الذي أدهش العالم، وبينا أبصرَ اللهب ينال الحطب صرخ قائلًا: «الآن أشعر، يا فلكتت العزيز، بصداقتك الحقيقية؛ وذلك لأنك تحب سعادتي أكثر من حبك حياتي، ولْيُثبك الآلهة على ذلك، وإنما أترك لك أعز ما لدي في الدنيا، وهو هذه السهام المسقَّاة بدم أفعوان لرن، فأنت تعلم أن ما تؤدي إليه هذه السهام من جروح ممتنع

الشفاء، وسيمتنع قهرك بفضلها كما كنت، ولن يجرؤ إنسان على قتالك، واذكر أنني أموت مخلصًا لصداقتنا، ولا تنسَ مقدار ما أنت عزيز علي، ولكنك إذا كنت متأثرًا بمصائبي حقًّا أمكنك أن تلقي آخر سلوان في نفسي، وهو أن تعدني بألا تكشف لإنسان أمر موتي، ولا المكان الذي ستواري فيه رفاتي.»

واحرباه! لقد وعدته بذلك، حتى إنني أقسمت له بذلك مبللًا كومته بدموعي، ولكن زوبعةً من اللهب أحاطت به، وخنقت صوته، وحجبته عن عيني تقريبًا، ومع ذلك لم أفتأ أراه مشرق الوجه من خلال اللهب كما لو كان مكللًا بزهور ومستورًا بعطور في وليمة فاخرة بين أصدقائه.

ولم تلبث النار أنْ أحرقت كل ما هو دنيوي فانٍ فيه، ولم يلبث أن زال كل ما نال من أمه ألكمن حين ولادته، بيد أنه احتفظ، بأمر من جوبيتر، بذلك العنصر الخالد اللطيف، بذلك اللهب السماوي الذي هو أصل الحياة والذي تلقاه من أبي الآلهة، وهكذا ذهب مع الآلهة، تحت قباب الألنب الساطع المذهبة، ليشرب الرحيق في كوب جوبيتر العظيم قبل أن ينال غانيميد هذا الشرف.

وأما أنا فقد وجدت في هذه السهام، التي أعطاني إياها هركول لأفوق بها جميع الأبطال، منبع آلام لا ينضب.

ولم يلبث الملوك المتحالفون أن عزموا على الانتقام لمنيلاس من الرذيل باريس الذي اختطف هيلانة وعلى تقويض دولة بريام، وقد سمعوا من هتاف أبولون أنه لا ينبغي لهم أن يأملوا ختام هذه الحرب بتوفيق ما لم يفوزوا بسهام هركول.

ويأخذ أبوك أوليس، الذي كان في كل وقت أخبر من في المجالس كلها وأكثرهم مهارةً، على عاتقه أن يقنعني بالذهاب معهم إلى حصار تروادة وبأن أجلب معي تلك السهام التي يعتقد وجودها عندي، ولا عجب، فقد مر زمن طويل على عدم ظهور هركول فوق الأرض، وعدم سماع خبر عن مأثرة جديدة يقوم بها هذا البطل، وقد صار الغيلان والمجرمون يظهرون بلا عقاب، ولا يعرف الأغارقة ما يقولون عنه، فبعضهم ذهب إلى أنه مات، وذهب بعض آخر إلى أنه انتهى إلى ما تحت الدب الجامد ليقهر السيت، وكان أوليس ممن قال: إنه مات، فحاول أن يحملني على الاعتراف.

ويأتي أوليس ليلقاني في وقت لم أكن أستطيع أن أسلو فيه فقد ألْسيد العظيم، ويجد عناءً بالغًا في الاقتراب مني، وذلك لما عدت لا أطيق النظر إلى الناس، ولما عدت لا أحتمل انتزاعي من مجاهل جبل إيتا حيث شاهدت هلاك صديقي، ولما عدت لا أتمثل غير

صورة هذا البطل ولا أفكر في غير البكاء عند النظر إلى هذه الأماكن الكئيبة، بيد أن الإقناع العذب القوي كان على شفتي أبيك، أي أن أباك بدا حزينًا مثلي تقريبًا، وأنه سكب دموعًا، وأنه عرف أن يفتنني من حيث لا أدري، وأن ينال ثقتي، وأن يعطِّفني على ملوك اليونان الذاهبين للقتال في سبيل قضية عادلة والذين لا يستطيعون أن يُنصروا بغيري، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن ينزع مني سر موت هركول الذي أقسمت ألا أبوح به مطلقًا، ولكنه لم يشك قط في أمر موته، فألح علي بأن أكشف له عن المكان الذي واريت فيه رفاته.

آه! لقد أنفت من الحنث في يميني بأن أفشي له سرًّا أقسمت بالآلهة أن أكتمه على الإطلاق، ولكنني كنت من الضعف بحيث أتملص من يميني مع عدم الإقدام على نقضها، وقد عاقبني الآلهة على هذا، وذلك أنني خبطت برجلي مكان وضعي رفات هركول، ثم ذهبت لألحق بالملوك المتحالفين الذين استقبلوني مبتهجين كما لو كنت هركول نفسه، وبينا كنت مارًّا من جزيرة ليمني أردت أن أطلع جميع الأغارقة على ما يمكن سهامي أن تصنع، وبينا تأهبت لإصماء أيِّل يقفز في غابة سقط السهم من القوس على رجلي عن غفلة، فأوجب فيَّ جرحًا لا أزال أشعر بأثره، ولسرعان ما صرت أحس عين الآلام التي كان يعانيها هركول، وأملأ الجزيرة بصراخي ليل نهار، ويسيل من جرحي دم عفن أسود يفسد الهواء وينشر في معسكر الأغارقة نتونةً يمكن أن تخنق أقوى الناس، وينفر جميع الجيش من رؤيتي على هذه الحال، وكلٌّ يذهب إلى أن هذا عذاب أرسله الآلهة العادلون إلي.

وكان أوليس الذي حضني على هذه الحرب أول من هجرني، وقد علمت، فيما بعد، أنه لم يصنع هذا إلا لتفضيله مصلحة بلاد اليونان العامة والنصر على جميع عوامل الصداقة أو على كل مجاملة خاصة، لما عاد لا يمكن ذبح الضحايا في المعسكر ولما كان من انزعاج الجيش بفظاعة جرحي البالغة ونتنه وشدة صراخي، ولكنني، عندما رأيتني منبوذًا من قبل جميع الأغارقة وفق رأي أوليس، بدت لي هذه السياسة أقبح ما يكون قسوةً وأسود ما يكون خيانةً، آه! لقد كنت أعمى، فلم أرَ أن من العدل أن يكون أحكم الناس ضدي، وكذلك الآلهة الذين أَثَرْت غضبهم.

وأبقى وحيدًا في جميع أيام حصار تروادة تقريبًا، أبقى بلا معين ولا أمل ولا سلوان، أبقى رهين أفظع الآلام في هذه الجزيرة البائرة الغامرة حيث كنت لا أسمع غير هدير أمواج البحر التي تتكسر على الصخر، وأجد في سواء هذه العزلة غارًا خاليًا في صخرة ذات حدين مرتفعين نحو السماء كما لو كانا رأسين، وكانت تجري من هذه الصخرة عين صافية، وكان هذا الغار مأوًى للضواري التي أغدو عرضةً لها ليل نهار، وأجمع بعض

الأوراق لأستلقي عليها، ولا يبقى عندي من المال غير إناء خشبي غليظ الصنع وثياب ممزقة أضمد بها جرحي وقفًا لنزيفه وأنتفع بها لتنظيفه، وهنالك، حيث هجرني الناس وأُسلمت إلى غضب الآلهة، كنت أقضي وقتي في اصطياد الحمائم والطيور، التي تطير حول هذه الصخرة، بسهامي، وكنت إذا ما أصميت طيرًا لآكله زحفت على الأرض متألمًا لأتناول صيدي، وهكذا كانت يداي تعدان لي ما أغتذي به.

أجل، إن الأغارقة تركوا لي، عند انصرافهم، بعض القوت، بيد أن هذا القوت لم يبقَ إلا قليلًا، وكنت أوقد النار بالحصى، ومهما يكن من فظاعة هذه الحياة فإنها كانت تبدو لي سائغةً بعيدةً من كافري النعمة المخادعين لو لم يبرِّح بي الألم ولو لم تساورني مغامرتي المحزنة بلا انقطاع.

وأقول في نفسي: «ماذا! أُنْزَع من وطني رجلًا يستطيع وحده أن ينتقم لبلاد اليونان، ثم أُترَك في هذه الجزيرة المهجورة في أثناء رقادي!»

وذلك لأن الأغارقة انطلقوا في أثناء نومي، وتصور مقدار ما كان من ذهولي وما سكبت من دموع عندما أفقت من رقادي ورأيت المراكب تشق عباب البحر، آه! لقد بحثت في جميع جهات هذه الجزيرة المهملة المرعبة فلم أجد غير الألم، ولا يوجد في هذه الجزيرة مرفأ ولا تجارة ولا قِرًى ولا إنسان يدنو منها مختارًا، ولا يوجد في هذه الجزيرة غير التعساء الذين قذفتهم الزوابع فيها، وما كانت لتُرجى عِشرة فيها إلا بما يسفِر عنه غرق السفن، وهذا إلى أن من يأتون هذا المكان كانوا لا يجرءون على إعادتي خشية غضب الآلهة والأغارقة.

وأعاني العار والألم والجوع عشر سنين، وأتعهد جرحًا كان يفترسني، وينطفئ حتى الأمل في فؤادي، وبينا كنت راجعًا من البحث عن نبات طبي نافع لجرحي أبصرت في غاري شابًّا وسيمًا لطيفًا، ولكن مع زهو ومع قامة بطل، وقد لاح لي أني أشاهد أشيل ما بدت عليه ملامحه ونظراته ومشيته، وسنه وحدها هي التي جعلتني أدرك أنه ليس أشيل، وألاحظ على وجهه في مجموعه علامات الشفقة والارتباك، وذلك أنه تأثر بما رأى من مكابدتي مشقةً وبطوءًا حين زحفي، وأنه رق لِمَا أُخْرِج من أصوات حادة أليمة يدوِّي صداها في جميع ذلك الشاطئ.

وأقول له من بعيد: «أي شقاءٍ ساقك إلى هذه الجزيرة المهجورة أيها الغريب؟ أعرف الثوب اليوناني، وهذا الثوب لا يزال عزيزًا علي، وَيْ! يا لإبطائك في إسماعي صوتك ونطقك بهذه اللغة التي تعلمتها منذ طفولتي والتي لم أستطع أن أخاطب بها إنسانًا في هذه العزلة منذ زمن طويل! لا يرعبك أن ترى رجلًا بالغ الشقاء مثلي، والرحمةُ ما يجب أن تظهر له.»

ولم يكد نيوبتوليم يقول لي: «إنني يوناني» حتى قلت بصوت جهير: «يا له من كلام عذب بعد أعوام كثيرة من سِنِي الصمت والألم بلا سلوان! أية مصيبة أو زوبعة أو ريح ملائمة ساقتك إلى هنا، يا بني، حتى تختم أوصابي؟»

ويجيبني بقوله: «إنني من جزيرة إسكيروس، وأعود إليها، ويقال: إنني ابن أشيل، وأنت تعرف كل شيء.»

وما كان مثل هذا الكلام الموجز ليرضي فضولي، وأقول له: «أي ابن الأب الذي أحببت كثيرًا، أي رضيع ليكوميد، كيف جئت إلى هنا إذن؟ من أين أتيت؟»

ويجيبني بأنه آتٍ من حصار تروادة.

وأقول له: «ألست من الحملة الأولى؟»

ويقول لي: «وأنت هل كنت فيها؟»

وهنالك أجيبه بقولي: «يظهر لي جيدًا أنك لا تعرف اسم فلكتت، ولا مصائبه، آه! يا لي من شقي! إن مضطهديَّ يهينونني في بؤسي، إن بلاد اليونان تجهل ما أعاني، إن ألمي يزيد، إن الأتريد هم الذين جعلوني في هذه الحال، جازاهم الآلهة!»

ثم قصصت عليه كيف تركني الأغارقة.

ولم يكد يسمع شكواي حتى بثني شكواه.

ويقول لي: «بعد موت أشيل ...»

وأقطع كلمته بقولي: «ماذا؟! مات أشيل! اغفر لي، يا بني، إذا ما عكرت حديثك بعبرات أسكبها من أجل أبيك.»

ويجيب نيوبتوليم بقوله: «أنت تعزيني بقطع كلامي، فما أحلى ما أرى فلكتت يبكي أبي!»

ويعود نيوبتوليم إلى حديثه قائلًا: «بحث عني أوليس وفنكس بعد موت أشيل وقالا لي: إنه لا يمكن القضاء على مدينة تروادة بغيري، ولم يجدا أية مشقةٍ في جلبي؛ وذلك لأن ما اعتراني من ألم بسبب موت أشيل، وما ساورني من شوق إلى تراث مجده في هذه الحرب المشهورة، حملني على اتباعهما، وأصل إلى محل الحصار، ويجتمع الجيش حولي، وكل يقسم إنه يبصر فيَّ أشيل، ولكن، آه! لم يقع ما يُرجى، وذلك بما أنني شاب لم تحنكني التجارب فإنني اعتقدت إمكان رجائي كل شيء ممن غمروني بالثناء، وكان سلاح أبي أول ما طلبت من الأتريد فقالوا بغلظة: «ستحوز بقية ما كان له، وأما أسلحته فقد صارت إلى أوليس»، وأضطرب من فوري، وأبكي، وأحتد، ويقول لي أوليس من غير أن يهتز: «لم تكن

معنا، أيها الفتى، في أخطار هذا الحصار الطويل، وما كنت لتستحق مثل هذا السلاح، وقد تكلمت مختالًا، ولن تحوزها مطلقًا»، وأعود إلى جزيرة إسكيروس مسلوبًا من قِبَل أوليس على غير حق، ولكن مع سخطي على الأتريد أكثر مما على أوليس، ثم يقال: كيف يكون صديق الآلهة من يعاديهم؟! لقد قلت لك كل شيء يا فلكتت.»

وأسأل نيوبتوليم، حينئذ، عن السبب في عدم درء أجكس بن تلامون لهذا الجور، ويقول لي: «إنه مات!»

وأقول صارخًا: «مات! ولا يموت أوليس مطلقًا، وأوليس يلمع نجمه في الجيش!»

ثم أسأله عما عنده من أخبار أنتيلوك بن الحكيم نسطور، ومن أخبار بتروكل العزيز كثيرًا على أشيل.

ويقول لي: «إنهما ماتا أيضًا.»

وأقول من فوري صارخًا أيضًا: «ماذا! ماتا! واهًا واهًا! ما تقول لي؟ إن الحرب الطاحنة تحصد الأبرار وتبقي الأشرار؛ ولذا فإن أوليس لا يزال حيًّا! ولا ريب في أن ترسيت لا يزال قيد الحياة أيضًا! هذا ما يصنع الآلهة، ثم نسبِّح لهم!»

وبينا كنت أشتاط غيظًا من أبيك لم ينفك نيوبتوليم يدالينى، وقد أضاف الكلمات المحزنة الآتية إلى سابق قوله: «إني ذاهب للعيش في جزيرة إسكيروس المهجورة راضيًا بعيدًا من الجيش اليوناني حيث يتغلب الشر على الخير، وها أنا ذا مسافر، شفاك الآلهة!»

وأقول له من فوري: «عزمت عليك، يا بني، بروح أبيك وأمك وبكل من هم أعز عليك في الدنيا ألا تدعني وحدي مبرَّحًا بهذه الآلام التي ترى، ولا أدري مقدار إزعاجي لك، ولكن عار عليك أن تتركني، واطرحني في مقدم السفينة أو مؤخرها أو مرحاضها أو في أي مكان آخر منها أكون فيه أقل مضايقةً لك، ولا يوجد غير ذوي القلوب من يعرفون مقدار ما يكون من شرف في صنع المعروف، لا تتركني في فلاة لا أثر للإنسان فيها، إيتِ بي إلى وطنك، إلى جزيرة أوبه غير البعيدة من جبل إيتا ومدينة تراشين وضفاف نهر سبرسيوس اللطيفة، خذني إلى أبي، آه! أخاف أن يكون قد مات، لقد طلبت منه أن يرسل إلي سفينةً، فهو إما أن يكون قد مات، أو يكون الذين وعدوا بتبليغه ذلك قد أخلفوا، أعوذ بك يا بني! اذكر عطب أمور الإنسان، وليخش من كان موسرًا سوء استعمال هذه الأمور وليسارع إلى مساعدة المنكوبين.»

هذا ما حملني فرط ألمي على قوله لنيوبتوليم، ويعدني نيوبتوليم بأن يأتي بي، وهنالك صرخت قائلًا: «يا له من نهار سعيد! يا لكونك سر أبيك أيها الحبيب نيوبتوليم! أي رفيق هذه الرحلة العزيز، اغفر لي وداعي لهذا المكان الكئيب، انظر أين عشت، أدرِك أين ألمت،

ما كان ليستطيع أحد غيري أن يحتمل ذلك، بيد أن الضرورة دربتني، وهي تعلم الناس ما لا يستطيعون أن يتعلموه بغيرها، ومن لم يألمْ لا يعرفْ شيئًا ولا يَمِزِ الخيرَ من الشر، ويجهلِ الناس، ويجهلْ نفسه.»

وأتناول قوسي وسهامي بعد قولي هذا، ويرجو نيوبتوليم مني أن أسمح له بتقبيل هذه الأسلحة المشهورة جدًّا، والمقدسة كثيرًا لدى هركول المنيع، وأقول له: «تستطيع صنع كل شيء، فاليوم، يا بني، أنت الذي يعيد إلي النور، كما يعيد إليَّ وطني وأبي الذي حناه المشيب، وأصدقائي ونفسي؛ ولذا يمكنك أن تمس هذه الأسلحة، وأن تباهي بأنك الوحيد، بين الأغارقة، الذي استحق أن يمسها.»

ويعتريني ألم هائل في تلك الأثناء، ويزعجني، وأعود غير عارف بما أفعل وأطلب سيفًا باترًا أقطع به رجلي، وأقول صارخًا: «لِمَ لَمْ تزرني أيها الموت الذي أشتاق إليه كثيرًا؟ أحرقني، أيها الفتى، من فورك كما حرَّقت ابن جوبيتر! أيتها الأرض! أيتها الأرض! استقبلي محتضرًا لا يستطيع النهوض!»

وأسقط عن هذا الألم المبرح، ويغشاني نعاس شديد بغتةً على حسب عادتي، ويتصبب عرقي، ويخف وجعي، ويسيل دم عفن من جرحي، وكان يسهل على نيوبتوليم أن يأخذ سلاحي في أثناء رقادي وأن يذهب به، ولكنه ابن لأشيل، ولم يولد ليخادِع، وأستيقظ، وأعرف ارتباكه، ويتأوه مثل رجل لا يعرف أن يخفي أمرًا وأن يسير خلافًا لفؤاده.

وأقول له: «أتريد أن تغرني؟ وما الأمر إذن؟»

ويجيبني بقوله: «يجب أن تسير معي إلى حصار تروادة.»

وأقول معقبًا: «آه! ماذا قلت لك يا بني؟ أعد إلي هذه القوس، أنا أخان! لا تنزع حياتي، آه! لم يجبني بكلمة، وينظر إلي هادئًا، ولا يؤثر فيه شيء، يا للسواحل! يا لمرتفعات هذه الجزيرة! يا للضواري! يا للصخور الوعرة! إليك أشكو، ولا أجد غيرك من إليه أشكو: أنتِ ألفت أناتي، وهل يجب أن يخونني ابن أشيل؟ ويسلبني سهم هركول المقدس، ويريد جري إلى معسكر الأغارقة كيما يفوز بي، ولا يرى أنه يفوز بميت، بطيف، بصورة فارغة، وَيْ، ليته هاجمني في كمال قوتي! ... ومع ذلك فإنه لم يقم الآن بذلك إلا مغافلًا، وما الحيلة؟ أعد، يا بني، أعد، وكن مثل أبيك الذي تشابهه، ما تقول؟ ... أنت لا تقول شيئًا! أيتها الصخرة الصماء! إليك أرجع عاريًا بائسًا مهجورًا جائعًا، سأموت وحيدًا في هذا الغار عاطلًا من قوسي التي أقتل بها الضواري، ستفترسني الضواري، لا ضير، ولكنك لست شريرًا كما يظهر بابني، إنك مسير برأي غيرك، أعد إلي سلاحي، إليك عني!»

ويقول نيوبتوليم مخافتًا دامع العينين: «ليتني لم أغادر إسكيروس قط.»

هنالك أقول صارخًا: «آه! ما أرى! أأنت أوليس؟»

لم ألبث أن سمعت صوته، وقد قال لي: «أجل، أنا ذاك.»

فلو فتحت مملكة بلوتون القاتمة أبوابها، ولو أبصرت الترتر السوداء التي يخافها حتى الآلهة، ما شعرت بنفور كبير كما شعرت وقتئذ على ما أعترف، وأصرخ أيضًا قائلًا: «كوني شاهدةً يا أرض ليمني، وأنت ترينه أيتها الشمس، وتحتملينه!»

ويقول أوليس من غير أن يهتز: «يريد جوبيتر هذا، وأنا أنفذ ما يريد.»

وأقول له: «أتجرؤ على ذكر اسم جوبيتر؟ أترى هذا الشاب الذي لم يولد ليخادِع والذي يألم حين ينفذ ما تحمله على فعله؟»

ويقول لي أوليس: «لم نأتِ لنمكر بك ولا لنضرك، وإنما أتينا لإنقاذك وشفائك ومنحك مجد تدمير تروادة ولنعود بك إلى وطنك، فأنت، لا أوليس، عدو لفلكتت.»

هنالك خاطبت أباك بكل ما يمكن أن يوحي به الغضب إلي، ومن ذلك: «لم لا تتركني مستريحًا في هذا الشاطئ ما دمت قد تخليت عني فيه؟ اذهب وابحث عن مجد المعارك وجميع اللذات، تمتع بسعادتك مع الأتريد، دعني أنا وبؤسي وألمي، لمَ اختطافي؟ عدت لا أكون شيئًا مذكورًا، أنا في عداد الأموات، ولمَ لا تعتقد اليوم، كما كنت تعتقد، أنه لا يمكنني الذهاب، وأن صراخي ونتن جرحي يزعج الجيش؟ أي أوليس، أي سبب مصائبي أوليس، أضرع إلى الآلهة أن يصيـ ...! بيد أن الآلهة لا يستجيبون دعائي مطلقًا، وعلى العكس أرى الآلهة يحرضون عدوي علي، أي أرض وطني الذي لن أراه! ... أيها الآلهة، إذا ما وجد بينكم عادلون يرحمونني فليعاقبوا أوليس، ففي هذا شفائي.»

وبينا كنت أتكلم هكذا كان أبوك الهادئ ينظر إلي بعين عطوف، شأن الرجل الذي يحتمل، من غير أن يهتز، اضطراب رجل بائس هزه الطالع مع عذره على هذا الاضطراب، وشأن الصخرة القائمة على جبل والتي تلهو بالرياح العاصفة وتدعها تهدأ مع بقائها ساكنةً، وهكذا كان أبوك صامتًا منتظرًا ذهاب غضبي عني، وذلك لعلمه أنه لا ينبغي أن تصاول الأهواء لقهرها وردها إلى حظيرة العقل إلا بعد أن تأخذ في الوهن عن إعياء، ثم قال لي أبوك ما يأتي: «ما صنعت بعقلك وشجاعتك يا فلكتت؟ هذا هو وقت إظهارهما، إذا ما أبيت اتباعنا لإنجاز مقاصد جوبيتر العظيمة المعقودة عليك فوداعًا، لما يظهر، إذ ذاك، أنك غير أهل لإنقاذ بلاد اليونان وتدمير تروادة، ابقَ في ليمني، فلي بهذه الأسلحة التي آخذ ما يضمن لي نصرًا أعد لك، لنذهب يا نيوبتوليم، لنذهب ما ظهرت مخاطبته غير

مجدية، ولا يجوز أن يلزمنا العطف على رجل واحد بأن نتخلى عن سلامة بلاد اليونان بأسرها.»

هنالك شعرت بأنني مثل لبُوءة خطف صغارها فملأت الغاب بزئيرها، فقلت في نفسي: «لن أتركك أيها الكهف مطلقًا، ستكون أيها الكهف قبرًا لي! أي مقرَّ ألمي عدت لا أملك قوتًا ولا أملًا! مَن ذا الذي يعطيني حسامًا أطعن به نفسي؟ وَيْ! لتخطفني الكواسر! ... عدت لا أرميها بسهامي! يا للقوس الثمينة، يا للقوس التي قدستها يد ابن جوبيتر! أي هركول العزيز، ألا تشتاط غيظًا لو بقيت ذا إحساس؟ عادت هذه القوس لا تكون قبضة صديقك الوفي، صارت هذه القوس في يد أوليس الماكر غير النقية، أيتها الكواسر، أيتها الضواري، لا تفروا من هذا الغار بعد الآن، فقد عادت يداي لا تقبض على سهام، لقد صرت بائسًا، ولا أستطيع لكم ضرًّا، إيتوا لنزعي، أو لتسحقني صاعقة يرسلها جوبيتر الجبار!»

ويتخذ أبوك جميع الوسائل الأخرى لإقناعي، ثم يرى أن أحسن وسيلةٍ لبلوغ الغرض هو أن يعاد سلاحي إلي، ويومئ إلى نيوبتوليم، ويعيدها هذا إلي من فوره، فأقول له: «أي ابن أشيل الخليق بأبيه، لقد أثبت أنك سر أبيك، ولكن دعني أطعن عدوي.»

ولم أتمالك أن أردت طعن أبيك بسهم، بيد أن أباك صدني عن ذلك قائلًا: «أنت مضطرب عن غضب، والغضب يحول دون رؤيتك العمل الكريه الذي تريد أن تفعله.»

ويظل أوليس هادئًا حيال سهامي وشتائمي، وأتأثر بهذا البأس وهذا الصبر، وأخجل من عزمي، عند تسلمي هذا السلاح، أن أبدأ بقتل ذاك الذي أمر برده إلي، ولكن بما أن غيظي لم يهدأ بعد فإن عيني لم تقر بكوني مدينًا بسلاحي لرجل أمقته كثيرًا.

ويقول لي نيوبتوليم في تلك الأثناء: اعلم أن الكاهن هيلانوس بن بريام خرج من مدينة تروادة بأمر الآلهة ووحي منهم وكشف لنا عن المستقبل حيث قال: «إن مدينة تروادة البائسة ستسقط، ولكن لا يمكن أن تسقط إلا بعد أن يهجم عليها حامل سهام هركول، ولا يمكن أن يُشفى هذا الرجل إلا أمام أسوار تروادة، وأبناء إسكلاب هم الذين سيشفونه.»

فلما سمعت هذا شعرت بانقسام قلبي، وذلك أنني تأثرت من سذاجة نيوبتوليم ومن حسن نيته التي رد بها قوسي إلي، ولكن مع عدم ذهابي بعد إلى وجوب الإذعان لأوليس، وأتردد عن عار، وأقول في نفسي: «ألا أشاهد مع أوليس والأرتيد؟ وما يقال عني؟»

وبينا كنت واقعًا في هذه الحيرة سمعت صوتًا لا يشابه أصوات البشر، وذلك أنني رأيت هركول محاطًا بأشعة من المجد في سحابة وضيئة، ويسهل علي أن أعرف ملامحه

الجافية وبدنه المتين وأوضاعه البسيطة، ولكن مع علو وجلال لم يظهر بهما قط أيام كان يقهر الغيلان، ويقول لي: «أنت تسمع هركول وتراه، فاعلم أنني غادرت الألنب لأبلغك أوامر جوبيتر، وأنت تعرف الأعمال التي نلتُ بها الخلود، وأنت يجب عليك أن تذهب مع ابن أشيل لتسير على أثري في طريق المجد، وستشفى، وستطعن بسهامي باريس الذي هو سبب كثير من المصائب، وسترسل، بعد فتح تروادة، غنائم ثمينةً إلى أبيك بياس فوق جبل إيتا، وستوضع هذه الغنائم على ضريحي مثل أثر لنصر تمَّ بسهامي، وأنت، يا ابن أشيل، أصرح لك بأنك لا تستطيع أن تغلب بغير فلكتت، ولا يستطيع فلكتت أن يغلب بغيرك؛ ولذا فاذهبا مثل أسدين يبحثان عن فريستهما معًا، وسأرسل إسكولاب إلى تروادة ليشفي فلكتت، وأنتم، أيها الأغارقة، أحبوا الدين وتمسكوا به على الخصوص، فكل شيء فانٍ إلا الدين، والدين لا يموت أبدًا.»

ولما سمعت هذا الكلام قلت بصوتٍ عالٍ: «أيها النهار المبارك، أيها النور اللطيف، أنت تظهر نفسك بعد سنين كثيرة، إنني أطيعك، إنني ذاهب بعد تحية هذه الأماكن، وداعًا يا حوريات هذه المروج الرطيبة، لن أسمع بعد الآن ضجيج أمواج هذا البحر الصم، وداعًا أيها الشاطئ الذي عانيت فيه تقلبات الجو، وداعًا أيها الرأس المرتفع حيث رددتِ الحورية إكو أناتي مرات كثيرةً، وداعًا أيتها العيون العذبة التي كانت تظهر لي حامزةً، وداعًا يا أرض ليمني، دعيني أسافر سعيدًا ما دمت ذاهبًا إلى حيث تدعوني مشيئة الآلهة وإرادة أصدقائي.»

وهكذا انصرفنا، ونصل إلى حصار تروادة، ويشفيني مكاءون وبودالير بعلم رباني تلقياه عن أبيهما إسكولاب، أو يجعلاني، على الأقل، في الحال التي تراني عليها، أجل، إنني عدت لا آلم، أجل إنني استعدت جميع قوتي، ولكنني أعرج قليلًا، وأُصْمِي باريس مثل شادن أنثى الأيِّل الوجل الذي يطعنه الصائد بسهامه، ولم تلبث إليون أن تحولت إلى رماد، وأنت تعرف البقية، ومع ذلك فإنني كلما ذكرت سابق مصائبي ساورني نفور من الحكيم أوليس لا أستطيع أن أعبر عنه، وما كانت فضيلته لتسكن هذه البغضاء، بيد أن منظر ابنه الذي يشابهه، والذي لم أقدر أن أمنع نفسي من حبه، يجعلني أحن إلى أبيه أيضًا.

الجزء الثالث عشر

عانى تلماك، حين إقامته عند الحلفاء، مصاعب كبيرةً في مداراة كثير من الملوك المتحاسدين، يقع خصام بينه وبين رئيس اللكدمونيين، فلنت، من أجل بعض أسرى الدونيين الذين يدعي كل منهما أنهم ملْك له، بينا كان يناقش حول القضية في مجلس الملوك المتحالفين ذهب أخو فلنت، هبياس، ليأخذ الأسرى ويرسلهم إلى تارنت، هجوم تلماك على هبياس بصولة وقَهْرُه إياه نتيجةً لتبارزهما، خجل تلماك من هيجانه وسعيه في رتق ما بينهما، اطلاع ملك الدونيين، أدراست، على هذا الشقاق بين تلماك وهبياس، وما نشأ عنه من ذعر في الجيش، والتزامه خطة الهجوم المفاجئ، مباغتته مائةً من مراكبهم، ونقل جنوده بها، وهجومه على معسكر فلنت وقتله هبياس، وسقوط فلنت جريحًا، وصول نبأ ذلك إلى تلماك، وتقلد تلماك سلاحه الرباني، ووثوبه خارج المعسكر، وجمعه جيش الحلفاء حوله، وإدارته الحركات بحكمة، ودحره العدو المنصور في وقت قصير، كان ينال نصرًا كاملًا لو لم تفصل إحدى العواصف بين الجيشين، زيارة تلماك للجرحى بعد المعركة، وقيامه بكل ما يحتاجون إليه من تفريج الكَرْب، كان أخص ما عني به تلماك هو فلنت وجنازة هبياس الذي نقل رماده إلى فلنت بنفسه ضمن قارورة من ذهب.

بينما كان فلكتت يقص نبأ مغامراته ظل تلماك حائرًا جامدًا، وكان محدقًا إلى هذا الرجل الكبير الذي يتكلم، وكانت تتجاذب وجه تلماك الساذج، بالتناوب كما يظهر، جميع الأهواء التي هزت هركول وفلكتت وأوليس ونيوبتوليم، وذلك كلما عرضت هذه الأهواء وفق سياق الحديث، ومما كان يحدث أحيانًا أن يصرخ ويقاطع فلكتت من غير تفكير، ومما كان يحدث أحيانًا أن يظهر حالمًا كمن يفكر تفكيرًا عميقًا في نتائج الأمور، ولاح تلماك، عندما وصف فلكتت ارتباك نيوبتوليم الذي لا يعرف أن يداجي مطلقًا، في مثل هذا الارتباك فيبدو للناظر أنه نيوبتوليم نفسه.

وكان جيش الحلفاء في ذلك الحين يسير سيرًا منتظمًا لقتال ملك الدونيين، أدراست، الذي يستخف بالآلهة ولا يحاول غير مخادعة الناس، ويجد تلماك مصاعب عظيمةً في مداراة كثير من الملوك المتحاسدين؛ وذلك لأنه كان يجب ألا يكون موضع ارتياب أحد، وأن يكون محبوبًا لدى الجميع، أجل، إنه كان حسن الطبع مخلصًا، ولكن مع قليل مدالاة، أي أنه لم يَعِنَّ له ما يمكن أن يصنع ليروق الآخرين، أي أنه كان عزوفًا عن الثراء من غير أن يعرف العطاء، أي أنه، وإن كان نبيل القلب محبًّا للخير، لم يبدُ تواقًا إلى إحسان، ولا مشتاقًا إلى أخْدان، ولا نَدِي الكف، ولا ملتفتًا إلى ما يحبى به من عناية، ولا مكترثًا لتمييز ما بين المزايا، أي أنه كان يتبع ميله بلا تأمل، ولا غرو، فأمه بنلوب كانت قد ربته، على الرغم من منتور، في جو من الزهو والكبرياء يكدر فيه صفو ألطف ما فيه، وهكذا كان يعد نفسه من جِبِلة غير جِبِلة الناس، فكأن الآلهة لم يخلقوا الآخرين إلا ليروقوه ويخدموه ويتمثلوا رغائبه ويعزوا كل أمر إليه كما يعزون إلى الآلهة، وكان يرى أن سعادة خدمته جائزة سامية لمن يقومون بها، وأنه لا مستحيل عندما يدور الأمر حول إرضائه، فكان أقل إبطاء يثير طبعه الحاد.

وكان مَن يرى هذه الناحية من سجيته يحكم بأنه عاجز عن حب شيء غير نفسه، وأنه لا يبالي بغير مجده ولذته، بيد أن عدم اكتراثه للآخرين ودوام رعايته لنفسه دون سواها لم يَصدرا عن غير استمرار فورانه بفعل صولة أهوائه، وقد دالته أمه منذ مهده، وقد كان أعظم مثال على شقاء من يولدون في المعالي، وما كانت شدائد الطالع التي أحسها منذ أول شبابه لتعدل صولة هذا الزهو، ولم يفقد شيئًا من خيلائه مع تجريده من كل شيء ومع تركه وشأنه وكونه عُرضةً لكل بلاء، وهو ما فتئ يرتفع كسعف النخل اللين الذي يعلو بلا انقطاع مهما بُذل من جُهد لخفضه.

وكانت هذه النقائص خافيةً ما دام تلماك مع منتور، وكانت تتوارى يومًا بعد يوم، وكان تلماك كالحصان الجامح الذي يثب في المروج الواسعة فلا تقفه الصخور الوعرة ولا الهوى ولا السيول، والذي لا يعرف غير صوت رجل واحد، ويد رجل واحد، قادر على ترويضه، أي أن تلماك، المملوء صولةً أصيلة، كان لا يمكن زجره إلا من قبل منتور، ومنتور هو مَن كانت إحدى نظراته تكفي لوقف أشد صولاته دفعةً واحدة، أي أنه كان يُحس، أول وهلةٍ، معنى هذه النظرة، فيذكر في صميم فؤاده جميع مشاعر الفضيلة، ولا تعتم الحكمة أن تحول وجهه، في أقرب من لمح البصر، إلى وجهٍ طليقٍ رائق، وما كان نبتون، إذا رفع خطافه الثلاثي الشوكات وهدد الأمواج الهائجة، ليسكن الزوابع بأسرع من ذلك.

فإذا ما كان تلماك وحده استردت مجراها جميع هذه الأهواء المزدَجَرة كالسيل الذي يَقِفُه سد قوي، ولم يُطق غطرسة اللكدمونيين وكبرياء زعيمهم فلنت، وكانت هذه المستعمرة، التي أُقيمت بها تارنت، مؤلفةً من فتيان وُلدوا في أثناء حصار تروادة فخلوا من أية تربية كانت، وما كان من أصلهم غير الشرعي، ومن دعارة أمهاتهم وما نشأوا عليه من فجور، أكسبهم ما لا يُعبر عنه من غلظة وتوحش، فكانوا أقرب إلى زمرة من قُطاع الطرق مما إلى مستعمرة يونانية.

ولم ينفك فلنت يحاول معارضة تلماك في كل مناسبة، وما أكثر ما كان يقاطعه في المجالس مزدريًا آراءه كما تُزدرى آراء شاب غير مُجرب! فكان إذا ما تكلم قابله ساخرًا عادًّا إياه ضعيفًا مخنثًا، مبديًا لرؤساء الجيش جميع هفواته مهما كانت طفيفةً، وكان يسعى أن يبذر في كل مكانٍ عوامل الحسد حول تلماك، وأن يجعل زهوه ممقوتًا لدى جميع الحلفاء.

ويأسر تلماك بعض الدونيين ذات يوم، ويزعم فلنت أن هؤلاء الأسرى مُلك له كما يُفرض، وذلك لادعائه بأنه، وهو رئيس للكدمونيين، هزم تلك الكتيبة من الأعداء، وأن تلماك، وهو يُبصر قهر الدونيين وفرارهم، لم يبذل من الجهد غير منحهم الحياة وجلبهم أُسارى إلى المعسكر، ويذهب تلماك إلى غير هذا فيرى أنه هو الذي حال دون غلب فلنت وأنه هو الذي تم له النصر على الدونيين، ويذهبان إلى مجلس الملوك ليتقاضيا إليه حول الخلاف، ويبلغ تلماك من الحدة ما يهدد معه فلنت، وكادا يصطرعان من فورهما لو لم يُحجز بينهما.

وكان يوجد لفلنت أخ اسمه هبياس، وكان هبياس هذا مشهورًا في الجيش بشجاعته وقوته ومهارته، وكان أهل ترانت يقولون: إن بولكس ليس أحسن من هذا الملاكم في الصراع، وإن كستور لا يفوقه في سَوْق الحصان، ويكاد يكون له مثل قامة هركول وقوته، وكان جميع الجيش يخشاه؛ لأنه أشد خصامًا وأعظم شراسةً منه بسالةً وبأسًا، ويبصر هبياس شدة ما هدد به تلماك أخاه فلنت من كبرياء، ويبادر إلى أخذ الأسرى كيما يرسلون إلى ترانت غير منتظر حكم المجلس، ويسر إلى تلماك بذلك، ويخرج مرتجفًا غضبًا، ويشابه خنزيرًا بريًّا متنمرًا باحثًا عن الصائد الذي جرحه، فيطوف في المعسكر، ويطلب عدوه، ويهز السهم الذي يريد طعنه به، ثم يلقاه، ويتضاعف غيظه، ويعود غير ذلك الحكيم تلماك الذي هذبته منرفا في صورة منتور، أي يظهر مسعورًا أو أسدًا ثائرًا.

وينادي هبياس من فوره بقوله: «قف يا أنذل الناس! قف! سنرى هل تستطيع أن تنزع مني ما غنمت ممن غلبت، لن تسوق أسلابي إلى ترانت، اذهب واهبط إلى ظلمات ستكس لساعتك.»

قال هذا ورشقه بسهمه، وبلغ من الهياج حين رميه ما لم يستطع أن يقيس معه ضربته، ويخطئ السهم هبياس، ولم يلبث تلماك أن تناول حسامه الذي كان ذا مقبض من ذهب، والذي كان لئرت قد أعطاه إياه حينما غادر إيتاك ليكون عربون حنانٍ لديه، وكان لئرت قد انتفع بهذا السيف انتفاع ماجد بالغ المجد حينما كان جَذَعًا، وكان ملطخًا بدم كثير من ربابنة الإيبريين في أثناء حرب انتصر فيها لئرت، ولم يكد تلماك يستل هذا السيف حتى انقض هبياس، الذي أراد اغتنام فرصة قوته، لينزعه من يدي ابن أوليس الشاب، ويتكسر السيف في أيديهما، ويقبض كل منهما على الآخر، ويضغط كل منها الآخر، ويظهران مثل ضاريين يحاول كل منهما أن يمزق الآخر، ويتطاير الشرر من أعينهما، ويتقلصان، ويمتطلان،[1] ويَوْطآن ويطولان، وينزوان،[2] وإلى الدم يعطشان، ويتصارعان، وتلتف السيقان والذرعان، فيلوح أن هذين الجسمين المشتبكين لا يؤلفان غير بدن واحد، بيد أن أسنهما هبياس كان يظهر مرهقًا لتلماك الذي كان شبابه الغض أضعف عضلًا، ويضيق نفس تلماك، ويشعر بترنح ركبتيه، ويرى هبياس ارتجاجه، ويضاعف جهوده، وكان يفرغ من أمر ابن أوليس، وكان يحتمل نتيجة تهوره وفورانه لو لم تقرر منرفا أمر فوزه، وهي التي ترقبه عن بعد، وهي التي لم تدعه يعاني أقصى الخطر إلا لتؤدبه.

أجل، إنها لم تغادر سلنتة قط، وإنما أرسلت مرسال الآلهة العجول: إيريس، وتطير هذه المرسال على جناح السرعة، وتشق مساوف الهواء الواسعة تاركةً وراءها أثرًا من النور طويلًا مصورًا لسحابة ذات ألف لون، وهي لم تسترح إلا على شاطئ البحر حيث معسكر جيش الحلفاء اللجب، وهي تشاهد من بعيد نزاع المتعاركين وحُمَيَّاهما وجدهما، وهي ترتعش من رؤية الخطر الذي يحيق بالشاب تلماك، وهي تدنو محاطةً بغمامة وضيئة ألفتها من الأبخرة اللطيفة، وبينا كان هبياس يشعر بكمال قوته ويعتقد أنه منصور غشت إيريس ربيب منرفا الشاب بالمجن الذي أودعته هذه الآلهة عندها، ولم يلبث تلماك، الذي نهكت قواه، أن أخذ ينتعش، وكلما كان تلماك ينتعش ارتبك هبياس وحار بأمر رباني

[1] امتطل: طال والتف.

[2] نزا: وثب.

مرهق له، ويضغطه تلماك ويصول عليه متخذًا وضعًا تارةً ووضعًا آخر تارةً أخرى، ويزعزعه، ولا يدع له ثانيةً يهدأ فيها، وأخيرًا يطرحه وينقض عليه، وما كانت دوحة البلوط، التي تقطع في جبل إيدا بألف ضربة فأس يدوي بها جميع الغابة؛ لتحدث صوتًا، عند سقوطها، أفظع مما أحدث هبياس عند سقوطه، فقد رنت الأرض بذلك كما اهتز جميع الجوار.

وقد عادت الحكمة إلى تلماك مع القوة، ولم يكد هبياس يسقط تحت ابن أوليس حتى أدرك هذا الابن خطأ مهاجمته أخًا لأحد الملوك المتحالفين الذين أتى لإنجادهم، أي أنه ذكر في نفسه، مع الارتباك، ما كان منتور قد حباه به من نصائح غالية، فخجل من نصره، وأدرك مقدار ما كان يستحق من قهره، ويكون فلنت بالغ الغضب في تلك الساعة، ويُهرع إلى مساعدة أخيه، وكاد يطعن تلماك بسهم كان يحمله لو لم يخش أن يطعن، أيضًا، هبياس الذي كان مطروحًا على التراب تحته، أجل، كان ابن أوليس يستطيع أن ينزع حياة عدوه بلا عناء، ولكن بما أن الغضب قد ذهب عنه عاد لا يفكر في غير إصلاح خطئه بإظهار اعتداله، وينهض، ويقول: «أكتفي، يا هبياس، بأن تعلم مني عدم ازدراء فتائي، عاش هبياس! أعجب ببأسك وبسالتك، لقد أجارتني الآلهة، فاخضع لسلطانهم، ولا نفكر في غير قتال الدونيين معًا.»

وبينما كان تلماك يقول ذلك نهض هبياس مستورًا بالرَّغام والدم، مملوءًا خزيًا وغيظًا، ولم يجرؤ فلنت على نزع حياة ذاك الذي وهب الحياة لأخيه بسخاء، ويحار، ويضطرب، ويسرع الملوك المتحالفون، ويفرقون بين تلماك وفلنت وهبياس الذي خسر زهوه ولم يسطِع أن يرفع عينه، ويقضي جميع الجيش كل العجب من كون تلماك الشاب، الذي لا تكتمل قوى من يكون في مثل سنه من الرجال، قد استطاع أن يطرح هبياس الذي يشابه ببأسه وعظمه غيلان الأرض الذين أقدموا في الماضي على طرد الخالدين من الألنب.

بيد أن من المستبعد أن يتمتع ابن أوليس بلذة هذا النصر، فبينا كان محل إعجاب انزوى في خيمته خجلًا من غلطه ضائقًا بنفسه ذرعًا، ويئن من تسرعه، ويعرف ما ينطوي عليه هياجه من جور وعدم صواب، ويجد ما يشتمل عليه هذا الزهو البالغ الطاغي من بُطْل وضعف ولؤم، ويعلم أن العظمة الحقيقية لا تكون إلا في الاعتدال والعدل والتواضع والحلم، وهو يبصر جميع هذا، ولكن من غير أن يجرؤ على رجائه إصلاح نفسه بعد تكرار هذه الزلات، وهكذا كان ينازع نفسه فيسمع له هدير كزئير الأسد الهائج.

ويقبع تلماك في خيمته يومين وحده، وذلك مع معاقبته نفسه ومن غير أن يستطيع القطع في الاشتراك في أي مجتمع كان، ويقول تلماك في نفسه نادمًا: «آه! هل أجرؤ على

الاجتماع بمنتور ثانيةً؟ هل أنا ابن أوليس الذي هو أحكم الناس وأكثرهم صبرًا؟ وهل جئت لأحمل بذور الشقاق والفساد في جيش الحلفاء؟ وهل يجب علي أن أسفك دمهم، لا دم أعدائهم الدونيين؟ لقد كنت متهورًا، ولم أستطع حتى رمي سهمي، وقد عرضت نفسي لقتال هبياس مع تفاوتنا قوةً، وقد صرت لا أنتظر غير الموت مع عار الانكسار، ولكن ما أهمية ذلك إذا ما عدت غير موجود، إذا ما عاد تلماك الهيِّر الأرعن، الذي لا ينتفع بأية نصيحة كانت، غير موجود، أي إذا ما انتهى خزيي بانتهاء حياتي؟ آه! ليتني أستطيع أن آمل، على الأقل، ألا أعود إلى صنع ما أنا نادم على فعله! إذن أصبح سعيدًا جدًّا، إذن أصبح سعيدًا جدًّا، ولكن من المحتمل ألا ينصرم النهار قبل أن أعمل، أو أريد أن أعمل، عين السيئات التي توجب الآن خجلي أو تثير نفوري، يا له من نصر مشئوم! يا له من ثناءٍ لا أطيق! يا له من مدح أعده لومًا على حماقتي!»

وبينما كان وحيدًا لا عزاء له أتى نسطور وفلكتت لزيارته، وقد جاءه نسطور لينبهه على ما اقترف من خطأ، ولكن بما أن هذا الشيخ الحكيم أدرك من فوره مقدار حزن هذا الشاب حوَّل تأنيبه إلى كلام لين تسكينًا لغمه.

وقد وقف الأمراء المتحالفون زحفهم بسبب هذا النزاع، وما كانوا ليستطيعوا السير إلى العدو إلا بعد إصلاح ما بين تلماك وفلنت وهبياس، وكان يُخشى في كل ساعة أن تصول كتائب ترنت على مائة الشاب الأقريطشي الذين اتبعوا تلماك في هذه الحرب، وكل كان مضطربًا بسبب خطأ تلماك وحده، بسبب تلماك الذي كان يحيط به كثير من الشرور الحاضرة والأخطار القادمة، فيساوره ألم شديد، ويغدو الأمراء في ضيق شديد، ولا يُقدمون على أمر الجيش بالزحف خشية اصطراع أقريطشيي تلماك وترنتيي فلنت، ويُبذل جهد شاق لرد جماحهم في المعسكر الذي كانوا يُرقبون فيه عن كثب، ولم ينفك نسطور وفلكتت يترددون ذهابًا وإيابًا بين خيمة تلماك وخيمة الحَقود فلنت الذي كان لا يُفكر في غير الانتقام، وما كانت بلاغة نسطور المؤثرة ونفوذ فلكتت العظيم ليسكنا فؤاد فلنت الجافي الذي ما فتئ يثور بفعل كلام أخيه هبياس المملوء غيظًا، ويظهر تلماك أكثر رأفةً، ولكن مع هدِّه بألم لا يمكن أن يخففه شيء.

وبينا كان الأمراء في هذا الهرج والمرج كانت جميع الكتائب واجمةً ذُعرًا، وكان جميع المعسكر يظهر كبيت حزين فَقَدَ صاحبَه الذي هو سند جميع أقربائه ومحل أمل حفدته، وبينا كان يسود الجيش هذا الارتباك والهلع بوغت الجمع بسماع ضجيج هائل صادر عن عربات وسلاح وصهيل خيل وصراخ أناس بعضهم غالب توَّاق إلى القتل وبعض آخر منهم

فارٌّ أو محتضَر أو مجروح، وتتألف من دُجى النقع طبقة كثيفة تحجب السماء وتكتنف جميع المعسكر، ويُضاف إلى الغبار دخان ثخين يكدر الجو ويقف النفس، ويُسمع صوت أصم مشابه لصوت أعاصير اللهب الذي يقذفه جبل إتنة من أعماق بطنه المضطرم، وذلك على حين يُطرِّق فلكن والسكلوب صاعق لأبي الآلهة، ويكاد الفزع يخلع القلوب.

وبيان الأمر أن اليقظ الجَلْد، أدرست، باغت الحلفاء بعد أن كتم عنهم زحفه واطلع على سيرهم، وبعد أن أسرع مدة ليلتين، بما لا يُصدق، في الدور حول جبل وعر استولى الحلفاء على جميع مسالكه، وأن الحلفاء، بعد أن استولوا على جميع سبل هذا الجبل، اعتقدوا أنهم في مأمنٍ، وزعموا أنهم يستطيعون، بهذه الدروب التي قبضوا عليها، أن ينقضوا على العدو خلف الجبل عندما تصل إليهم الكتائب التي ينتظرون، وأن أدرست، الذي كان يوزع المال ذات اليمين وذات الشمال ليعرف سر أعدائه، اطلع على مقاصدهم؛ وذلك لأن الربانَيْنِ البالغَيِ الحكمة والحنكة، نسطور وفلكتت، لم يكونا كاتمين للسر في مغامراتهما، فأما نسطور فقد كان، في هذا الدور من المشيب، يُسَرُّ بقصه كل ما يمكن أن يجلب إليه شيئًا من الثناء، وأما فلكتت، وإن كان أقل كلامًا عن طبع، فقد كان نزقًا، فإذا ما حُث هياجه قليلًا حُمل على بيان ما كان يرغب في السكوت عنه، وقد وجد المحتالون مفتاح فؤاده الذي يستخرجون به أهم أسراره، أي ما كان عليهم إلا أن يُهيجوه حتى يثور ويفقد اتزانه ويتوعد ويُباهي بحيازته وسائل وثيقةً ينال بها ما يريد، وكان، على ما يكتنف هذه الوسائل من ظنون، يبادر إلى إيضاح أمرها بلا روية، فيبوح بأدق الأسرار، وما كان فؤاد هذا الربان الكبير ليستطيع كتم شيء، شأن الإناء الثمين المتصدع الذي يسيل منه ألذ المشروبات، وما كان ليُعْوِزَ الخائنين، الذين فسدوا بمال أدرست، أن يعبثوا بضعف هذين الملكين، ومن ذلك أن كانوا يصانعون نسطور بالمدائح الباطلة بلا انقطاع، ويذكرونه بسابق انتصاراته، ويُطرون بصره بالأمور، ولا يسأمون من الثناء عليه، ومن ذلك أن كانوا لا يكلون من نصب الحبائل لذي الطبع الهلوع، فلكتت، فلا يحدثونه إلا عن المصاعب والمعاكسات والأخطار والمشاكل والأغاليط التي يتعذر إصلاحها، فإذا ما أُلهب صاحب هذا المزاج السريع الانفعال توارت حكمته، وعاد لا يكون الرجل نفسه.

وكان تلماك أكثر حذرًا وكتمًا للسر على الرغم من النقائص التي ذكرنا، وقد مَرَنَ على هذا بمصائبه وباضطراره إلى الاختفاء من عشاق بنلوب، وكان يعرف أن يحفظ السر من غير أن يكذب، وذلك مع عطله من مثل هيئة كاتمي السر المعتادة القائمة على التحفظ والغموض، وذلك أنه كان لا يظهر مثقَلًا بحمل السر الذي يجب أن يحفظه، أي أنه كان

يُرى في كل وقت طليقًا صريحًا غير متصنع كمن يكون قلبه على شفتيه، ولكنه إذا ما قال كل ما يستطيع أن يقول بلا حاصل عرف أن يقف بلا تكلف عند حد الأمور التي يمكن أن تكون محل ظنون وإفشاء سر، وبدا فؤاده منيعًا لا يمكن نفوذه، حتى إنَّ أصلح أصدقائه كانوا لا يعرفون غير ما يرى من المفيد كشفه لهم وصولًا إلى نصائح حكيمةٍ، ومنتور وحده هو الذي لا يحترز منه على الإطلاق، أجل، إنه يثق بأصدقاء آخرين، ولكن على درجات، وعلى نسبة ما اختبر من صداقتهم وحكمتهم.

ومما لاحظ تلماك، في الغالب، أن قرارات المجلس كانت تشيع في المعسكر بعض الشيء، فوجه إلى ذلك نظر نسطور وفلكتت: بيد أن هذين الرجلين المحنكين لم يلتفتا إلى هذا الرأي النافع بما فيه الكفاية، وذلك لبعد المشيب من المرونة، ولأن العادة قيدت المشيب ولا حيلة للمشيب حيال نقائصه، ولا عجب، فالناس إذا ما بلغوا حدًّا معينًا من العمر عادوا غير قادرين على مقاومة بعض العادات التي تشيب معهم وتنفذ حتى المخ من عظامهم، وهم في هذا كالأشجار التي صلبت سوقها العقد القاسية في كثير من السنين فعاد لا يمكن تعديلها، وهم يعرفون تلك العادات غالبًا، ولكن بعد الأوان، وهم يئنون منها على غير جدوى، ودور الشباب وحده هو السن التي يستطيع الإنسان أن يسيطر فيها على نفسه وأن يقومها.

وكان يوجد في الجيش رجل من الدلوب اسمه أريماك، وكان هذا الدلوبي مرائيًا مداريًا قادرًا أن يلائم جميع أذواق الأمراء وميولهم، كما كان أريبًا في الخداع ماهرًا في البحث عن كل وسيلة جديدة ليروقهم، وكان مَن يسمعه يجد أنه لا عسر عنده، وكان، إذا ما سئل عن رأيه، يحزر ما يقع عند السائل موقع الرضا، وكان ساخرًا ماجنًا حيال الضعفاء ملاطفًا تجاه من يخاف من الرجال، حاذقًا في صوغ المدائح الدقيقة التي يحسن قبولها حتى عند أكثر الناس تواضعًا، وكان يظهر رصينًا نحو كل رصين داعبًا نحو كل داعب، أي كان يسهل عليه أن يلبس لكل حالة لَبُوسها، وما كان الفضلاء المخلصون الثابتون الذين يعملون بمبادئ الفضيلة ليقعوا موقع الرضا، كما يقع أريماك، لدى الأمراء التابعين لأهوائهم.

وكان أريماك خبيرًا بالحرب قديرًا في أمور الإدارة، وكان مغامرًا انحاز إلى نسطور وحاز ثقته، وكان يستخرج كل ما يريد أن يعرف من فؤاد نسطور المغتر الذي يؤثر فيه بالمدح، ومع أن فلكتت كان لا يثق به مطلقًا فإن الغضب والهلع كانا يصنعان منه ما تصنع الثقة في نسطور، فما كان على أريماك إلا أن يناقره ويثيره حتى يطلع منه على كل شيء، وكان أريماك قد نال مبالغ كبيرةً من أدرست كيما يخبره بجميع خطط الحلفاء،

وكان يوجد في جيش ملك الدونيين جنود يلجأون إلى معسكر الحلفاء على أن يعود الواحد منهم بعد الآخر إليه، فكان أريماك، كلما وُجد أمر مهم يرى إطلاع أدرست عليه، يرحل أحد هؤلاء الجنود اللاجئين، وما كان ليمكن أن تعرف الخديعة بسهولة ما دام هذا الجندي اللاجئ لا يحمل كتابًا، وهو إذا ما فوجئ لم يضبط معه شيء يكون به أريماك ظَنِينًا، ويطَّلع أدرست على جميع خطط الحلفاء في تلك الأثناء، وكان المجلس إذا ما اتخذ قرارًا صنع الدونيون ما يحولون به دون نجاحه، ولم ينفك تلماك يبحث عن السبب ويثير حذر نسطور وفلكتت، ولكن على غير جدوى، فقد عميا.

وكان مما أقره المجلس أن ينتظر وصول الكتائب الكثيرة التي لا بُدَّ من مجيئها، وقد أرسلت مائة سفينة في الليل سرًّا لتجلب هذه الكتائب إلى المعسكر على عجل، وذلك من ساحل وعر جدًّا، وكان جمع الحلفاء يعتقد أنه في مأمن ما دام قابضًا على مضايق الجبل المجاور المنيع الذي هو من سلسلة الأبنين، وكان المعسكر على ضفاف نهر غاليز القريبة من البحر، وكانت هذه الحقول غنيةً بالمراعي وبجميع الثمرات التي تستطيع إطعام الجيش، وكان أدرست خلف الجبل، وكان يُحسَب أنه لن يستطيع المرور، ولكن بما أنه علم أن الحلفاء لا يزالون ضعفاء، وأنهم ينتظرون مددًا كبيرًا، وأن المراكب تنتظر وصول الكتائب التي لا بُدَّ من قدومها، وأن الجيش منقسم بسبب النزاع بين تلماك وفلنت، فإنه بادر إلى القياد بدورة عظيمة، ويبلغ ساحل البحر مواصلًا سيره ليل نهار، ويمر من دروب كان يعتقد أنها غير مسلوكة، وهكذا فإن الإقدام والعمل المتصل يزيلان أعظم العوائق، وهكذا فإنه لا مستحيل، تقريبًا، لدى ذوي الجرأة والصبر، وهكذا فإن الراقدين، الذين يعدون المصاعب من المستحيلات، يستحقون أن يفاجأوا وأن يُرهَقوا.

ويباغت أدرست عند الفجر مائة المركب التي هي ملك الحلفاء، وبما أن هذه السفن كانت سيئة الحراسة، وكان لا يحذر من شيء، فإنه استولى عليها بلا مقاومة وانتفع بها في نقل كتائبه عن مصب نهر غاليز بسرعة لا توصف، ثم سار نحو منبع النهر على جناح السرعة، وظن الجنود، الذين كانوا في المراكز الأمامية حول المعسكر عند النهر، أن هذه المراكب أتت بالكتائب المنتظرة، وتعلو هتافات الفرح، وينزل أدرست وجنوده إلى البر قبل أن يُعرفوا، وينقضون على الحلفاء الذين لم يأخذوا حِذرهم، ويجدونهم في معسكر مكشوف بلا نظام ولا رؤساء ولا سلاح.

وكانت الناحية التي هاجم أدرست منها في البداءة هي جهة الترنتيين الذين يقودهم فلنت، ويدخل الدونيون هناك بصولة لم يقدر أن يصدها شبان اللكدمونيين الذين أُخذوا

على حين غفلة، وبينا كان هؤلاء يبحثون عن سلاحهم متدافعين مرتبكين أشعل أدرست المعسكر، ولم يلبث اللهب أن تصاعد من الخيام وبلغ السحاب، وكان زفير النار كهدير السيل الذي يغمر جميع الحقول جارفًا في أثناء اندفاعه أشجار البلوط العظيمة مع جذورها والغلات والأهراء[٣] والزراب والقطاع، وتدفع الرياح ذاك اللهب من خيمة إلى خيمة بصولة، ولم يعتم المعسكر أن صار مثل غابةٍ قديمة أحرقتها شرارة.

ولا يستطيع فلنت، الذي يرى الخطر عن كثب، أن يتداركه، وهو يدرك أن جميع الكتائب تهلك في هذا الحريق إذا لم يبادر إلى مغادرة المعسكر، ولكنه يدرك، أيضًا، مقدار ما في بلبلة هذا التقهقر من الخطر أمام عدو ظافر، فيأخذ في أمر الشبيبة اللكدمونية، التي لا تزال نصف عزلاء، بالخروج، بيد أن أدرست لا يدع لهم مجالًا يتنفسون فيه على الإطلاق، فمن ناحية ترى كتيبةً من النبالة الماهرين يطعنون بسهامهم، التي لا تحصى، جنود فلنت، ومن ناحية أخرى ترى رماةً بالمقلاع يقذفون وابلًا من الحجارة الضخمة، ويسير أدرست نفسه، والسيف في يده، على رأس كتيبةٍ مختارة من أشجع الدونيين متعقبًا، على نور النار، كتائب العدو الفارة، ويحصد بالحديد القاطع كل من سلم من النار، ويسبح في الدم ولا يشبع من الذبح، وما كانت الأسود والنمار لتساويه صولةً عندما تفترس الرعاء مع قطاعها، وتنحلُّ قوة كتائب فلنت وتعوزها الشجاعة، ويجمد الدم في عروقها بفعل إله الموت الذي تسوقه زبانية جهنم المزبئر رأسها بالأفاعي، وتتصلب أعضاؤها الخدرة، وتقضي ركبهم المترنحة حتى على أملهم في الفرار.

ويرفع فلنت، الذي يجد بقية قوةٍ وبأس عن حياء ويأس، يديه وعينيه نحو السماء، ويرى سقوط أخيه هبياس على رجليه تحت الضربات التي تُنزلها يد أدرست الهائلة، ويتململ هبياس على التراب، ويسيل من جُرحه العميق في جنبه دم فائر كأنه جدول، وتُطبق عيناه حيال النور، ويفيض روحه مع دمه، ويُبصر فلنت، المغمور بدم أخيه من غير أن يقدر على إنجاده، أنه محاط بجمع من الأعداء يحاول صرعه، ويُخرق ترسه بألف سهم ويُجرح في نواحٍ كثيرة من جسمه، ويعود عاجزًا عن جمع شمل كتائبه الفارة، ويراه الآلهة، ولا يرحمونه مطلقًا.

وكان جوبيتر، المحاط بجميع الآلهة، ينظر، من فوق جبل الألنب، إلى ذبح الحلفاء، ويرجع إلى الأقدار التي لا رادَّ لها، ويرى جميع الرؤساء الذين لا بُدَّ من قطع نسيجهم في

[٣] الأهراء: جمع الهرى، وهو بيت كبير يُجمع فيه القمح وغيره.

ذلك اليوم بمقص البارك، وكان كل من الآلهة كثير الانتباه إلى وجه جوبيتر كيما يعرف إرادته، ولكن أبا الآلهة والناس هذا قال لهم بصوتٍ لينٍ رصين: «ترون أية شدة يعاني الحلفاء، وترون أدرست الذي يُنكل بجميع أعدائه، بيد أن هذا منظر خادع، فحبل مجد الأشرار ونجاحهم قصير؛ ولذا فلن ينال الملحد المقيت لسوء نيته، أدرست، نصرًا مؤزرًا مطلقًا، ولا يُصاب الحلفاء بهذا البلاء إلا ليعرفوا كيف يُصلحون أنفسهم وكيف يكتمون سر خططهم، وهنا تُعد الحكيمة منرفا مجدًا جديدًا للشاب تلماك الذي يطيب لها.»

هنالك كف جوبيتر عن الكلام، ويداوم الآلهة على ملاحظة المعركة.

ويُخبر نسطور وفلكتت، في تلك الأثناء، بأن قسمًا من المعسكر قد أُحرق، وأن اللهب المدفوع بالريح يتقدم بلا انقطاع، وأن الكتائب فقدت نظامها، وأن فلنت عاد لا يستطيع أن يقف صولة الأعداء، ولم يكد هذا النبأ المشئوم يقرع آذانهما حتى أسرعا إلى السلاح وجمع القادة والأمر بترك المعسكر على عجل اجتنابًا لهذا الحريق.

وينسى تلماك، الكامد الذي لا يُعزَّى، ألمه، ويتناول سلاحه الذي هو هبة ثمينة من منرفا الحكيمة في صورة منتور مدعيةً أنها أخذته من عامل ماهر في سلنتة، مع أنها كانت قد أمرت فلكن بصنعه في مغاور جبل إتنة الداخنة.

وكان هذا السلاح صقيلًا كالزجاج لامعًا كأشعة الشمس، وكان يُرى فيه نبتون وبلاس اللذان كان كل منهما ينازع الآخر شرف إطلاق اسمه على إحدى المدن الناشئة، وكان يُرى فيه نبتون وهو يضرب الأرض بخطافه الثلاثي الشوكات فيخرج منها حصان جامح يتطاير الشرر من عينيه والزبد من فمه، ويتموج شعره مع الريح، وتنثني ساقاه اللينتان العضلتان بشدة ورشاقة، ويثب بقوة ولا يسير مطلقًا، ويبلغ من سرعة القفز ما لا يترك معه أثرًا لخاطه، ويُظن أنه يصهل.

وكانت تُرى فيه منرفا وهي تُنعم على أهل مدينتها الجديدة بالزيتون، بثمرة هذه الشجرة التي غرست، والتي يمثل غصنها الحامل لثمرها ذاك السلام العذب الرخي المفضل على اضطراب الحرب التي يعد ذاك الحصان خيالًا لها، وكانت هذه الإلهة تظهر ظافرةً بهباتها البسيطة النافعة، وكانت مدينة أثينة الرائعة تحمل اسمها.

وكانت منرفا تُرى فيه وهي تجمع حولها جميع الفنون الجميلة التي تتجلى في أولاد أماليد[٤] مجنحين يلجأون إليها مذعورين من غضب مارس الذي يُخرب كل شيء، وذلك

[٤] الأماليد: جمع الأملود، وهو الناعم اللين من الناس أو الغصون.

كالحملان التي تلجأ إلى تحت أُمَّاتِها عندما ترى الذئب الجائع ينقض لافتراسها فاغرًا فاه مضطرمًا، وكانت منرفا، الأَنُوف الغضوب، تُخزي بمآثرها الرائعة أراكنة الرعناء التي أقدمت على منازعتها أمر إتقان الوشي، فيُرى تحول جميع أعضاء هذه الشقية الهزيلة إلى عنكبوت.

وكانت منرفا تظهر في حرب الغيلان من ناحية أخرى، فتعمل مستشارةً لجوبيتر نفسه وتشد أزر الآلهة الآخرين الذاهلين، وأخيرًا تبدو على ضفاف الإكزنت والسمويس مع سهمها ومجنها، آتيةً بأوليس من يده منعشة كتائب اليونان الفارة، مقاومة جهود أشجع قواد تروادة وأفعال هكتور الهائل نفسه، مدخلةً أوليس إلى ذلك الجهاز المقدر الذي يقضي على دول بريام في ليلة واحدة.

وكان هذا الترس يمثل، من ناحية أخرى، سيريس في حقول إنة الخصيبة الواقعة في وسط صقلية، وكانت هذه الإلهة ترى وهي تجمع الأهلين المبعثرين هنا وهناك باحثين عن طعامهم بالصيد أو ملتقطين الثمار البرية الساقطة من الأشجار، وكانت هذه الإلهة تعلم هؤلاء الناس الغلاظ فن تطرية الأرض واستخراج غذائهم من بطنها الخصيب، وكانت تُقدم إليهم محراثًا وتقرن به ثيرانًا، وكانت الأرض ترى مشقوقةً أتلامًا بحد المحراث، وكانت الحصائد الذهبية كاسيةً لتلك الحقول الخصيبة، كما يُرى الحاصد وهو يقطع بمنجله ثمرات الأرض اللذيذة، وهكذا فإن الحديد، المعد لتقويض كل شيء في الأماكن الأخرى، لا يُستعمل في هذا المحل إلا لإعداد اليسر ولإحداث جميع الملاذ.

وكانت الحوريات المتوجات بالزهور يرقصن معًا في مرج واقع على ضفة نهر بالقرب من غابة، وكان بان يعزف على الناي، وكانت حيوانات الإقليم وبنات الغاب تقفز في زاوية من المكان، وكان باخوس يظهر هناك، أيضًا، مُكللًا باللبلاب متكئًا بإحدى يديه على عِذْق،[٥] وممسكًا بيده الأخرى داليةً مزينة بغصونٍ وأوراقٍ وعناقيد كثيرةٍ، وكان باخوس هذا وسيمًا غضًّا مع نبلٍ وولعٍ وذبول، وكان باخوس هكذا حينما ظهر للبائسة أريانه على شاطئ مجهول ووجدها وحدها مهملةً غارقةً في لجةٍ من الألم.

وأخيرًا كان يُرى في كل ناحية جمع كثير مؤلف من شِيبٍ يحملون بواكير ثمارهم إلى المعابد، ومن شبانٍ يرجعون إلى أزواجهم تعبين من عمل النهار، ومن نساء يقصدن

[٥] العذق: عنقود العنب.

أزواجهن ممسكاتٍ بأيدي صغارهن ملاطفاتٍ لهم، وكان يُرى، أيضًا، رعاء مغنون راقصون على أنغام مزمارهم، وكل كان يُمثل السلام والرخاء والنعيم، وكلٌّ كان يظهر ضاحكًا سعيدًا، وكان يُرى في المراعي ذئاب ترتع بين الغنم، ويترك الأسد والنمر ضراءهما ويسرحان مع الحُملان الودعاء، ويسوقهما راعٍ صغير مع هذه الخراف بعصاه، فتذكر هذه الصورة بالعصر الذهبي.

ويحمل تلماك تلك الأسلحة الربانية، ويتناول، بدلًا من حمالته المعتادة، ذاك المجن الهائل الذي أرسلته منرفا إليه مع مرسال الآلهة السريعة: إيريس، وتنزع إيريس حمالته منه من غير أن يشعر: وتناوله، بدلًا منها، ذاك المجن المرهوب حتى لدى الآلهة أنفسهم.

ويُهرع خارج المعسكر، وهو في هذه الحال، اجتنابًا للهب، ويدعو إليه جميع رؤساء الجيش بصوتٍ جهيرٍ، ويُنعش هذا الصوت جميع الحلفاء الذاهلين، وتلمع نار ربانية في عيني هذا المجاهد الشاب، ويبدو حليمًا دائمًا، طليقًا هادئًا دائمًا، عاكفًا على إصدار الأوامر دائمًا، وذلك كما لو كان شيخًا حكيمًا دءوبًا في تنظيم أمور أسرته وتأديب أولاده، وذلك مع ظهوره حازمًا سريعًا في التنفيذ، شأن النهر الصائل الذي يجر في جريته أثقل المراكب السائرة عليه فضلًا عن دحرجته أمواجه المزبدة مسرعًا.

ويشعر فلكتت ونسطور وزعماء المندور وغيرهم من الأمم بسلطان فيه يُذعن له الجميع، وتعوزهم حنكة الشيوخ، ويفقد جميع القواد قوة التأمل وصفة الحكمة، وتنطفئ في قلوبهم حتى الغيرة التي فُطر الناس عليها، ويُنصت الجميع، ويُعجب الجميع بتلماك، ويصطف الجميع ليطيعوه كما لو كانوا قد تعودوا ذلك، ويتقدم، ويصعد في تل، ويرقب وضع الأعداء، ثم يقضي، من فوره، بوجوب المبادرة إلى مباغتتهم وهم في فوضاهم التي فرضوها على أنفسهم حين إحراق معسكر الحلفاء، ويقوم بحركة تطويق على عجل ويتبعه أكثر القواد تدريبًا، ويغير على الدونيين من الخلف في وقت كانوا يعتقدون فيه أن جيش الحلفاء محاط بلهب الحريق، ويرتبكون بهذه المفاجأة، ويسقطون تحت يد تلماك كأوراق شجر الغاب في أواخر أيام الخريف، وذلك عندما تأتي ريح الشمال الشديدة بالشتاء فتئن بها سوق الشجر القديم وتهتز جميع الغصون، وتُكسَى الأرض بمن أسقط تلماك من الناس، ويطعن تلماك بسهمه قلب إفكلس الذي هو أصغر أولاد أدرست، وذلك أن إفكلس تصدى لتلماك في المعركة إنقاذًا لأبيه الذي ظن أنه أُخذ على حين غرةٍ من قِبَل تلماك، وكان كل من ابن أوليس وإفكلس وسيمًا قويًّا ماهرًا باسلًا، وكان كل منهما مثل الآخر قوامًا وحلمًا وسنًّا، وكان كل منهما عزيزًا على أبويه، ولكن مع كون إفكلس شبيهًا بزهرةٍ تفتحت

في الحقل فحان قطافها بمنجل الحصَّاد، ثم صرع تلماك أفريون الذي هو أشهر الليديين الآتين من إترورية، ثم طعن بسيفه كليومن الذي تزوج حديثًا فوعد زوجه بأن يحمل إليها غنائم العدو الثمينة، والذي لن يرى هذه الزوج.

ويشتاط أدرست غيظًا إذ يرى قتل ابنه العزيز وكثيرٍ من القادة وإفلات النصر من يديه، ويبدو فلنت، الذي أُسقط حتى رجليه تقريبًا، مثل القربان نصف المذبوح الذي تملص من السكين المقدس ففر بعيدًا من المذبح، وعاد أدرست لا يحتاج إلى غير دقيقة واحدة حتى يُجهز على هذا اللكدموني، ويسمع فلنت، الغارق في دمه ودم الجنود الذين يحاربون معه، صيحات تلماك القادم لنصره، ويشعر في هذه اللحظة بأن الحياة عادت إليه، وبتبدد السحابة التي تغشى عينيه، ويُبصر الدونيون هذا الهجوم المفاجئ، ويتركون فلنت ليدحروا العدو البالغ الخطر، ويظهر أدرست كالنمر الذي نزع الرعاة المتجمعون فريسته بعد أن كاد يلتهمها، ويبحث تلماك عنه في المعركة، ويريد أن يختم الحرب بغتةً بتخليص الحلفاء من هذا العدو الذي لا يُشفى له غليل.

بيد أن جوبيتر لم يُرد أن يُنعم على ابن أوليس بنصرٍ سريع رخيص، وكذلك منرفا أرادت أن يقاسي مصائب أطول من تلك تدريبًا له على حسن إدارة أمور الناس أكثر من قبل؛ ولذا فإن أبا الآلهة قد أبقى الملحد أدرست كيما يكون لتلماك من الوقت ما ينال فيه مجدًا وفضيلةً أكثر من قبل، وتُنقذ الدونيين سحابةٌ ركمها جوبيتر في الجو، وتُعرب صاعقةٌ هائلة عن مشيئة الآلهة، فيُخيل إلى الناظر أن القباب الخوالد في جبل الألنب الشامخ تسقط على رءوس الضعفاء الهالكين، وكانت البروق تشق السحاب بين القطبين، وبينا كانت تبهر الأبصار بنورها الثاقب كان الليل يُرخى سدوله، وينهمر المطر مدرارًا فيفصل بين الجيشين.

وينتفع أدرست بعون الآلهة من غير أن يتأثر بقدرتها، ويستحق بهذا الكُنُود أن يُدَّخَر لأقسى انتقام، ويُسرع في تسيير كتائبه بين المعسكر نصف المحترق والمستنقع الممتد حتى النهر، ويُبدي في قيامه بهذا الارتداد من المهارة والرشاقة ما يدل على سعة حيلته وسرعة خاطره، أجل، أراد الحلفاء، الذين شد تلماك عزيمتهم، أن يتعقبوه، ولكنه نجا منهم بفضل هذه الزوبعة، وكان في هذا كالطائر الخفيف الجناح الذي يفلت من حبائل الصائدين.

وعاد الحلفاء لا يفكرون في غير الرجوع إلى معسكرهم وتلافي خسارتهم، ولما دخلوا المعسكر رأوا ما تُسفر عنه الحرب من نتائج تثير الكدر، رأوا من المرضى والجرحى مَن لم يستطيعوا جر أنفسهم خارج الخيام فلم يقدروا أن يقوا أنفسهم من النار، فبدوا نصف

محرقين مخرجين نحو السماء صرخات أليمةً بصوت محزن مائل إلى الخفوت، ويمزق هذا فؤاد تلماك، ولا يستطيع تلماك أن يمنع نفسه من البكاء، ويحول عينيه عدة مرات عن نفور ورأفة، ولا يقدر أن يرى، من غير أن يرتعش، هذه الأجسام التي لا تزال حيةً مع مكابدتها موتًا طويلًا قاسيًا، وتشابه هذه الأجسام لحم الضحايا الذي يُحرق فتسطع رائحته في جميع الجهات.

ويقول تلماك صارخًا: «آه! هذه هي المصائب التي تؤدي إليها الحرب! يا للغيظ الأصم الذي يصدر عن هؤلاء التعساء الفانين! يا للأيام القليلة التي يقضونها فوق الأرض! يا لبؤس هذه الأيام! لم تعجيل موت قريب جدًّا! لم إضافة أحزان هائلة كثيرة إلى المرارة التي ملأ الآلهة بها الحياة القصيرة جدًّا؟ إنما الناس إخوة، ومع ذلك فإن بعضهم يفترس بعضًا! إن الضواري أقل قسوةً من الناس، ولا عجب، فالأسود لا تحارب الأسود، والنمار لا تحارب النمار، وهي لا تغير على غير حيوانات من أنواع أخرى، والإنسان وحده يصنع، على الرغم من عقله، ما لا تصنع الحيوانات الخالية من العقل، وأسأل ثانيةً: لم هذه الحروب؟ ألا توجد في العالم أرضون تزيد على ما يستطيع الناس أن يزرعوه؟ ما أكثر الأرضين الخالية! لا يستطيع الجنس البشري أن يعمرها، ماذا إذن؟! الحرب تشتعل في بلدان واسعة عن مجد زائف أو لقب فاتح باطل يريد الأمير أن يناله! وهكذا فإن رجلًا واحدًا، فرضه الآلهة على العالم عن غضب، يضحي بأناس كثيرين جافيًا إرواءً لصلفه! يحب أن يهلك الجميع، وأن يسبح الجميع في الدم، وأن يلتهم اللهب جميع الناس، وألا ينجو من الجوع من ينجو من الحديد والنار، وذلك كيما يعبث رجل واحد بطبيعة الإنسان كلها، فيجد في هذا الدمار الشامل لذته ومجده! يا له من مجد فظيع! وهل يكفي مقت من نسوا الإنسانية بهذا المقدار أو احتقارهم؟ كلا، كلا، ليس هؤلاء من أنصاف الآلهة، ليس هؤلاء من الناس أيضًا، يجب أن يكونوا موضع لعنة القرون التي يطمعون أن يكونوا محل إعجاب فيها، آه! يجب أن يحترز الملوك من الحروب التي يقومون بها! يجب أن يكون الملوك منصفين، ولا يكفي هذا، بل يجب ألا يكون للمصلحة العامة غنًى عنهم، لا ينبغي أن يُسفك دم الأمة إلا لإنقاذ هذه الأمة عند أقصى الضرورة، بيد أن النصائح المدالية، وزائف الآراء حول المجد، والغيرة الباطلة، والطمع الجائر الذي يستر بأروع الذرائع، والالتزامات الفارغة، كلها أمور تجر الملوك دائمًا تقريبًا إلى حروب يغدون بها تعساء، إلى حروب يخاطرون فيها بكل شيء من غير ضرورة، إلى حروب تورث رعاياهم أضرارًا كما تورث أعداءهم.»

وهكذا كان تلماك يبرهن.

ولكنه كان لا يكتفي بالرثاء لمصائب الحرب، بل كان يسعى لتخفيف هذه الويلات أيضًا، فكان يُرى ذاهبًا إلى الخيام ليسعف المرضى والمحتضَرِين بنفسه، معطيًا إياهم مالًا ودواء مسليًا مشجعًا بكلام مملوء ودادًا، وكان يُرسل من يقوم مقامه في زيارة من لا يستطيع زيارته.

وكان يوجد بين الأقريطشيين الذين معه شائبان يُدعى أحدهما ترومافيل ويُدعى الآخر نوزوفوج، وكان ترومافيل مع إيدومنه في حصار ترودة، وكان قد تعلم فن شفاء الجروح الرباني من ولدي إسكولاب، وذلك أنه كان يصب في أعمق الجروح وأشدها سمًّا سائلًا عطريًّا ماصًّا للحم الميت الفاسد من غير احتياج إلى بَضْع، ومكونًا بسرعة لحمًا جديدًا أسلم من اللحم الأول وأحسن.

وأما نوزفوج فلم ير ولدَيْ إسكولاب قط، وإنما كان عنده، بفضل مريون، كتاب مقدس سري أنعم إسكولاب به على ولديه، ثم إن نوزوفوج كان صديقًا للآلهة، وكان قد وضع مدائح تمجيدًا لولدي لاتون، وكان يُقدم في كل يوم شاةً بيضاء لا شِيَةَ فيها كقربان إلى أبولون الذي كان يستلهمه غالبًا، وكان إذا ما أبصر مريضًا عرف سبب مرضه من عينيه ولون وجهه وتكوين بدنه، وكان يُعطي أدويةً معرِّقةً فيدل بنجاح العرق على مقدار ما توجبه زيادة العرق أو نقصه من اضطراب في الجهاز البدني أو انتظام فيه، وكان يُعطي، عند الذبول، بعض الأشربة التي تقوي القلب والكبد والدماغ بالتدريج، وترجع الناس إلى شبابهم بتنقية دمهم، ولكن مع توكيده احتياج الناس إلى الطب في الغالب عن عدم اتصاف بالفضيلة والشجاعة.

ويقول نوزوفوج: «عار على الناس أن يصابوا بأمراضٍ كثيرة كهذه، ما دام حسن الأخلاق يؤدي إلى الصحة، ومن عمل البِطْنة تحويل الأطعمة المعدَّة لحفظ الحياة إلى سموم قاتلة، ومن عمل الإفراط في الملاذ تقصير أجل الناس أكثر من إطالة الأدوية له، ويكون الفقراء، في الغالب، أقل مرضًا من الأغنياء عن عُدْم فيهم دون هؤلاء؛ وذلك لأن الأطعمة التي تدالي الذوق كثيرًا وتحمل على الأكل فوق الحاجة تسمم بدلًا من أن تغذي، ويعد العلاج نفسه شرًّا حقيقيًّا يوهن الكيان فلا يجوز أن يستعمل إلا عند أقصى الضرورة، ويتجلى العلاج الناجح النافع في القناعة والاعتدال حيال جميع الملاذ وفي راحة البال وتمرين البدن، وهذا ما يسفر عن دم نقي معتدل، وهذا ما يبدَّد به جميع الأخلاط الزائدة.»

وهكذا فإن الحكيم نوزوفوج أقل إثارةً للعجب بأدويته مما بالنظام الذي ينصح باتباعه دفعًا للأمراض وجعلًا للأدوية غير مجدية.

وهذان الرجلان هما اللذان أرسلهما تلماك لعيادة جميع مرضى الجيش، وهما قد شفيا الكثيرين بأدويتهما، ولكن أكثر ما تجلى به شفاؤهما هو فيما بذلا من همةٍ في حملهم على استعمال الأدوية عند الضرورة، وذلك مع جدهما في نظافتهم وفي اعتراضهما بهذه النظافة دون فساد الهواء، وفي إلزامهم بنظام من القناعة التامة في أثناء نقههم.

ويتأثر جميع الجنود بهذه المساعدات فيحمدون الآلهة على إرسال تلماك إلى جيش الحلفاء.

ويقول الجنود: «ما هذا بشرًا، إن هذا إلا إله محسن في صورة إنسان، وهو إذا ما كان إنسانًا كان أكثر شبهًا بالآلهة مما بالناس، وهو لم يظهر في الأرض إلا لصنع الخير، وهو أكثر لطفًا بحلمه ورفقه مما ببسالته، يا ليتنا نستطيع أن نجعله ملكًا لنا! ولكن الآلهة يحفظونه لشعب آخر سعيد يحبونه فيريدون أن يجددوا العصر الذهبي به.»

وبينا كان تلماك ذاهبًا لزيارة أقسام المعسكر ليلًا عن حذر من مكايد أدرست سمع هذه المدائح التي لا يشوبها رئاء، والتي ليست من نوع مدح المنافقين للأمراء مواجهةً مع عطل هؤلاء الأمراء من التواضع واللطف، والتي يطرونهم فيها بلا حساب نيلًا للحُظْوة عندهم، وما كان ابن أوليس ليذوق غير ما هو حقيقي، وما كان ليطيق من المدائح غير التي تقال عنه في غيابه سرًّا، والتي يستوجبها حقًّا، أجل، إن فؤاده ليس جافيًا حيال هذه المدائح، أجل، إنه يذوق هذه اللذة العذبة الصافية التي أناطها الآلهة بالفضيلة وحدها والتي لا يمكن أن يشعر بها الأشرار ولا أن يدركوها عن عدم اختبار، ولكنه لا يُقبل على هذه اللذة مطلقًا؛ وذلك لأن خطاياه لا تلبث أن ترجع إلى ذهنه جملةً، ولأنه لا ينسى زهوه الطبيعي وعدم اكتراثه للناس، ولأنه يخجل سرًّا من ولادته جافيًا وظهوره إنسانيًّا، فتراه يرد إلى الحكيمة منرفا جميع المجد الذي نال والذي يعتقد عدم استحقاقه إياه.

وقد كان يقول: «أنتِ، أيتها الإلهة العظيمة، هي التي أنعمت علي بمنتور لتهذيبي ولإصلاح سوء طبعي، أنتِ التي أنعمت عليَّ بحكمة الاستفادة من سيئاتي حتى أحذر نفسي، أنت التي تزجر أهوائي الصائلة، أنتِ التي تشعرني بلذة تفريج الغم عن البائسين، ولولا أنتِ لكنت ممقوتًا جديرًا بأن أُمقت، ولولا أنتِ لاقترفت ذنوبًا يتعذر إصلاحها، ولكنت كالصبي الذي لا يشعر بضعفه فيترك أمه ويقع منذ الخطوة الأولى.»

ويُدهَش نسطور وفلكتت إذ يريان تحول تلماك إلى رجلٍ بالغ الحلم، كثير الإحسان إلى الناس، شديد الميل إلى صنع المعروف لهم وإلى إنجادهم، عظيم الجد في قضاء حاجاتهم، أي أنهما صارا لا يدريان ما يبصران وأنهما عادا لا يبصران فيه نفس الرجل الذي يعرفان،

وكان أشد ما دهشا له هو ما بذل من همةٍ في مأتم هبياس، فقد ذهب لإخراج جثته الدامية المشوهة من المكان الذي حجبت فيه تحت كومة من الجثث، ويسكب عليها عبرات سخينة، ويقول: «الآن تعرف، أيها الطيف العظيم، مقدار تقديري لبسالتك! أجل، كنت قد أثرتني بزهوك، بيد أن نقائصك صدرت عن شباب مضطرم، وأعلم مقدار ما يحتاج إليه هذا العمر من صفح، وقد غدونا متفقين اتفاقًا خالصًا فيما بعد، وقد أخطأت من ناحيتي، فلم اختطفتموه مني، أيها الآلهة، قبل أن أستطيع حمله على حبي؟»

ثم غسل تلماك جثته بسوائل عطرية، ثم أمر بإعداد كومة حطب، وكانت أشجار الصنوبر تئن تحت ضربات الفئوس فتسقط متدحرجةً من أعلى الجبال، وتسقط على ضفة نهر غاليز أشجار البلوط التي هي أولاد أقدمون للأرض يتوعدون السماء كما يلوح، وتسقط على هذه الضفة، أيضًا، أشجار الحَوَر العالية، وأشجار الدردار التي تزين رءوسها أوراق خضر كثيفة إلى الغاية، وأشجار الزان التي هي فخر الغاب، وهناك ترتفع كومة مشابهة للبيت المنتظم، ويأخذ اللهب في الظهور، وتتصاعد عاصفة من الدخان حتى السماء.

ويتقدم اللكدمونيون بخطًا وئيدة محزنة منكَّبِي الحراب مطرقين ذارفي العيون مكتئبين، ثم يرى حضور الشيخ فرسيد الذي حنت السنون ظهره أقل مما هدَّه ألم بقائه حيًّا بعد هبياس الذي رباه منذ صباه، ويرفع فرسيد، نحو السماء، يديه وعينيه المغرورقتين، وقد امتنع فرسيد عن الطعام منذ قتل هبياس، وقد فارق النوم اللذيذ جفنيه منذ هذا الحادث، وقد حرم الرقاد الذي يسكن كربه العظيم ساعةً في اليوم، ويسير بخُطًا مرتجفة وراء الجمهور، ولا يدري أين يذهب، ولا ينطق بكلمةٍ لانقباض صدره كثيرًا، وهذا هو صمت اليأس وانحطاط القوى، ولكنه حينما أبصر اشتعال كومة الحطب ظهر صائلًا وقال صارخًا: «أي هبياس! لن أراك يا هبياس! عاد هبياس لا يكون، وأجدني حيًّا مع ذلك! أي هبياس العزيز، أنا الجائر، أنا الجافي، إذ علمتك ازدراء الموت! كنت أعتقد أنك تغمض عيني بيديك وأنك تقتطف نفسي الأخير، أيها الآلهة الطغاة، لقد أطلتم حياتي لأرى موت هبياس! أيها الفتى العزيز الذي ربيت والذي كلفتني رعايته غاليًا، لن أراك بعد الآن، ولكن سأرى أمك التي ستموت غمًّا حين تلومني على موتك، سأرى زوجك الفتاة وهي تلطم صدرها وتنتف شعرها، ثم أُعَدُّ سبب هذا! أيها الطيف العزيز، نادني إلى ضفاف ستكس، صرت أمقت النور، وأنت وحدك، يا هبياس العزيز، من أريد أن أرى، هبياس! هبياس! أيها العزيز هبياس! لم أبقَ حيًّا إلا لأقوم بالواجب الأخير نحو رمادك!»

وتُرى جثة الشاب هبياس مطروحةً محمولةً في تابوت مزين بالأرجوان والذهب والفضة، وما كان الموت، الذي أطفأ عينيه ليزيل جماله، وكانت الألطاف تظهر مرسومةً

على وجهه المصفر، وكان يُرى حول عنقه، الأشد بياضًا من الثلج والمائل إلى كتفه، تموُّج شعره الطويل الأسود الذي هو أجمل من شعر أتيس وغنميد، والذي سيتحول إلى رماد عما قليل، ويلاحظ على جنبه ذاك الجرح العميق الذي سال منه دمه فأوجب نزوله إلى مملكة بلوتون المظلمة.

ويتبع تلماك الحزين الموعوك تلك الجثة عن كثب، وينثر عليها زهورًا، فلما بلغ الموقد لم يستطع ابن أوليس أن يرى اللهب، وهو ينفذ النسائج المشتملة بها تلك الجثة، من غير أن يبكي مجددًا، وقد قال: «وداعًا يا هبياس الهُمام! وأدعوك بالهمام لأنني لا أجرؤ أن أدعوك صديقي! وداعًا أيها الطيف الذي استحق كثيرًا من المجد! لو لم أحبك لحسدتك على سعادتك، لقد نجوت من البؤس الذي لا يزال ملازمًا لنا، وقد خرجت منه بأمجد طريق، آه! ليتني أكون سعيدًا بأن أنتهي إلى مثل ما انتهيت إليه! آه! ليت نهر ستكس لا يعوق طيفك مطلقًا! آه! ليت الشنزليزه يفتح لك أبوابه! وليبقَ اسمك خالدًا في ذاكرة الأجيال وليرقد رمادك في سلام!»

ولم يكد تلماك يختم هذا الكلام الممزوج بالزفرات حتى أُعْوَل جميع الجيش، وترق القلوب لهبياس الذي أخذ الناس يذكرون مآثره وموته الأليم وجميع محاسنه، ناسين نقائصه التي أدى إليها شبابه الصائل وتهذيبه السيئ، وكان الجمع أكثر تأثرًا بمشاعر تلماك الرقيقة، قال الناس: «أذلك، إذن، حال هذا الشاب اليوناني البالغ الزهو والخيلاء والامتهان والجموح؟ ها هو ذا قد صار حليمًا رءوفًا حنونًا، لا ريب في أن منرفا التي أحبت أباه تحبه أيضًا، لا ريب في أن منرفا حَبَتْه بأثمن ما يمكن الآلهة أن ينعموا به على إنسان، أنعمت عليه بالحكمة وبقلب ودود.»

وتُحْرِق النار جميع البدن، وينضح تلماك بالسوائل المعطرة ذاك الرماد الذي لا يزال داخنًا، ثم يضعه في قارورة من ذهب مكللًا إياها بالزهور، ويحمل هذه القارورة إلى فلنت، وكان فلنت مستلقيًا مطعونًا بجروح كثيرة، وكان يُبصر من خلال ضعفه المتناهي أبواب جهنم القاتمة قريبةً منه.

وكان ترومافيل ونوزوفوج، المرسلان من قِبَل ابن أوليس، قد أمداه بكل إسعاف يقول به فنُّهما، ويردان إليه بالتدريج روحه الذي يوشك أن يفيض، وتُنعشه أرواح أخر من حيث لا يدري، وتسري قوة لطيفة نفاذة، يسري مرهم الحياة، من عرق إلى عرق حتى صميم فؤاده، وتحجبه حرارة مستحبة عن يدي الموت الجامدتين، والآن، إذ ذهب الوهن جاء دور الألم، وأخذ يشعر بفقد أخيه الذي لم يكن في حال يحسه فيها حتى هذا الحين،

ويقول: «آه! لم يُعنَى بي كثيرًا حتى أعيش؟ ألم يكن من الأفضل أن أموت وألحق بهبياس العزيز؟ لقد رأيته يهلك بجانبي، أي هبياس، أي حلاوة حياتي، أي أخي، أي أخي العزيز، عدت غير موجود؛ ولذا لن أراك، ولن أسمعك، ولن أقبلك، ولن أطلعك على همومي، ولن أسليك في همومك! أيها الآلهة العدو للناس! عاد هبياس غير موجود في نظري! أهذا ممكن؟ ولكن أليس هذا حُلمًا؟ كلا، بل هذا حقيقة واضحة، أي هبياس، لقد خسرتك، لقد أبصرت مصرعك، لا بُدَّ لي من حياة تكفي للانتقام لك، أريد أن أذبح الباغي الملطخ بدمك، أدرست، في سبيل روحك.»

وبينا كان فلنت يتكلم هكذا كان ذانك الحكيمان يحاولان تسكين ألمه خشية زيادة تعبه ووقف فعل الأدوية، وبينا كان على هذا الوضع حضر تلماك عنده، وكان أول ما ساوره عاملان متباينان، وذلك أنه كان يحفظ في نفسه غيظًا حول ما حدث بين تلماك وهبياس، فجعل ضياع هبياس هذا الغيظ أشد عنفًا، وأنه كان يعلم أنه مدين بحفظ حياته لتلماك الذي أنقذه من يد أدرست داميًا ونصف ميت، ولكنه عندما أبصر قارورة الذهب التي تشتمل على رماد أخيه هبياس العزيز عليه إلى الغاية سكب سيلًا من الدموع وعانق تلماك أول وهلة من غير أن يستطيع الحديث إليه، ثم قال بصوت ضعيف تقطعه الزفرات: «أي ابن أوليس وسر أبيه! إن فضيلتك تحملني على حبك، وأجدني مدينًا لك ببقية حياتي التي تنطفئ، ولكنني مدين لك بشيء أعز علي من هذا، وذلك أن جثة أخي كانت تذهب فريسة العِقبان لولا همتك، وأن طيفه، الذي يكون عاطلًا من اللحد، يطوف في ضفاف ستكس، ولا ينفك يدفع من قبل القاسي شارون مع الأسف، أوَ يجب أن أكون مدينًا كثيرًا لرجل مقتُّه كثيرًا؟ أيها الآلهة، أحسنوا جزاءه، وخلصوني من حياة بالغة الشقاء! وأنت، يا تلماك، أحسن إلي بآخر الخِدَم كما أحسنت إلى أخي، فلا يفوت مجدك شيء.»

نطق فلنت بهذا الكلام وظل منهوكًا موعوكًا بأشد الآلام، ويجلس تلماك بجانبه من غير أن يجرؤ على الحديث إليه منتظرًا استرداد قواه، ولم يعتم فلنت أن زال وهنه فتناول القارورة من يدي تلماك وقبلها غير مرة وبللها بدموعه وقال: «أيها الرماد العزيز! أيها الرماد الغالي! متى يكون رمادي معك في هذه القارورة؟ أي طيف هبياس، أنا تابع لك في الجحيم، وسينتقم لنا تلماك.»

ومع ذلك فإن مرض فلنت ينقص يومًا بعد يوم، وذلك بعناية الرجلين اللذين كان عندهما علم إسكولاب، ولم ينفك تلماك يكون معهما بجانب المريض حملًا لهما على تعجيل شفائه بمضاعفة العناية به، وكان جميع الجيش يعجب بالقلب الصالح الذي يسعف به

تلماك عدوه الأزرق أكثر من إعجابه ببسالته وحكمته اللتين أظهرهما في المعركة منقذًا جيش الحلفاء.

وكان تلماك، في الوقت نفسه، يظهر غير كالٍّ من أقسى أعمال الحرب، فينام قليلًا، ويقطع نومه في الغالب بما يتلقى من الآراء آناء الليل وأطراف النهار، أو بزيارة جميع أقسام المعسكر من غير أن يقوم بهذه الزيارة مرتين متتابعتين في الساعة نفسها، وذلك كيما يفاجئ من ليسوا يقظين بما فيه الكفاية، وكان تلماك يعود إلى خيمته، في الغالب، راشحًا عرقًا ومستورًا غبارًا، وكان طعامه بسيطًا، وكان يعيش كالجنود ليجعل من نفسه مثال القناعة والصبر، ويقل القوت في المعسكر فيرى أن يقطع تذمر الجنود بمعاناته، مختارًا، ما يعانون من ضنك، وكان بدنه يشتد ويجسأ كل يوم بدلًا من أن يهن في حياة شاقة جدًّا، وعاد غير حائز لتلك الألطاف الناعمة التي هي كزهرة الدور الأول من الشباب، ويظهر لونه أكثر اسمرارًا وأقل دقةً، وتظهر أعضاؤه أقل نعومةً وأكثر عصبيةً.

الجزء الرابع عشر

رأى تلماك، بعد منامات مختلفة، أن أباه عاد لا يكون في الدنيا، فنفذ خطته التي تصورها منذ زمن طويل للبحث عنه في الجحيم، توارى تلماك من المعسكر ليلًا، وذهب إلى غار أكرنسيا المشهور، إيغاله فيه بشجاعة وبلوغه ضفة ستكس حيث استقبله شارون في قاربه، مثوله أمام بلوتون الذي أذن له في البحث عن أبيه في الجحيم، كان الترتر، الذي رأى فيه عذاب الجاحدين وشاهدي الزور والملحدين والمنافقين ولا سيما أردياء الملوك، أول ما جاوز، ثم دخل الشنزليزه حيث نظر، مع اللذة، إلى السعادة التي يتمتع بها العادلون، ولا سيما الملوك الصالحون الذين أحسنوا سياسة الناس، اجتماعه بجده الأعلى، أرسزيوس، الذي وكد له حياة أوليس، وأنه سيعود، بعد قليل، إلى سلطانه في إيتاك حيث يملك هو وابنه من بعده، إنعام أرسزيوس على تلماك بأحكم النصائح حول فن الحكم، بيانه له مقدار حسن جزاء الملوك الصالحين الذين امتازوا في إقامة العدل والعمل بمبادئ الفضيلة، وزيادة هذا الثواب على ثواب من امتازوا ببسالتهم، خروج تلماك من مملكة بلوتون المظلمة، ورجوعه إلى معسكر الحلفاء على عجل.

ارتد أدرست، الذي وهنت كتائبه في المعركة كثيرًا، إلى خلف جبل أولون منتظرًا مددًا وجادًّا في مفاجأة أعدائه مرةً أخرى، فكان كالليث الجائع الذي دُحر من زريبةٍ فعاد منها إلى الغاب المظلمة ودخل عرينه حيث يشحذ أنيابه ومخالبه مرتقبًا الساعة الملائمة التي يفترس فيها جميع القطاع.

وعاد تلماك، بعد أن عني بإدخال نظام محكم إلى المعسكر، لا يفكر في غير تنفيذ خطة كانت قد عنت له فكتمها عن جميع رؤساء الجيش، وذلك أنه ما فتئ يتململ في ليالٍ كثيرةٍ حول منامات رآها عن أبيه أوليس، وأن صورة أبيه العزيزة كانت تعود إليه في آخر الليل، أي قبل مجيء الفجر ليطرد النجوم المتقلبة في السماء بنيرانه الناشئة، والنوم اللذيذ

الذي يعقبه في الأرض جائل الأحلام، وأنه كان يعتقد، تارةً رؤيته أوليس عاريًا على ضفة نهر جار في جزيرة سعيدة وواقع في مرج مرصع بزهور، محاطًا بحوريات يلقين إليه ثيابًا ليستر بها نفسه، وأنه كان يعتقد، تارةً أخرى، سماعه أوليس وهو يتكلم في قصر ساطع بالذهب والعاج حيث ينصت له مع اللذة والإعجاب رجال متوجون بزهور، وأن أوليس كان يظهر له، بغتةً، في الولائم غالبًا، في هذه الولائم حيث يسطع الفرح بين أطايب النعم وحيث يسمع ما بين الصوت الجميل والكنارة من توافق أحلى مما بين كنارة أبولون وصوت جميع عرائس الأدب.

وكان تلماك، إذا ما أفاق، اغتم من هذه الأحلام البالغة الحلاوة، وصرخ قائلًا: «أبتاه! أبتِ العزيز أوليس! تكون أفظع المنامات أحلاها عندي! أُدركُ بصور النعيم هذه أنك هبطت إلى مقر الأرواح المباركة التي يكافئها الآلهة براحة أبدية في الشنزليزه، وَيْ! ما أقسى انقطاع الأمل! ماذا إذن؟! لن أراك يا أبتِ العزيز! لن أعانق ذاك الذي كان يحبني كثيرًا ولا أزال أبحث عنه بعناء بالغ! لن أسمع نطق ذلك الفم الذي كانت الحكمة تخرج منه! لن أقبل تينك اليدين، تينك اليدين العزيزتين، تينك اليدين الظافرتين اللتين قهرتا كثيرًا من الأعداء! لن تعاقب تانك اليدان عشاق بنلوب الحمق! لن تنهض إيتاك بعد خرابها! أراكم، أيها الآلهة، أيها الأعداء لأبي، ترسلون إلي هذه الأحلام المشئومة كيما تنزعون مني كل أمل في فؤادي! ألا إن هذا نزع لحياتي! كلا، عدت لا أستطيع الحياة مع هذا الارتياب! ما أقول! آه! إنني موقن بأن أبي عاد لا يكون موجودًا، سأبحث عن طيفه في الجحيم أيضًا، لقد هبط تيزه إلى الجحيم، تيزه الملحد الذي أراد إهانة آلهة الجحيم، مع أنني ذاهب إليها عن تقوى، لقد هبط إليها هركول، ولست هركول، وإنما يعد من الجميل تقليده، وقد استطاع أورفه أن يؤثر، بقصة مصائبه، في فؤاد ذلك الإله الذي وصف بالقسوة ففاز منه برجوع أوريديس إلى الأحياء، وأراني أجدر من أورفه بالرأفة؛ وذلك لأن خساري أعظم من ذاك، ومن ذا الذي يستطيع أن يقيس فتاةً، مشابهةً لمائة فتاة أخرى، بالحكيم أوليس الذي يعجب به جميع الأغارقة؟ لنذهب، لنمت إذا ما وجب ذلك، ولم الخوف من الردى ما دام الألم كثيرًا بهذا المقدار في هذه الحياة؟ أي بلوتون! أي بروزربين! لا ألبث أن أبتلى إذا ما كنتما جافيين كما يسمع عنكما! أبتاه! سأذهب لأرى هل أنت في ظلمات مقر الأموات أو لا، وذلك بعد أن جُبت الأرضين والبحار على غير جدوى، وإذا كان الآلهة يحرمونني حيازتك فوق الأرض وتحت ضوء الشمس فمن المحتمل ألا يحرموني رؤية طيفك في مملكة الليل على الأقل.»

نطق تلماك بهذا الكلام مبللًا فراشه بدموعه، وينهض من فوره، ويستعين بالنور على تخفيف ما أوجبته فيه هذه الأحلام من ألم مُمِضٍّ، بيد أن سهمًا أصاب فؤاده، وهو يحمله في كل مكان، وبينا كان يعاني هذا الألم عزم على النزول إلى الجحيم من محل مشهور غير بعيد من المعسكر، ويسمى هذا المكان أكرنسيا بسبب وجود غار مرعب فيه يهبط منه إلى ضفاف الأكرون الذي يخاف حتى الآلهة أن يقسموا به، وكانت المدينة قائمةً على صخرة كأنها وكر[1] على شجرة، وكان يوجد عند أسفل هذه الصخرة ذاك الغار الذي كان الخُوَّف من الناس لا يجرءون على الاقتراب منه، والذي كان الرعاة يصدون قطاعهم عنه، وكان بخار مستنقع إستكس الكبريتي، الذي يسطع من تلك الفوهة بلا انقطاع، يفسد الهواء، وكان لا ينبت عشب ولا زهر في ذاك الجوار، وما كان ليُشعَر هنالك بنسيم لطيف، ولا بألطاف الربيع، ولا بهبات الخريف الزاخرة، أي أن الأرض الجديبة تَهِنُ هنالك، وكل ما يرى هنالك هو بضع شجيرات مجردة وبعض سروات نحسة، وكانت سيرس حول ذلك، حتى فيما بعد من ذلك، تضن على الزراع بحصائدها الذهبية، وكان يلوح من العبث إنعام باخوس بثماره الحلوة هنالك ما دامت عناقيد العنب تجف في ذاك المكان بدلًا من أن تنضج، وكان النائيد المكروبات لا يجرين موجًا صافيًا، فما انفكت أمواجهن تكون مرةً مكدرة، وكانت الطيور لا تغرد في هذه الأرض المزبئرَّة بالشوك والعوسج، وكان لا يوجد فيها غابة تأوي إليها، مفضلةً أن تترنم بحبها تحت سماء أكثر لطافةً، وكان لا يسمع غير نقيق الضفادع ونعيق الغراب، وكان الكلأ الذي تخرجه مرًّا فلا تشعر المواشي التي ترعاه بما يحفزها إلى القفز من نشوة السرور، وكان الثور يجتنب العجل، وكان الراعي الموعوك ينسى مزماره ونايه.

وكان يخرج من هذا الغار في الحين بعد الحين دخان كثيف أسود يحدث ما يشبه الليل في وسط النهار، وكانت الشعوب المجاورة تضاعف ضحاياها في ذلك الحين حتى يهدأ آلهة الجحيم، ولكن أخص ما كان يحدث، في الغالب، هو أن يتلهى هؤلاء الآلهة القساة بأن يقتلوا بالعدوى المشئومة مَن يكون في زهرة العمر وميعة الشباب فقط.

وهناك أزمع تلماك أن يبحث عن طريق مقر بلوتون المظلم، وكانت منرفا، التي لم تنفك ترقبه والتي كانت تستره بمجنها، قد جعلت بلوتون ملائمًا له، حتى إن جوبيتر قد

[1] الوكر: عش الطائر.

قبل رجاء منرفا فأمر مركور، الذي ينزل كل يوم إلى الجحيم ليسلم إلى شارون عددًا من الأموات، بأن يبلغ ملك الأطياف وجوب سماحه لابن أوليس بأن يدخل مملكته.

ويتوارى تلماك من المعسكر ليلًا، ويسير على نور القمر، ويتوسل إلى الإلهة التي تكون كوكب الليل في السماء الساطعة وتكون ديانا الطاهرة في الأرض وهكات المرهوبة في الجحيم، وتستمع هذه الإلهة إلى دعائه سماع المستجيب، وذلك لصفاء قلبه ولسيره عن حب تقي يقوم به الابن نحو أبيه، ولم يكد يكون قريبًا من باب الغار حتى سمع هدير مملكة ما تحت الأرض، وترتجف الأرض تحت خطاه، وتتسلح السماء بالبروق والنيران التي كان يلوح سقوطها على الأرض، ويحس ابن أوليس الشاب أن قلبه يهتز وأن جميع بدنه مستور بعرق جامد، بيد أنه تماسك عن بسالة، ورفع عينيه ويديه إلى السماء وصرخ قائلًا: «أيها الآلهة العظام! أرضَى بهذه الفُئُول المباركة كما أعتقد، فأتموا عملكم!»

نطق بهذا وضاعف خطاه، ودخل بجرأة.

ولم يلبث الدخان الكثيف، الذي يجعل مدخل الغار مشئومًا حيال كل حيوان يدنو منه، أن تبدد، وتنقطع الرائحة السامة لوقت قصير، ويدخل تلماك وحده، وأي إنسان آخر يجرؤ على اتباعه؟ لقد رافقه، لمسافة ما من الغار، أقريطشيان كان قد أسرَّ إليهما بمقصده فظلَّا راجفين نصف ميتين على بعد من هناك، أي في معبد يقومان فيه بنذور مع اليأس من رجوع تلماك.

ويوغل ابن أوليس في أفظع الظلمات شاهرًا سيفه، ولسرعان ما أبصر بصيصًا من النور كالذي يُرى في الليل على الأرض، ويلاحظ أطيافًا طفيفة تحوم حوله فيطردها بسيفه، ثم يُبصر ضفاف النهر الكئيبة، ضفاف هذا النهر المنقعة، ضفاف هذا النهر الذي لا تصنع مياهه الحمئة[٢] الراقدة غير الدوران، ومما اطلع عليه في هذه الضفاف وجود طائفة من الموتى لا تحصر حرمت اللحد فتمثل بين يدي شارون الجبار على غير جدوى، ويتوعدهم شارون، ويدفعهم هذا الإله الكئيب المشيب والدائم الغم، ويكون الشاب اليوناني أول من يقبل في قاربه، ولما دخل تلماك سمع أنين طيف لم يستطع أن يجد سلوانًا، وسأل: «ما بلاؤك إذن؟ ومَن كنت في الدنيا؟»

الطيف: «أنا نبوفرسان، وقد كنت ملكًا لبابل الرائعة، وقد كان جميع شعوب الشرق يرتجف عند ذكر اسمي، وقد حملت البابليين على عبادتي في معبد من رخام حيث مُثِّلت

[٢] الحمئة: ذات الحمأة، وهي الطين الأسود.

بتمثال من ذهب، وقد كان يحرق في المعبد ليل نهار أندَرُ عطورٍ إثيوبية، وما كان ليجرؤ أحد على معارضتي من غير أن يعاقَب حالًا، وكانت تبتكر في كل يوم ملاذٌّ جديدة تجعل الحياة لي أكثر نعيمًا، وكنت لا أزال شابًّا عُصْلُبيًّا، آه! أي عامل ترفٍ لم أتمتع به فوق عرشي؟ بيد أنني أحببت امرأةً لم تحبني فشعرت بأنني لست إلهًا، وتسمني، وأعود غير موجود، وأمسِ يوضع رمادي في قارورةٍ من ذهب، وأبكى، ويُنتف الشعر من أجلي، ويتظاهر أناس بأنهم يريدون إلقاء أنفسهم في موقدي كيما يموتون معي، ويئنون عند أسفل ضريحي الرائع الذي وضع فيه رمادي، ولكن لم يأسف علي أحد، وتثير ذكراي نفورًا في أسرتي أيضًا، وهنا أعاني أفظع معاملة.»

ويؤثر هذا المنظر في تلماك فيقول: «هل كنت سعيدًا، بالحقيقة، في أيام سلطانك؟ وهل كنت تشعر بذلك السلام الحلو الذي يظل القلب بغيره منقبضًا كابيًا بين الملاذ؟»

ويجيب البابلي بقوله: «كلا، لا أعرف حتى ما تقول، فالحكماء يُطرُون ذلك السلام على أنه الخير الوحيد، وأما أنا فلم أشعر به قط، وكان فؤادي يهتز برغائب جديدة دائمًا عن خوف ورجاء، وكنت أحاول شغل بالي بهز أهوائي، وكنت أتعهد هذه النشوة جعلًا لها دائمةً، وكانت أقل فترة عقل هادئ تبدو لي مرةً، وهذا هو السلام الذي تمتعت به، وكان كل شيء غيره يظهر لي خيالًا وحلمًا، وهذه هي الخيرات التي آسف عليها.»

وبينا كان البابلي ينطق هكذا بكى بكاء رجل جبان خنَّثه الترف ولم يتعود احتمال المصيبة ثابت الجنان، وقد كان يوجد عنده عبيد قُتِّلوا تكريمًا لمأتمه، وقد سلمهم مركور إلى شارون مع ملكهم ومنحهم سلطانًا مطلقًا على هذا الملك الذي كانوا يخدمونه في الدنيا، وعادت أطياف هؤلاء العبيد لا تخاف طيف نبوفرسان، وصاروا يقيدونه ويورثونه أقسى ما يكون من عار، ويقول أحدهم له: «ألم نكن رجالًا كما كنت؟ وكيف بلغت من الحماقة ما اعتقدت معه أنك إله؟ ألا يجب تذكيرك بأنك من جنس الرجال الآخرين؟»

وقال آخر له قاصدًا إهانته: «حُقَّ لك أن تريد عدم عدك إنسانًا؛ وذلك لأنك كنت غولًا بلا إنسانية.»

وقال آخر له: «حسنًا، أين مراءُوك الآن؟ عاد لا يكون عندك شيء تعطيه أيها الشقي، وعدت عاجزًا عن صنع أي شر كان، وقد غدوت عبدًا لعبيدك أنفسهم، وقد أمهلك الآلهة فلم يعاقبوك لساعتك، وإنما جازوك في آخر الأمر غير مهملين.»

فلما سمع نبوفرسان هذا القول القاسي كب وجهه على الأرض ونتف شعره في سورة غضب بالغ ويأس شديد، ولكن شارون قال للعبيد: «جروه من قيده وارفعوه على الرغم

منه، فلن يعطَى حتى حق سلوان ستر عاره، ويجب أن يكون جميع أطياف ستكس شهودًا على ذلك تزكيةً للآلهة الذين طال صبرهم على حكم هذا الملحد في الأرض، وليس هذا، أيها البابلي، غير فاتحة آلامك، فأعد نفسك للحكم في أمرك من قبل قاضي الجحيم القاسي: مينوس.»

وكان الزورق، في أثناء هذا الكلام الذي نطق به شارون الجبار، يلمس شاطئ مملكة بلوتون، وتُهرَع جميع الأطياف لتأمُّل هذا الرجل الحي الذي يظهر بين هؤلاء الأموات في القارب، ولكنها فرت حين وضع تلماك رجله على الأرض، فشابهت أشباح الليل التي تتبدد عندما يلوح أقل نورٍ من النهار، ويبدي شارون للشاب اليوناني جبينًا أقل تجهمًا، وعينين أقل شراسةً، من المعتاد، ويقول له: «بما أنه أذن لك، أيها الإنسان العزيز على الآلهة، في دخول مملكة الليل الممتنعة على الأحياء الآخرين فأسرع إلى حيث تدعوك الأقدار، وسر من هذا الطريق القاتم إلى قصر بلوتون الذي تراه فيه جالسًا على عرشه، وهو سيسمح لك بأن تدخل أماكن حظر عليَّ كشف سرها.»

ولم يلبث تلماك أن تقدم بخطًى كبيرة، ويرى تلماك في كل ناحية رفرفة أطياف تزيد على عدد الرمل الذي يستر شواطئ البحر، وهو، إذ يكون بين اهتزاز هذا الجمع الذي لا حد له، يعتريه ارتعاش رباني من ملاحظته سكون هذه الأماكن الواسعة، ويَقُفُّ شعره فوق رأسه عندما يقترب من مقر الجبار بلوتون، ويشعر بترنح ركبتيه، ويعوزه الصوت، ولا يستطيع أن يخاطب هذا الإله بالكلمة الآتية إلا بمشقة، قال تلماك: «أيها الرب المرهوب، ترى ابن أوليس التعس، فقد جئت لأسألك: أنزل أبي إلى مملكتك أم لا يزال تائهًا فوق الأرض؟»

وكان بلوتون جالسًا على عرش من الآبنوس، وكان أصفر الوجه عابسًا، وكانت عيناه غائرتين يتطاير الشرر منهما، وكان منظر الإنسان الحي كريهًا عنده كما يؤذي النور عيون الحيوانات التي تعودت عدم الخروج من عزلتها في غير الليل، وكانت تظهر بجانبه بروزربين مجتذبةً نظراته وحدها فتلطف فؤاده بعض الشيء كما يلوح، وكانت تتمتع بجمال جديد دائمًا، ولكن مع جمعها بين هذه الألطاف الربانية وما لا يوصف من قسوة زوجها وجبروته.

وكان عند أسفل العرش تظهر إلهة الموت مصفرةً مفترسةً باترةً، فتشحذ بلا انقطاع، وكانت الهموم السود رفرف حولها كما يرفرف حولها الحذر الجائر، والثأرات القاطرة دمًا والمستورة جروحًا، والأحقاد الطاغية والأطماع التي يقرض بعضها بعضًا، واليأس الذي

يمزق بعضه بعضًا، والطموح الجامح الذي يقوض كل شيء، والخيانة التي تريد أن تقتات بالدم والتي لا تستطيع أن تتمتع بما تصنع من مصائب، والحسد الذي يصب سمومه القاتلة حوله، والذين يتحول إلى غيظ عند العجز عن الأذى، والإلحاد الذي يحفر لنفسه هوةً بلا قعر فيتدهور بلا أمل، والأشباح القباح، والأطياف التي تمثل الأموات لترعب الأحياء، والأحلام الكريهة، والأرق القاسي كالمنامات المحزنة، وتحيط جميع هذه الصور المشئومة ببلوتون المتكبر وتملأ القصر الذي يسكن، ويجيب تلماك بصوت خافت يئن منه قعر إرب، قال بلوتون: «اعلم، أيها الشاب الفاني، أن الأقدار قضت بأن تنتهك حرمة مقر الأطياف المقدس هذا، فاتبع طالعك الأعلى، ولن أقول لك: أين أبوك؟ وإنما يكفيك أن تكون طليقًا في البحث عنه، وبما أنه كان ملكًا في الأرض فإنه يجب عليك أن تجوب، من ناحية، مكان الترتر الأسود حيث يعاقب أشرار الملوك، وأن تجوب، من ناحية أخرى، مكان الشنزليزه حيث يحسن جزاء أبرار الملوك، ولكنك لا تستطيع أن تذهب من هنا إلى الشنزليزه إلا بعد أن تمر من الترتر، فأسرع إلى الذهاب هنالك والخروج من مملكتي.»

ويلوح تلماك من فوره أنه يطير في هذه المساوف الخالية الواسعة ما رغب أن يعرف هل يرى أباه، وأن يبتعد عن هذا الجبار الهائل الذي يخيف الأحياء والأموات، ولم يعتم أن أبصر الترتر الأسود قريبًا منه، وكان يخرج من الترتر دخان كثيف أسود تؤدي رائحته الوبيئة إلى الموت عند انتشارها في مقر الأحياء، ويستر هذا الدخان نهرًا من نار وأعاصير من لهب يشابه صوتها هدير أكثر السيول صولةً حين سقوطها من أعلى الصخور إلى قعر الهُوَى، فتوجب عدم تمييز ما يسمع في هذه الأماكن الكئيبة.

ويدخل تلماك، الذي أنعشته منرفا سرًّا، في هذه الهوة غير خائف، وكان أول ما شاهد عددًا كبيرًا من الناس الذين كانوا يقضون أرذل حال، فيعاقبون على طلبهم الثراء بالخداع والخيانة وضروب القسوة.

ومما رأى تلماك وجود كثيرين من الملحدين المرائين الذين كانوا يتظاهرون بحب الدين فيتخذونه أداةً لإشباع مطامعهم والعبث ببسطاء العقول، أي أن أولئك الناس، الذين أساءوا استعمال الفضيلة مع أنها أعظم مِنَن الآلهة، كانوا يعاقبون كما يعاقب أشد الناس إجرامًا، وكان الأولاد الذين قتلوا آباءهم وأمهاتهم، والنساء اللائي سفكن دماء أزواجهن، والخائنون الذين سلموا أوطانهم ناكثين أيمانهم، يعانون عذابًا أخف من عذاب هؤلاء المنافقين، وهذا ما أراد قضاة الجحيم الثلاثة، وحجتهم في هذا أن المنافقين لا يكتفون بكونهم أشرارًا كبقية الملحدين، بل يريدون أن يظهروا صالحين فيؤدون بفضيلتهم الزائفة

إلى عدم ثقة الناس بالفضيلة الصحيحة، وهكذا فإن الآلهة، الذين استخفوا بهم فجعلوهم موضع ازدراء الناس، اتخذوا كل ما لديهم من قوة للانتقام لأنفسهم ممن أهانوهم.

وكان يظهر بجانب هؤلاء أناس آخرون لا يجدهم العوام مذنبين مطلقًا، فيبدون محلًّا للانتقام الرباني بلا رحمة، وهؤلاء هم الكُنْدُ، والكاذبون، والمراءون الذين مدحوا العيوب، والنقاد الماكرون الذين حاولوا تنقص أصفى الفضائل، وجميع من حكموا في الأمور رجمًا بالغيب، ومن غير اطلاع على أساسها، فآذوا بذلك سمعة الأبرياء، ولكن أشد ما عوقب عليه بين كل جحود هو التجديف على الآلهة.

وكان مينوس يقول: «ماذا إذن؟! يعد غولًا من لم يعترف بالجميل لأبيه أو لصديقه الذي نال منه بعض العون، ومن يجعل لنفسه مجدًا بكنوده نحو الآلهة الذين هم أصل الحياة وما تنطوي عليه الحياة من خير! والآلهة هم الذين يكون الإنسان مدينًا لهم بولادته أكثر مما لأبيه وأمه، وكلما أفلتت هذه الجرائم كلها من العقاب، وسُوغت، في الدنيا، غدت موضع انتقام شديد في الجحيم لا ينجو منه شيء.»

ويرى تلماك القضاة الثلاثة الجالسين، وهم يحكمون في أمر رجل، فيجرؤ على سؤالهم عن جرائمه، ويتناول المدين الكلام، ويصرخ قائلًا: «لم أصنع شرًّا قط، وقد قامت لذتي على فعل الخير، وقد كنت كريمًا جليلًا عادلًا رحيمًا، فعلام أُلامُ إذن؟»

مينوس: «لا تلام على شيء حيال الناس، ولكن ألست ملزمًا نحو الآلهة أكثر مما أنت ملزم به نحو الناس؟ وما العدل الذي تباهي به إذن؟ إنك لم تقصر في واجب نحو الناس الذين ليسوا شيئًا ذا بال، وقد كنت فاضلًا في ذلك لا ريب، وإنما عزوت فضيلتك كلها إلى نفسك، لا إلى الآلهة الذين أنعموا عليك بها؛ وذلك لأنك أردت أن تتمتع بثمرة فضيلتك الخاصة وأن تقصر نفسك على نفسك، فكنت إله نفسك، غير أن الآلهة الذين خلقوا كل شيء، ولم يخلقوا شيئًا إلا لأنفسهم، لا يمكن أن يتخلوا عن حقوقهم، وقد نسيتهم، فنسوك، وقد وكلوك إلى نفسك ما دمت قد وكلت نفسك إلى نفسك، لا إليهم؛ ولذا فابحث الآن عن سلوانك في فؤادك إذا ما كنت قادرًا على هذا، وهكذا فإنك قد فُصلت عن الناس الذين أردت أن تروقهم، وهكذا فإنك وحدك مع نفسك التي كانت صنمك، وهكذا فإن عليك أن تعلم أنه لا فضل حقيقيًّا من غير تبجيل الآلهة وحبهم، من غير إجلال هؤلاء الذين يعد كل شيء مدينًا لهم، وسوف يفحم فضلك الزائف الذي طال أمد فتنه لمن يسهل خداعه من الناس، وبما أن الناس لا يحكمون في أمر العيوب والفضائل إلا بما يصدمهم أو يلائمهم فإنهم عمي حيال الخير والشر، وأما هنا فإن نورًا ربانيًّا يقلب جميع أحكامهم السطحية رأسًا على عقب، وينقض ما يعجبون به في الغالب، ويسوغ ما يقوِّضون.»

ولما سمع هذا الفيلسوف ذلك ظهر كمن أصيب بصاعقة فصار لا يستطيع الصبر على نفسه، ويتحول إلى ألم ما كان يجد من لذة في تأمل اعتداله وإقدامه وميوله الكريمة، ويغدو عذابه في تأمل عدو الآلهة: فؤادِه، أي أنه يرى نفسه، ولا يستطيع الانقطاع من رؤية نفسه، ويُبصر بُطْل أحكام الناس الذين أراد أن يقع عندهم موقع الرضا في جميع أعماله، ويصنع ثورةً عامةً من جميع ما في باطنه كما لو قُلبت جميع أحشائه، وعاد لا يكون إياه، أي أن كل سند يعوز فؤاده، وينتصب ضده ضميره الذي كانت تحلو له شهادته، فيؤنبه ضميره بشدة على ضلاله وما ساوره من وهم في جميع فضائله التي لم تهدف إلى عبادة الآلهة عن مبدأ وغاية، وهكذا فإنه يبدو منكدًا وإلهًا مملوءًا خزيًا وندمًا وحزنًا، ولا تعذبه الفُوري مطلقًا، وتكتفي الفوري بوكوله إلى نفسه، وبانتقام قلبه للآلهة الذين ازدرى، ويطلب أقتمَ الأماكن كيما يتوارى من الأموات الآخرين ما دام لا يستطيع أن يتوارى من نفسه، ويبحث عن الظلمات، ولا يقدر أن يراها، وكيف يُمكنه ذلك وهو يتبعه نور مزعج إلى كل مكان، وفي كل مكان يأتي شعاع الحقيقة الثاقب لينتقم للحقيقة التي أهمل اتباعها، ويُصبح كل ما أحب ممقوتًا لديه لما غدا مصدر المصائب التي لا يمكن أن تنتهي مطلقًا، ويقول في نفسه: «يا لي من أرعن! إنني لم أعرف الآلهة ولا الناس ولا نفسي إذن! كلا، إنني لم أعرف شيئًا؛ لأنني لم أحب الخير الحقيقي الوحيد، ولم تكن خطواتي كلها غير ضلالات، ولم تكن حكمتي غير حماقة، ولم تكن فضيلتي غير زهوٍ إلحاديٍّ أعمى، وكانت نفسي صنمي.»

وأخيرًا أبصر تلماك الملوك الذين أساءوا استعمال سلطانهم، فمن جهة تعرض عليهم فورية منتقمة مرآةً يطلعون بها على قبح معايبهم كلها، أي أنهم يرون في هذه المرآة، ولا يستطيعون منع أنفسهم من أن ترى، زهوهم الغليظ الحريص على نيل أدعى المدائح إلى السخرية، وقسوتهم نحو من يجب أن يعاملوهم برفق، وجفاءهم تجاه الفضيلة، وفزعهم من سماع صوت الفضيلة، وميلهم إلى الأنذال المنافقين، وتوانيهم، وتخنثهم، وتثاقلهم، وحذرهم غير اللائق، وبذخهم، وبهاءهم البالغ القائم على بوار الشعوب، وطموحهم القائم على شراء قليل من المجد الباطل بدم رعاياهم، وجورهم الباحث في كل يوم عن ملاذ جديدة بين دموع كثير من البائسين وحزنهم، وهم لا ينفكون يرون أنفسهم في هذه المرآة فيرونها أفظع من العَنقاء التي غلبها بلروفون وأقبح من تنين لرن الذي قضى عليه هركول، ومن سربر الفاغر أفواهه الثلاثة، والقاذف منها دمًا سامًّا أسود يمكن أن يفسد جميع الجنس البشري الحي فوق الأرض.

ومن جهة أخرى كانت تكرر لهم، في الوقت نفسه، فورية أخرى، وذلك مع الإهانة، جميع المدائح التي خاطبهم بها مُراءوهم في أثناء حياتهم، وتقدم هذه الفورية إليهم مرآةً

أخرى يرون أنفسهم فيها كما وصفهم عامل الرئاء، فعلى تباين هاتين الصورتين كان يقوم عذاب زهوهما، ومما لوحظ أن أشد هؤلاء الملوك شرًّا هم الذين خوطبوا بأفخم المدائح في أثناء حياتهم؛ وذلك لأن الأشرار يُخشَون أكثر مما يُخشى الأبرار، ولأنهم يطالبون، مع خلع عذار، بأسفل ما يصدر عن شعراء عصرهم وخطبائه من رئاء.

ويسمع أنينهم في هذه الظلمات العميقة حيث لا يستطيعون أن يجدوا غير ما يعانون من شتائم وسخريات، وحيث لا يرون حولهم غير من يدحرهم ويناقرهم ويخزيهم، وهم، بدلًا من استخفافهم بحياة الناس في الدنيا، وزعمهم أن كل شيء خُلق في سبيل خدمتهم، يُبصرون أنهم أسلموا في الترتر إلى أهواء عبيد يشعرونهم بعبودية قاسية، أجل، إنهم يقومون بالخدمة مع الألم، وإنه لا يبقى عندهم من الأمل ما يرجون به تخفيف أَسْرِهم، وإنهم يئنون تحت ضربات هؤلاء العبيد الذين غدوا طغاةً أشداء نحوهم، وذلك كالسندان تحت طرقات مداق السكلوب عندما يحثهم فلكن على العمل في الأُتُن الحامية بجبل إتنة.

وهنالك شاهد تلماك وجوهًا شاحبة كريهة واجمة، وهذا كرب قاضم لهؤلاء المجرمين الذين يأنفون من أنفسهم، والذين لا يستطيعون الخلاص من هذا النفور إلا بالخلاص من طبيعتهم، والذين لا يحتاجون إلى عقاب آخر على خطيئاتهم غير خطيئاتهم نفسها، والذين لا ينفكون يرونها على أضخم ما يكون، وهي تبدو لهم كالأطياف الهائلة، وهي تتعقبهم، وهم يبحثون عن موت أقوى من الذي فصلهم عن أجسامهم كيما يتقونها، وهم، إذ يغمرهم ما هم فيه من غم، يستغيثون بموت يمكن أن يطفئ فيهم كل شعور وكل عرفان، وهم يسألون الهُوَى أن تبتلعهم تواريًا من أشعة الحقيقة المنتقمة التي تضطهدهم، بيد أنهم حفظوا ليذوقوا الانتقام المقطر الذي لا ينضب له معين مطلقًا، ويتجلى عذابهم في الحقيقة التي خافوا أن يروها، وهم يرونها، وليس لهم عيون إلا ليروها تنتصب حيالهم، ويطعنهم منظر الحقيقة ويفترسهم ويخلع قلوبهم، أي تظهر الحقيقة كالصاعقة التي تنفذ صميم الأحشاء من غير أن تخرب شيئًا في الخارج، ويشابه الروح معدنًا في أتون حام فتصهره هذه النار المنتقمة التي لا تبقي شيئًا على ما هو عليه مع عدم إفنائه، أي أنها تذيب حتى أصول الحياة من غير أن تميت، وينزع الفرد من نفسه، فلا يجد فيها سندًا ولا راحةً ولو لثانيةٍ، ويعود لا يكون إلا بالغضب على نفسه وبضياع كل أمل في فقد الإحساس.

وشاهد تلماك، بين هذه الأمور التي قف بها شعر رأسه، كثيرًا من ملوك ليدية السابقين الذين عوقبوا لإيثارهم نعم الحياة الناعمة على العمل الذي لا يجوز فصله عن المَلَكية تخفيفًا عن الرعية.

وكان هؤلاء الملوك يتلاومون على عماهم، فقال بعضهم لآخر كان ابنًا له: «ألم أكثر من إيصائك، في مشيبي وقبل موتي، بأن تُصلح الخطأ الذي كنت قد صنعت بإهمالي؟»

الابن: «أيها الأب البائس! أنت الذي ضيعني! وذلك أنني اقتديت بك في تعود البذخ والزهو والشهوة والقسوة على الناس! وذلك أني، إذ رأيتك تملك بتخنث بالغ مع وجود منافقين أنذال حولك، مردت على حب الرئاء واللذات، فاعتقدت أن بقية الناس إزاء الملوك كالخيل وغيرها من حيوانات الأثقال إزاء الناس، أي الحيوانات التي لا تعتبر إلا بمقدار ما تقدم لصاحبها من خِدَم وما تريح، وهذا ما اعتقدت، وأنت الذي حملني على اعتقاده، والآن أعاني مصائب كثيرةً لاقتدائي بك.»

وكانوا يضيفون إلى هذا التعاير أفظع اللعنات، ويظهرون غضابًا مستعدين لافتراس بعضهم بعضًا.

وكانت ترفرف حول هؤلاء الملوك، كالأبوام في الليل، طائفة من الظنون الجافية، والهموم اللاغية، وأفانين الحذر، التي تنتقم للرعايا من قسوة ملوكهم، وطائفة من الطمع الجامح في الثروات، والمجد الزائف الدائم الجور، والترف المترهل الذي يضاعف جميع ما يعانَى من أضرار من غير أن يمنح ملاذ دائمةً.

وشوهد كثير من الملوك نالوا أشد عقابٍ بسبب ما وجب عليهم أن يقوموا به من خير، لا بسبب ما أتوا من شر، وذلك أن جميع جرائم الرعية التي تنشأ عن إهمال العمل بالقوانين عزيت إلى الملوك الذين لا يجوز لهم أن يملكوا إلا بسلطان القوانين على يد وزرائهم، كما عُزي إليهم كل فسق صدر عن البذخ والترف وغير ذلك من الدَّعَر الذي يُلقي الناس في ضيق وإغواء لا يبالون معهما بالقوانين نيلًا للمال، وأخص ما يضاعف به عذاب الملوك هو عدم تفكيرهم في غير إضرار الرعية كالذئاب المفترسة بدلًا من أن يكونوا رعاةً للشعوب صالحين يقظين.

ولكن أكثر ما ذُعر منه تلماك هو مشاهدته في هوة الظلمات والآلام عددًا كبيرًا من الملوك الذين عدوا صالحين في الدنيا، فحكم عليهم بعذاب الترتر لأنهم سُيِّروا بأناس من الأشرار الماكرين، ولأنهم أغضوا عن أضرار وقعت أيام سلطانهم، ثم إن معظم هؤلاء الملوك لم يكونوا صالحين ولا طالحين عن خور كبير، وكانوا لا يخشون ألا يعرفوا الحقيقة، وكانوا لا يتذوقون الفضيلة، ولا يتلذذون بفعل الخير.

ولما خرج تلماك من هذه الأماكن تنفس الصُّعَدَاءَ كما لو أزيح عنه جبل كان قائمًا على صدره، وقد أدرك بهذا السلوان شقاء من كانوا محصورين هنالك من غير أمل في الخروج مطلقًا، ومما أوجب ذعره ما أبصر من كون عذاب الملوك أشد من عذاب المجرمين الآخرين،

قال تلماك: «ماذا؟! كثير أخطار، وكثير أشراك، وكثير صعوبات يواجهها الملك في معرفة الحقيقة كيما يدافع عن نفسه حيال نفسه وحيال الآخرين، وكثير عذاب أليم في جهنم بعد أن يُلاقي في حياته القصيرة كثير إقلاق وحسد ومشاق! يا لحماقة من يبحث عن الملك! طوبى لمن يقتصر على حاله وهدوئه حيث لا يعسر عليه أمر الفضيلة!»

قام تلماك بهذه التأملات واضطرب في قرارة نفسه، وارتجف تلماك، وبلغ من الحزن أشده لما لاحظ من وضع أولئك التعساء، ولكنه كلما ابتعد عن هذا المقر المظلم الكئيب، وكلما نأى عن مكان الهول واليأس، عادت إليه شجاعته، ويتنفس، ويُبصر من بعيد نور مقر الأبطال اللطيف الصافي.

فهناك كان يسكن جميع الملوك الذين حكموا في الناس بما تقتضيه الحكمة ومبادئ العدل، وكما أن الأمراء الأشرار كانوا يعانون في الترتر عذابًا أشد بمراحل مما يعاني المجرمون الآخرون الذي قصروا إجرامهم على أحوال خاصة كان الملوك البررة يتمتعون في الشنزليزه بسعادة أعظم بمراحل من سعادة بقية الناس الذين أحبوا الفضيلة في الدنيا.

ويتقدم تلماك نحو هؤلاء الملوك الذين كانوا في غاب عطرة وعلى خضر ناشئة مزهرة، وكان يسقي هذه الأماكن الرائعة ألف جدول صغير ذي ماء نمير، فتنتشر فيها طراوة لذيذة، وكان يوجد هناك ما لا يُحصى من الطيور التي تملأ هذه الغاب بتغريدها العذب، وكان يُرى هناك اجتماع زهور الربيع، التي تنشأ تحت الخطا، مع أندر ثمار الخريف المتدلية من الشجر، وكان لا يُشعر هناك بحر السموم ولا بشمأل الشتاء، وما كانت الحرب الظمئة إلى الدم، ولا الحسد القاسي الذي يعض بسن سامة ويحمل أفاعي ملتويةً في صدره وحول ذراعيه، ولا الرغائب الفارغة؛ لتدنو من مقر السلام المبارك هذا، وما كان النهار لينتهي هناك، وما كان الليل وسدوله القاتمة لتعرف هناك، أي أن نورًا رائقًا لطيفًا كان ينتشر حول أجسام هؤلاء الرجال العادلين، ويحيط شعاعه بها كما يحيط الثوب بالبدن، ولا شبه، مطلقًا، بين هذا النور والنور القاتم الذي يُنير عيون تعساء الموتى ولا يكون غير ظلام، وذلك أن هذا النور ينفذ أكثف الأجسام نفوذًا دقيقًا كنفوذ أشعة الشمس في أصفى بلور، وأن هذا النور لا يبهر الأبصار، وإنما يُقوي العيون ويورث قرارة النفس ما لا يُوصف من صفاء، وهذا وحده هو ما يغذَّى به السعداء، ومن هؤلاء يخرج، وفيهم يدخل وينفذ، وبهم يمتزج امتزاج الأطعمة بنا، وهم يرونه، ويحسونه، ويتنفسون به، وهو يوجد فيهم منبع سلام وسرور لا ينضب له معين، أي أنهم يغوصون في هذه المهواة من الفرح كالأسماك في البحر، وقد عادوا لا يريدون شيئًا، وقد نالوا كل شيء من غير أن يحوزوا شيئًا،

وبيان ذلك أن هذا الميل إلى الضياء الخالص يسكن جوع قلوبهم ويشبع جميع رغائبهم، وأن ما يتفق لهم من امتلاء يرفعهم فوق كل ما يطلبه الجياع الخاوون على الأرض، وأنهم لا يبالون بشيء من النعم التي تحيط بهم ما دام تمام سعادتهم في الباطن لا يدع لهم أي شعور حيال كل نعيم يأتي من الخارج، ومثلهم في هذا كمثل الآلهة الذين يرتوون من الرحيق وكل ما طاب فلا ينزلون إلى مرتبة الاغتذاء باللحم الغليظ الذي يُقدم إليهم على أفخر موائد الآدميين، وتفر جميع الشرور بعيدةً من هذه الأماكن الهادئة، فلا موت، ولا مرض، ولا فقر، ولا ألم، ولا حزن، ولا ندم، ولا خوف، ولا أمل ينطوي في الغالب على ما ينطوي عليه الخوف من كرب، ولا يجد الخلاف والنفور والغضب إلى هناك سبيلًا، ولَأَنْ تُقلَب جبال تراكية العالية الراسية في مركز الأرض، والمكسوة ذراها بالثلج منذ الأزل، والتي تشق السحاب، أقرب من اهتزاز قلوب هؤلاء الرجال العادلين، أجل، تساورهم رأفة حول البؤس الذي يخامر أحياء الناس في الدنيا، بيد أن هذه رأفة لطيفة ساكنة لا تكدر نعيمهم الهادئ مطلقًا، أجل، رسم على وجوههم شباب خالد، ونعيم لا حد له، ومجد رباني، بيد أن سرورهم لا يقوم على بطر ولا على هُجْر، وإنما هو سرور نضر كريم مملوء جلالًا، وإنما ذوق الحقيقة والفضيلة الرفيع هو الذي يهزهم، وهم لا ينفكون يتمتعون بمثل فرحة القلب التي تتفق للأم عند لقائها ولدًا لها كانت تعتقد موته، ولكن مع الفارق القائل: إن فرحة الأم هذه لا تلبث أن تفارقها مع أن سرور هؤلاء الرجال لا يفارق قلوبهم مطلقًا، ولا يذوي هذا السرور دقيقةً واحدة، وهو يتجدد فيهم دائمًا، ويتمتعون بجذل الثمل، ولكن بلا غول ولا خبل.

وهم يتحاورون حول ما يرون وما يذوقون، وهم يدوسون النعم الناعمة والعظمة الباطلة التي كانت تلازم سابق حالهم فيرثون لها، وهم يتمثلون مع اللذة تلك السنين الكئيبة القصيرة التي كانوا يضطرون فيها إلى مناهضة أنفسهم ومقاومة سيل الرجال الفاسدين كيما يكونون صالحين، وهم يُعجبون بعون الآلهة الذين سيروهم، كما لو كان هذا باليد، إلى الفضيلة، وذلك من خلال كثيرٍ من الأخطار، ولا يمكن وصف ما يجري في قلوبهم، بلا انقطاع، من أمر رباني يسيل كالسيل فيمتزج بهم، وهم ينظرون ويذوقون، وهم سعداء شاعرون بدوام سعادتهم، وهم ينشدون مدائح الآلهة معًا، ولا يخرج منهم غير صوت واحد، ولا يصدر عنهم غير رأي واحد، ولا يكون لهم غير فؤاد واحد، وتكون السعادة عينها كالجزر والمد في هذه النفوس المتحدة.

وتمر قرون وقرون على تمتعهم بهذا الطرب الرباني، وتكون القرون أسرع من الساعات بين الناس، ومع ذلك فإن ألوف ألوف القرون التي تمر لا تنزع شيئًا من

سعادتهم التي تتجدد دائمًا ومن غير نقصان، وهم يملكون معًا، لا فوق عروش يمكن أن تدكها أيدي الناس، بل في أنفسهم بسلطان ثابت لا يتغير؛ وذلك لأنهم عادوا لا يحتاجون أن يكونوا مرهوبين بسلطان مستعار من رعية حقيرة بائسة، ولأنهم عادوا لا يلبسون تلك التيجان الباطلة التي ينطوي التماعها على كثير من الخوف والهموم السود، ويتوجهم الآلهة بأكاليل لا يكدرها شيء.

وبلغ تلماك، الذي كان يبحث عن أبيه فيخشى أن يجده في هذه الأماكن الرائعة، من التأثر بهذا السلام والسعادة ما ود معه لو يجد أوليس فيها، وما أسف معه على إلزامه بالعود، فيما بعد، إلى مجتمع الناس، وقد قال: «هنا الحياة الحقيقية، وأما حياتنا فليست غير موت.»

ولكن الذي حار منه هو ما أبصر من وجود ملوك كثيرين يعذبون في الترتر ومن وجود ملوك قليلين في الشنزليزه، وإنما أدرك بهذا وجود قليل من الملوك يكونون من الرصانة والبسالة بحيث يقاومون سلطانهم الخاص وينبذون رئاء كثير من الناس الذين يثيرون جميع أهوائهم، وهكذا فإن الملوك الصالحين نادرون كثيرًا وإن معظمهم بلغ من الخبث ما لا يكون الآلهة معه عادلين إذا لم يعاقبوهم عقب موتهم بعد أن صبروا على سوء استعمالهم لسلطانهم في أثناء حياتهم.

وبما أن تلماك لم ير أباه أوليس، قط، بين جميع هؤلاء الملوك فإنه بحث بعينيه، على الأقل، عن جده الكامل: لئرت، وبينا كان يبحث عنه على غير جدوى تقدم نحوه شيخ مبجل جليل، ولم يكن مشيبه ليشابه مشيب الرجال الذين حنت السنون ظهورهم في الدنيا، وإنما رئي أنه شاب قبل موته، فكان ما تجلى فيه مزيجًا بين ما ينطوي عليه المشيب من وقار وما ينطوي عليه الشباب من ألطاف؛ وذلك لأن هذه الألطاف تبعث حتى في أهمام[٣] الشِّيب حين دخولهم في الشنزليزه، وكان هذا الرجل يتقدم بنشاط وينظر إلى تلماك مسرورًا كما لو كان عزيزًا عليه كثيرًا، ويعتري تلماك هم وحيرة حيال هذا الذي لا يعرف.

قال الشائب لتلماك: «أغفر لك، يا بني العزيز، عدم عرفتك إياي مطلقًا، فأنا أبو لئرت: أرسزيوس، وقد ختمت حياتي قبيل سفر حفيدي أوليس إلى حصار تروادة، وقد كنت في ذلك الحين طفلًا بين ذراعي مرضعك، وما فتئت منذ ذلك الزمن أعلق عليك آمالًا عظيمة، ولم تكن هذه الآمال خادعةً قط، ما دمت أراك قد نزلت إلى مملكة بلوتون للبحث عن أبيك،

[٣] الأهمام: جمع الهم، الشيخ القديم.

وما دام الآلهة يؤيدونك في مشروعك، أيها الولد السعيد! إن الآلهة يحبونك ويعدون لك مجدًا مساويًا لمجد أبيك، يا لي من سعيد برؤيتك! كف عن طلب أوليس في هذه الأماكن، فهو لا يزال حيًّا، وقد حفظ لرفع عماد آلنا في جزيرة إيتاك، ومع أن السنين حنت كاهل لئرت فإنه لا يزال يتمتع بالنور، وهو ينتظر رجوع ابنه ليغمض عينيه، وهكذا فإن الناس يمضون كالزهور التي تتفتح صباحًا، والتي تذبل وتداس مساءً، وتمر أجيال الناس مر مياه النهر السريع، ولا شيء يستطيع وقف الزمن الذي يجر وراءه كل ما يلوح أنه عادم الحركة، وأنت يا بني، وأنت يا بني العزيز، وأنت الذي يتمتع الآن بشباب نشيط خصيب باللذات، اذكر أن هذا العمر الرائع ليس سوى زهرة لا تلبث أن تجف بعد أن تتفتح، وسترى تحولك من غير أن تشعر، أي أن الألطاف الباسمة، والملاذ اللطيفة التي تلازمك، والقوة والصحة والبهجة، ستذوي فيك مثل حلم جميل، ولن يبقى لك منها غير ذكرى قاتمة، وسيأتي المشيب الذابل العدو للملاذ لتغضين وجهك وحَنْو جسمك وإضعاف أعضائك، واستنزاف منبع السرور في فؤادك، وجعلك تكره الحاضر وتخشى المستقبل وتفتر نحو كل شيء خلا الألم، وترى ذاك الوقت بعيدًا، آه! أنت تغر نفسك يا بني! فالزمن يُسرع، وليس بعيدًا منك ذاك الذي يأتي بسرعة، وقد بعُد الحاضر الذي يفر ما تلاشى في الدقيقة التي تتكلم فيها، ولا يمكن أن يدنو بعد الآن؛ ولذا فلا تعتمد يا بني على الحاضر، وإنما الزم طريق الفضيلة الوعر الصعب ناظرًا إلى المستقبل، وأعد لنفسك، بصفاء الأخلاق وحب العدل، مكانًا في مقر السلام المبارك هذا.

ثم لا تلبث أن ترى استرداد أبيك للسلطان في إيتاك، وقد ولدت لتملك بعده، ولكن، آه! ما أشد خداع المُلك يا بني! فإذا ما نُظر إلى الملك من بعيد لم يُرَ غيرُ العظمة والأبهة والنعم، وإذا ما نظر إليه عن كثب وجد كل شيء شائكًا، ويمكن الفرد أن يقضي حياةً حلوةً غامضة من غير أن يُفضح، وأما الملك فلا يستطيع أن يفضل حياة الترف والبطالة على واجبات الحكم الشاقة من غير أن يفضح، وهو ملزم بكل شيء نحو الناس الذين يملكهم، ولم يبح له أن يكون لنفسه وحدها قط؛ وذلك لأنه يكون لأقل عمل يأتيه من النتائج ما لا حد له؛ وذلك لأن هذا العمل يؤدي إلى شقاء الرعايا في قرون كثيرة أحيانًا؛ وذلك لأن من الواجب عليه أن يزجر جرأة الأشرار وأن يؤيد البراءة وأن يقضي على الافتراء، وليس بكافٍ ألا يصنع شرًّا، بل يجب عليه أن يفعل كل ما تحتاج إليه الدولة من خير ممكن، وليس بكاف أن يصنع الخير، بل يجب عليه أن يحول دون فعل الآخرين للشر، فخف إذن، خف، يا بني، حالًا حُفَّت بالمكاره، وتسلح بالشجاعة حيال نفسك وحيال أهوائك وحيال المنافقين.»

ولما نطق أرسزيوس بهذا الكلام رئي منتعشًا بنار ربانية، وأظهر لتلماك وجهًا طافحًا إشفاقًا حيال الشرور الملازمة للملك، قال أرسزيوس: «إذا ما اتُّخِذ الملك أداةً لقضاء الشهوات انطوى على طغيان فظيع، وإذا ما اتخذ وسيلةً للقيام بالواجبات ولسياسة الرعايا الكُثْر، كما يسوس الأب أولاده، انطوى على رق مرهق يقتضي شجاعة الأبطال وصبرهم، ومن المؤكد كذلك أن من يملكون وفق الفضيلة الصادقة يفوزون هنا بكل ما تستطيع قدرة الآلهة أن تمن به من تمام النعيم!»

وبينما كان أرسزيوس يتكلم هكذا كان كلامه ينفذ صميم فؤاد تلماك، فينقش فيه كما ينقش الصانع الماهر بمنقاشه، على النحاس، صورًا لا تطمس راغبًا إظهارها لأعين أبعد الأعقاب، وكان هذا الكلام الحكيم مثل شعلةٍ لطيفة تنفذ أحشاء الشاب تلماك، فيشعر باهتزاز نفسه والتهابها، ولا يعبر عن الشيء الرباني الذي يلوح إذابته فؤاده في باطنه، وما كان يحمل في صميم نفسه يوقده سرًّا، فلا يستطيع له منعًا، ولا احتمالًا، كما أنه لم يستطع أن يقاوم مثل هذا الانطباع الحائق، وكان هذا شعورًا قويًّا لذيذًا ممزوجًا بعذابٍ قادر على نزع الحياة.

ثم أخذ تلماك يتنفس بحرية أكثر من قبل، فعرف في وجه أرسزيوس كبير شبه بلئرت، وظن أنه يذكر مع الإبهام، أنه أبصر، من خلال هذا الشبه، أباه أوليس عند ذهابه إلى حصار تروادة، وتلين هذه الذكرى فؤاده، وتسكب عيناه دموعًا ناعمةً ممزوجةً بفرح، وأراد أن يُقبل شخصًا عزيزًا عليه إلى الغاية، وحاول هذا عدة مرات على غير جدوى، وذلك أن هذا الطيف الوهمي كان يفلت من قبلاته، فيشابه الحلم الخادع الذي يتوارى ممن يظن أنه يتمتع به، وتارةً يتبع فم هذا الرجل الناعس الظمآن ماءً شاردًا، وتارةً تهتز شفتاه لتؤلفا كلامًا لا يستطيع لسانه الخدر أن يلفظ به، وتمتد يداه بجهد ولا تظفران بشيء، وهكذا فإن تلماك لا يستطيع إشباع حنانه، وذلك أنه يرى أرسزيوس ويسمعه ويكلمه من غير أن يقدر على مسه، ثم سأل هذا الشيخ الحكيم عن الرجال الذين يشاهد حوله فنال الجواب الآتي: «ترى، يا بني، رجالًا كانوا زينة عصورهم ومجد الجنس البشري وسعادته، ترى هؤلاء الملوك القليلين الذين كانوا أهلًا للملك وقاموا بعمل الآلهة في الأرض مع الإخلاص، وأما الآخرون الذين تراهم قريبين من هؤلاء بعض القرب، ولكن مع انفصالهم عنهم بهذه السحابة الصغيرة، فذو مجد أقل من ذاك كثيرًا، فهم، وإن كانوا أبطال الحقيقة، لا يمكن قياس ثواب بسالتهم وما قاموا به من غزوات حربية بثواب الملوك الحكماء العادلين المحسنين.

ترى بين هؤلاء الأبطال تيزه الذي يعلو وجهه قليل حزن، وذلك أنه أحس بؤس كونه ميقانًا[٤] حيال امرأةٍ ماكرة، وأنه أسف على سابق طلبه من نبتون موت ابنه هيوليت شر ميتة، فما أسعده لو كان غير نَزِق سريع الغضب بهذا المقدار فيما مضى! وترى، أيضًا، أشيل متكئًا على رمحه بسبب هذا الجرح الذي أصابه به النذل باريس على عقبه فقضى على حياته، ولو كان حكيمًا عادلًا معتدلًا بمقدار جرأته لأنعم الآلهة عليه بعهد طويل، بيد أن الآلهة رحموا الفتيوت والدلوب الذين كان لا بُدَّ من حكمه فيهم بعد موت يله فلم يشاءوا أن يفوضوا أمر كثير من الرعايا إلى هذا الرجل الغضوب الذي يسهل فورانه فيصير كالبحر الهائج إلى الغاية، فقصَّر البرْكُ أجله، وكان كالزهرة التي لا تكاد تتفتح حتى يقطعها المحراث وتسقط قبل نهاية اليوم الذي برزت فيه، ولم يُرد الآلهة استخدام أشيل إلا كالسيول والزوابع التي يعاقبون بها الناس على جرائمهم، فانتفع به في دك أسوار تروادة انتقامًا من لئوميدون على نقضه يمينه ومن باريس على غرامه الجائر، وقد هدأ الآلهة بعد استخدامهم هذه الآلة في انتقاماتهم، وقد أبوا أن يجيبوا داعي دموع تيتيس في إبقائهم حيًّا، يمشي على الأرض، هذا البطل الشاب الذي لم يكن ليصلح إلا لتعكير صفو الناس وتدمير المدن وهدم الممالك.

ولكن هل ترى هذا الآخر العبوس الوجه؟ هذا هو أجكس بن تلامون وابن لعم أشيل، وأنت تعرف، لا ريب، ما نال من مجد في المعارك، فلما مات أشيل زعم أنه لا يمكن أن يتسلم سلاحه رجل آخر غيره، ولم يعتقد أبوك وجوب التنزل له عنها، وفاز أوليس بحكم الأغارقة في ذلك، ويقتل أجكس نفسه غمًّا، ولا يزال الغيظ والغضب مرسومين على وجهه، ولا تدن منه يا بني، وذلك لاعتقاده أنك تريد بهذا إهانته في كربه، ومن الإنصاف أن يُرثى له، أو لا ترى أنه ينظر إلينا متألمًا، وأنه يدخل من فوره في هذه الغابة القاتمة عن نفور منا؟ وترى في هذه الناحية الأخرى هكتور الذي كان منيعًا لا يُقهر لو لم يظهر ابن تيتيس في الزمن نفسه، وها هو ذا أغاممنون يمر ولا يزال يحمل طابع غدر كليتمنستر، وأرتعش، يا بني، حينما أفكر في مصائب آل الملحد تنتال هؤلاء، فقد ملأ شقاق الأخوين، أتره وتيست، هذا البيت نفورًا ودمًا، آه! ما أكثر ما تجر الجريمة إلى جريمة أخرى! لم يستطع أغاممنون، بعد رجوعه من حصار تروادة على رأس الأغارقة، أن يتمتع بسلم المجد الذي نال، وهذا هو مصير جميع الفاتحين تقريبًا، وما ترى الآن من رجال فكانوا كلهم مرهوبين في الحرب،

[٤] الميقان: الذي لا يسمع شيئًا إلا أيقن به.

ولكن من غير أن يكونوا لطفاء فضلاء مطلقًا، وهم ليسوا في غير المقر الثاني من الشنزليزه لهذا السبب.

وأما هؤلاء فقد حكموا بالعدل وأحبوا رعاياهم، وهم أصدقاء الآلهة، وبينا ترى أشيل وأغا ممنون زاخرين بنزاعهما ومعاركهما محافظين على همومهما ونقائصهما الفطرية، وبينا تراهما أسفين، عبثًا، على حياة فقداها، وبينا تراهما يألمان من تحولهما إلى طيفين واهنين باطلين، تبصر هؤلاء الملوك العادلين قد صفوا بالنور الرباني الذي غُذوا به، وعادوا لا يرغبون في شيء من أجل سعادتهم، وينظر هؤلاء بعين الرأفة إلى هموم الناس، وتظهر لهم أعظم الأمور التي تهز الطامعين من الناس مثل لعب الصبيان، ولا عجب، فقلوبهم قد رويت من الحقيقة والفضيلة اللتين يغترفونهما من منبعهما، وقد عاد لا يُمِضُّهم شيء في نفوسهم، فلا رغائب، ولا احتياج، ولا مخاوف، وقد فرغوا من كل شيء خلا سرورهم الذي لا ينفد.

وانظر، يا بني، إلى الملك القديم إيناخوس الذي شاد مملكة أرغوس تجده يتمتع بهذا المشيب البالغ اللطف والجلال، وتنبت الزهور تحت خطواته، وتشابه رشاقة مشيته طيران الطير، ويمسك بيده كنارةً من عاج، ويتغنى بعجائب الآلهة عن وجد خالد، ويخرج من فؤاده وفمه عطر طيب، ويفتن الناس والآلهة بتوافق كنارته وصوته، وهكذا فإنه يكافأ على سابق حبه لشعبه الذي جمعه داخل أسواره الجديدة وأنعم عليه بقوانين.

ومن ناحية أخرى، يمكنك أن تنظر، بين هذا الآس، إلى سكروب المصري الذي كان أول من حكم في أثينة، في هذه المدينة الموقوفة على الإلهة التي تحمل اسمها، فقد هذب سكروب هذا أجلاف قُرى الأتيك وألف بينهم بروابط المجتمع، وذلك بما أتى به من قوانين مصر النافعة التي كانت منبع الآداب وحسن الطباع في بلاد اليونان، وقد كان سكروب هذا عادلًا رءوفًا رحيمًا، وقد أمتع سكروب هذا رعيته بضروب اليسر، ووضع أسرته في حال من الكفاف، قاصدًا بهذا ألا يقبض أبناؤه على زمام السلطان بعده معتقدًا أن غيرهم أحق بالملك منهم.

ولا بُدَّ لي من أن أدلك في هذا الوادي الصغير على إرختن الذي اخترع عادة استعمال النقود، وقد صنع هذا لتسهيل أمر التجارة بين جزر بلاد اليونان، بيد أنه أبصر ما يلازم هذا الاختراع من محذور فقال لجميع الرعايا: «أقبلوا على تكثير الثروات الطبيعية الحقيقية، أي ازرعوا الأرضين كيما يكون عندكم مقدار كبير من البُر والخمر والزيت والفواكه، وكونوا أصحاب قطاع كثيرة تغتذون بلبنها وترتدون أصوافها، فبهذا تغدون في حال لا تخشون

معه الفقر مطلقًا، وكلما كثر أولادكم زاد ثراؤكم على أن تجعلوهم أهل جد وعمل؛ وذلك لأن الأرض كنز لا يفنى، ولأنها تزيد خصبًا بنسبة عدد سكانها الذين يُعنَون بزراعتها، ولأنها ترد على الجميع ثمرة أتعابهم بسخاء، ولأنها تبدو ضنينًا كنودًا نحو من يتهاونون بزراعتها؛ ولذا فاعكفوا على نيل الثروات الحقيقية التي تقضى بها حاجات الإنسان الواقعية؛ ولذا لا تقيموا وزنًا لغير ما هو ضروري من النقود لحرب لا مفر من القيام بها في الخارج أو لتجارة السلع الحاجية التي تعوز بلدكم، وهذا مع الرغبة في مكافحة التجارة بجميع الأشياء التي لا تؤدي إلى غير الترف والزهو والتخنث».»

وكان الحكيم إرختن هذا يقول في الغالب: «أخشى، يا بَنِي، أن أكون قد قدمت إليكم هديةً مشئومةً بمنحكم اختراع النقود؛ وذلك لأنني أبصر أن هذا الاختراع يثير الطمع والطموح والبذخ، وأنه يغذي ما لا يُحصى من الحرف الضارة التي لا توجب غير تأنيث الطباع وفساد الأخلاق، وأنه يجعلكم تأنفون من البساطة المباركة المؤدية إلى طمأنينة العيش وضمان الحياة، وأنه يحفزكم إلى ازدراء الزراعة التي هي أساس الحياة البشرية ومصدر جميع الخيرات الحقيقية، ولكن ليكن الآلهة شهودًا على صفاء نيتي بمنحي إياكم هذا الاختراع النافع بنفسه.»

وأخيرًا، عندما رأى إرختن أن النقد يفسد الرعية كما توقع، اعتزل في جبل مهجور عن ألم، وقضى فيه حياة فقر وبعد من الناس، حتى بلغ من الكِبَر عتيًّا، وذلك من غير أن يرغب في إدارة شئون المدن.

ويمضي وقت قصير على ارتحاله فيظهر في بلاد اليونان تربتوليم الشهير الذي علمته سريس مهنة زراعة الأرضين وكسوها، كل سنة، بغلات ذهبية، ولا يعني هذا أن الناس كانوا لا يعرفون القمح وتكثيره بالبذر، وإنما يعني أنهم كانوا يجهلون إتقان الفلاحة، وأن تربتوليم، المرسَل من قبل سريس، أتى، والمحراث في يده، ليقدم هبات الإلهة إلى جميع الشعوب التي تتغلب على كسلها الطبيعي وتعكف على العمل المتواصل، ولم يلبث تربتوليم أن علم الأغارقة شق الأرض وجعلها خصيبةً بتمزيق بطنها، ولم يلبث الحاصدون الناشطون، الذين لا يكلون، أن أسقطوا بمناجلهم القاطعة صُفر السنابل التي تستر الحقول، حتى إن الشعوب الجافية المتوحشة، التي كانت تعدو مبعثرةً في كل ناحية من غاب إبير وإتولية لتغتذي بالبلوط، ألانت طباعها وخضعت لقوانين عندما تعلمت إنماء الحصائد وأكل الخبز، وأشعر تربتوليم قوم اليونان بلذة قصر ثرواتهم على أعمالهم والعثور في حقولهم على كل ما يجعل الحياة سائغةً سعيدة، وما تم لهم من هذا اليسر

النقي البسيط القائم على الزراعة ذكرهم بنصائح إرختن الناضجة، فازدروا النقد وكل ثراء مصنوع لا يعد غنًى إلا وهمًا ولا يصنع غير إغراء الناس بالبحث عن الملاذ الخطرة وغير تحويلهم عن العمل الذي ينطوي على سر الرزق الحقيقي مع صفاء الطبائع وكمال الحرية؛ ولذا فقد أدرك أن الحقل الخصيب الحسن الزرع هو الكنز الصحيح لدى الأسرة التي بلغت من الحكمة ما تريد أن تعيش معه عيش قناعة كما عاش آباؤها، ويا لسعادة الأغارقة ما بقوا ثابتين على هذه المبادئ الصالحة التي يكونون بها أقوياء أحرارًا سعداء عن فضيلةٍ قويمة! ولكن من دواعي الأسف أن أخذوا يعجبون بالثراء الزائف مهملين، بالتدريج، ما صح من غنًى منحطين عن تلك البساطة الرائعة.

وسوف تقبض على زمام السلطان ذات يوم يا بني، فاذكر، إذ ذاك، وجوب رد الناس إلى الزراعة، وإكرام هذه المهنة، وكشف الغم عمن يتعاطونها، وذلك مع عدم احتمال كسل الناس ومزاولتهم حرفًا واقيةً للترف والتخنث، وهكذا فإن هذين الرجلين، اللذين كانا ذوي حكمة بالغة في الدنيا، عزيزان على الآلهة، واعلم، يا بني، أن مجدهم يفوق مجد أشيل وغيره من الأبطال الذين لم يبرعوا في غير المعارك، كما يفضل الربيع على الشتاء البارد، ونور الشمس على نور القمر.

وبينا كان أرسزيوس يتكلم هكذا أبصر أن تلماك دائم النظر إلى غابة غارٍ صغيرةٍ وإلى جدولٍ يقوم البنفسج والورد والزنبق وكثير من الزهور العطرية على جانبيه، فتشابه ألوانها الساطعة ألوان إيريس عند نزولها من السماء إلى الأرض كيما تبلغ بعض الناس أوامر الآلهة، والملك العظيم سيزستريس هو الذي عرف تلماك في هذا المكان الجميل ووجده أكثر جلالًا مما كان عليه فوق عرش مصر ألف مرة، وما كانت تخرج عيناه من نور لطيف كان يبهر عيني تلماك، ومَن ينظر إليه يعتقد أنه ثمل بالرحيق وأن روحًا ربانيًّا بالغًا جعله في حقل من الوجد يفوق العقل البشري، وذلك لمكافأته على فضائله.

قال تلماك لأرسزيوس: «لما يمر وقت كبير على معرفتي، يا أبتِ، ملك مصر الحكيم سيزستريس هذا.»

أرسزيوس: «ها هو ذا، وأنت ترى بمثاله مقدار كرم الآلهة في مكافأة الملوك الصالحين، ولكن يجب أن تعرف أن جميع هذه السعادة ليست أمرًا يؤبه له إذا ما قيست بما كان يعد له لو لم يُنسه اليسر البالغ مبادئ الاعتدال والعدل، وذلك أن ما ساوره من هوًى لخفض زهو الصوريين وبطرهم حفزه إلى الاستيلاء على مدنهم، وما تم له من فتح أثار فيه رغبة القيام بفتوح أخرى، ويغويه فخر الفاتحين الفارغ، وهكذا أخضع

جميع آسية، وإن شئت فقل: خربها، فلما عاد إلى مصر وجد أخاه متغلبًا على المملكة، محرفًا أصلح قوانين البلد بحكومة ظالمة، وهكذا لم تنفع فتوحاته العظيمة لغير اضطراب مملكته، ولكن أشد ما جعله غير مقبول العذر هو ما خامره من نشوة مجده الخاص، فقرن بعربته أعز الملوك الذين قهر، ثم اعترف بذنبه فيما بعد واعتراه خجل من ظهوره قاسيًا بذاك المقدار، وهذه هي ثمرة انتصاراته، وهذا ما يصنعه الفاتحون ضد دولهم وضد أنفسهم بعزمهم على اغتصاب دول جيرانهم، وهذا ما يحط من منزلة الملوك البالغي العدل الكثيري الإحسان، وهذا ما يضع من درجة المجد الذي كان الآلهة قد أعدوه لهم.

أو لا ترى، يا بني، هذا الآخر الذي تبدو جروحه ساطعةً جدًّا؟ هو ملك كاري المسمى ديوقليد! هذا هو الملك ديوقليد الذي جاد بنفسه من أجل شعبه في إحدى المعارك؛ وذلك لأن هاتف الغيب أخبر بأن النصر، في الحرب بين الكاريين والليديين، سيكون نصيب الأمة التي يهلك ملكها.

وألقِ نظرةً إلى هذا الآخر، إلى هذا المشترع الحكيم الذي أنعم على أمته بقوانين تجعلهم سعداء صالحين، والذي ألزمهم بأن يقسموا على عدم نقض أي من هذه القوانين في أثناء غيابه، ثم سافر، وأبعد نفسه من وطنه، ومات فقيرًا في بلدٍ أجنبي حملًا لأمته، بهذا القسم، على العمل إلى الأبد بهذه القوانين النافعة إلى الغاية.

وهذا الآخر الذي ترى هو ملك البيليين: أونيزيم، هو أحد أجداد الحكيم نسطور، هو الذي ضرع إلى الآلهة، في أثناء طاعونٍ خرب الأرض فستر ضفاف الأكرون بأطيافٍ جديدة، أن يسكنوا غضبهم ببذل حياته منقذًا ألوفَ الأبرياء، ويستجيب الآلهة دعاءه، ويجعلون له هنا هذه المملكة الحقيقية التي لا تعد جميع ممالك الدنيا غير ظلال باطلة بجانبها.

وهذا الشائب الذي تراه متوجًا بالزهور هو بيلوس الذائع الصيت، هو ملك مصر بيلوس، هو زوج أنشنويه بنت الإله نيلوس الذي أخفى منبع مياهه وأغنى الأرضين التي أروى بفيضاناته، وقد كان له ولدان، فأما أحدهما، دنايوس، فتعرف قصته، وأما الآخر فهو إجبتوس الذي أطلق اسمه على هذه المملكة الجميلة، وكان بيلوس يعتقد أنه، باليسر الذي جعل لأمته وبحب رعيته له، أغنى مما بجميع الضرائب التي يستطيع أن يفرضها عليهم، ويعيش هؤلاء الرجال الذين تعتقد موتهم يا بني، وليست الحياة الهزيلة التي تُقضى في الدنيا غير موت وإن تغيرت الأسماء، ولعل الآلهة ينعمون عليك بصلاح تكون به أهلًا لهذه الحياة المباركة التي لا يستطيع شيء أن يقضي عليها ولا أن يكدرها، بادر إلى البحث عن أبيك، لقد حان الوقت، آه! ما أكثر ما ترى من سفك دم قبل أن تجده! ولكن

أي مجد ينتظرك في حقول هسبرية! واذكر نصائح الحكيم منتور، على أن تعمل بها، فبهذا تكون عظيمًا بين جميع الأمم وفي جميع العصور.»

قال هذا، وسار بتلماك نحو الباب العاجي الذي يستطيع أن يخرج به من مملكة بلوتون المظلمة، ويفارقه تلماك دامع العينين ومن غير أن يقدر على تقبيله، ويغادر هذه الأماكن القاتمة ويعود إلى معسكر الحلفاء على عجل، وذلك بعد أن لحق، في طريقه، بالأقريطشيين الشابين اللذين كانا قد رافقاه إلى مكان قريب من الغار وعادا لا يأملان رجوعه.

الجزء الخامس عشر

ناهضت تلماك، في مجلس لرؤساء الجيش، فكرة مباغتة فينوز التي اتفق الفريقان على تركها وديعة في أيدي اللوكان، لم يُبْدِ تلماك حكمة أقل من تلك في أمر جنديين لاجئين، فوَّض أدرست إلى أحدهما، أكنت، أن يسمه، وعرض الآخر منهما، الذي يسمى ديوسكور، على الحلفاء أن يأتي برأس أدرست، أثار تلماك، في المعركة التي نشبت فيما بعد، عجب الناس ببسالته وفطنته، وذلك أنه حمل الموت في طريقه إلى كل ناحية باحثًا عن أدرست في ميدان الوغي، بحث أدرست عنه من ناحيته محاطًا بخيرة كتائبه ممنعًا في تقتيل الحلفاء وذبح أشجع ضباطهم، اشتاط تلماك غيظًا عندما شاهد ذلك، فانقض على أدرست الذي لم يلبث أن قهره وحفظ حياته، لم يكد أدرست ينهض حتى حاول مباغتة تلماك ثانيةً فطعنه تلماك بسيفه، هنالك مد الدونيون يدهم إلى الحلفاء طلبًا للصلح، سائلين، كشرط وحيد للسلم، أن يسمح لهم بأن يكون ملكهم من أمتهم.

اجتمع رؤساء الجيش في تلك الأثناء ليروا هل يجب أن يستولوا على فينوز، وكانت فينوز هذه مدينة حصينة اغتصبها أدرست من الأبوليين البوستيين، فدخل هؤلاء في الحلف ضده طلبًا للعدل حيال هذا الغزو، وأراد أدرست تسكينهم فوضع هذه المدينة وديعةً في أيدي اللوكانيين، ولكنه رشا الحامية اللوكانية وقائدها رشوًا يكون به سلطان اللوكانيين على فينوز ضعيفًا، فخدع الأبوليون في موافقتهم على تدبير قيام اللوكانيين بحراسة فينوز.

وكان دموفنت، الذي هو من أبناء فينوز، قد عرض على الحلفاء سرًّا بأن يسلم إليهم أحد أبواب هذه المدينة ليلًا، ويمكن تمثل نفع هذا عند الاطلاع على وضع أدرست عدته وميرته في حصن مجاور لفينوز لا يمكن الدفاع عنه إذا ما سقطت هذه المدينة، ويصر فلكتت ونسطور على وجوب اغتنام هذه الفرصة، ويهتف، استحسانًا لهذا الشعور، جميع الزعماء الذين غرهم نفوذهما وبهرهم نفع مثل هذه الغارة السهلة، بيد أن تلماك بذل، عند

رجوعه، آخر جهد لتحويلهم عن ذلك، وقد قال لهم: «لا أجهل أنه إذا وجد رجل يستحق أن يفاجأ ويخادع فهو أدرست الذي أكثر من خداع جميع العالم، وأبصر جيدًا أنكم إذا ما باغتم فينوز لم تصنعوا غير حيازتكم مدينةً يملكها الأبوليون الذين هم من أمم حلفكم.

وأعترف أنكم تستطيعون صنع هذا معذورين بعض العذر ما دام أدرست الذي وضع هذه المدينة وديعةً قد رشا القائد والحامية رشوًا يمكنه أن يدخلها به متى رأى الوقت مناسبًا.

ثم إنني أدرك، كما تدركون، أنه إذا ما استوليتم على فينوز غدوتم قابضين، منذ الغد، على الحصن الذي وضع أدرست فيه جميع عدته الحربية، وفرغتم بذلك من هذه الحرب الضروس في يومين.

ولكن أليس الهلاك أفضل من النصر بمثل هذه الوسائل؟ ألا يجب رفض ثمرة الغدر؟ ألا يقال: إن ملوكًا كثيرين، تحالفوا لمعاقبة الملحد أدرست على خدائعه، غدوا مخادعين مثله؟ إذا ما أبيح لنا أن نصنع كما يصنع أدرست صار غير مذنب وكنا مخطئين في عزمنا على مجازاته، ماذا؟! إنه لا يوجد لدى جميع هسبرية، التي يؤيدها كثير من المستعمرات اليونانية ومن الأبطال العائدين من حصار تروادة، سلاح آخر غير المكر والحنث في اليمين! لقد أقسمتم بأقدس الأشياء على تركككم فينوز وديعةً في أيدي اللوكانيين، وأنتم تقولون: إن الحامية اللوكانية قد رُشيت بمال أدرست، وأعتقد صدق ما تدعون، غير أن هذه الحامية تتناول أجرتها من اللوكانيين، ولم تمتنع عن إطاعة هؤلاء قط، وقد التزمت جانب الحياد ولو في الظاهر على الأقل، ولم يدخل أدرست، ولا أتباعه، فينوز قط، والمعاهدة باقية، ولم ينسَ الآلهة يمينكم قط، ألا نحافظ على القول الذي نُعطي إلا عندما تعوزنا الذرائع المحتملة لنقضه؟ ألا نكون مخلصين متحسبين في الأيمان إلا عندما لا يكون لنا غُنم في نقضها؟

وإذا ما عاد حب الفضيلة ومخافة الآلهة لا يؤثران فيكم فتأثروا بسمعتكم ومصلحتكم على الأقل، وإذا ما قدمتم إلى العالم هذا المثال السيئ في نقض القول واليمين للفراغ من حربٍ فأي حروبٍ لا تثيرونها بهذا السلوك الإلحادي؟ وأي جار لا يضطر، إذ ذاك، إلى الخوف منكم مع المقت؟ ومن يستطيع أن يثق بكم عند الضرورة الملحة؟ وأي ضمان يمكن أن تقدموا عندما تودون أن تخلصوا وأن تُقنعوا جيرانكم بإخلاصكم؟ أبمعاهدةٍ رسمية وقد دستموها؟ أم بيمين؟ آه! ألا تكونون قد حسبتم الآلهة أمرًا غير ذي بالٍ إذا ما أملتم نيل بعض الفوائد بنكث اليمين؟ لن يكون السلام في نظركم، إذن، أكثر ضمانًا من الحرب، وسيعد كل ما يصدر عنكم حربًا خافيةً أو ظاهرة، أي ستعدون عدوًّا دائمًا

لدى جميع من نكبوا بجوارهم لكم، وسيتعذر عليكم كل أمر يتطلب صيت صلاح وثقة، وستخلون من كل وسيلةٍ تصدقون بها فيما تعدون.

وإليكم مصلحةً ملحةً يجب أن تقف نظركم إذا ما بقي فيكم شيء من النزاهة والبصر حول منافعكم، وذلك أن سلوكًا خادعًا كهذا يهاجم حلفكم من الداخل ويقوضه، وُيسفر نقضكم العهد عن انتصار أدرست.»

ولما سمع جميع المجلس هذا الكلام بلغ من الاهتزاز ما سأل تلماك معه عن جرأته على قوله: إن عملًا كذاك ينال الحلف به نصرًا عزيزًا يمكن أن يقوض هذا الحلف، واسمع جواب تلماك: «كيف يستطيع بعضكم أن يركن إلى بعض إذا ما قضيتم، ذات مرة، على حسن النية التي هي رابطة المجتمع واعتماده الوحيدة؟ ومن منكم يستطيع، بعد وضعكم مبدأ قائلًا بإمكان نقض قواعد النزاهة والإخلاص حيال مصلحة كبيرة، أن يعتمد على الآخر عندما يجد هذا الآخر نفعًا عظيمًا لنفسه في نقض كلامه ومخادعة غيره منكم؟ وما يحدث لكم؟ ومن منكم لا يريد، حينئذ، أن يُبطل حيل جاره بحيله؟ وما يكون مصير حلف بين كثير من الأمم إذا ما اتفقت فيما بينها، بعد تشاور، على مفاجأة جارها ونقض العهد المعطى؟ وما الذي لا يجر إليه حذر بعضكم من بعض وانقسامكم وما تبذلون من نشاط لإهلاك أنفسكم؟ سيعود أدرست غير محتاج إلى الهجوم عليكم ما افترس بعضكم بعضًا وسوغتم مكايده.

أيها الملوك الحكماء الأجلاء! أيها الملوك الذين اتفق لهم ما لا يُحصى من التجارب حيال الأمم! لا تُعرضوا عن السماع لنصائح شاب مثلي، فإذا ما وقعتم في أفظع شدة تُلقي الحرب فيها الناس أحيانًا وجب أن تنهضوا بفعل انتباهكم وجهود فضيلتكم؛ وذلك لأن الشجاعة الحقيقية لا تُقهر أبدًا، ولكنكم إذا ما قوضتم سياج الشرف والإخلاص، ذات مرة، تعذر إصلاح هذا الخسران، وعدتم عاجزين عن إعادة الطمأنينة التي لا بُدَّ منها لتمام النجاح في جميع الأمور المهمة، وعن رد الناس إلى مبادئ الفضيلة بعد أن تعلموهم ازدراءها؟ وما تخافون؟ أليس عندكم من البسالة ما يكفي لنيل النصر من غير خداع؟ ألا تكفيكم فضيلتكم مضافةً إلى قوات أمم كثيرة بهذا المقدار؟ لنحارب، خير لنا أن نموت، إذا ما وجب الموت، من أن ننال نصرًا خلافًا للياقة، إن أدرست، إن الملحد أدرست، قبضتُنا، وذلك على أن نشمئز من نذالته وسوء نيته.»

ولما أتم تلماك كلامه هذا شعر بأن الإقناع العذب يجري من شفتيه نافذًا صميم الأفئدة، ولاحظ في المجلس صمتًا عميقًا، وكان كل واحد غارقًا في بحر من التفكير، لا في تلماك، ولا في لطف كلامه، بل في الحقيقة البالغة التي أُحِسَّت في نتيجة برهانه، ويعلو

الوجوهَ دَهَشٌ، ثم يُسمع همس أصم ينتشر في المجلس شيئًا فشيئًا، وينظر بعض الحضور إلى بعض، ولا يجرؤ أحد أن يكون أول مَن يتكلم، وكل ينتظر إعراب رؤساء الجيش عما في أنفسهم، وكل يجد مشقةً في ضبط مشاعره، ثم نطق نسطور الرزين بما يأتي: «أي سرَّ أبيه أوليس! لقد أنطقك الآلهة، لقد وضعت في فؤادك منرفا، التي كانت كثيرة الوحي إلى أبيك، ما أبديت من رأي حكيم كريم، لا أنظر إلى شبابك مطلقًا، لا أتنور غير منرفا في كل ما قلت، لقد تكلمت في سبيل الفضيلة، ولولا الفضيلة لتحول أعظم المنافع إلى خسران واقع، ولولا الفضيلة لوقع انتقام الأعداء حالًا، لجُلب حذر الحلفاء حالًا، لظهر في الحال نفور جميع رجال الخير وغضب الآلهة العادل، ولندع فينوز في يد اللوكانيين، ولا نُفكر، بعد الآن، في غير قهر أدرست ببسالتنا.»

نطق بهذا، وهتف جميع المجلس لهذا القول الحكيم، ولكن كل مَن في المجلس كان، وهو يهتف، يرجع البصر إلى ابن أوليس معتقدًا أنه يُبصر فيه تلألؤ حكمة منرفا التي تُوحي إليه.

ولسرعان ما ثارت في مجلس الملوك مسألة أخرى لم ينل بها تلماك مجدًا أقل من ذاك، وذلك أن أدرست، الذي لم ينفك يكون قاسيًا ماكرًا، أرسل إلى المعسكر جنديًّا لاجئًا اسمه أكنت؛ كيما يسم أشهر رؤساء الجيش، وكان أخص ما أمر به ألا يدخر وسعًا في قتل الشاب تلماك الذي كان قد ألقى الهول بين الدونيين، وكان تلماك من شدة البأس وسلامة النية بحيث لم يجنح إلى الحذر، فاستقبل هذا البائس استقبال وداد، استقبل هذا المسكين الذي كان قد رأى أوليس في صقلية فقص عليه خبر مغامرات هذا البطل، وأخذ تلماك يغذيه ويسعى في تخفيف بؤسه، وذلك أن أكنت توجع من مكر أدرست به وسوء معاملته إياه، وذلك من غير أن يعرف تلماك أن ذلك يعني تغذيةً لحية سامة في صدر أكنت وتدفئةً لها كيما تلدغ تلماك وتقتله.

ويباغت جندي لاجئ آخر، اسمه أريون، كان أكنت قد أرسله إلى أدرست ليخبره بحال معسكر الحلفاء وليوكِّد له سمه في الغد لأهم الملوك مع تلماك، وذلك في وليمة أعدها لهم، ويُقبض على أريون، ويعترف بخيانته، ويُتهم بأنه على اتفاق مع أكنت لما بينهما من صداقة قوية، بيد أن أكنت المداجي الجريء أجاد الدفاع عن نفسه فلم يمكن إثبات جرمه ولا كشف أساس المؤامرة.

ويرى كثير من الملوك أنه، عند الشبهة، يجب أن يُضحَّى بأكنت في سبيل الأمن العام، وقد قالوا: «يجب قتله، فلا يؤبه لحياة رجل واحد إذا ما دار الأمر حول حفظ حياة كثير من الملوك، وما أهمية هلاك بريء إذا ما دار الأمر حول حفظ وكلاء الآلهة بين الناس؟»

تلماك: «يا لها من مبادئ جافية! يا لها من سياسة جائرة! ماذا؟! أأنتم مسرفون في دم الإنسان؟ يا مَن ترعون الناس ولا تقودونهم إلا لحفظهم كما يحفظ الراعي ماشيته! إذن، أنتم ذئاب ضارية، لا رعاة، أو إنكم لستم، على الأقل، رعاةً إلا لجزِّ الماشية وسلخها بدلًا من سوقها إلى المراعي، وعندكم أن الإنسان يكون مذنبًا منذ اتهامه، وأن الشبهة تكفي للقتل، وأن الأبرياء يكونون تحت رحمة الحساد والمفترين، وأن الحذر الاستبدادي كلما زاد في قلوبكم رأيتم زيادة ذبح الضحايا.»

وكان تلماك من النفوذ والحماسة في كلامه هذا بحيث استهوى الأفئدة وغمر أصحاب ذاك الرأي المنحط بالخجل، ثم هدأ ثائره وقال لهم: «وأما أنا فلست من حب الحياة بحيث أريد العيش بذاك الثمن، وأفضل أن يكون أكنت شريرًا على أن أكون هكذا، وأفضل أن ينزع حياتي على أن أهلكه بشبهة على غير حق، ولكن اسمعوا لي، ودعوني أسأل أكنت أمامكم، يا مَن نصبوا ملوكًا، أي قضاة الأمم، يا مَن يجب عليهم أن يحكموا بين الناس بالعدل والنباهة والاعتدال.»

ولم يلبث تلماك أن سأل ذاك الرجل عن صلته بأريون، ويلحف في سؤاله حول ما لا يُحصى من الأحوال، ويتظاهر، غير مرة، بأن يعيده إلى أدرست مثل جندي لاجئ يستحق العقاب، وذلك ليرى هل يخشى إرساله هكذا أو لا، غير أن أكنت ظل هادئًا وجهًا وصوتًا، فاستدل تلماك بهذا على إمكان عدم براءة أكنت.

وبما أنه لم يستطع استخراج الحقيقة من صميم فؤاده فقد قال له: «أعطني هذا الخاتم، فأنا أريد إرساله إلى أدرست.»

ويصفر وجه أكنت عند هذا الطلب ويرتبك، ويلاحظ ذلك تلماك الذي لم ينفك ينظر إليه، ويتناول تلماك هذا الخاتم، ويقول له: «سأرسل هذه الخاتم إلى أدرست بواسطة بولتروب اللوكاني الذي تعرف متظاهرًا بأنه مرسل من قبلك سرًّا، فإذا ما استطعنا بهذه الوسيلة كشف صلتك بأدرست أهلكت بأشد ما يكون من نكال، وإذا ما اعترفت بذنبك منذ الآن عُفي عنك، واكتفي بإرسالك إلى جزيرةٍ لا يعوزك فيها شيء.»

ويعترف أكنت بكل شيء من فوره، ويهب الملوك له الحياة بطلبٍ من تلماك وفق سابق وعده، ويُرسل إلى إحدى جزر إخنادس حيث يعيش آمنًا.

ويَمضِي وقت قصير على ذلك فيأتي إلى معسكر الحلفاء ليلًا دونيٌّ غامض النسب ولكن مع نشاط وإقدام، يأتي دونيٌّ اسمه ديوسكور، وذلك ليعرض عليهم ذبح الملك أدرست في خيمته، وكان قادرًا على ذلك؛ وذلك لأن من لا يُبالي بحياته يغدو مولى حياة الآخرين، وكان

هذا الرجل يبغي الانتقام لما حدث من اغتصاب أدرست زوجه التي شغفته حبًّا والتي كانت تساوي حتى فينوس جمالًا، وكان قد عزم على إهلاك أدرست واسترداد امرأته أو يهلك دون ذلك، أجل، كان على اتفاق سري حول دخوله خيمة الملك سرًّا ومساعدته في خطته من قبل كثير من الضباط الدونيين، بيد أنه كان يرى ضرورة غارة الحلفاء على معسكر أدرست في الوقت نفسه كيما يسهل عليه، حين الارتباك، إنقاذ زوجه واختطافها، وهذا مع العلم بأنه يرضى أن يهلك إذا لم يستطع خطفها بعد قتله الملك.

ولم يكد ديوسكور يشرح خطته للملوك حتى اتجهت الأبصار إلى تلماك كما لو كانت تسأله عن حكمه في ذلك، قال تلماك: «حرَّم الآلهة انتفاعنا بالخائنين بعد أن حفظونا منهم، وتكفي مصلحتنا وحدها بنبذ الخيانة ولو لم يكن من الفضيلة ما نزدريها معه، ونحن إذا ما أبحناها بمثالنا كنا جديرين بأن ترتد علينا، ومن يكون منا آمنًا بعد ذلك؟ يمكن أدرست أن يفلت من الضربة التي تهدده وأن يُنزلها على ملوك الحلفاء، وبهذا تعود الحرب غير حرب، وبهذا لا يبقى محل للحكمة والفضيلة، ولا نرى غير الغدر والخيانة والاغتيال، ونشعر بنتائج هذه الأعمال المشئومة، ونستحقها ما أبحنا أعظم الشرور؛ ولذا أرى رد الخائن إلى أدرست، وأعترف بأن هذا الملك لا يستحق هذا، بيد أن جميع هسبرية وجميع بلاد اليونان الناظرة إلينا تستحق أن نسلك هذا السبيل كيما نكون محل تقديرها، ونحن مدينون لأنفسنا، وللآلهة العادلين أكثر مما لأنفسنا، بنفورنا من الغدر.»

ولسرعان ما أُرسل ديوسكور إلى أدرست، فارتجف أدرست من الخطر الذي يحيق به، ولم يستطع أن يُعجب بجود أعدائه، ما عجز الأشرار عن إدراك معنى الفضيلة الخالصة، وإنما حار أدرست، مرغمًا، حيال ما رأى، وإن لم يُقدم على امتداحه، ومن شأن ذاك العمل الكريم الذي قام به الحلفاء أن يكون ذكرى مخزيةً لجميع خدائعه ومظالمه، ويحاول الحط من قيمة نُبل أعدائه، ويجد من الفضائح أن يظهر كنودًا مع ذلك، وهو مدين لهم بحياته، ولكن الرجال الفاسدين لا يلبثون أن يقسوا تجاه كل مَن يمكن أن يدنو منهم.

وبما أن أدرست أبصر زيادة صيت الحلفاء كل يوم فقد رأى القيام نحوهم بعمل باهر، وبما أنه كان عاجزًا عن صنع أي شيءٍ تأمر به الفضيلة فإنه أراد أن يتفوق عليهم بالسلاح على الأقل فبادر إلى القتال.

ويحل يوم النزال، ولم يكد الفجر يفتح للشمس أبواب المشرق في طريق زاخرة بالورد حتى أفلت تلماك، الذي فاق بجدِّه انتباه أكثر القواد حنكةً، من بين ذراعي النوم اللذيذ، وسيَّر جميع الضباط، وكانت خوذته المستورة بسبائب متموجة تلمع فوق رأسه، وكانت درعه التي على ظهره تبهر عيون جميع الجيش، ولا غرو، فقد كان لصنع فلكن، مع جماله

الطبيعي، سناء المِجَنِّ المستتر تحته، ويحمل رمحه بيده كما يشير بيده الأخرى إلى المراكز التي يجب شغلها، وكانت منرفا قد وضعت في عينيه نارًا ربانية وعلى وجهه جلالًا زاهيًا يبشر بالنصر.

ويسير، وينسى الملوك سنهم ومقامهم، ويشعرون بأنهم مسيرون بقوة علوية تحملهم على اتباع خطواته، وعاد الحسد الواهي لا يجد سبيلًا إلى قلوبهم، وكل يخضع لذاك الذي تقوده منرفا من يده خافيةً عن الأبصار، ولم تشب عمله صولة ولا لهوجة، وكان حليمًا هادئًا صبورًا دائم الاستعداد لسماع الآخرين والانتفاع بنصائحهم، ولكن مع النشاط والحذر والانتباه إلى أقصى حد، ولكن مع تنظيم كل شيء بما يلائم، ولكن مع عدم ارتباك حيال أي أمر كان، ولكن مع الإغضاء عن الزلات وإقالة العثرات وتذليل الصعوبات، وذلك من غير أن يحمل أحدًا فوق طاقته موحيًا بالحرية والثقة في كل مكان، وكان إذا ما أصدر أمرًا ظهر هذا الأمر بسيطًا جليًّا، وكان يكرر الأمر مبالغةً في إرشاد من يقوم بتنفيذه، وكان يُبصر في عيني هذا هل أدركه أو لا، وكان يحمله، بعد ذلك، على إيضاح الوجه الذي أدرك به كلامه وهدف خطته الرئيس إيضاحًا ذا دالة، فإذا ما أحس حسن فهم مَن يرسل ومَن يطلع على وجهة نظره لم يصرفه إلا بعد أن يُبدي تقديره له وثقته به كيما يشجعه، وهكذا فإن جميع من يبعث كان يطفح نشاطًا كيما يروقه وكيما يفوز، بيد أن هؤلاء كانوا لا يخشون عزوه إليهم سوء التوفيق ما دام يلتمس المعاذير حول كل خطأ لا يصدر عن سوء نية.

وكان الأفق يلوح أحمر ملتهبًا بأشعة الشمس الأولى، وكان البحر زاخرًا بنيران النهار الناشئ، وكان الشاطئ يعج بحركة الرجال والسلاح والخيل والعربات، وكان هذا ضجيجًا مختلطًا مشابهًا لضوضاء الأمواج الهائجة عندما يثير نبتون سود الزوابع في أسفل مهاويه، وهكذا أخذ مارس يبذر الغيظ في القلوب بقعقعة السلاح وجهاز الحرب المرتج، وكانت الحقول مملوءةً بالحراب المزبئرة المشابهة للسنابل التي تكسو الأتلام الخصيبة أيام الحصاد، وكان يتصاعد سحاب من الغبار يحجب الأرض والسماء عن أعين الناس مقدارًا فمقدارًا، وكان يتقدم الاختلاط والهول والذبح والموت الزؤام إلى الأمام.

ولم تكد السهام الأولى تُطلق حتى رفع تلماك عينيه ويديه نحو السماء ونطق بما يأتي: «أي جوبيتر، أي أبا الآلهة والناس، ترى بجانبنا ما لا نستحي بالبحث عنه من عدل وسلام، وترانا نقاتل على الرغم منا، وقد أردنا حقن دماء الناس ونحن لا نبغض حتى هذا العدو وإن كان ظالمًا ماكرًا ملحدًا، فاحكم بيننا وبينه، وإذا كان لا بُدَّ من موتنا فها هي

ذي حياتنا بين يديك، وإذا كان لا بُدَّ من إنقاذ هسبرية وصرع الطاغية نلنا هذا النصر بقدرتك وحكمة ابنتك منرفا، وكنا مدينين لكما بهذا المجد، وأنت، يا مَن يحمل الميزان بيده، دبر مصير المعارك، وأنت تعلم أننا نجاهد في سبيلك، وبما أنك عادل فإن أدرست عدو لك أكثر من أن يكون عدوًّا لنا، وإذا ما تم النصر لحزبك قبل آخر النهار أريقت دماء الضحايا في محاريبك.»

قال هذا، ودفع جياده الوثابة المزبدة إلى صفوف الأعداء المتحفزة فكان برياندر اللكريني أول من لاقى، وكان برياندر هذا لابسًا جلد الأسد الذي قتله في أثناء رحلة قام بها في كليكية، وكان مسلحًا بدبوس عظيم كما كان هركول، وكان يشابه الغيلان بقامته وقوته، فلما رأى تلماك ازدرى شبابه وجمال وجهه، وقال له: «أتريد، أيها الغلام المتخنث، أن تنازعنا مجد المعارك؟ اذهب، أيها الولد، اذهب وابحث عن أبيك بين الأطياف.»

قال هذا وهو يرفع دبوسه الأعقد الثقيل المجهز بنواتئ من حديد والذي يظهر مثل صاري المركب، وكل يخشى ضربته، ويهدد رأس ابن أوليس بالكسر، ويصد تلماك الضربة عنه، وينقض على برياندر بسرعة النسر الذي يشق الهواء، ويكسر الدبوس حين هُوِيه عجلة عربة كانت بجانب عربة تلماك، ويطعن هذا الفتى اليوناني برياندر في عنقه، ويخنق دمه، الذي يجري من جُرحه البليغ فقاقيع فقاقيع، صوته، وعادت جياده الوثابة لا تشعر بيده الخائرة وصارت أعنَّتها المتموجة على رقابها تتموج ذات اليمين وذات الشمال، ويسقط من فوق عربته مغمض العينين حيال النور بادي الموت على وجهه المصفر المشوه، ويرق تلماك له، ويُسلم جثته إلى خدمه من فوره محتفظًا بجلد الأسد مع الدبوس كدليل على نصره.

ثم بحث تلماك عن أدرست في المعترك، ولكنه ألقى، وهو يبحث عنه، جمعًا من المقاتِلة في الجحيم، ومن هؤلاء هيله الذي قرن بعربته حصانين، مشابهين لحصن الشمس، كان قد علفهما في المروج التي تُروى بماء نهر أوفيد، ومنهم ديموليون الذي كاد في صقلية يساوي إركس في الملاكمات، ومنهم كرنتور الذي كان نزيل هركول وصديقه عندما مر ابن جوبيتر هذا على هسبرية وقضى على اللعين كاكوس، ومنهم مِنِكْرات الذي يشابه بولكس في المصارعة كما يُروى، ومنهم هبوكون السلابي الذي كان يضاهي كستور مهارةً وكياسةً في ترويض الخيل، ومنهم الصائد المشهور أوريميد الذي ما فتئ يلطخ بدم ما يصطاد من دببة ورتتة يقتلها في ذرى جبال الأبنين المكسوة ثلجًا والذي كان عزيزًا على ديانا المعلمةِ إياه رمْيَ النشاب كما يقال، ومنهم نكسترات القاهر لغولٍ يقذف النار في الصخر من جبل غرغان، ومنهم كليانت الذي كان يجب أن يتزوج الفتاة فلويه بنت نهر ليريس، وذلك أن أباها كان قد وعد بتزويجها مَن ينقذها من ثعبانٍ مجنح ولد على ضفاف هذا النهر

ووجب أن يفترسها في بضعة أيام وفق نبوءة هاتف الغيب، وأن هذا الشاب الذي أولع بها غرامًا، وقف نفسه على قتل هذا الغول فوفق لهذا، ولكن من غير أن يذوق ثمرة فوزه، وأن فلويه كانت تستعد لعرس رائع وتنتظر كليانت فارغة الصبر فعلمت أنه اتبع أدرست في معاركه، وأن البرك قصفت أيامه، وتملأ فلويه الغاب والجبال القريبة من ذاك النهر بعويلها، وتُغرق عينيها بالدموع، وتنتف شعرها الأشقر الجميل، وتنسى أكاليل الزهر التي تعودت اقتطافها، وتتهم السماء بالظلم، وبما أنها لم تكف عن البكاء ليل نهار فإن الآلهة رقوا لأحزانها ووضعوا حدًّا لآلامها استجابةً لدعاء النهر، وتحولت إلى ينبوعٍ بغتةً عن سكبٍ لعبراتها، تحولت إلى ينبوعٍ يجري في صميم النهر مضيفًا مياهه إلى مياه الإله أبيها، بيد أن ماء هذا الينبوع لا يزال مرًّا، ولا يُزهر العشب على ضفافه مطلقًا، ولا يوجد على هذه الضفاف الكئيبة غير ظل السرو.

ويُخبر أدرست في تلك الأثناء بأن تلماك ينشر الذعر في كل محل، فيبحث عنه بنشاط، ويأمل أن يسهل عليه قهر ابن أوليس الذي لا يزال في ميعة الشباب، ويجمع حوله ثلاثين دونيًّا أقوياء بارعين بالغي الجرأة، ويعدهم بجوائز سنيةٍ إذا ما استطاعوا في المعركة أن يُهلكوا تلماك على الوجه الذي يقدرون عليه، ولو لُقي تلماك في بدء المعركة لأحاط هؤلاء الرجال الثلاثون بعربته، ولهجم أدرست عليه من الأمام، ولم يُلاقِ أية مشقةٍ في قتله، غير أن منرفا أضلتهم.

ويخيل إلى أدرست أنه يرى تلماك ويسمعه في مكانٍ غائرٍ من السهل واقعٍ في سفح تل حيث يوجد جمع من المقاتلين، ويعدو ويطير ويريد أن يرتوي من الدم، ولكنه يجد، بدلًا من تلماك، الشيخ نسطور وهو يرمي بيده المرتعشة بعض السهام على غير جدوى، ويُريد أدرست أن يطعنه عن غيظٍ، بيد أن كتيبةً من البيليين تُسرع إلى نسطور وتحيط به لحمايته، وهنالك يُظلم الجو بغيمٍ من السهام يغشى المقاتلين، وهنالك لا يُسمع غير صراخ المحتضرين وأنينهم، وغير صوت سلاح من يسقطون في المعركة، وتُعول الأرض تحت كُدْسٍ من القتلى، وتجري جداول دمٍ من كل جهة، وتظهر بلون ومارس وفوري النار لابسةً أرديةً كريهةً ملطخةً بالدم، وتملأ عيونها الجافية بهذا المنظر وتجدد الغيظ في القلوب بلا انقطاع، وتدرأ هذه الآلهة العدوة للناس عن الفريقين كل شفقةٍ كريمة وكل بسالةٍ معتدلة وكل إنسانيةٍ لطيفة، فعاد لا يُرى في هذا الكدس المختلط من الناس الذين يفترس بعضهم بعضًا غير القتل والانتقام والغم والكيد القاسي، وتُبصر بلاس الحكيمة المنيعة ذلك فترتجف وتتراجع نفورًا.

ويسير فلكتت بخطًا وئيدةٍ في تلك الأثناء ممسكًا سهام هركول، ثم يخف إلى إمداد نسطور، وبما أن أدرست لم يستطع إصابة الشيخ الرباني هذا فإنه رشق بسهامه كثيرًا من البيليين وسقاهم كأس المنون، ومن هؤلاء أن صرع كتيزيلاس البالغ من سرعة العدو ما لا يكاد يطبع معه أثر قدميه في الرمل، والذي كان يسبق في بلده أسرع أمواج الأروتاس والألِفه، وصرع عند قدميه أتيفرون الذي هو أجمل من هيلاس كما أسقط بتيريلاس الذي لحق نسطور في حصار ترودة والذي كان أشيل نفسه قد أحبه لبسالته وقوته، وأسقط أرستوجيتون الذي كان قد غطس، كما يُروى، في مياه نهر أخيلوس فنال من هذا الإله، سرًّا، مزية اتخاذ جميع الأشكال، والذي بلغ من المرونة والنشاط في جميع حركاته ما كان يُفلت معه من أقوى الأيدي، والذي صار، مع ذلك، لا يُبدي حراكًا بطعنة سهمٍ من أدرست، والذي فاض روحه مع دمه.

ويرى نسطور سقوط أشجع ضباطه تحت يد الطاغية أدرست كما تسقط السنابل الذهبية في أثناء الحصاد تحت منجل الحصاد القاطع، فينسى الخطر الذي يعرض له مشيبه على غير جدوى، وتتخلى عنه حكمته، وعاد لا يُفكر في غير تعقبه بعينيه ابنه بزسترات الذي كان يُدير المعركة من ناحية أبيه ليبعد الخطر عنه، وتأتي الساعة النحسة التي لا بد لبزسترات من أن يُشعر فيها نسطور بمقدار ما ينطوي عليه التعمير طويلًا من شقاء.

ويوجه بزسترات إلى أدرست طعنة سهمٍ شديدةً كانت تُهلكه لو أصابته، ويتجنبها هذا الدوني، وبينا كان بزسترات، الذي ارتج بالضربة الخاطئة التي صوبها، يُقوِّم سهمه طعنه أدرست بحربةٍ في بطنه، وتأخذ أحشاؤه في الخروج مع جدولٍ من الدم، ويكبو لونه كالزهرة التي تقطف يد الحورية في المروج، وتنطفئ عيناه، ويضعف صوته، ويسنده إليه، عند سقوطه، مربيه ألسه الذي كان بجانبه، ولم يكن لديه من الوقت غير إحضاره ليكون بين ذراعي أبيه، وهناك يُريد أن يتكلم، ويُبدي آخر علامات الحنان، ولكنه لفظ نفسه الأخير حينما فتح فاه.

وبينما كان فلكتت ينشر القتل والهول حوله دفعًا لجهود أدرست كان نسطور يضم جثة ابنه بين ذراعيه ويملأ الهواء بعويله غير محتمل للنور، وقد قال: «يا لشقاء مَن يكون أبًا ويُعمَّر طويلًا! آه! أيها القدر القاسي، لِمَ لم تختم حياتي حين اصطياد الرتتة في كليدون أو الرحلة إلى كلكس أو في أثناء حصار ترودة الأول؟ إذن، لكنت قد مِتُّ مكللًا بالمجد خاليًا من الغم، وأما الآن فإنني أُقاسي مشيبًا أليمًا عرضةً للازدراء والعجز، عدت لا أعيش إلا لأعاني ضروب المصائب، عاد لا يكون لي من المشاعر غير الكروب، أي بني، أي

بني، أي ابني العزيز بزسترات! غدوت موضع سلواني بعد فقد أخيك أنتيلوك، وأما الآن فقد فقدتك، وخسرت بفقدك كل شيء، ولا أجد ما يُسليني عن همومي، وفرغت من جميع شئوني، وصار الأمل، الذي هو مسكن آلام الناس الوحيد، لا يظهر لي خيرًا أبالي به، أي أنتيلوك، أي بزسترات، أي ولديَّ العزيزين، أعتقد اليوم أنني فقدتكما، ولا عجب، فموت أحدكما نكأ الجرح الذي أصاب به الآخر صميم فؤادي، لن أراكما! ومن ذا الذي يُغمضن عينيَّ؟ ومن ذا الذي يجمع رمادي؟ أي بزسترات! لقد مت شجاعًا كما مات أخوك، وأنا الذي لا يستطيع أن يموت.»

أجل، أراد نسطور أن يطعن نفسه بنبلةٍ كان يمسكها عندما نطق بهذه الكلمات، بيد أنه قُبض على يده، ونزعت منه جثة ابنه، وبينا كانت قوى هذا الشيخ الشقي تخور حمل إلى خيمته حيث استرد قواه وود أن يعود إلى المعركة، ولكنه مُنع من عزمه على الرغم منه.

وكان كل من أدرست وفلكتت يبحث عن الآخر في تلك الأثناء، وكان الشرر يتطاير من عيني كل منهما كما يتطاير من عين الأسد والفهد حين يحاول كل منهما أن يفترس الآخر في الحقول التي يرويها نهر كايستر، ويبدو الوعيد والغيظ الصائل والانتقام الأليم في أعينهما الملتهبتين، وكانا يحملان الموت إلى كل مكان يرميانه بسهامهما، وكان جميع المقاتلين ينظرون إليهما فزعين، وكان كل منهما ينظر إلى الآخر، وكان فلكتت قابضًا بيده على أحد السهام الهائلة التي لم تُخطئ طعنتها قد عندما كان يُلقيها فتوجب من الجروح ما لا يُشفى، بيد أن مارس، الذي كان يعاضد الطاغية الجريء أدرست، لم يُطق هلاك هذا الجبار بسرعة، فأراد أن يُطيل به فظائع الحرب وتكثير المذابح، وهكذا لم يزل أدرست مدينًا لعدل الآلهة بتعذيب الناس وسفك دمائهم.

ويُخرج فلكتت حينما أراد الهجوم على أدرست، وذلك بطعنة سهم أصابه بها الشاب اللوكاني أنفيماك الذي هو أجمل من نيره المشهور، والذي كان لا يفوقه جمالًا غير أشيل بين مقاتلة الأغارقة في أثناء حصار تروادة، ولم يكد فلكتت يتلقى تلك الضربة حتى رمى أنفيماك بسهمه وأصاب قلبه، ولسرعان ما انطفأت عيناه السوداوان الجميلتان وغشيهما ظلام الموت، ويذبل فمه القرمزي الأشد حمرةً من كل وردٍ يبذره الفجر الناشئ في الأفق، ويُكبي خديه شحوب كريه، ويشوه هذا الوجه اللطيف الناعم بغتةً، ويرق له فلكتت نفسه، ويئن جميع المحاربين حين مشاهدتهم هذا الشاب الصريع يتململ في دمه، ويتمرغ شعره، الجميل كشعر أبولون، في التراب.

ويضطر فلكتت إلى مغادرة المعركة بعد قهره أنفيماك وفقده دمه وقواه، ويكاد جرحه القديم ينغل وتكاد آلامه تتجدد كما يلوح، وذلك لما بذل من جهدٍ في المعركة ولأن

ولدَيْ إسكولاب لم يستطيعا شفاءه تمامًا مع ما كان عندهما من علمٍ رباني، وها هو ذا قد أوشك أن يسقط في كُدس الجثث الدامية المحيطة به، ويُخرجه من المعركة أرخيدام الذي هو أجرأ الإيباليين وأبرعهم والذي أتى به لإقامة بتيلية، وذلك في وقت كان يسهل على أدرست أن يصرعه عند قدميه، وعاد أدرست لا يجد من يجرؤ على مقاومته، ولا على تأخير نصره، والجميع يُصرع، والجميع يفر، ويشابه الوضع سيلًا بلغ الزبى فصار يجر بأمواجه الصائلة كل ما يُلاقى من غلالٍ وقِطاعٍ ورعاءٍ وقُرًى.

ويسمع تلماك من بعيدٍ وغْيَ الغالبين، ويرى ارتباك رجاله وفرارهم أمام أدرست كما لو كانوا سربًا من الأيائل الوجلة يجوب الحقول الواسعة والغاب والجبال، حتى الأنهار السريعة، عندما يتعقبه الصائدون، ويئن تلماك، ويبدو الغيظ على عينيه، ويترك الأماكن التي كان يقاتل فيها طويلًا قتال مجد ومخاطرة، ويُغذ في السير لإنجاد رجاله، ويتقدم مغمورًا بدم جمعٍ من الأعداء جندله على التراب، ويُخرج من بعيدٍ صيحةً سمعها الجيشان.

وكانت منرفا قد جعلت في صوته ما لا يُعرب عنه من هولٍ تدوي به الجبال المجاورة، ولم يتفق لمارس في تراكية قط أن أسمع بأقوى من ذلك صوته الجافي عند مناداته فُوري النار والحرب والموت، وتحمل صيحة تلماك هذه كل بسالةٍ وإقدامٍ إلى قلوب أتباعه، ويجمد بها الأعداء فَرَقًا، ويعتري حتى أدرست عار الاضطراب شعورًا، ولا أدري مقدار ما في الطوالع من شؤمٍ يوجب ارتجافه، وإنما اليأس، لا البأس الهادئ، هو الذي يهزه، وتخور ركبه ثلاث مرات، ويرتد على عقبه ثلاث مرات من غير تفكير فيما كان يصنع، وينتشر في جميع أعضائه اصفرار خورٍ وعرق بارد، ولا يستطيع صوته الأبح الحائر إتمام أي كلام يصدر عنه، وتلوح عيناه، المملوءتان نارًا قاتمةً متوقدةً، خارجتين من رأسه، ويُرى ارتجاجه بالفوري كأرست، ويظهر انقباض في جميع حركاته، هنالك أخذ يعتقد وجود آلهةٍ، هنالك خُيل إليه أنه أغضبها، هنالك سمع صوتًا أصم يخرج من قعر الهوة داعيًا إياه إلى الترتر الأسود، وكلٌّ كان يُشعره بيدٍ سماويةٍ خفيةٍ مدلاةٍ فوق رأسه كيما تثقل عليه وتضربه، وينطفئ الأمل في صميم فؤاده، ويتبدد بأسه كما يتبدد نور النهار عند غياب الشمس في مياه البحر واشتمال ظلام الليل بالأرض.

وأخيرًا يدنو الملحد أدرست من ساعته الأخيرة، هذا الملحد أدرست الذي كان يكابد طويلًا فوق الأرض لو لم يحتج الناس إلى عقاب عاجل، ويعدو أدرست مسعورًا نحو مصيره الذي لا مفر منه، ويلازمه الغيظ والندم الأليم والوله والغضب والهياج واليأس، ولم يكد يرى تلماك حتى أيقن أنه يُبصر الأفرن يُفتح له، وأن أعاصير اللهب التي خرج من

نهر فليجتون الأسود مهيأةٌ لالتهامه، ويصرخ ويظل فاغرًا فاه من غير أن يستطيع النطق بكلمة، شأن الرجل النائم الذي يفتح فمه، وهو يحلم حلمًا مزعجًا، باذلًا جهده ليتكلم، بيد أن الكلام يعوزه دائمًا ويحاول الكلام عبثًا، ويُطلق أدرست سهمه على تلماك بيدٍ مرتعشة سريعة، ويحتمي صديق الآلهة المقدام تلماك بترسه، ويلوح أن النصر يكتنفه بأجنحته مدليًا تاجًا فوق رأسه، ويسطع البأس العذب الهادئ في عينيه، ويُعد منرفا ما ظهر حكيًا متزنًا بين أشد الأهوال، ويرتد السهم الذي ألقاه أدرست بالترس، ويبادر أدرست إلى استلال سيفه حتى يحول دون إلقاء ابن أوليس سهمه عليه بدوره، ولما رأى تلماك أدرست شاهرًا سيفه عدل عن رمي سهمه إلى شهر سيفه أيضًا.

ولما رئي الاثنان يتبارزان عن كثبٍ على هذا الوجه وضع جميع المحاربين الآخرين أسلحتهم صامتين محدقين إليهما معلقين نتيجة الحرب على اصطراعهما، وتلمع سيوفهما كالبرق الذي تنطلق منه الصواعق، ويتداخل السيفان غير مرة ويقومان بضرباتٍ طنانةٍ غير مجديةٍ في السلاح المصقول، ويطول المتبارزان ويتلويان ويوطُؤان وينهضان من فورهما، ثم يتماسكان، وما كان اللبلاب النابت عند أسفل الدردار ليكبس بفروعه المتشابكة على ساق هذه الشجرة العقداء حتى غصونها العليا كبسًا أشد من ذلك، ولم يفقد أدرست قوته بعد، ولم يتذرع تلماك بجميع قوته بعد، ويبذل أدرست جهودًا كثيرة يغافل بها عدوه ويضعضعه، ويحاول إمساك سيف هذا الشاب اليوناني، ولكن على غير طائل، وبينا كان أدرست يحاول هذا رفعه تلماك من الأرض وطرحه على الرمل، ويُبدي هذا الملحد، الذي ما انفك يهين الآلهة، خوفًا من الموت، ويستحي أن يلتمس الحياة، ولم يستطع أن يمنع نفسه من إظهار هذه الرغبة، ويسعى أن يثير رحمة تلماك، قال أدرست: «والآن، يا ابن أوليس، أعترف بالآلهة العادلين، فهم يجازونني بما أستحق، ولا يوجد غير البلاء ما يفتح عيون الناس حتى يروا الحقيقة، وأرى الحقيقة، وهي تدينني، وأنت ترى ملكًا يُذكرك بأبيك البعيد من إيتاك فيؤثر في فؤادك.»

ولسرعان ما قال تلماك، الممسك أدرست تحت ركبتيه والرافع سيفه لينحره، ما يأتي: «لم أرد غير نصر الأمم التي أتيت لمساعدتها وغير تمتعها بالسلام؛ ولذا فإنني لا أحب سفك الدماء مطلقًا؛ ولذا فعش يا أدرست، ولكن عش لإصلاح خطيئاتك، وأعد كل ما اغتصبت، وأقم العدل والدعة في ساحل هسبرية الكبرى التي دنستها بالقتل والخيانة، وعش، وكن رجلًا آخر، واعلم بسقوطك أن الآلهة عادلون، وأن الأشرار أشقياء، وأنهم يُخدعون حين يحاولون نيل السعادة بالعنف والقسوة والكذب، ثم اعلم أنه لا شيء أنعم للإنسان وألطف

من الفضيلة البسيطة الثابتة، وليكن ابنك مترودور واثنا عشر من وجوه قومك رهائن لدينا.»

نطق تلماك بهذه الكلمات، وترك أدرست ينهض، ومد إليه يده غير حاذرٍ من سوء نيته، بيد أن أدرست لم يلبث أن رماه بسهمٍ آخر قصيرٍ كان يخفيه، وكان هذا السهم من الشحذ ومن براعة الرشق بحيث يخرق درع تلماك لو لم تكن ربانيةً، ويرمى أدرست بنفسه خلف شجرةٍ في الوقت عينه اجتنابًا لتعقيب الشاب اليوناني: تلماك.

هنالك قال تلماك: «ترون، أيها الدونيون، أن النصر لنا، وأن الملحد لا ينجو بنفسه إلا بالخيانة، وأن من لا يخاف الآلهة يخاف الموت، وأن من يخاف الآلهة لا يخاف غيرهم.»

قال هذا الكلام وهو يتقدم نحو الدونيين، ويشير على رجاله، الذين كانوا في الناحية الأخرى من الشجرة، أن يسدوا المنافذ على الغادر أدرست، ويخشى أدرست أن يفاجأ، فيتظاهر بأنه يعود إلى الوراء، ويريد هزم الأقريطشيين الذين يعترضون له، بيد أن تلماك يبدو نشيطًا كالصاعقة التي يُرسلها أبو الآلهة من فوق جبل الألنب على رءوس المجرمين فينقض على عدوه ويقبض عليه بيدٍ منصورة، ويطرحه كما تطرح الشمأل الشديدة غض الحصائد التي تُزين الحقول، وقد عاد تلماك لا يستمع إلى الملحد، وإن حاول الملحد إساءة استعمال كرم تلماك، ويغمد تلماك سيفه في أدرست ويدهوره في لهب الترتر الأسود جزاءً وفاقًا.

ولم يكد أدرست يموت حتى سُرَّ الدونيون بخلاصهم بدلًا من الرثاء لهزيمتهم وهلاك زعيمهم، ويمدون أيديهم إلى الحلفاء دليلًا على السلام والوفاق.

ويفر، عن جبنٍ ونذالةٍ، مترودور الذي كان أبوه أدرست قد غذاه بمبادئ النفاق والظلم والقسوة، بيد أنه كان له عبد شريك في رذائله وطغيانه، وكان قد أعتق عبده هذا وغمره بإحسانه، فعلى هذا العبد اعتمد في فراره، ولم يُفكر هذا العبد في غير خيانته ناظرًا إلى مصلحته الخاصة، ويقتله العبد من الخلف في أثناء فراره، ويقطع رأسه، ويأتي به إلى معسكر الحلفاء طامعًا أن ينال جائزةً كبيرة على هذه الجناية التي تُختم بها الحرب، ولكنه يُنفر من هذا المجرم، ويؤمر بقتله.

ولم يستطع تلماك أن يُمسك عن الدمع حينما رأى رأس مترودور الذي كان شابًّا بارع الجمال رائع الخلقة فأفسدته الشهوات وسوء القدوات، وقد قال بصوت عالٍ: «آه! هذا ما يفعل سم اليسر في أميرٍ شاب، فكلما ارتفع هذا الأمير وبطر ضل وابتعد عن حس الفضيلة، والآن كنت ألقى مثل هذا المصير، على ما يحتمل، لو لم أتعلم الاعتدال من المصائب التي نُشئت فيها بفضل الآلهة وتعاليم منتور.»

ويطلب الدونيون، كشرطٍ وحيدٍ للصلح، أن يُسمح لهم بنصب ملك من قومهم يستطيع أن يمحو بفضائله ما غمر أدرست به المملكة من عار، ويحمدون الآلهة على إهلاكهم هذا الطاغية، ويأتون، أفواجًا أفواجًا؛ لتقبيل يد تلماك الذي قتل هذا الغول عادين انكسارهم نصرًا لهم.

وهكذا انهار في دقيقةٍ واحدةٍ، وبلا حيلةٍ، هذا السلطان الذي كان يُهدد جميع السلطات الأخرى في هسبرية ويوجب ارتعاد أممٍ كثيرة مشابهًا تلك البقاع التي تظهر ثابتةً لا تتغير، ولكن مع قرضها من تحتها مقدارًا فمقدارًا، ويُهزأ طويلًا من العمل الهزيل الذي تُقضم به أسسها، ما توارت عوامل الضعف وظهر كل شيءٍ متماسكًا غير مهتز، ومع ذلك فإن جميع أركانها الواقعة تحت الأرض تُقوَّض بالتدريج حتى الزمن الذي تنخسف فيه الأرض وتظهر الهوة، وهكذا فإن السلطة الظالمة الخادعة تحفر لنفسها هوةً تحتها مهما كان أمر اليسر الذي تنال بالعنف والجور، والواقع أن المكر والجور يُقوِّضان أمتن أركان السلطان القائم شيئًا فشيئًا، والواقع أنه يُعجب بهذا السلطان ويُفزع منه ويُرتجف أمامه إلى أن يغدو أمرًا غير ذي بال، أي إلى أن ينهار بفعل ثقله فلا يقدر شيءٌ على رفعه، وذلك لما صنع بيده من هدم دعائم حُسن النية والعدل التي تقوم عليها المحبة والطمأنينة.

الجزء السادس عشر

اجتماع رؤساء الجيش للبحث في طلب الدونيين، أتى تلماك إلى المجلس بعد أن قام بالواجب نحو بزستراس بن نسطور، فوجد أن أكثر الرؤساء يرون اقتسام بلد الدونيين عارضين على تلماك أن يأخذ ناحية أربين الخصيبة، زُهْد تلماك في هذا، وبيانه أن مصلحة الحلفاء المشتركة تقضي بأن تُترك للدونيين أملاكهم وبأن يُنصب بوليداماس، الذي هو من قادتهم المشهورين والذي يتصف بالحكمة اتصافه بالبسالة، ملكًا لهم، موافقة الحلفاء على هذا الاختيار وابتهاج الدونيين به، إقناع تلماك هؤلاء الدونيين بأن يعطوا ناحية أربين لملك إيتولية، ديوميد، الذي كان قد ناله، هو وأصحابه، غضب فينوس حين أدماها أيام حصار تروادة، بما أنه فُرغ من الاضطراب والقلق على هذا الوجه فقد صار جميع الأمراء لا يُفكرون في غير الافتراق وفي رجوع كلٍّ منهم إلى بلده.

يجتمع رؤساء الجيش في الغد حتى يمنحوا الدونيين ملكًا، ويُبتهج باختلاط جنود المعسكرين عن صداقة كانت غير منتظرة، وباتحاد الجيشين، ولم يستطع الحكيم نسطور أن يشترك في هذا الاجتماع؛ وذلك لأن فؤاده ذوي بالمشيب والألم، وذلك كالزهرة التي كانت عند طلوع الفجر فخر الحقول الخُضر وزينتها، فأوهنها المطر وأذبلها في المساء، وقد تحولت عيناه إلى منبعَي دموعٍ لا ينضب لهما معين، ويهجره الرقاد العذب الذي يلطف أشد الآلام، وينطفئ فيه ما ينطوي على سر حياة القلوب من أمل، ويكون كل طعامٍ مرًّا عند هذا الشيخ الشقي، ويظهر النور ذاته كريهًا لديه، وعاد روحه لا يرجو غير مغادرة بدنه، وغير الغوص في ليل مملكة بلوتون الدائم، ويذهب كل حديثٍ إليه من قِبَل أصدقائه أدراج الرياح، ويشابه قلبه الخائر النافر من كل صداقةٍ حال المريض الذي يأنف من أطيب الأطعمة، ويُجيب بالأنين والنحيب عن كل ما يُوجه إليه من كلامٍ مؤثر، ويُسمع في الحين بعد الحين قوله: «أي بزستراتٍ! أي بزستراتٍ! أي بني بزستراتٍ! أنت تناديني! أنا لاحق

بك! أنت تجعل الموت عذبًا لدي! أي بُني العزيز! عُدت لا أحب من خيرٍ غير رؤيتك على ضفاف ستكس»، ويقضي ساعاتٍ بأسرها من غير أن ينطق بكلمةٍ، ولكن مع الأنين ورفع اليدين والعينين الدامعتين نحو السماء.

وينتظر الأمراء المجتمعون تلماك الذي كان بجانب جثة بزسترات في تلك الأثناء، وكان ينثر عليها زهورًا كثيرة، وكان يضيف إلى هذه الزهور عطورًا فاخرة ساكبًا سخين العبرات قائلًا: «أي رفيقي العزيز، لن أنسى اجتماعي بك في بيلوس، واتباعي إياك إلى إسبارطة ولقاءك على شواطئ هسبرية الكبرى، فأنا مدين لك بألف رعاية، وقد أحببتك، وقد أحببتني، وقد عرفت شجاعتك التي فاقت شجاعة كثيرٍ من الأغارقة المشهورين، آه! لقد أهلكتك شجاعتك بشرفٍ، ولكن مع إخفائها عن العالم فضيلةً ناشئة كادت تساوي فضيلة أبيك، أجل، إن حكمتك وبلاغتك كانتا تشابهان، لا ريب، حكمة هذا الشيخ وبلاغته وتثيران إعجاب جميع بلاد اليونان لو مُد في أجلك، ومع ذلك فإنك قد اتصفت بتلك الجاذبية التي لا تقاوم إذا ما تكلمت وبذلك الوضع الساذج في الحديث، وبذلك الاعتدال الحكيم الذي هو سحرٌ تهدأ به النفوس الهائجة، وبذلك النفوذ الصادر عن الفطنة وحُسن النصائح، وكنت إذا ما تكلمت ألقى الجميع إلى قولك أسماعهم، ومالت إليك قلوبهم، وودوا لو يكون الحق بجانبك، ولا عجب، فكلامك البسيط الخالي من البهرج كان يسري في النفوس بلطفٍ كما يسري الندى في الكلأ الناشئ، آه! ما أكثر الخير الذي نحوز منذ بضع ساعاتٍ فنحرمه إلى الأبد! أي بزسترات، عاد من قبَّلت صباحًا لا يكون شيئًا، ولم يبقَ لنا منه غير الذكرى الأليمة، ولو أغمضت عيني نسطور قبل أن نغمص عينيك ما رأى الذي يرى، وما صار أشقى الآباء كلهم.»

ويغسل تلماك، بعد هذا الكلام، ذاك الجرح الدامي الذي كان في جنب بزسترات، ويُمدد بزسترات على فراشٍ أرجوانيٍّ حيث يشابه رأسه المائل، مع صفرة الموت، شجرةً حديثةً كانت تُظلل الأرض وتُخرج فروعها المزهرة نحو السماء فقطعتها فأس الحطاب وعادت غير قائمةٍ على جذرها، ولا على الأرض التي هي أم خصيبة تغذِّي السوق في باطنها، وتذوي، وتزول خضرتها، ولا تستطيع الوقوف بعد سقوطها، وتجر على التراب غصونها بعد أن كانت تحجب السماء، وتذبل وتجف، ولا تكون بعد ذلك غير جذلٍ[1] مجندلٍ مجرَّدٍ من ظرافته، وهكذا فإن بزسترات، الذي افترسه الموت، نُقِلَ من قِبَل مَن يضعونه في الموقد.

[1] الجذل: من الشجرة أصلها بعد ذهاب فروعها.

ويتصاعد اللهب نحو السماء، وتُشيعه بتؤدةٍ كتيبةٌ من البيليين خافضة الرءوس دامعة العيون منكسة السلاح، ولم تلبث الجثة أن أحرقت، ويُوضع الرماد في قارورةٍ من ذهب، ويُودع تلماك، الذي يُعنى بكل شيء، هذه القارورة، ككنز عظيمٍ، عند كليماك الذي كان مربيًا لبزسترات، وقد قال له تلماك: «احتفظ بهذا الرماد، الذي هو رفات كئيب، ولكن ثمين، لذاك الذي أحببت، احتفظ به لأبيه، ولكن أجِّل تسليمه إليه حتى ينال من القوة ما يطلبه معه، فما يُثير الألم حينًا يُسكنه حينًا آخر.»

ويدخل تلماك بعد ذلك مجلس الملوك المتحالفين حيث التزم كل منهم جانب الصمت كيما يستمع إليه، ويحمر وجهه خجلًا، ولا يُستطاع حمله على الكلام، ويزيد خجله بالهتافات العامة التي تنطوي على المديح، ويود لو يتوارى، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ظهر فيها مرتبكًا حائرًا، ثم يرجو أن يُنعم عليه بعدم إطرائه، وقد قال: «لا يعني هذا أنني أكره المديح، ولا سيما عند صدوره عن قُضاةٍ للفضيلة بالغي الصلاح مثلكم، وإنما الذي أخشى هو أن أُحب المدح كثيرًا، أي أن المدح يُفسد الرجال، أي أنه ينفخهم ويجعلهم مغرورين مختالين، ويقضي الواجب بأن يستحق الرجل الثناء وأن يتجنبه لما بين طيب الثناء وفاسده من شبه، ويُرى أن الطغاة، الذين هم شر الناس، هم الذين يحملون المنافقين على مدحهم أكثر من غيرهم، وما اللذة في نيل الرجل مدائح كما ينالون؟ إن أجمل ما أُمدح به هو ما تُنعمون به علي من ثناء في غيابي إذا ما كنت سعيدًا باستحقاقه، وإذا ما كنتم تعتقدون صلاحي بالحقيقة فإنني أرجو أن تعتقدوا، أيضًا، أنني أريد أن أكون متواضعًا يخشى الزهو؛ ولذا فتفضلوا علي بعدم إطرائي كما تُطرون رجلًا يُحب أن يُطرى.»

ولم يُجب تلماك، بعد هذا الكلام، أولئك الذين استمروا على رفعه إلى السماء، ولم يلبث أن وقف بعدم اكتراثه ما يُوجه إليه من ثناء، وأخذ الحضور يخشون إثارة غضبه بامتداحه، وهكذا فُرغ من المدائح، ولكن مع زيادة الإعجاب به، وكل يعلم ما أظهر من حنانٍ تجاه بزسترات وما بذل من عنايةٍ للقيام نحوه بآخر الواجبات، وقد تأثر جميع الجيش بهذه الأدلة على صلاح فؤاده أكثر من تأثره بما صدر عنه من أعاجيب الحكمة والشجاعة.

قال بعض أولئك لبعضٍ فيما بينهم: «هو حكيمٌ، هو باسلٌ، هو حبيب الآلهة، هو بطل عصرنا الوحيد، هو فوق البشر، ولكن جميع هذا ليس سوى أمرٍ عجيب، ولكن جميع هذا لا يُثير غير دهشنا، هو صالح، هو صديقٌ مخلص رءوف، هو رحيم كريم محسن، هو وفيٌّ بكليته لمن يجب أن يُحب، هو نعمة لكل من يعيش معه، هو زاهد في زهوه، هو خليٌّ

حيال خيلائه، هذا هو شأنه، هذا هو سر نفوذه في القلوب، هذا ما يجعل أفئدتنا تهوي إليه، هذا ما نتأثر به من جميع فضائله، هذا ما يحفزنا إلى بذل حياتنا في سبيله.»

ولم يكد هذا الكلام ينتهي حتى بادر الجمع إلى الحديث حول ضرورة منح الدونيين ملكًا، ويرى أكثر الأمراء الذين كانوا في المجلس ضرورة اقتسام هذا البلد فيما بينهم بحق الفتح، ويُعرض على تلماك، كحصةٍ له، ناحيةُ أربين الخصيبة التي تُنتج في كل عامٍ ضعفي هبات سيرس الثمينة وعطايا باخوس اللذيذة وثمرات الزيتون النضيرة الموقوفة على منرفا، وقد قيل له: «إنك بهذه الأرض، تنسى أكواخ إيتاك الفقيرة، وصخور دوليشي الكريهة، وغاب زكنتة المهجورة، ولا تبحث، بعد الآن، عن أبيك الذي هلك غرقًا عند رأس كفارى، لا ريب، نتيجةً لانتقام نوبليوس وغضب نبتون، ولا عن أمك التي حازها عشاقها منذ سفرك، ولا عن وطنك الذي لم يكن، قط، موضع لطف السماء كالأرض التي نعرض عليك.»

ويُنصت تلماك لهذا الكلام صابرًا، بيد أن صخور تراكية وتسالية ليست صمًّا قاسيةً حيال عويل العشاق اليائسين أكثر من صمم تلماك وقسوته حيال هذه المعروضات، قال تلماك: «وأما أنا فلا أتأثر بالثراء ولا بالملاذ، وما أهمية حيازة أعظم مساحةٍ من الأرض وقيادة أكبر عددٍ من الناس؟ لا ينطوي هذا على غير زيادة الورطات وقلة الحرية، ألا إن الحياة زاخرةٌ بالمصائب لدى أعقل الناس وأشدهم اعتدالًا، مع عدم معاناتهم مشقة الحكم في أناسٍ عنداء هُلعًا كُندًا جائرين مخادعين، ومن يُرد أن يكون سيد الناس عن أثرة، غير ناظرٍ في ذلك إلى غير سلطانه الخاص وشهواته ومجده، يكن ملحدًا، يكن طاغيةً، يكن آفة الجنس البشري، ومن يُرد أن يلتزم صحيح المبادئ فيحكم في الناس وفق صلاحهم فإنه يكون وصيًّا عليهم أكثر من أن يكون مولًى لهم، وبذلك لا يُنال سوى العناء ويُبتعد عن كل رغبةٍ في توسيع مدى السلطان، ولا يكون لدى الراعي الذي لا يأكل غنمه، والذي يذب الذئاب عن هذا الغنم مخاطرًا بحياته، والذي يُفكر، ليل نهار، في أمر سوقه إلى أطيب المراعي، ميل إلى زيادة عدده باغتصاب غنم جاره، وإني، وإن لم أقبض على زمام الأمور قط، علمت من القوانين والحكماء الذين وضعوا القوانين مقدار ما في سياسة المدن والممالك من مشاق؛ ولذا فإنني راضٍ بإيتاك الفقيرة، ومع أن إيتاك صغيرة فقيرة فإنني أنال بالحكم فيها مجدًا كافيًا على أن يقوم حكمي هذا على العدل والتقوى والإقدام ولو قُيض لي الحكم هناك على عجل، ولعل أبي يكون قد نجا من الموج الهائج فيستطيع أن يحكم في إيتاك حتى يبلغ من الكبر عتيًّا وأستطيع أن أتعلم تحت ظله، لطويل زمنٍ، كيف يمكن الإنسان أن يقهر أهواءه ليعرف كيف يُلطف أهواء شعبٍ بأسره!»

ثم قال تلماك: ويا أيها الأمراء المجتمعون هنا، استمعوا لما أعتقد وجوب قوله لكم في سبيل مصلحتكم، فإذا منحتم الدونيين ملكًا عادلًا قادهم هذا الملك بالعدل، وعلمهم مقدار ما في حسن النية وعدم اغتصاب أموال الجيران من نفع، وهذا ما لم يستطيعوا إدراكه في عهد الملحد أدرست، ولا يبقى ما تخافون منهم ما قام بإدارة شئونهم ملك حكيم، وسيكونون مدينين لكم بما سيتمتعون به من سلام ويُسر، ولن ينفك هؤلاء القوم يشكرون لكم بدلًا من مهاجمتكم، وسيظهر هذا الملك وشعبه من صنع أيديكم، وإذا ما أردتم العكس فتقاسمتم بلدهم فإني أنذركم بالمصائب الآتية، وهي: أن هذا الشعب يستأنف القتال عن يأس، وأنه سيجاهد جهاد عدل في سبيل حريته، وأن الآلهة، الذين هم أعداء الطغيان، سيقاتلون معه، وأن الآلهة إذا ما انضموا إليه اضطربتم عاجلًا أو آجلًا، وتبدد رخاؤكم كالدخان، وزال حسن الرأي والحكمة من رؤسائكم والشجاعة من جيوشكم والبركة من أرضيكم، وأنكم ستعللون أنفسكم بالأماني، وأن التهور سيكون رائدًا لكم في أعمالكم، وأنكم ستسكتون رجال الخير الذين يودون قول الحق، فتسقطون من فوركم ويقال عنكم: «أذاك، إذن، أمر هذه الأمم الزاهرة التي يجب عليها وضع قانون لجميع العالم؟ والآن تفر أمام أعدائها، وهي ألعوبة الشعوب التي تجعلها تحت أقدامها، هذا ما فعل الآلهة، وهذا ما تستحق الشعوب الظالمة المختالة الجافية»، ثم اعلموا أنكم إذا ما أقدمتم على تقسيم هذا الفتح بينكم ألبتم عليكم جميع الأمم المجاورة، وغدا حلفكم، الذي قام للدفاع المشترك عن هسبرية حيال الغاصب أدرست، أمرًا كريهًا، وحُقَّ لجميع الأمم أن تتهمكم بأنكم تريدون أن تنتحلوا الجبروت العام.

«ولكنني أفترض أن النصر سيكتب لكم على الدونيين وعلى جميع الأمم الأخرى، فهذا النصر سيكون سبب خرابكم، وكيف يكون ذلك؟ اعلموا أن هذا المشروع سيفسد بينكم، وذلك بما أنه لم يقم على العدل فإنه لا يكون لديكم من القواعد ما تعينون به مزاعم كلٍّ منكم، فكل سيطلب أن تكون حصته من الفتح على نسبة قوته، ولا يكون لأحدكم من السلطان ما يتم معه هذه القسمة بسلام، وهذا مصدر حرب لن يُدرك حفدتكم آخره، أليس خيرًا لكم أن تكونوا عادلين معتدلين من السير وراء طموحٍ حف بالمخاطر والمصائب التي لا مفر منها؟ أليس السلم الأساسي، وما يلازمه من نعم لذيذةٍ نزيهةٍ، واليسر المبارك، وصداقة الجيران والمجد المتصل بالعدل، والمجد الذي يكتسب بالظهور حكمًا بين الأمم قائمًا على حسن النية، نعمًا أفضل من الزهو الأرعن الناشئ عن الفتح الجائر؟ أيها الأمراء! أيها الملوك! ترونني أخاطبكم بكلامٍ خالٍ من الغرض؛ ولذا فاستمعوا لمن بلغ من حبكم ما يعارضكم معه وما لا يروقكم حين يعرض الحقيقة عليكم.»

وبينا كان تلماك يتكلم هكذا بسلطانٍ لا مثيل له، وبينا كان جميع الأمراء، الذين اعترتهم الحيرة والدهش، يعجبون بحكمة نصائحه، سرى في المعسكر بأسره نبأٌ غامض انتهى إلى محل انعقاد المجلس، وذلك، كما قيل، «أن أجنبيًّا نزل إلى هذه السواحل مع كتيبة من الرجال مسلحة، وأن هذا الغريب عالي الرأس، وأن كل شيء ينم على بطولته، وأن من السهل أن يُبصر أنه قاسَى طويلًا وأن بسالته وضعته فوق جميع آلامه، وأن أول ما حدث أن أراد أهل البلد الذين يقومون بحراسة الساحل أن يدحروه مثل عدو جاء ليغزو، ولكنه لم يعتم أن صرح، بعد أن استل سيفه مع الجرأة، بأنه قادر على الدفاع عن نفسه إذا ما هُوجم، وبأنه لا يطلب، مع ذلك، سوى السلام والقرى، ولسرعان ما أظهر غصن زيتون مع الالتماس، ويستمع له، ويطلب أن يؤتى به إلى أولئك الذين يقومون بالحكم في هذا الساحل من هسبرية، ويجلب إلى هنا حملًا له على مخاطبة المجتمعين.»

ولم يكد هذا الكلام يتم حتى رُئي إدخال هذا الغريب البادي الجلال إلى المجلس مثيرًا دهشه، وكان يسهل على الناظر أن يتنور فيه الإله مارس حينما يجمع كتائبه السفاحة فوق جبال تراكية، وإليك ما بدأ بقوله: «أي رعاة الأمم، أيها المجتمعون هنا للدفاع عن الوطن حيال أعدائه، أو للعمل على ازدهار أعدل القوانين، استمعوا لرجل جار عليه الطالع، وهذا مع توسلي إلى الآلهة ألا تصابوا بمثل مصائبي مطلقًا! إنني ديوميد الذي أدمى فينوس حين حصار تروادة، وما فتئت هذه الآلهة تتعقبني بانتقامها في جميع العالم، وقد أسلمني نبتون، الذي لا يرد طلبًا لابنة البحر الربانية هذه، إلى هياج الرياح والأمواج التي حطمت مراكبي على الصخور عدة مرات، وقد نزعت فينوس القاسية مني كل أمل بأن أعود إلى مملكتي وآلي ونور البلد الذي أخذت أرى النهار الناشئ فيه، كلا، لن أرجع إلى أعز شيء علي في الدنيا، وقد أتيت إلى هذه الشواطئ المجهولة، بعد كثير من حوادث الغرق، لأطلب قسطًا من الراحة والعزلة المضمونة، وإذا كنتم تخافون جوبيتر الذي يعنى بالغرباء، وإذا كانت قلوبكم تهتز شفقةً، فلا تضنوا علي، في هذا البلد الواسع، بزاوية من الأرض الجديبة المهجورة الرملية أو الصخور الوعرة حيث أقيم، مع رفقائي، مدينةً تكون صورةً قاتمة لوطننا المفقود على الأقل، ونحن لا نطلب سوى بقعة غير نافعة لكم، وسنعيش عيش سلام معكم ضمن حلف وثيق، وسنعادي من عاداكم، وسنلائم جميع مصالحكم، ولا نطلب غير تركنا أحرارًا في الحياة وفق قوانيننا.»

وبينما كان ديوميد يتكلم على ذاك الوجه ظهر على وجه تلماك المحدق إليه مختلف الانفعالات، وذلك أن ديوميد، عندما بدأ يحدث عن مصائبه الطويلة، طمع تلماك أن يكون

هذا الرجل الجليل أباه، وأن وجه تلماك، عندما صرح هذا الرجل بأنه ديوميد، صار كابيًا كالزهرة الجميلة التي تذبل بفعل الشمأل الشديدة، ثم رق فؤاد تلماك بكلام ديوميد الذي ألم من حنق تلك الإلهة الطويل ذاكرًا ما عانى هو وأبوه من رزايا، وتسيل على خديه دموع ألم وسرور معًا، ويطرح تلماك نفسه على ديوميد بغتةً كيما يعانقه، قال تلماك: «إنني ابن أوليس الذي عرفت، والذي لم يكن غير نافع لك عندما أخذت خيل ريزوس المشهورة، وقد عامله الآلهة بلا رحمة كما عاملوك، هو حي إذا ما صدقت هواتف إربه، ولكنه لا يعيش من أجلي مع الأسف، وقد غادرت إيتاك للبحث عنه، ولكنني لم أستطع أن أراه، أو أرى إيتاك، حتى الآن، ويمكنك أن تقدر مصائبي بتوجعي لمصائبك، وتتجلى مصائب الرجل في معرفته أن يرثي لآلام الآخرين، ومع أنني غريب هنا فإنني أستطيع، يا ديوميد العظيم (وذلك أنني، على الرغم من البلاء الذي ألم بوطني في أثناء طفولتي، لم أنل تربيةً سيئةً أجهل بها مجدك في المعارك) يا أشد الأغارقة بأسًا بعد أشيل، أن أفوز لك ببعض العون، فهؤلاء الأمراء، الذين ترى، رحماء، وهم يعرفون أنه لا فضيلة، ولا شجاعة، ولا مجد، بلا شفقة، ومن شأن المصيبة أن تضيف رونقًا جديدًا إلى مجد العظماء، ويعوز العظماء شيء إذا لم يصابوا ببلاء، أي تعوزهم في حياتهم أمثلة الصبر والحزم، وتلين الفضيلة المعذبة جميع الأفئدة التي يخامرها ميل إلى الفضيلة؛ ولذا فدع لنا أمر سلوانك، وبما أن الآلهة هم الذين يسيرونك فإن هذا ينطوي على معنى الإهداء إلينا، فيجب أن نعتقد أننا نكون من السعداء إذا ما استطعنا تخفيف آلامك.»

وبينا كان تلماك يتكلم كان ديوميد يحدق إليه حائرًا شاعرًا باهتزاز فؤاده، ويتعانقان كما لو كان كل منهما مرتبطًا في الآخر بأوثق روابط الصداقة، ويقول ديوميد: «أي ابن أوليس الخليق بأبيه! أبصر فيك طلاقة وجهه وحلاوة كلامه وقوة بيانه ونبل مشاعره وحكمة أفكاره.»

ويعانق فلكتت ابن تيده العظيم في تلك الأثناء أيضًا، ويتبادلان الحديث حول مغامراتهما المحزنة، ثم قال له فلكتت: «إن مما يروقك أن تجتمع بالحكيم نسطور الذي فقد آخر أولاده: بزسترات، ولم يبقَ له في هذه الحياة غير طريق الدموع التي تسوقه إلى القبر، فتعالَ لتعزيته، فالصديق البائس أصلح من غيره لإلقاء السلوان في فؤاده.»

ويذهبان من فورهما إلى خيمة نسطور الذي عرف ديوميد بعناءٍ ما هدم الحزن نفسه وحطم مشاعره.

وكان البكاء معه أول ما صنع ديوميد، وكان التقاؤهما سبب مضاعفة آلام الشيخ، بيد أن حضور هذا الصديق سكن فؤاده مقدارًا فمقدارًا، وقد رئي أن ألمه خف قليلًا بما وجد من لذةٍ في حديثه عما عانى، وفي استماعه، بعد ذلك، إلى ما أصيب به ديوميد.

وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث كان الملوك المجتمعون يبحثون مع تلماك عما يجب أن يُصنع، وقد نصحهم تلماك بأن يعطوا ديوميد ناحية أربين وأن يختاروا بوليداماس الدوني ملكًا للدونيين، وقد كان بوليداماس هذا قائدًا ممتازًا لم يرد أدرست أن يستخدمه عن حسد وخشية أن يعزى إلى هذا الرجل الماهر ما كان أدرست يطمع فيه لنفسه وحدها من مجد نصر كان يرجو نيله، ومما كان يحدث غالبًا أن يحذره بوليداماس فيما بينهما من تعريضه حياته وسلامة دولته للخطر في حرب كهذه تقع بينه وبين أمم كثيرة متحالفة قاصدًا بذلك أن يسلك طريقًا أكثر حذرًا واعتدالًا حيال جيرانه، بيد أن الرجال الذين يمقتون الحقيقة يمقتون مَن يقدم على قولها، فلا يتأثرون بإخلاص الصادقين وغيرتهم ونزاهتهم، وما اتفق لأدرست من يسر خادع قسَّى قلبه تجاه أصلح النصائح، وما كان من عدم اتباعه لها جعله يفوز على أعدائه، وما كان من كبرياءٍ وسوء نية وعنف جعل الفوز بجانبه دائمًا، وما أنذره به بوليداماس زمنًا طويلًا لم يصب به قط، وكان أدرست يسخر من حكمة وضيعة تتوقع كل يوم عسرًا، فغدا بوليداماس عنده رجلًا لا يطاق، فأقصاه من جميع المناصب، وتركه يذبل في العزلة والفاقة.

وقد ثقل فقد الحظوة هذا على بوليداماس في بدء الأمر، ولكنه حباه بما كان يعوزه، وذلك بفتح عينيه حول بُطل كل إقبال، وبتحوله إلى حكيم على حساب نفسه، فصار يسر ببؤسه، وصار يتعلم الصمت مقدارًا فمقدارًا، وصار يعيش من قلة، متغذيًا بالحق مع الهدوء، متعهدًا في فؤاده خفي الفضائل التي هي أجل من ظاهرها، مستغنيًا عن الناس، ويقيم بسفح جبل غرغان، في برية، حيث صلحت صخرة مقببة أن تكون سقفًا له، ويزيل جدول نازل من الجبل عطشه، وينال فاكهته من شجرات قائمة هناك، وكان عنده عبدان يقومان بزراعة حقل صغير، وكان يعمل معهما بيديه، وكانت الأرض تؤدي إليه ثمرة سعيه مع الربا ومن غير أن يفتقر إلى شيء، ولم تكن كثرة الثمر والخضر كل ما عنده، بل كان يوجد هناك جميع الزهور العطرية، وهناك كان يتوجع لبلاء الرعية التي يقودها طموح الملك الأرعن إلى هلاكها، وهناك كان ينتظر كل يوم أمر الآلهة العادلين بإسقاط أدرست، وكلما كان يزيد إقبال أدرست كان بوليداماس يعتقد قرب سقوطه الذي لا يمكن تلافيه، مبصرًا أن تماديه في غيه وتناهيه في الحكم المطلق من النذر في سقوط الملوك وانهيار الممالك، فلما بلغه خبر هزيمة أدرست وهلاكه لم يظهر سروره بهذه النتيجة التي كان قد

توقعها ولا بخلاصه من هذا الجبار، وإنما أنَّ إشفاقًا على ما يمكن أن يرى من استرقاق الدونيين.

هذا هو الرجل الذي اقترح تلماك نصبه ملكًا، وكان تلماك قد عرف أمر بسالته وفضيلته منذ زمنٍ ما؛ وذلك لأن تلماك ما انفك يعمل بنصائح منتور فيسأل في كل مكان عن جميل الخصال وسيئ الصفات في جميع من تقلدوا خدمًا مهمة لدى الأمم الحليفة والأمم العدوة على السواء، وقد كان هم تلماك مصروفًا إلى اكتشافه أمر الرجال الفضلاء الموهوبين أينما كانوا وتمحيصه إياهم.

ويمتعض الأمراء المتحالفون في بدء الأمر من اختيار بوليداماس ملكًا، وقد قالوا: «لقد علمتنا التجارب ما في الملك الدوني من خطر حيال جيرانه إذا ما كان محبًّا للحرب عارفًا أن يقودها، ولا مراء في أن بوليداماس قائد كبير، وهو يقدر أن يلقينا في أعظم الأخطار.»

تلماك: «أجل، إن بوليداماس خبير بالحرب، ولكنه محب للسلم، وهذان الأمران هما ما يجب أن يطلبا، ومن صفات الرجل العارف بمصائب الحرب وأخطارها ومصاعبها أن يكون أقدر على اجتنابها من كل مَن لم يختبرها، وقد تعلم بوليداماس أن يذوق سعادة الحياة الهادئة، وقد حكم على غارات أدرست، وقد توقع نتائجها المشئومة، وعليكم أن تخافوا مغبة وجود أمير ضعيف جاهل غير محنك أكثر من أن تخشوا وجود رجل يعرف كل شيء بنفسه فيمضي عليه؛ وذلك لأن الأمير الضعيف الجاهل لا يرى بغير عيني نديمٍ مماذِق[٢] أو وزير منافق هلوع طامع، وهكذا فإن هذا الأمير الأعمى يساق إلى الحرب من غير أن يريد وقوعها، وهكذا فإنكم لا تستطيعون أن تركنوا إليه مطلقًا لعدم ركونه إلى نفسه، وهو سينقض قوله لكم، وهو لم يلبث أن يضطركم إلى اتخاذ وضع تهلكونه به أو ترهقون معه، أوليس أنفع لكم وأضمن وأعدل وأنبل ألا تخيبوا أمل الدونيين فيكم وثقتهم بكم، وأن تنعموا عليهم بملك أهل للقيادة؟»

ويقنع جميع المجلس بهذا الكلام، ويُعرَض بوليداماس على الدونيين الذين كانوا ينتظرون الجواب فارغي الصبر، فلما قرع اسم بوليداماس آذانهم قالوا: «الآن نعترف بأن الأمراء المتحالفين يريدون السير عن حسن نية نحونا راغبين أن يعقدوا سلمًا دائمًا ما داموا يريدون إعطاءنا ملكًا بالغ الفضل بالغ القدرة على الحكم بيننا، ولو عرضوا

[٢] المماذِق: غير المخلص.

علينا رجلًا جبانًا مخنثًا سيئ التعليم لأيقنا أنهم لا يحاولون غير إخمادنا وإفساد شكل حكومتنا، ولملئت صدورنا غلًّا حيال سلوك بالغ القسوة والغش كهذا السلوك، بيد أن اختيار بوليداماس يدلنا على سلامة نية حقيقية في الحلفاء، ولا ريب في أن الحلفاء لا ينتظرون منا غير النبل والعدل، ما أنعموا علينا بملك عاجز عن فعل شيء ضد حريتنا ومجد قومنا، ثم إننا نضرع إلى الآلهة العادلين أن ترجع مياه الأنهار إلى منابعها قبل أن نعدل عن حب هذه الأمم البالغة الإحسان، وعسى أعقاب أعقابنا يذكرون ما نلنا اليوم من كرم فيجددون سلام العصر الذهبي في جميع شواطئ هسبرية جيلًا بعد جيل.»

ثم اقترح تلماك عليهم إعطاء ديوميد حقول أربين كيما يقيم عليها مستعمرةً، قال لهم تلماك: «سيكون الشعب الجديد مدينًا لكم باستقراره في بلد لا تشغلونه مطلقًا، واذكروا أنه يجب على جميع الناس أن يتحابوا، وأن الأرض تسعهم جميعًا، وأن من الواجب أن يتجاوروا، وأن من الخير وجود من يعترف لكم بجميل استقراره، ولترق قلوبكم تجاه شقاء ملك لا يستطيع الرجوع إلى بلده، وبما أن روابط العدل والفضيلة، التي تبقى وحدها، هي التي تجمع بينه وبين بوليداماس فإنكم ستتمتعون بسلم بعيد الغور وتكونون مرهوبين لدى جميع الأمم المجاورة التي تحدثها نفسها بالتوسع، وأنتم ترون، أيها الدونيون، أننا منحنا بلدكم وقومكم ملكًا قادرًا على رفع مجدهما حتى السماء، فأنعموا، من ناحيتكم، على ملك، خليق بأن ينال كل مساعدة، بأرض لا فائدة لكم منها ما طلبنا ذلك منكم.»

وقد أجاب الدونيون بأنهم لا يردون لتلماك طلبًا ما دام قد أوجب اختيار بوليداماس ملكًا لهم، ولسرعان ما انطلقوا للبحث عن بوليداماس في بريته كيما يملكهم، وقد منحوا، قبل ذهابهم، ديوميد أربين الخصيبة ليقيم عليها مملكةً جديدةً، ويُفتن الحلفاء بهذا ما أمكنت مساعدة هذه المستعمرة اليونانية مساعدةً فعالةً لفريق الحلفاء إذا أراد الدونيون تجديد عهد الاغتصاب الذي يعد أدرست أسوأ مثال له، وعاد جميع الأمراء لا يفكرون في غير الافتراق، وينصرف تلماك مع كتيبته دامع العينين، وذلك بعد أن عانق عناقًا رقيقًا كلًّا من الباسل ديوميد والحكيم الذي لا ترقأ دموعه: نسطور، والذائع الصيت فلكتت الذي هو وارث وفي لسهام هركول.

الجزء السابع عشر

رجوع تلماك إلى سلنتة، وإعجابه بازدهار الأرياف، ولكن مع أسفه على خلو هذه المدينة من سنائها الذي كانت عليه قبل مغادرته إياها، منتور يبين له أسباب هذا التحول، فيذكر له الأسس المتينة التي يقوم عليها غِنَى الدولة، ويشرح له مبادئ فن الحكم الأساسية، تلماك يفتح فؤاده لمنتور حول ميله إلى أنتيوب بنت إيدومنه، ثناء منتور على خصال هذه الأميرة، وتوكيده له أن الآلهة يعدونها زوجًا له، وإنما لا ينبغي له أن يفكر الآن في غير السفر إلى إيتاك، خوف إيدومنه من سفر ضيفيه، ومحادثته في كثير من الأمور المهمة التي يجب عليه أن ينجزها والتي لا بد من مساعدته في شأنها، منتور يرسم له ما يجب عليه أن يتبعه من منهاج، ويصر على رغبته في الإبحار مع تلماك إلى إيتاك على جناح السرعة، محاولة إيدومنه إبقاءهما بإثارته هوى تلماك نحو أنتيوب، دعوته إياهما إلى حفلة صيد أراد إقامتها من أجل ابنته، كاد يمزقها خنزير بري لولا طعنه بسهمٍ من تلماك، وقوع إيدومنه في كرب قاتل لعجزه عن إبقاء ضيفيه، منتور يكشف غمه وينال موافقته على الرحيل في آخر الأمر، افتراقهم مع الصداقة البالغة والحنان العظيم.

تحرَّق ابن أوليس الشاب شوقًا إلى لقاء منتور في سلنتة، والإبحار معه إلى إيتاك حيث يرجو أن يكون أبوه قد وصل، ولما دنا من سلنتة حار إذ رأى جميع الحقول المجاورة مزروعةً كالروضة زاخرةً بعمال عجال، بعد أن كانت، حين غادرها، غامرةً[1] بائرةً تقريبًا، فأدرك أن ذلك من نتائج حكمة منتور، ثم دخل تلك المدينة فلاحظ أنها تشتمل على صناع لأدوات الترف، وعلى سناء، أقل مما كانت عليه بمراحل، ويغتم عن ميل فطري إلى كل ما

[1] الغامر: الأرض الخراب.

هو سني صقيل، ولكن قلبه لم يلبث أن شغل بأفكار أخرى، وذلك أنه أبصر من بعيد قدوم إيدومنه ومنتور إليه، ولم يتمالك أن اهتز سرورًا وحنانًا، وقد خشي ألا يكون منتور راضيًا عنه على الرغم من جميع الانتصارات التي تمت له في الحرب على أدرست، وكان كلما تقدم بحث في عيني منتور عن لوم تدلان عليه.

وكان أول ما حدث تقبيل إيدومنه لتلماك كما لو كان ابنًا حقيقيًّا له، ثم طرح تلماك نفسه على عنق منتور ورواه بدموعه، فقال له منتور: «إنني راضٍ عنك، وذلك أنك أتيت خِطئًا كثيرًا، ولكن مع إفادته إياك في معرفتك نفسك وحذرك منها، ولا عجب، فالإنسان ينتفع بخطئه في الغالب أكثر مما بأعماله الجميلة؛ وذلك لأن الأعمال الجليلة تثير الزهو وتوحي بعجب خطر، وأن الخطأ يرد الإنسان إلى نفسه ويعيد إليه ما فقد من حكمة فيما لاقى من إقبال حسن، وكل ما بقي عليك أن تصنع هو أن تحمد الآلهة وألا تريد ثناء الناس عليك، أجل، لقد قمت بأمور عظيمة، ولكن اعترف بأنك لست الذي فعلها، أوليس من الحق أنها أتتك بما صُب فيك من شيء غريب عنك؟ أو لم تكن عاملًا على إفسادها باستعجالك وتهورك؟ ألا تشعر بأن منرفا حولتك إلى رجل آخر يعلوك ليفعل عن يدك ما فعلت؟ إنها حالت دون زللك كما يحول نبتون دون الأمواج الهائجة عندما يسكن الزوابع.»

وبينما كان إيدومنه يسأل الأقريطشيين الذين عادوا من ميدان الحرب سؤال محبٍّ للاطلاع كان تلماك يستمع إلى نصائح منتور الحكيمة، ثم جال ببصره في جميع الجهات وقال لمنتور: «هذا تحول لم أدرك سببه جيدًا، فهل حلت بسلنتة مصيبة في أثناء غيابي؟ ما علة زوال ذلك البهاء الذي كان يسطع في كل مكان منها قبل سفري؟ عدت لا أرى ذهبًا ولا فضةً ولا حجارةً ثمينة، وغدت الثياب بسيطة والمباني التي تشاد أقل اتساعًا وزخرفًا، وتذوي الفنون، وصارت مدينة سلنتة مكان اعتزال.»

منتور (مبتسمًا): «هل لاحظت حال الحقول حول المدينة؟»

تلماك: «أجل، لقد أبصرت عناية الناس بالزرع في كل مكان كما أبصرت إحياء البور.»

منتور: «أيهما خير: آلمدينة الفاخرة بالرخام والذهب والفضة مع حقول مهملة جديبة أم الحقول المزروعة الخصيبة مع مدينة متوسطة الأهمية معتدلة في طباعها؟ إن مثل المدينة الكبيرة العامرة بصناع يخنثون الطباع بعوامل الترف ضمن مملكة فقيرة سيئة الزراعة كمثل غول ضخم الرأس خالٍ من الغذاء هزيل الجسم هزالًا لا يناسب هذا الرأس، ففي عدد الأهلين ووفور الأغذية سر بأس المملكة الحقيقي وثرائها الصادق، والآن يوجد لإيدومنه رعية لا يُحصى لها عد ولا تكل من العمل ويعمر بها جميع البلد، وعاد جميع بلده لا يؤلف

غير مدينة واحدة تعد سلنتة مركزها فقط، ومما فعلنا أن نقلنا من المدينة إلى الأرياف ما يعوز الأرياف من رجال فاضت بهم المدينة، ومما فعلنا أيضًا أن اجتذبنا إلى المدينة كثيرًا من الرعايا الأجانب، وكلما كان هؤلاء الناس يزيدون زادت ثمرات الأرض بالعمل، ومن شأن هذه الزيادة اللطيفة الهادئة أن تؤدي إلى عظم المملكة أكثر مما تؤدي إليه بالفتح، ومن الواقع أنه لم يُطرح من هذه المدينة غير المهن الزائدة التي تحول الفقراء عن زراعة الأرض بالحاجيات، والتي تُفسد الأغنياء بغمرهم في الترف والتخنث، ولكن مع عدم انتقاصنا للفنون الجميلة ولا لذوي المواهب ممن يتعاطونها، وهكذا فإن إيدومنه أقوى بمراحل من الحال التي كان عليها حينما أعجبتم بأبهته، والحق أن هذا المظهر الباهر كان ينطوي على ضعف وبؤس يهدمان دولته، وأنه يملك الآن عددًا كبيرًا من الناس ويغذيهم بسهولة، وترى هؤلاء الرجال الذين تعودوا العمل والعناء وازدراء الحياة عن حب للقوانين الصالحة مستعدين للقتال دفاعًا عن هذه الأرضين التي زرعوها بأيديهم، ولسرعان ما تغدو هذه الدولة، التي خيل إليك انحطاطها، أعجوبة هسبرية، واذكر، يا تلماك، أنه يوجد أمران ضاران في حكومة الشعوب لا يعالجان مطلقًا تقريبًا، وهما انتحال الملوك سلطانًا جائرًا جافيًا، والترف الذي يفسد الأخلاق.

ومتى تعود الملوك ألا يعرفوا من القوانين غير إرادتهم المطلقة وعادوا لا يزجرون أهواءهم أمكنهم صنع كل شيء، ولكن من غير أن يعرفوا أنهم يقوضون دعائم سلطانهم بقدرتهم على كل شيء، وذلك لما لا يكون لديهم نظام ثابت ولا مبادئ للحكم، ولما عادوا غير ذوي رعية عن رغبة كل ذي بُغية أن يتملقهم، أي أنه لا يبقى لهم غير عبيد ينقص عددهم يومًا فيومًا، ومن يقول الحق لهم؟ ومن يضع حدودًا لهذا السيل؟ الجميع يخضع، والحكماء يفرون ويتوارون ويئنون، ولا يوجد غير الثورة المباغتة العنيفة ما يستطيع أن يرد هذا السلطان الطافح إلى مجراه الطبيعي، ومما يقع غالبًا أن تحطمه الضربة التي تستطيع تعديله تحطيمًا لا يُجبر، ولا شيء ينذر السلطان المطلق بالسقوط أكثر من هذا، ويشابه السلطان المطلق قوسًا موتَّرةً تُكسر بغتةً إذا لم تُرْخَ، ولكن مَن يجرؤ على إرخائها؟ أجل، إن إيدومنه كان قد أفسد، حتى الصميم من فؤاده، بهذا السلطان الفاتن، وإنه كُبكب من فوق عرشه، بيد أن ضلاله لم يزُلْ، وكان لا بد من إرسال الآلهة إيانا إليه هنا كيما تزول الغشاوة عن هذا السلطان الأعمى المفرط الذي لا يلائم الناس مطلقًا، ومن ظهور كثير من المعجزات لفتح عينيه.

والترف هو الداء الآخر الذي لا دواء له تقريبًا، ويسمُّ الترف جميع الأمة كما يسم الملوك بالسلطان المطلق، ويقال: إنَّ الترف يُغذِّي الفقراء على حساب الأغنياء، كما لو كان

الفقراء عاجزين عن كسب عيشهم كسبًا أكثر نفعًا بتكثيرهم ثمرات الأرض مما بتخنيثهم الأغنياء عن إفراط بدقائق الشهوة، وتتعود كل أمة أن تعد من حاجيات الحياة أشد الأشياء عدم نفع، أي أنه يبتكر كل يوم حاجات جديدة، أي يعود الناس غير مستغنين عن أشياء كانت غير معروفة منذ ثلاثين عامًا، ويُطلق على هذا الترف اسم حسن الذوق أو كمال الحرف أو أدب القوم، ويثنى على هذه الرذيلة، التي تُنادِي ما لا يحصيه عد من الرذائل الأخرى، كما لو كانت فضيلةً، وتنتشر بالعدوى من الملك حتى سِفْلة الناس، ويريد أقرباء الملك أن يقلدوا أبهته، ويريد الأكابر أن يقلدوا أقرباء الملك، ويريد متوسطو الحال أن يساووا الأكابر، ومن ذا الذي ينصف بنفسه ما ود الأصاغر أن يتحولوا إلى متوسطي الحال وود كل واحد أن يصنع أكثر مما يستطيع، وذلك عن زهو وافتخار بالغنى عند بعضهم، وعن خجل وستر للفقر عند الآخرين؟ وأما مَن بلغوا من الحكمة ما يدينون به منكرًا كبيرًا كهذا فليسوا من الجرأة ما يكونون معه أول من يرفع رأسه احتجاجًا على ذلك، ويسير جميع الأمة إلى الخراب وتضطرب الأمور، ومن نتائج الميل إلى نيل المال الضروري لدفع النفقات الباطلة إفساد أصفى النفوس، وبذلك يصرف الناس همهم إلى الاغتناء عادِّين الفقر عارًا، وكن عالمًا أو ماهرًا أو فاضلًا، وهذب الناس، واكسب الحروب، وأنقذ الوطن، أي كن من شئت، تُزْدَرَ إذا لم ترفع مواهبك بالأبهة، حتى إن من ليس عندهم مال يريدون الظهور بمظهر الغنى، فينفقون إنفاق الأغنياء، ويستدينون، ويخادعون، ويتخذون ألف حيلةٍ شائنة للوصول إلى ذلك، ولكن من ذا الذي يتلافى هذه المنكرات؟ لا بد لبلوغ هذا من تغيير ذوق جميع الأمة وعاداتها، ولا بد من منحها قوانين جديدةً، ومن ذا الذي يستطيع صنع هذا غير ملك فيلسوف عارف، بمثال اعتداله الخاص، أن يخزي جميع من يميلون إلى التبذير، وأن يشجع الحكماء الذين يقنعون بالكفاف الشريف.»

سمع تلماك هذا الكلام فكان مثل رجل أفاق من نوم عميق، وشعر بصدق هذا الكلام، وينقش على فؤاده كالخطوط التي يطبعها النحات الماهر على الرخام معطيًا إياه رقةً وحياةً وحركة، ولا يجيب تلماك بشيء، ولكنه، وهو يعيد في ذهنه جميع ما سمع، أجال عينيه في الأشياء التي بُدلت في المدينة، ثم قال لمنتور: «لقد جعلت إيدومنه أحكم جميع الملوك، حتى صرت لا أعرفه ولا أعرف رعيته، وأعترف بأن ما فعلت هنا أعظم بمراحل من جميع الانتصارات التي نلناها، ويوجد نصيب كبير للمصادفة والقوة في كل فوزٍ يتم في الحرب، ويجب أن يقاسمنا جنودنا مجد المعارك، غير أن جميع ما صنعت صدر عن رأس واحد، ولا بد من أنك جاهدت وحدك حيال الملك وحيال رعيته كيما تصلحهما، ويكون كل نجاح

في الحرب مشئومًا ممقوتًا، وأما هنا فكل شيء من عمل الحكمة السماوية، وكل شيء طيب خالص لطيف، وكل شيء يدل على سلطان يفوق الإنسان، وإذا ما طلب الرجال مجدًا فلمَ لا يلتمسونه في صنع الخير؟ وَيْ! ما أسوأ إدراكهم للمجد! ما أسوأ ذهابهم إلى أن المجد المتين يقوم على تخريب الأرض وسفك دم الإنسان!»

وأظهر منتور سرورًا على وجهه حينما أبصر أن تلماك غير مختالٍ بالانتصارات ولا بالفتوح مطلقًا، وذلك في سن يعد من الطبيعي أن يكون فيها ثملًا بما نال من مجد.

ثم أضاف منتور إلى ما تقدم قوله: «أجل، إن كل ما ترى هنا حسن جدير بالثناء، ولكن اعلم أن من الممكن صنع ما هو أحسن، أجل، إن إيدومنه يسكِّن أهواءه ويسعى أن يحكم بين رعيته بالعدل، ولكن مع إتيانه كثيرًا من الزلل نتيجةً مؤسفةً لسابق زلاته، ولا غرو، فالناس إذا ما أرادوا ترك الشر لاح الشر معقبًا لهم زمنًا طويلًا، وذلك لما رسب فيهم من العادات السيئة، وما أصابهم من وهن السجية، وما تأصل فيهم من وهمٍ ومبتَسَرٍ لا يشفى منهما، فطوبى لمن لم يضل قط ما دام يستطيع صنع الخير على الوجه الأكمل بهذا! وستكون، يا تلماك، مسئولًا أمام الآلهة أكثر من إيدومنه لاطلاعك على الحقيقة منذ صباك، ولأنك لم تسلم إلى مغريات اليسر البالغ.

أجل، إن إيدومنه حكيم منوَّر، ولكنه يُعنى بالجزئيات كثيرًا، ولا يفكر في كليات أموره بما يكفي لوضع الخطط، ولا تقوم براعة الملك، الذي هو فوق الآخرين، على صنع كل شيء بنفسه، ومن الزهو أن يؤمل بلوغ ذلك، أو أن يراد إقناع الناس بالقدرة على ذلك، وإنما يجب على الملك أن يحكم باختياره من يقومون بالحكم تحت رعايته وتوجيهه إياهم، لا أن يعالج جزئيات الأمور، لما ينطوي هذا على قيامه بوظيفة من يعملون تحت إمرته، وإنما يُطلب من الملك أن يُلزم بتقديم حسابٍ له عنها، وأن يكون من الوقوف الكافي بحيث يميز هذا الحساب، وإن من عجائب الحكم حسن الاختيار وأن يستخدم كل وفق مواهبه، وتقوم أرفع الحكومات وأكملها على الحكم فيمن يحكمون، وذلك بأن يرقبوا، ويختبروا، ويقوَّموا، ويشجعوا، ويُرفعوا، ويُخفضوا، ويُنقلوا، ويَبقوا في اليد دائمًا.

وتعد رغبة الملك في درس كل شيء بنفسه ارتيابًا وصغارةً وغيرةً تجاه الجزئيات التافهة التي تضيع الوقت وتزيل ما تقتضيه عظائم الأمور من حرية الذهن، ولا بد لمن يريد وضع مشروعات كبيرة أن يكون طليق الذهن هادئ النفس، وأن يفكر مستريحًا محرَّرًا من نزوات الأمور الشائكة، وما النفس التي نهكتها الجزئيات إلا كثمالة الخمر الخالية من كل فعل ولطافة، ويعمل بوحي الساعة الحاضرة من يقومون بالحكم في الجزئيات من غير

أن تمتد أبصارهم إلى المستقبل البعيد، أي أنهم يساقون، دائمًا، بأمر اليوم الذي يكونون فيه، وبما أن هذا الأمر وحده هو الذي يشغل بالهم فإنه يقف نظرهم كثيرًا ويضيق به نطاق ذهنهم؛ وذلك لأنه لا يحكم في الأمور حكمًا سليمًا، إلا بالمقابلة بينها معًا ووضع كل منها ضمن نظام حتى تكون لها نتيجة ونسبة، ومثل من يقصر عن اتباع هذه القاعدة في الحكم كمثل الموسيقي الذي يكتفي بإيجاد الأنغام من غير أن يكلف نفسه عناء توحيدها وتوفيق ما بينها حتى تتألف منها موسيقا لطيفة مؤثرة، وكمثل المعماري الذي يحسب أنه صنع كل شيء إذا ما جمع عمدًا كبيرةً وكثيرًا من الحجارة المنحوتة من غير أن يفكر في نظام بنائه ونسبة زخارفه، فإذا ما أقام ردهةً لم يبصر وجوب صنع سلَّم ملائم، وإذا ما تناول البناء في مجموعه لم يفكر في ساحته ولا في رتاجه، ولا يعد عمله غير جمع مشوش بين أجزاء رائعة لم يصنع بعضها من أجل بعض، وبذلك يكون هذا العمل أثرًا يخلد خزيه بدلًا من أن يشرفه؛ وذلك لأن هذا الأثر يدل على أن الصانع لم يكن من اتساع الأفق بحيث يتمثل تصميم أثره العام، شأن ذوي الأذهان الضيقة التابعة، ومن ينشَّأ ضمن هذا الأفق الضيق القاصر على الجزئيات لم يكن صالحًا للتنفيذ إلا تحت إشراف غيره؛ ولذا فلا تشك، يا تلماك العزيز، في أن الحكم في المملكة يستلزم انسجامًا كما في الموسيقا ونسبًا صحيحة كما في فن البناء.

ولو أردت قيامي بقياسات أخرى حول هذه الفنون لسمعت مني مقدار ما يكون عليه رجال الحكم في الجزئيات من ضعف القريحة، وليس الذي يغنِّي في الجوقة ببعض القطع غير مغنٍّ وإن أجاد في الغناء، ويكون معلم الموسيقا ذاك الذي يدير الجوقة وينظم جميع أقسامها معًا، وليس الذي يشذب العمد أو الذي يرفع قسمًا من البناء غير بنَّاء ويكون المهندس المعماري ذاك الذي تمثل جميع البناء وحاز في رأسه جميع نسب هذا البناء، وهكذا فإن أقل الناس حكمًا هم الذين يصنعون وينجزون ويكونون أكثر من يقوم بالأعمال، فلا يعدون غير مرءوسين، واللوذعي الحقيقي الذي يسوس الدولة هو الذي يصنع كل شيء وإن لم يصنع شيئًا، والذي يبتكر، وينفذ المستقبل، ويعود إلى الماضي، ويرتب، ويقَدر، ويعد عن بعد، والذي لا ينفك يصبر مكافحًا تصاريف الدهر كما يصنع السباح حيال السيل، والذي ينتبه ليل نهار لكيلا يدع للمصادفة شيئًا، أو تظن، يا تلماك، أن المصور العظيم يشتغل جادًّا من الصباح إلى المساء كيما ينجز أعماله على عجل؟ كلا، فمن شأن هذه الشدة وهذا العمل المعبِّد أن يطفئ كل نار في خياله فلا يأتي بعمل عبقري، أي يجب أن ينجز كل شيء بلا ترتيب وعلى البداهة، وذلك وفق ما يسوقه إليه ذوقه ويحفزه إليه ذهنه، وهل تظن أنه

يقضي وقته في سحق الألوان وإعداد الأرياش؟ كلا، فهذا من عمل تلاميذه، وإنما يقتصر على إعمال ذهنه، ولا يفكر في غير رسم خطوط بارزة تنعم على صوره بالنبل والحياة والهوى، ويشتمل رأسه على أفكار مَن يريد أن يعرض من الأبطال ومشاعرهم، وينتقل إلى عصورهم وإلى جميع الأحوال التي كانوا عليها، ولا بد له، عند هذا النوع من الولع، من أن يتذرع بالصحة والدقة والتناسب، وهل تظن، يا تلماك، أن تكوين الملك العظيم يتطلب تهذيبًا للقريحة وجهدًا في التفكير أقل مما يتطلب تكوين مصور ماهر؟ فاعلم من هذا أن عمل الملك يجب أن يقوم على التفكير ووضع المشروعات العظيمة واختيار رجال صالحين لتنفيذها تحت إشرافه.»

تلماك: «يخيل إلي أنني أدرك جميع ما تقول، ولكن الأمور إذا ما سارت على هذا الوجه تطرق الغش إلى الملك ما دام الملك لا يتدخل في الجزئيات.»

منتور: «أنت الذي يغش نفسه، وإنما الذي يحول دون انخداع الملك هو علمه الشامل بأصول الحكم، ويسير الملوك الخالون من المبادئ في الأمور العامة، والعاطلون من قوة تمييز بعض الناس من بعض، سير المتحسس في الظلام، ومن المصادفة ألا يخدعوا، ولا يعرفون ما يبحثون عنه معرفةً دقيقة، ولا يدرون ما يجب أن يميلوا إليه، ولا يعلمون غير الحذر من الصالحين الذين يعارضونهم أكثر من الماكرين الذين يتملقونهم، وعلى العكس ترى أصحاب المبادئ في الحكم العارفين بأنهم من الناس يعلمون ما يجب أن يبحثوا عنه في قرارة أنفسهم وما الوسائل التي توصلهم إليه، وتراهم يعرفون، إجمالًا على الأقل، هل الرجال الذين يستخدمونهم أجهزة صالحة لخططهم، وهل هم قادرون على بلوغ الغاية التي يهدفون إليها، ثم بما أنهم لا يخوضون في الجزئيات المرهقة مطلقًا فإنهم يكونون ذوي نفوس طليقة يواجهون بها عظم العمل بنظرة واحدة ويلاحظون هل يسير قدمًا نحو الغرض الرئيس، فإذا ما خُدعوا لم يكن هذا في الجوهر على الأقل، ثم إنهم يعلون ضروب الرغائب الحقيرة التي تساور أصحاب النفوس الضيقة المنحطة، ويدركون أنه لا يمكن اجتناب الغش في الأمور العظيمة ما سلمت هذه الأمور إلى رجال يكونون مخادعين غالبًا، ويقع الخُسر بالتردد الذي يوجبه الحذر أكثر مما يقع بتطرق قليل من الخداع إلى الرجال، ومن السعادة الوافرة أن يقصر الخداع على الأمور الحقيرة، وألا يجد الخداع سبيلًا إلى كبيرها، وهذا ما يجب على الرجل العظيم أن يصرف همه إليه، أجل، يجب أن يقمع الخداع بشدة إذا ما كشف، ولكن لا بد من بعض المخادعات إذا ما أريد اجتناب الخداع حقًّا، أجل، إن الصانع في دكانه يرى كل شيء بعينيه ويصنع كل شيء بيديه، ولكن الملك

في مملكته الواسعة لا يستطيع أن يرى كل شيء، ولا أن يصنع كل شيء، ولا ينبغي له أن يصنع غير الأمور التي لا يستطيع أحد ممن تحت سلطانه أن يفعله، ولا ينبغي له أن يرى غير ما يعد الحكم فيه من الأمور المهمة.»

وحاصل القول أن منتور قال لتلماك: «إن الآلهة يحبونك، ويعدونك لعهد مملوء حكمة، وكل ما ترى هنا صنع لتثقيفك أكثر مما لمجد إيدومنه، وجميع ما تعجب به من نظم رشيدة في سلنتة ليس سوى ظل لما ستصنع في إيتاك إذا ما أجبت بفضائلك داعيَ ما يُسِّرْت له، وقد أنَى لنا أن نفكر بالرحيل من هنا وقد أعد إيدومنه لنا مركبًا نعود به.»

ولم يعتم تلماك أن فتح قلبه لصديقه، ولكن بعناء، حول ولع يجعله أسفًا على سلنتة، قال تلماك: «ربما تلومني على سهولة ميولي في الأماكن التي أمر منها، ولكن اعلم أن فؤادي لا ينفك يؤنبني إذا ما كتمت عنك حبي لأنتيوب بنت إيدومنه، كلا، يا منتور العزيز، ليس هذا هوًى أعمى كالذي شفيتني منه في جزيرة كلبسو، وقد عرفت عمق الجرح الذي أصابني به حب أكاريس، ولا أقدر حتى الآن أن أنطق باسمها من غير أن أضطرب، وما كان الزمن، ولا الغياب ليستطيعا محوه، ومن هذه التجربة المشئومة علمت الحذر من نفسي، بيد أن ما أشعر به نحو أنتيوب لا يشابه ذلك، أي أنه ليس غرامًا جامحًا مطلقًا، بل ميل، بل حظوة، بل اقتناع بأنني أكون سعيدًا إذا ما قضيت حياتي بجانبها، وإذا ما أعاد الآلهة أبي إلي، وأذنوا لي في اختيار امرأةٍ غدت أنتيوب زوجًا لي، والذي يؤثر فيَّ منها هو صمتها، وتواضعها، وعزلتها، واتصال عملها، وحذقها في أشغال الصوف والتطريز، وقدرتها على إدارة منزل أبيها كله منذ وفاة أمها، وازدراؤها للحُلي الباطلة، وإنكارها لذاتها، وجهلها حتى لجمالها، وكانت، عندما أمرها إيدومنه بإدارة رقصات الفتيات الأقريطشيات على أنغام النايات، تعد فينوس الضاحكة ذات الألطاف، ولما أتى أبوها بها إلى حفلة صيد في الغابات ظهرت وقورًا بارعةً في إطلاق النشاب كما لو كانت ديانا بين الحوريات، ولا يجهل هذا غيرها، وجميع الناس يعجبون بها، ومتى دخلت معابد الآلهة حاملةً على رأسها أشياء مقدسةً في سلالٍ ظن أنها إلهة تسكن المعابد، ويا للتقوى والوجل اللذين نشاهدها بهما وهي تقدم إلى الآلهة قرابين دفعًا لغضب الآلهة عندما يقضي الحال بالتكفير عن بعض الذنوب، أو درءًا لبعض الطوالع المشئومة! ثم إنها إذا ما رئيت مع فوج من النساء حاملةً إبرةً ذهبية بيدها ظن أنها منرفا التي انتحلت شكل إنسان في الدنيا فتوحي إلى الناس بالفنون الجميلة، وهي تحفز الآخرين على العمل، وهي تلطف لهم العمل والسأم بسحر صوتها عندما تتغنى بأقاصيص الآلهة العجيبة، وهي تفوق بدقة وشائها أروع تصوير،

فطوبى للرجل الذي يجمعه بها عرس لذيذ، ورجل مثل هذا لا يخشى غير فقدها وبقائه حيًّا بعدها.»

وهنا أشهد الآلهة، يا منتور العزيز، على استعدادي للرحيل، وأحب أنتيوب ما رأيتها، ولكنها لن تؤخرني دقيقة عن العود إلى إيتاك، وإذا ما نالها آخر قضيت بقية حياتي حزينًا أسيفًا، ولكنني سأتركها، ومع أنني أعرف أن الغياب يفقدني إياها، على ما يحتمل، فإنني لا أريد أن أحدثها، ولا أن أحدث أباها عن حبي؛ وذلك لأنك الوحيد الذي يجب أن أخاطب في ذلك، وذلك حتى يصرح لي أوليس بموافقته على ذلك بعد رجوعه إلى العرش، ويمكنك، يا منتور العزيز، أن تُدرك بذلك مقدار اختلاف هذا الكلف عن ذاك الهوى الذي رأيت أنه أعماني حيال أكاريس.

منتور: «أوافق على هذا الاختلاف، فأنتيوب لطيفة بسيطة رشيدة، ولا تحتقر يداها العمل، وهي تبصر عن بعد، وهي تتدارك كل شيء، وهي تعرف أن تصمت وأن تسير نشيطةً من غير تسرع، وهي دءوب في العمل من غير ارتباك لقيامها بكل عمل في الوقت المناسب، ولها فخر بما توجبه من حسن الترتيب في منزل أبيها حيث التنميق يفوق الرونق، وهي، على ما تُعنى بكل شيء، وما فوض إليها من الإصلاح والمنع والتوفير (وهذا ما يحمل على مقت جميع النساء تقريبًا)، قد غدت محببةً لدى جميع المنزل، وذلك لخلوها من الهوى والعناد والخفة والنزق، أي من هذه الأمور التي تشاهَد عند غيرها من النساء، وهي تطاع بنظرةٍ منها، ويُخشى عدم الوقوع عندها موقع الرضا، وتصدر أوامر قاطعةً، ولا تأمر بغير ما يمكن تنفيذه، وتلوم بلطف، وينطوي لومها على التشجيع، ويطمئن فؤاد أبيها إليها، كما يطمئن المسافر الذي لفحته الشمس إلى الكلأ الغض تحت الظل، أجل، لقد أصبت يا تلماك، فأنتيوب كنز يستحق أن يُبحث عنه في أقصى البلدان، ولا يزين روحها وبدنها بالزخرف الباطل مطلقًا، ويزدجر خيالها مع اتقاده، ولا تتكلم إلا عن ضرورةٍ، وإذا ما فتحت فاها جرى الإقناع العذب والألطاف الصافية من بين شفتيها، وإذا ما تكلمت سكت جميع الناس، واحمر وجهها خجلًا بهذا، وهيهات ألا تعدل عما أرادت قوله عندما تبصر أنه يُستمع إليها بانتباه، وقد سمعناها تتكلم منذ هنيهة.

أو تذكر، يا تلماك، ذاك اليوم الذي أمر فيه أبوها بأن تحضر؟ لقد ظهرت كاسرةً من طرفها مدَّثرةً بإزار كبير، ولم تتكلم إلا لتسكين غضب أبيها الذي كان يأمر بمعاقبة أحد عبيده عقابًا شديدًا، وذلك أنها سبرت ألمه في بدء الأمر، ثم سكنت ثائره، ثم سمع منها ما يمكن أن يعذر به هذا التعس، وقد أوحت إلى الملك بمشاعر العدل والشفقة من غير أن

تشعره بأنه كان نَزِقًا جدًّا، وما كانت تتيس لتداريَ الشائب نيره فتسكن الأمواج الهائجة بلطف أكثر من ذاك، وهكذا فإن أنتيوب ستلامس قلب زوجها ذات يوم كما تلمس الآن كنارتها عندما تريد استخراج ألطف توافق في الألحان، وذلك من غير إكراهٍ ولا استغلال لفتون، ثم إن حبك لها عادل يا تلماك، والآلهة يقدرونها لك، وأنت تحبها حبًّا معقولًا، ولا بد من انتظار إعطائك إياها من قِبل أوليس، وأمدح عزمك على عدم مكاشفتها بمشاعرك، ولكن اعلم أن كل مواربةٍ تتخذها لتطلعها على مقاصدك ستؤدي إلى رفض ما تبتغي وإلى عدولها عن تقديرك، وهي لن تعد أحدًا بنفسها، وهي تترك أمر إعطائها لأبيها، وهي لن تتخذ زوجًا لها غير الرجل الذي يخاف الآلهة ويقوم بموجبات اللياقة، وهل لاحظت، كما لاحظت، أنها غدت أقل ظهورًا وأكثر غضًّا للبصر عند رجوعك؟ وهي تعرف جميع ما نلت من فوزٍ في الحرب، وهي لا تجهل نسبك، ولا مغامراتك، ولا كل ما وضع الآلهة فيك، وهذا ما جعلها كثيرة الحياء كثيرة التحفظ، ولنسافر يا تلماك، ولنسافر إلى إيتاك، لم يبقَ لي غير جعلك تجد أباك، وجعلك تنال امرأةً جديرةً بالعصر الذهبي، وستكون سعيدًا بحيازتها ولو كانت راعيةً في حبل ألجيد البارد بدلًا من أن تكون ابنةً لملك سلنتة.»

وكان إيدومنه يخشى سفر تلماك ومنتور، ولا يفكر في غير تأخيره، وقد ذكر لمنتور أنه لا يستطيع بغيره تسوية النزاع الذي وقع بين كاهن جوبيتر الحافظ: ديوفان، وكاهن أبولون: هليودور، وذلك حول الطوالع التي تُستنبط من طيران الطيور وأمعاء الضحايا، قال له منتور: «لِمَ تتدخل في الأمور الدينية؟ دعِ الحكم فيها للإتروريين الذين عندهم عرف أقدم الهواتف، والذين هم ملهمون بأن يكونوا تراجمة الآلهة، وإنما اقْصِر سلطانك على إطفاء هذه المنازعات عند ظهورها، ولا تبدُ محابيًا ولا عن الحق عادلًا، واكتفِ بتأييد الحكم الذي يصدر، واذكر أن من الواجب خضوع الملك للدين، وأن من غير الجائز إقدامه على الفصل في أموره، واعلم أن الآلهة مصدر الدين، وأن الدين فوق الملوك، وأن الملوك، إذا ما تدخلوا في الدين بدلًا من حمايته، وضعوه ضمن نطاق من العبودية، وأن الملوك من القوة، وأن غيرهم من الضعف، بحيث يقع خطر تحريف كل شيء وفق مشيئة الملوك إذا ما تدخلوا في المسائل الدينية؛ ولذا فاترك أمر الحكم فيها بكل حريةٍ لأحباء الآلهة واقتصر على قهر كل من يعصي حكمهم بعد النطق به.»

ثم تذمر إيدومنه من الإلحاف عليه بأن يحكم في قضايا كثيرة قائمة بين كثير من الأفراد، فقال له منتور: «اقضِ في جميع المسائل الجديدة التي تسفر عن مبادئ عامة في الفقه وعن تفسير للقوانين، ولكن لا تحمل نفسك أمر الحكم في القضايا الخاصة؛ وذلك

لأنها تأتي لتلقيَ جِرَانها عليك جملةً، ولأنك تصبح بذلك قاضي رعيتك الوحيد، ويغدو جميع القضاة الآخرين مهملين، ولأنك ترهق بذلك، ولأن صغار الأمور تطغى على كبارها بذلك، فلا تكفي وحدك للبت في القضايا الصغيرة مع التدقيق؛ ولذا فاحترز من إلقاء نفسك في هذه الورطة، ورد قضايا الأفراد إلى قضاةٍ عاديين، ولا تصنع غير ما لا يستطيع أحد غيرك أن يخفف عبأه عنك، وهنالك تقوم بوظائف الملك الحقيقية.»

إيدومنه: «إنه يلح علي، أيضًا، بأن أقوم ببعض الزواجات، وذلك أن أناسًا من ذوي النسب الممتاز الذين اتبعوني في جميع الحروب، والذين خسروا أموالًا عظيمةً في سبيلي، يودون لو يكافَأون بتزويجهم بعض الفتيات الغنيات، وليس علي إلا النطق بكلمة واحدة حتى يفوزوا بهذه الزواجات.»

منتور: «أجل، إن هذا لا يكلفك غير كلمة واحدة، بيد أن هذه الكلمة تكلفك غاليًا إلى الغاية، أو تريد أن تحرم الآباء والأمهات سلوة اختيار أصهارهم وورثتهم؟ يعني هذا وضع جميع الأسر ضمن أوثق نطاق من العبودية وبذلك تصير مسئولًا عن جميع رزايا مواطنيك المنزلية، وللزواجات أشواكها قبل أن يأتي كربها، وإذا كان لديك خدم مخلصون جديرون بأن يكافأوا فأنعم عليهم بأَرَضين بائرة وتفضل عليهم بمراتب ومقامات ملائمة لأحوالهم مناسبة لخِدَمهم، وأعطهم، إذا ما شئت، نقدًا من مالك الذي ادخرت بعد إنفاق على نفسك، ولكن حذار أن تؤدي ديونك مضحيًا بالفتيات الغنيات على الرغم من آبائهن.»

ولم يلبث إيدومنه أن انتقل إلى مسألة أخرى، فقال: «يتظلم السباريون من اغتصابنا أرضين يملكونها، ومن إنعامنا بها، مثل حقول للإحياء، على أجانب جلبناهم إلى هنا منذ زمن قليل، فهل أسلم إلى هؤلاء القوم؟ إنني إذا ما فعلت هذا لم يرَ كل واحد إلا أن يغزل مثل هذه المزاعم حيالنا.»

منتور: «ليس من الإنصاف أن يصدَّق السباريون في قضيتهم كما أنه ليس من الإنصاف أن تُصدَّقوا في قضيتكم.»

إيدومنه: «ومن يصدَّق إذن؟»

منتور: «لا يجوز تصديق أي من الفريقين، وإنما يجب تحكيم أمَّة مجاورة غير متهمة بمحاباة أي منهما، ومن ذلك السبنتيون الذين لا يساورهم مأرب ضد مصالحكم.»

إيدومنه: «ولكن هل أنا ملزم بتصديق أي حكم كان؟ ألست ملكًا؟ وهل الملك ملزم بالخضوع لأجانب ضمن نطاق ملكه؟»

منتور: «بما أنك تريد أن تثبت حيث أنت فإن الواجب يقضي بأن ترى صلاح حقك، ثم إن السباريين لا يتساهلون في أمر مطلقًا، وهم يرون أن حقهم ثابت، فإذا ما تباين الميل هكذا وجب اختيار حكم من قِبَل الفريقين، أو أن يكون السلاح قاضيًا، ولا وسط، وإذا ما دخلتَ مملكةً خاليةً من الحكام والقضاة حيث ترى كل أسرة أن تقضي في جميع مزاعمها بالقوة ضد جيرانها فإنك ترثي لبلاء هذه الأمة وتمقت هذا الفساد الفظيع الذي يوجب تسلح بعض الأسر ضد بعض، وهل تعتقد أن الآلهة يكونون أقل مقتًا لجميع العالم الذي هو مملكة عامة إذا ما رأت كل أمة، وليست الأمة غير أسرة كبيرة في الحقيقة، أن من حقوقها أن تقضي لنفسها بالقوة في جميع مزاعمها حيال الأمم المجاورة الأخرى؟ لا يستطيع الفرد، الذي يتصرف في حقل انتقل إليه بالإرث عن أجداده، أن يبقى قابضًا على هذا الحقل بغير سلطان القوانين وحكم القضاة، فإذا ما أراد أن يحفظ بالقوة ما يمنحه العدل إياه عوقب بشدة مثل عاصٍ، وهل ترى أن يقدم الملوك على استعمال القوة منذ البداءة تأييدًا لمزاعمهم ومن غير أن يسلكوا جميع سبل اللين والإنسانية؟ أو ليس العدل أقدس لدى الملوك، وأكثر حرمة عندهم، حيال بلدان بأسرها مما لدى الأسر حيال حقول فلحت؟ أو ليس من الجور والسلب أخذ بضعة أفدنة من الأرض؟ وهل من العدل والبطولة أن يُستولى على ولايات؟ وإذا ما وقع النفاق والعمى حول مصالح الأفراد الصغيرة أفلا يُخشى أكثر من ذلك وقوع النفاق والعمى حول مصالح الدولة العظيمة؟ وهل يعتقد صدق أمر يوجد كثير من العوامل ما يُرتاب به منه؟ ألا يُخشى الانخداع في أحوال يكون لخطأ الفرد فيها نتائج فظيعة؟ ما أكثر ما يسفر خطأ الملك، الذي يعلل نفسه بالأماني حول مزاعمه، عن تخريبات ومجاعات ومذابح وأوبئة ومفاسد خلقية تدوم نتائجها المشئومة قرونًا كثيرة! ألا يخاف الملك الذي يجمع حوله، في كل وقت، مرائين كثيرين أن يُخدع في هذه الأحوال؟ إذا ما وافق الملك على اختيار حكم للفصل في النزاع دل على إنصافه وحسن نيته واعتداله، ويذيع هذا الملك ما يستند إليه من أسباب متينة في قضيته، ويعد الحكم المنتخب وسيطًا عن تراضٍ، لا قاضيًا مفروضًا، أجل، لا يُخضع لأحكامه خضوعًا أعمى، ولكنه يُجَلُّ كثيرًا، أجل، إنه لا ينطق بالحكم مثل قاضٍ سيدٍ، ولكنه يقدم اقتراحاتٍ، ويضحَّى ببعض الأمور تبعًا لنصائحه في سبيل حفظ السلام، وإذا ما اشتعلت الحرب على الرغم من جميع الجهود الذي بذلها الملك لحفظ السلام كان له من المؤيدات شهادة ضميره وتقدير جيرانه وحماية الآلهة العادلة.»

ويؤثر هذا الكلام في إيدومنه فيوافق على أن يكون السبنتيون وسطاء بينه وبين السباريين.

وقد رأى الملك أن الحيل أعيته في إمساك الغريبين فحاول صرفهما عن قصدهما برابطة أشد قوةً، وذلك أنه لاحظ أن تلماك يحب أنتيوب، فأمل أن يجتذبه بهذا الهوى؛ ولذا فإنه حملها على الغناء في الولائم عدة مرات، وقد صنعت هذا لكيلا تعصي أباها، وإنما فعلته بكثير من التواضع والغم ما بدا عياؤها الذي عانت بإطاعة أبيها، وقد بلغ إيدومنه من الإغراب ما رغب معه أن تتغنى بالنصر الذي تم على الدونيين وأدرست، ولكنها لم تذهب إلى إنشاد مدائح تلماك، وقد امتنعت عن هذا احترامًا، ولم يجرؤ أبوها على إلزامها بهذا، وقد نفذ صوتها اللطيف المؤثر فؤاد الشاب ابن أوليس، ويهتز بأسره، ويُسَر إيدومنه، الذي ما انفك ينظر إليه، إذ يلاحظ اضطرابه، بيد أن تلماك لم يتظاهر بأنه مدرك لمقاصد الملك، وإن لم يستطع في هذه الأحوال أن يمنع نفسه من التأثر كثيرًا، ولكن ما يساوره من سبب يعلو الحس، ولا غرو، فقد عاد لا يكون تلماك الذي كان قد استحوذ عليه هوًى جامح في جزيرة كلبسو، وبينا كانت أنتيوب تغني كان تلماك يلتزم جانب الصمت العميق، فلما فرغت من غنائها بادر إلى تحويل الحديث إلى موضوع آخر.

ولما عجز الملك عن النجاح في مقصده بهذه السبيل عزم على القيام بحفلة صيد كبيرة ترويحًا لابنته خلافًا للعادة، وتبكي أنتيوب، ولا ترغب في الذهاب، ولكن لا بد لها من تنفيذ أمر أبيها المطلق، وتركب حصانًا مزبدًا وثَّابًا مشابهًا للخيل التي كان يروضها كستور للسباق، وتقوده بلا عناء، ويتبعها فوج من الفتيات بهمة، وتظهر بينهن كديانا في الغابات، ويشاهدها الملك، ولا يمل من مشاهدتها، وهو ينسى جميع مصائبه الماضية إذ يشاهدها، ويراها تلماك أيضًا، وهو إذ يراها يبدو متأثرًا بتواضعها أكثر من تأثره برشاقتها وجميع ألطافها.

وكانت الكلاب تتعقب خنزيرًا بريًّا ضخمًا هائجًا كرت كليدون، وكان شعر هذا الرت قاسيًا مزبئرًّا كالسهام، وكانت عيناه المتوقدتان مملوءتين دمًا ونارًا، وكان قُباعه[٢] يُسمع من بعيد فيشابه هزيز الرياح الأصم عندما يدعوها يول إلى غاره تسكينًا للعواصف، وكانت أنيابه الطويلة، العُقف كمناجل الحصاد، تقطع سوق الشجر، وكانت الكلاب التي تجرؤ على الاقتراب منه تمزَّق، وكان أجرأ الصائدين الذين يتعقبونه يخشون إصابته، ولم تخشَ أنتيوب، التي تسابق الرياح عدوًا، أن تهجم على هذا الخنزير البريِّ عن كثبٍ، وترميه بسهمٍ، ويصاب فوق منكبه، ويسيل دمه ويزيد هياجًا، ويتجه نحو التي

[٢] قُباع الخنزير كنخير الإنسان أو الدابة، وهو إذا مد الصوت والنفس في خياشيمه.

جرحته، ولم يلبث حصان أنتيوب أن ارتجف وتراجع على الرغم من زهوه، وينقض الرت الشرس عليه كالعدد الثقيلة التي تقلقل أسوار المدن الحصينة، ويترنح الجواد، ويكبو وتُرى أنتيوب على الأرض في حال لا تستطيع بها أن تجتنب طعنة ناب الرت الهائج ضدها، ويبصر تلماك ما حاق بأنتيوب من خطر، ويترجل، ويعترض، بأسرع من البرق، ما بين الحصان والرت الآتي للانتقام منها، ويتناول رمحًا طويلًا ويغمسه كله تقريبًا في خاصرة هذا الحيوان الهائل الذي يسقط متخبطًا.

ويقطع تلماك رأس الرت من فوره، يقطع هذا الرأس الذي يلقي الرعب في القلب عند النظر إليه عن كثب، والذي يذهل جميع الصائدين، ويقدم تلماك هذا الرأس إلى أنتيوب، وتحمر حياءً، وتنظر إلى أبيها، الذي كاد فؤاده يطير فرحًا، بعد فزع، لما أبصر من زوال الخطر عنها، ويومئ إليها بقبول الهدية، وقد قالت لتلماك، وهي تتناول رأس الرت: «أتناول منك مع الشكر هديةً أعظم من هذه، وهي حياتي التي أراني مدينةً لك بها.»

ولم تكد تنطق بهذه الكلمة حتى خشيت أن تكون قد أطالت القول، فكسرت من طرفها، وقد أبصر تلماك ارتباكها، فلم يجرؤ أن يخاطبها بغير قوله: «طوبى لابن أوليس الذي حفظ حياتك الغالية إلى الغاية، ولكنه يكون أكثر سعادة إذا ما استطاع أن يقضي حياته بجانبك!»

وتندمج أنتيوب في فوج رفيقاتها الفتيات حالًا، ومن غير أن تجيبه، وتمتطي صهوة الجواد.

وكان يمكن إيدومنه أن يعد تلماك بابنته منذ هذه الدقيقة، ولكنه طمع أن يلهب هواه أكثر مما وقع، وذلك بتركه يترجح بين الشك واليقين معتقدًا أن رغبته في ضمان زواجه تبقيه في سلنتة، وهذا ما كان يبرهن به إيدومنه في نفسه، بيد أن الآلهة يسخرون من حكمة الناس، أي أن ما كان يحفز تلماك إلى البقاء في سلنتة هو الذي كان يدفعه إلى السفر منها تمامًا، وأن ما أخذ يشعر به جعله يحذر من نفسه حقًّا، ويضاعف منتور جهوده ليوحي إليه برغبةٍ ملحة في الرجوع إلى إيتاك، ويلح، في الوقت نفسه، على إيدومنه بأن يدعه يسافر، فالمركب حاضر، ولا عجب، فمنتور، الذي كان ينظم حياة تلماك في جميع الأوقات ليرفعه إلى أعلى درجات المجد، لم يقفه في كل مكان إلا للوقت الذي تقتضيه ممارسة فضيلته ونيله بعض التجارب، أجل، إن منتور عُنِي بإعداد المركب منذ وصول تلماك، غير أن إيدومنه، الذي كره كثيرًا أن يرى إعداده، بلغ من شدة الحزن والكرب ما يستحق معه الرحمة عندما أبصر قرب تركه من قِبَل ضيفيه اللذين لقي منهما عونًا كثيرًا، وقد انزوى في أكثر محال

منزله خفاءً، حيث كان يروِّح نفسه بما يخرج من أنات ويسكب من عبرات، وقد غفل عن احتياجه إلى الغذاء، وقد عاد الرقاد لا يخفف آلامه الحادة، وقد صار يهزل وينحل بهمومه، فبدا كالدوحة التي تستر الأرض بظل غصونها الكثيفة فأخذت دودة تأكل الساق من القنوات الرقيقة حيث يجري النسغ لتغذيتها، ولا تنفك هذه الشجرة، التي لم تزعزعها الرياح والتي يروق الأرض أن تغذيها في باطنها والتي احترمتها فأس الحراث دائمًا، تذبل من غير أن يعرف سبب مرضها، وتذوي، وتتعرى من أوراقها التي يقوم عليها عزها، ولا تظهر غير ساقٍ قشرُها متشقق وفروعها جافة، وهذه هي الحال التي كان عليها إيدومنه في آلامه.

ولم يجرؤ تلماك، الذي رق قلبه، على الكلام إليه، وكان يخاف يوم الرحيل، وكان يبحث عن ذرائع لتأخيره، وكان يظل زمنًا طويلًا حائرًا على هذه الحال لو لم يقل له منتور: «يسرني ما أرى من تحولك، وقد ولدت قاسيًا غطريسًا، وقد كان فؤادك لا يتأثر إلا برفاهيتك ومصالحك، غير أنك غدوت رجلًا في آخر الأمر، وأخذت بفضل ابتلائك بمصائبك ترق لمصائب الآخرين، واعلم أنه لا جود، ولا فضل، ولا قدرة على الحكم في الناس، بغير هذه الرحمة، ولكن لا ينبغي الإغراب في هذا المضمار، ولا الوقوع في ضعف من الصداقة، وكان يطيب لي أن أخاطب إيدومنه حتى يوافق على سفرنا، وكنت أكفيك عناء الحديث إليه في أمر مكدر كهذا، لولا أنني أود ألا يستحوذ على قلبك عامل الحياء والوجل، ويجب أن توطن نفسك على مزج الشجاعة والحزم بالصداقة الناعمة الرقيقة، ويجب أن تخشى إصابة الناس بغم من غير ضرورة، ويجب أن تنفذ آلامهم إذا ما عجزت عن منع وقوعها، وأن تخفف بما أوتيت من قوة وقع الضربة التي يتعذر عليك ردها عنهم تمامًا.»

تلماك: «كنت أفضل أن يعلم إيدومنه أمر رحيلنا منك، لا مني، وصولًا إلى هذا التخفيف.»

منتور: «أنت مخطئ يا تلماك العزيز، فأنت قد وُلدت مثل أبناء الملوك الذين نشئوا في الأرجوان، فيريدون أن يتم كل شيء وفق هواهم، وأن يطيع جميع الخلق ما تقضي به مشيئتهم، ولكن مع عطلهم من قوة مقاومة أي كان مواجهةً، ولا يعني هذا أنهم يكترثون للناس أو أنهم يخشون إيقاعهم في الغم عن جود، وإنما يعني أنهم لا يريدون أن يروا حولهم وجوهًا حزينة مستاءة عن حرص على راحة أنفسهم، وهم لا يتأثرون بآلام الناس وبؤسهم ما لم يكونوا أمامهم، وهم إذا ما سمعوهم يتكلمون أزعجهم هذا الكلام وأحزنهم، ويجب على من يود أن يروقهم أن يقول، دائمًا، إن كل شيء يسير على ما يرام، وتراهم

لا يريدون أن يسمعوا، أو يروا، ما يقطع مسراتهم ما داموا غارقين في لذاتهم، وإذا ما وجب تعزيرهم رجلًا أو إصلاحه أو هدايته أو مقاومة مزاعمه الجائرة أو أهوائه الظالمة فوضوا أمر القيام بهذا إلى رجل آخر دائمًا، وأهون عليهم أن يدعوا انتزاع ألطافهم منهم على غير حق من أن ينطقوا بحزم سائغ في مثل هذه الأحوال، وهكذا فإنهم يفسدون أهم أمورهم عن عدم معرفتهم المضي في أمر مخالف لشعور من يعاملونهم كل يوم، ومن شأن هذا الضعف الذي يُحَس فيه ألا يفكر في غير استغلاله، فيضغطون ويزعجون ويرهقون، ويكتب التوفيق لمن يرهقهم، أجل، إنهم، في أول الأمر، يتملقون ويبجلون ليتسرب فيهم، بيد أنه إذا ما ظفر بثقتهم والتزموا في الأمور التي تنطوي على سلطان، أتي بهم بعيدًا، ووضع النير عليهم، ويئنون، ويودون، في الغالب، لو يرفع عنهم، ولكنهم يحملونه مدى حياتهم، ويغتبطون بظهورهم غير محكوم فيهم مطلقًا، وهذا هو شأنهم دائمًا، ولا يمكن أن يستغنوا عن هذا أبدًا، ومثلهم كمثل سوق الدوالي التي لا يوجد لها دعامة من نفسها فلا تنفك تزحف حول جذل شجرة كبيرة، ولن أحتمل، يا تلماك، إصابتك بهذا النقص الذي يجعل الرجل عاجزًا عن الحكم، وبما أنك بلغت حدًّا من الرقة لا تجرؤ معه على الحديث إلى إيدومنه فإنك لن تبقى متأثرًا بآلامه بعد أن تغادر سلنتة، وليس ألمه هو الذي ألانك، بل حضوره هو الذي يحيرك، واذهب بنفسك إلى إيدومنه، وتعلم في هذه الحال أن تكون رقيقًا حازمًا معًا، وأطلعه على ألمك من تركه، ولكن أطلعه، بلهجةٍ قاطعة، على ضرورة انصرافنا.»

ولم يجرؤ تلماك على مقاومة منتور، ولا على ذهابه لمقابلة إيدومنه، وقد كان خجِلًا من وجله، ولم يكن له من الشجاعة ما ينزع معه فزعه، ويتردد، ويتقدم خطوتين، ويعود إلى منتور في الحال ليذكر له سببًا جديدًا للتأجيل، بيد أن نظرة منتور وحدها نزعت منه الكلام وبددت جميع ذرائعه الجميلة، قال منتور متبسمًا: «أذاك، إذن، قاهر الدونيين ومنقذ هسبرية الكبرى وابن الحكيم أوليس الذي يجب أن يكون حكيم بلاد اليونان بعده؟ هو لا يجرؤ أن يقول لإيدومنه: إنه عاد لا يستطيع تأجيل رجوعه إلى وطنه حتى يلقى أباه! وأنتم، يا أهل إيتاك، ما أشد شقاءكم ذات يوم إذا ما كان لديكم ملك يستحوذ عليه خجل سيئ ويضحي بأعظم المصالح في سبيل أصغرها عن ضعف فيه! وانظر، يا تلماك، أي فرق يوجد بين الشجاعة في المعارك والبسالة في الشئون، وأنت الذي لم يخف بأس أدرست قط، ويخاف بؤس إيدومنه، وهذا هو الذي يشين الأمراء الذين قاموا بأعظم الأعمال، أي أن هؤلاء الأمراء يظهرون، بعد أن بدوا أبطالًا في الحرب، آخر الناس في المناسبات العامة حيث تتجلى قوة الآخرين.»

ويشعر تلماك بالحق في هذا الكلام، ويُهَز بهذا اللوم، ويذهب حالًا من غير أن ينطق بكلمة، ولكنه لم يكد يظهر في المكان الذي كان إيدومنه جالسًا فيه كاسرًا من طرفه ذاويًا كامدًا غمًّا حتى خشي كل منهما الآخر، ولم يقدم أي منهما على النظر إلى الآخر، ويتفاهمان من غير أن ينطقا بكلمة، ويخاف كل منهما أن يقطع صاحبه الصمت، ويأخذان في البكاء، ثم حفز فرط الألم إيدومنه إلى القول صارخًا: «ما فائدة طلب الفضيلة إذا كانت تقابِل بالسوء من يحبونها؟ إنني أترَك بعد أن أظهرت ضعفي! حسنًا! سأعود إلى جميع مصائبي! ليُكَفَّ عن مخاطبتي في صلاح الحكم، كلا، إنني لا أستطيع صنع هذا! لقد سئمت الناس! أين تريد أن تذهب يا تلماك؟ عاد أبوك لا يكون، أنت تبحث عنه على غير جدوى، إيتاك فريسة أعدائك، سيهلكك هؤلاء الأعداء إذا ما عدت إليها، يتزوج بعضهم أمك، ابقَ هنا، ستكون صهري ووارثي، ستملك بعدي، سيكون لك سلطان مطلق هنا ما دمتُ حيًّا، لا حد لثقتي بك، إذا كنت لا تبالي بجميع هذه المنافع فدع لي منتور على الأقل ما دام منتور كل ما لدي من وسيلة، قل، أجب، لا تقسِّ قلبك، ارحم أشقى الناس، ماذا! أنت لا تقول شيئًا! آه! أدرك مقدار قسوة الآلهة علي، أحس هذا بأشد مما لقيت في أقريطش عندما طعنتُ ابني.»

وبعد لأْيٍ يقول له تلماك بصوت مضطرب مع الوجل: «لست مالكًا لنفسي مطلقًا، فالأقدار تدعوني إلى وطني، ويأمرني منتور، الذي له مثل حكمة الآلهة، بالانصراف باسم هؤلاء الآلهة، وما تريد أن أفعل؟ أأتخلى عن أبي وأمي ووطني الذي يجب أن يكون أعز علي من والديَّ؟ بما أنني ولدت لأكون ملكًا فإنني لم أعدَّ لحياة ناعمة هادئة ولا لاتباع ميولي، أجل، إن مملكتك أغنى من مملكة أبي وأقوى، بيد أنه يجب أن أفضل ما يعد الآلهة لي على الذي جُدتَ بتقديمه إليَّ، أعتقد أنني أكون سعيدًا إذا ما غدت أنتيوب زوجًا لي بلا أمل في مملكتك، ولكن لا بُدَّ لي، حتى أكون أهلًا لذلك، من الذهاب إلى حيث يدعوني الواجب ومن خطبتها لي من قبل والدي، ألم تعدني بإعادتي إلى إيتاك؟ ألم أعتمد على هذا الوعد فحاربت مع الحلفاء أدرست من أجلك؟ لقد أنى وقت تفكيري في مصائبي الأهلية، إن الآلهة الذين أعطوني منتور هم الذين أعطوا منتور ابن أوليس كيما يقوم بما قُدر له، وهل تريد أن أخسر منتور بعد أن خسرت البقية؟ عدت لا أملك مالًا ولا ملجأ ولا أبًا ولا أمًّا ولا وطنًا مضمونًا، ولم يبقَ لي غير رجل حكيم فاضل يعد أثمن هبةٍ من جوبيتر، فاحكم فيما أصير إليه إذا ما استطعت أن أتخلى عنه ووافقت على تركه إياي، كلا، الموت أحب إلي من ذلك، انزع حياتي، وليست الحياة أمرًا ذا بال، ولكن لا تنزع مني منتور.»

وكلما تكلم تلماك اشتد صوته وزال وجله، ولم يدرِ إيدومنه ما يجيب وبم يوافق عليه من قول ابن أوليس، ولما عاد لا يستطيع الكلام حاول بنظراته وحركاته، على الأقل،

أن يستدرَّ الرحمة، وبينا كان الوضع هكذا ظهر منتور ووجه إليه القول الرزين الآتي: «لا تغتم مطلقًا، فنحن تاركوك، وستظل الحكمة الملازمة لنصائح الآلهة حليفةً لك، وإنما اعتقد أنك بالغ السعادة بإرسال جوبيتر إيانا إلى هنا كيما تنقذ مملكتك ويزول ضلالك، وسيقوم فلكتت الذي رددناه إليك بأخلص الخِدَم لك، فقلبه عامر، دائمًا، بمخافة الآلهة وحب الفضيلة والعطف على الرعية والرأفة بالبائسين، فاستمع له وانتفع به مطمئنًّا خاليًا من الغيرة، وأعظم نفع يمكنك أن تنال منه هو أن تحمله على بيانه لك جميع عيوبك بلا تلطيف، ولا غرو، فأعظم شجاعة يمكن أن يتذرع بها الملك الصالح هو أن يبحث عن أصدقاء صادقين يدلونه على زلاته، فإذا كنت حائزًا لهذه الشجاعة لم يضرك غيابنا قط وعشت سعيدًا، ولكنك تهلك إذا ما وجد الرئاء، الذي ينساب كالحية، سبيلًا إلى فؤادك فأثار حذرك حيال النصائح الخالية من الغرض، ولا تهدم نفسك بالألم من حيث لا تدري، والزم جانب الفضيلة، وقد بلغت فلكتت كل ما يجب أن يصنع كيما يكشف الهم عنك ولكيلا يسيء استعمال ثقتك به مطلقًا، ويمكنني أن أقول حاكيًا عنه: إن الآلهة حبوك به، كما حَبَوا تلماك بي، ويجب على كل واحد أن يتبع مصيره بشجاعة، ولا فائدة من الكرب، وإذا حدث أن احتجت إلى مساعدتي بعد إعادتي تلماك إلى أبيه وبلده رجعت لزيارتك، وما حيلتي نحو من يمنحني أعظم لذة؟ لا أبتغي مالًا ولا سلطانًا في الدنيا، ولا أريد غير مساعدة الباحثين عن العدل والفضيلة، وهل أنسى الثقة والصداقة اللتين أبديتهما لي؟»

فلما سمع إيدومنه هذا الكلام تغير بغتةً، فقد شعر بتسكين فؤاده كما يسكن نبتون، بخطافه الثلاثي الشوكات، هائج الأمواج وقاتم العواصف، وكل ما بقي فيه عذاب هادئ مستعذب، ويجدر تسمية هذا شجونًا رقيقًا وشعورًا ناعمًا أكثر من أن يسمى ألمًا شديدًا، وقد أخذت تساور قلبه عوامل البأس والاطمئنان والفضل وأمل العون من الآلهة، قال إيدومنه: «إذن، أنت ترى، يا منتور العزيز، وجوب فقد كل شيء مع عدم فتور الهمة! فاذكر إيدومنه على الأقل، ومتى وصلت إلى إيتاك حيث تجد كل يسر بفضل حكمتك فلا تنسَ أن سلنتة من صنعك وأنك تركت فيها ملكًا شقيًّا لا أمل له في غيرك، واذهب يا ابن أوليس الكريم ما عدت لا أمسكك، ولا راد لحكم الآلهة الذين كانوا قد أقرضوني فيك كنزًا عظيمًا جدًّا، واذهب يا منتور الذي هو أعظم الناس وأكثرهم حكمةً (إذا ما استطاع البشر أن يصنعوا مثل ما شاهدت فيك، وإذا لم تكن إلهًا في صورة إنسان كيما تعلم الناس الضعفاء الجاهلين)، اذهب لتسير ابن أوليس الذي هو أكثر سعادةً بك مما بقهره أدرست، اذهبا معًا، عدت لا أستطيع الكلام، اغفرا لي زفراتي، اذهبا، وتمتعا بالحياة، وكونا سعيدين

معًا، ولم يبقَ لي في العالم غير تذكري سابق حيازتكما هنا، يا لتلك الأيام الرائعة! يا لتلك الأيام السعيدة! يا لتلك الأيام التي لم أعرف قيمتها بما فيه الكفاية! يا لتلك الأيام التي مرت كلمح البصر! لن تعودي! لن ترى عيناي مَن أرى الآن.»

ويتهيأ منتور للسفر، ويعانق فلكتت الذي بلله بدموعه من غير أن يقدر على الكلام، وقد أراد تلماك أن يتناول منتور من يده جرًّا له من يد إيدومنه، بيد أن إيدومنه سار على درب المرفأ واضعًا نفسه بين منتور وتلماك، وكان ينظر إليهما، وكان يئن، وكان ينطق بكلمات متهدج الصوت، فلا يستطيع إتمام واحدةٍ منها.

ويسمع في تلك الأثناء اختلاط الأصوات في الشاطئ الزاخر بالنواتي، وتُمَطُّ القُلُوس،[٣] وتهب ريح ملائمة، ويستأذن تلماك ومنتور الملك دامعي الأعين، ويعانقهما الملك عناقًا طويلًا، ويتبعهما بعينيه بعيدًا ما استطاع.

[٣] القلوس: جمع القلس: وهو حبل للسفينة ضخم.

الجزء الثامن عشر

بينا كانت السفينة تجري كان تلماك يكلم منتور حول مبادئ الحكم الحكيم ووسائل معرفة الرجال كيما يبحث عنهم ويستخدمهم وفق مواهبهم، بينا كان هذا الحديث يدور حملهما سكون البحر على الرسو موقًا في جزيرةٍ نزل إليها أوليس، اجتماع تلماك به وحديثه إليه من غير أن يعرفه، ولكنه لم يلبث، بعد أن رآه يبحر، أن شعر باضطراب خفي لم يستطع تمثل سببه، إيضاحه من قِبَل منتور وتوكيده له بأنه سيلقى أباه عاجلًا، ثم يختبر صبره مؤخرًا سفره بتقريب قربانٍ إلى منرفا، تتخذ الإلهة المستترة تحت صورة منتور شكلها وتعرف ذاتها، إنعامها على تلماك بآخر تعاليمها وتواريها، هنالك أسرع تلماك إلى السفر ووصل إلى إيتاك حيث لقي أباه عند المُخلص أومه.

تنتفخ القلوع في تلك الأثناء، وترفع المراسي، ويلوح البر فارًّا، ويبصر الربان المدرب جبل لوكات من بعيد، يبصر هذا الجبل الذي يتوارى رأسه ضمن عاصفةٍ من الضباب الجامدة، كما يُبصر جبال أكسرونية التي لا تزال تظهر ذرًى تنطح السماء بعد سحق بالصاعقة أحيانًا.

وقد قال تلماك لمنتور في أثناء هذه الرحلة البحرية: «أجدني الآن قادرًا على تمثل مبادئ الحكم التي فصلتها لي، وقد كانت تبدو لي مثل حلم في البداءة، ثم أخذت تتضح في ذهني وتظهر جلية مقدارًا فمقدارًا، شأن جميع الأشياء التي تظهر قاتمةً غامضةً عند بياض الفجر فيلوح خروجها من خواء فيما بعد، وذلك عندما يُعيد النور إليها أشكالها وألوانها رويدًا رويدًا، وأراني قانعًا إلى الغاية بأن نقطة الحكم الجوهرية هي حسن التمييز بين مختلف الأذهان وصولًا إلى اختيار كل واحد وفق مواهبه، ولكن بقي علي أن أعرف كيف تمكن معرفة الرجال.»

منتور: «لا بُدَّ من دراسة الرجال لمعرفتهم، ولا بد لمعرفتهم من ملاحظتهم كثيرًا ومعاملتهم، أي يجب على الملوك أن يحادثوا رعاياهم، وأن يحملوهم على الكلام، وأن يستشيروهم، وأن يختبروهم في الخدم الصغيرة وجعلهم يقدمون حسابًا عنها حتى يعرفوا استعدادهم للقيام بالمناصب العليا، وكيف استطعت، يا تلماك العزيز، أن تعرف الخيل في إيتاك؟ اتفق لك ذلك بمشاهدتها، وملاحظة عيوبها ومحاسنها، مع رجال عارفين، فسر على هذا النحو، وتكلم عن صفات الناس الحسنة والسيئة مع رجال آخرين من الحكماء وأهل الفضل الذين درسوا أخلاقهم زمنًا طويلًا، تتعلم بالتدريج كيف كُونوا وما ينتظر منهم، ومن علمك معرفة المجيدين من الشعراء وأرديائهم؟ لقد تعلمت هذا من كثرة المطالعة ومن إنعام النظر فيهم مع من اتصفوا بتذوق الشعر، وممن اكتسبت قوة التمييز في أمر الموسيقا؟ لقد نلت ذلك بسلوكك عين السبيل في ملاحظة الموسيقيين الكثيرين، وكيف يرجى حسن الحكم في الناس إذا لم يُعرفوا؟ وكيف يعرفون إذا لم يُعاشروا؟ لا تعني معاشرتهم أن يجتمع بهم في جمع حيث يدور البحث في الأمور الخلية المعدة ببراعة فقط، أي أن الأمر يقضي بالاجتماع إليهم على انفراد وأن يستخرج من أفئدتهم جميع ما تنطوي عليه من الوسائل الخفية، وأن يختبروا من جميع النواحي وأن يستبروا لكشف مبادئهم، ويقضي حسن الحكم في الرجال بأن يبدأ بمعرفة ما يجب أن يكونوا، وبأن يعرف من هو صادق كفء، وذلك ليماز ممن ليس كذلك.

أجل، إنه يحدَّث عن الفضيلة والمزية بلا انقطاع، وذلك من غير أن يعرف بالضبط ما المزية ولا الفضيلة؛ وذلك لأنهما من الألفاظ البراقة والتعابير المبهمة لدى معظم الناس الذين يباهون بالكلام حولهما في كل ساعة، ويقضي الواجب بحيازة مبادئ ثابتة عن العدل والعقل والفضل كيما يعرف أصحاب العقل والفضيلة، ويقضي الواجب بمعرفة مبادئ الحكومة الصالحة الرشيدة كيما يعرف أصحاب هذه المبادئ والرجال الذين يبتعدون عنها بزائف الحيل، أي أنه لا بُدَّ من حيازة مقياس ثابت لقياس عدة أجرام، وأنه لا بُدَّ للحكم من حيازة مبادئ ثابتة تُرد إليها جميع أحكامنا، ويقضي الواجب بأن تعرف غاية الحياة الإنسانية معرفةً دقيقة وما الغرض الذي يقترح في الحكم بين الناس، ويتجلى هذا الغرض الجوهري الوحيد في عدم انتحال السلطان والعظمة لشخص ولي الأمر ما دام هذا الانتحال القائم على الطموح لا يشبع غير الزهو الطاغي، وإنما يجب على ولي الأمر أن يضحي، فيما لا حد له من مشاق الحكومة، بميوله حتى يجعل الناس سعداء صالحين، فإذا لم يقع هذا تحسس ولي الأمر في الظلام وسار في جميع حياته على غير هدى، شأن

المركب الذي يسير بلا ربان في عرض البحر ومن غير نظر إلى النجوم ومع جهل لجميع الشواطئ المجاورة، شأن هذا المركب الذي لا بُدَّ من غرقه.

ومما يحدث، غالبًا، ألا يعرف الأمراء ما يجب أن يُبحث عنه في الرجال عن جهل في الأمراء لأمر الفضيلة الحقيقية، فتلوح الفضيلة الحقيقية لهؤلاء الأمراء صارمةً قائمةً بذاتها فتخيفهم وتغضبهم، وتحولهم إلى حيث يلاقون مَلَقًا، فإذا ما وقع هذا عادوا لا يجدون إخلاصًا ولا فضلًا، وهنالك يسعون وراء طيف المجد الباطل الذي يجعلهم غير أهل للمجد الصحيح، ولسرعان ما يعتقدون، عن عادة، عدم وجود فضيلة حقيقية في الدنيا؛ وذلك لأن الأبرار يعرفون الأشرار جيدًا، ولأن الأشرار لا يعرفون الأبرار مطلقًا، ولا يستطيعون أن يروا وجود أبرارٍ أبدًا، وأمراء مثل هؤلاء لا يعرفون غير الحذر من جميع الناس على السواء، ويتوارون، وينعزلون، وتأكلهم الغيرة حول أتفه الأمور، ويخافون الناس، ويحملون الناس على الخوف منهم، ويفرون من النور، ولا يجرءون أن يظهروا على سجيتهم، ومع أنهم لا يريدون أن يعرفوا مطلقًا فإنهم لا يوفقون لهذا، ووجه الأمر أن فضول رعاياهم الماكر ينفذ كل شيء، ويحزر كل شيء، ولا يعرف هؤلاء الأمراء أحدًا، أي أن ذوي المآرب من الرجال الذين يلازمونهم يفتنون بأن يروهم بعيدي المنال، ومن يمتنع من الملوك على الناس يمتنع على الحقيقة أيضًا، ويسود بتقارير شائنة، ويبعد منه كل ما يمكن أن يفتح عينيه ويقضي هذا الفريق من الملوك حياته ضمن عظمة جافية نافرة، أو إنه لا ينفك يخشى أن يخدع فيخدع دائمًا لا محالة ويستحق أن يخدع، وإذا ما اقتصر على الحديث إلى عدد قليل من الناس اقتبست جميع أهوائهم وجميع مبتسراتهم؛ ولذا فللصالحين، أيضًا، نقائصهم وميولهم إلى أناسٍ دون آخرين، وهذا فضلًا عن أن الناس يكونون تحت رحمة الواشين الذين هم قوم أدنياء نذلاء يغتذون بالسم ويسمِّمون أطهر الأمور ويجعلون من الحبة قبة ويفضلون اختلاق الشر على الكف عن الضرر، ويعبثون بحذر الأمير الضعيف المتريب وفضوله الكريه سعيًا وراء مآربهم.

ولذا فاعرف الرجال، يا تلماك العزيز، اعرفهم، وأنعم النظر فيهم، واجعل بعضهم يتكلم عن بعض، واختبرهم رويدًا رويدًا، ولا تستسلم إلى أحد منهم، وانتفع بتجار بك حينما تخدع في أحكامك؛ وذلك لأنك تخدع في بعض الأحيان، ولأن الأشرار من بعد الغور بحيث لا يباغتهم الأبرار عند تنكرهم، واعلم بهذا ألا تبادر إلى الحكم في أحد، خيرًا كان هذا الحكم أو شرًّا ما انطوى هذا وذاك على خطر كبير، وهكذا فإن لك في سابق زلاتك فائدةً كثيرة، وإذا ما وجدت في الرجل مواهب وفضيلةً فاستخدمه مطمئنًّا عارفًا أن الصالحين من الناس يودون لو يُشعر بإنصافهم، وأنهم يفضلون التقدير والثقة على الكنوز، ولكن لا

تفسدهم بمنحهم سلطانًا لا حد له، فالفاضل يبقى فاضلًا ما قيد سلطانه، ولا يظل هكذا إذا ما جعله مولاه مسيطرًا غنيًّا إلى الغاية، ومن أحبه الآلهة فوجد في جميع المملكة من الأصدقاء الصادقين اثنين أو ثلاثة، وكان هؤلاء الأصدقاء حكماء طيبين ثابتين، لم يعتم أن يجد بفضلهم رجالًا آخرين يشابهونهم في ملء المناصب الدنيا، ومن يثق بأهل الصلاح ويعتمد عليهم يتعلم ما لا يستطيع أن يميز بنفسه في الموضوعات الأخرى.»

تلماك: «ولكن هل يجب استخدام الأشرار إذا كانوا ماهرين كما سمعت كثيرًا؟»

منتور: «تقضي الضرورة باستخدامهم غالبًا، وذلك أنه يوجد في الأمة القلقة المضطربة، غالبًا، أناس جائرون محتالون قابضون على قسطٍ من السلطان، وأنهم حائزون وظائف مهمةً لا يمكن نزعها منهم، وأنهم نالوا ثقة بعض الأقوياء الذين تقضي الضرورة بمداراتهم، وأنه لا بد من مدالاة هؤلاء الفجرة لما يُخشَون ولما يستطيعون أن يضعضعوا كل شيء، وأنه يجب الانتفاع بهم حينًا من الزمن، ولكن مع العزم على إهمالهم مقدارًا فمقدارًا، وحذار أن تجعل منهم محل اعتمادك وموضع نجواك لما مردوا على سوء الاستعمال ولما يستطيعون أن يُمسكوك، مُرغمًا، بما أسررت إليهم، فبذلك تقيد بسلسلة يعد قطعها أصعب من قطع جميع السلاسل الحديدية، وانتفع بهم في المحادثات العابرة، وأحسن معاملتهم، واحملهم على الإخلاص لك حتى بأهوائهم، وهذا ما يمكنك أن تحوزهم به، وإياك أن تشركهم في مشاوراتك السرية، واجعل لك في كل وقت نابضًا تُحركهم به كما تشاء، ولا تُعطهم مفتاح قلبك وشئونك مطلقًا، ومتى هدأت دولتك وانتظمت أمورها وقام بإدارتها من تطمئن إليهم من الحكماء والنزهاء أهمل الأشرار، الذين اضطررت إلى استخدامهم، شيئًا فشيئًا، وهنالك لا ينبغي لك أن تكف عن حسن معاملتهم لما لا يجوز الكنود حتى حيال الأشرار، وهم إذا ما أحسنت معاملتهم وجبت محاولة تحويلهم إلى صالحين، ومن الواجب أن يُغضَى عن بعض نقائصهم التي تغفر للبشر، ومع ذلك فإنه يجب رفع شأن السلطة بالتدريج والقضاء على الشرور التي يأتونها جهرًا، وحاصل القول أن من السوء أن يقوم الأشرار بالخير، وعلى ما يظهر هذا السوء أمرًا لا مفر منه غالبًا فإنه يجب أن يذهب إلى إزالته بالتدريج، ولا مراء في أن الأمير الحكيم الذي لا يبغي غير العدل والنظام، يستغنى، مع الزمن، عن الرجال الفاسدين المخادعين، وأنه يجد من ذوي الصلاح من يتصفون بالبراعة الكافية، وليس بكافٍ أن يوجد في الأمة رعايا صالحون، بل يجب أن يُنشأ رجال جدد منهم.»

تلماك: «هذه ورطة كبيرة لا ريب.»

منتور: «كلا، إن ما تبذل من جهد في البحث عن ذوي البراعة والفضيلة بين الناس لترقيتهم يؤدي إلى تحريك أصحاب المواهب والبسالة، وإلى بذل الجهود من قبل كل واحد، وما أكثر من يذبلون في البطالة القاتمة فيغدون من العظماء إذا ما حفزهم التنافس والأمل في النجاح إلى العمل! وما أكثر من يحاولون الارتقاء بالإجرام بعد أن عجزوا عن الترقي بالفضيلة عن بؤس وقصر باع! وما أكثر من يكونون أنفسهم بأنفسهم إذا ما قصرت الجوائز والمراتب على أصحاب الفضيلة والنبوغ! وما أكثر من تكوِّن من هؤلاء بترقيتهم درجةً درجةً فيما بين أدنى الخِدَم وأعلاها! وسوف تختبر المواهب، وسوف تشعر باتساع الذهن وصدق الفضيلة، وسوف يبلغ الرجال أعلى المناصب بعد أن يدربوا على أدناها تحت نظرك، وسوف ترقبهم مدى حياتهم درجةً بعد درجة، وسوف تحكم في أمرهم بأعمالهم، لا بأقوالهم.»

وبينا كان منتور يبرهن هكذا أبصرا مركبًا فياسيًّا كان قد رسا مؤقتًا في جزيرة صغيرة مهجورة بائرة محاطة بصخور هائلة، وتهدأ الرياح في الوقت نفسه، ويلوح النسيم العليل ممسكًا أنفاسه، ويصير جميع البحر أملس كالمرآة، وتعود الشُّرُع الخافقة غير قادرة على تحريك المركب، ولا تجدي جهود الجداف التعبين نفعًا، وتقضي الضرورة بالنزول إلى هذه الجزيرة التي هي صخرة أكثر من كونها أرضًا صالحة لسكنى الناس، وما كان النزول إلى هذه الجزيرة ليمكن في وقت آخر من غير خطر كبير.

ولم يكن الفياسيون الذين ينتظرون الريح أقل حرصًا من السلنتيين على مواصلة السير بحرًا، ويتقدم تلماك نحوهم على هذه الشواطئ الوعرة، ولم يلبث أن سأل أول من لقي عن مصادفته ملك إيتاك، أوليس، في منزل الملك ألسينوس.

ومن غريب الاتفاق أن كان الذي خاطب غير فياسيٍّ، أي كان غريبًا مجهول الأمر مع جلال هيئة، ولكن مع كآبةٍ وضنًى، وقد كان يظهر تائه الفكر، فلم يكد يسمع سؤال تلماك في البداءة، ثم أجابه بقوله: «إنك لم تخطئ، فقد قُبِل أوليس في منزل الملك ألسينوس حيث يخشى جوبيتر وحيث يُلقى قِرًى، بيد أنه عاد لا يكون هناك، ولا يجدي البحث عنه هناك نفعًا، وقد سافر راجعًا إلى إيتاك حيث يستطيع تحية آلهة المنزل إذا ما سمح الآلهة، الذين سكن ثائرهم، بذلك.»

ولم يكد هذا الغريب ينطق بهذه الكلمة مكتئبًا حتى أوغل في غابة صغيرة كثيفة قائمة فوق صخرة وصار ينظر إلى البحر حزينًا هاربًا من الناس الذين رأى، أسفًا على عدم إمكان سفره، وكان تلماك يحدق إليه، وكان كلما حدق إليه اضطرب وحار، قال تلماك

لمنتور: «أجابني هذا الغريب جواب رجل لا يكاد يسمع ما يقال له، جواب رجل بلغ غاية الغم، إنني أتوجع للبائسين منذ غدوت بائسًا، ويهفو فؤادي نحو هذا الرجل من غير أن أعرف السبب، وقد أساء قبولي، ولم يكد يتفضل بالسماع لي والجواب عن سؤالي، ومع ذلك فإنني لا أنقطع عن رجائي أن تنتهي مصائبه.»

منتور (مبتسمًا): «هنا يتجلى نفع رزايا الحياة، فالبلايا تجعل الأمراء معتدلين يتأثرون بآلام الآخرين، ولولا أنهم يذوقون سم الترف العذب لاعتقدوا أنهم من الآلهة، وهم يودون لو تسوى الجبال إرضاءً لهم، وهم لا يبالون بالناس، ويريدون أن يستهزئوا بالطبيعة كلها، وإذا ما سمعوا كلامًا عن الألم لم يدروا ما الألم، ويعدون الألم حلمًا، ولم يروا قط ما بين الخير والشر من بونٍ، والبؤس وحده هو الذي يستطيع أن ينعم عليهم بالرأفة وأن يحول قلوبهم القاسية كالصخر إلى قلوب إنسانية، وهنالك يشعرون بأنهم أناس وبأن عليهم أن يداروا الآخرين الذين هم بشر مثلهم، وإذا كان الغريب يثير فيك هذه الرحمة الوافرة لأنه تائه مثلك على هذا الشاطئ فما أكثر ما أنت ملزم به من رحمة حيال أهل إيتاك عندما تراهم يألمون ذات يوم، هؤلاء الأهل الذين ائتمنك الآلهة عليهم كما يؤتمن الراعي على الماشية، هؤلاء الأهل الذين قد يصبحون تعساء بفعل طموحك أو بذخك أو تهورك؛ وذلك لأن الرعايا لا يألمون إلا بزَلَّات الملوك، فعلى الملوك أن يسهروا منعًا لألم الرعايا.»

وبينما كان منتور يتكلم هكذا كان تلماك غارقًا في الهم والغم، ثم خاطبه بقوله الممزوج وَجْدًا: «إذا كانت جميع هذه الأمور صحيحة كانت حال الملك حال بؤس، فالملك عبدُ جميع من يظهر قائدًا لهم، والملك قد وجد من أجلهم، وهو مدين لهم بكليته، وهو ملزم بجميع حاجاتهم، وهو تابع لجميع الرعية، ولكل واحد منها على انفراد، وهو مطالب بمراعاة ضعفهم وتقويمه عن كثب، ويجعلهم حكماء سعداء، وليس السلطان، الذي يلوح أنه حائز له، ملكًا له، ولا يستطيع أن يصنع شيئًا في سبيل مجد نفسه، ولا من أجل لذته، ولا يعدو سلطانه سلطان القوانين، ويجب عليه أن يخضع لهذه القوانين، وإن شئت فقل: إنه ليس سوى حامٍ للقوانين وصولًا إلى سيطرتها، ويجب عليه أن يسهر على حفظها وأن يعمل على وقايتها، ويعد أقل من في مملكته حريةً وراحةً، ويحسب عبدًا يضحي براحته وحريته في سبيل الحرية العامة وسعادة الجميع.»

منتور: «أجل، إن الملك ليس ملكًا إلا ليعنى برعيته كما يعنى الراعي بقطيعه، أو كما يعنى الأب بأسرته، ولكن أتجد، يا تلماك العزيز، أنه يكون شقيًّا بخير يصنعه نحو

كثير من الناس؟ إنه يصلح الأشرار بمجازاتهم، ويشجع الأبرار بمكافأتهم، ويمثل الآلهة بهدايته الجنس البشري إلى الفضيلة، أو لا ينال مجدًا كافيًا بحراسته القوانين؟ ليس المجد القائم على جعله نفسه فوق القوانين غير مجدٍ زائفٍ يستحق المقت والازدراء، وإذا كان الملك خبيثًا لم يستطع أن يكون غير شقي، وذلك لعجزه عن التماس أية راحة في أهوائه وزهوه، وإذا كان الملك صالحًا ذاق أنقى اللذات وأقومها بعمله في حقل الفضيلة وانتظاره من الآلهة مكافأةً خالدة.»

ويمازج تلماك ألم باطني فيلوح أنه غير مدرك لهذه المبادئ، وإن أشبع منها مبشرًا الآخرين بها، وذلك أن مزاجًا قاتمًا منحه، خلافًا لمشاعره الحقيقية، روح تباينٍ وتدقيقٍ يرفض به الحقائق التي فصلها منتور، وذلك أن تلماك عارض هذه البراهين بكنود الناس، قال تلماك: «ماذا؟! أعاني كثيرًا من المتاعب كيما يحبني الناس الذين قد لا يحبونني مطلقًا، وكيما أصنع الخير نحو الأشرار الذين يتخذون إحساني وسيلةً لإيذائي!»

منتور (صابرًا): «يجب أن يستند إلى كنود الناس، وألا يعدل عن صنع الخير لهم، ويجب أن يخدموا عن حب للآلهة الذين يأمرون به أكثر من حب لهم، ولا يضيع الخير الذي يصنع مطلقًا، وإذا كان الناس ينسونه ذكره الآلهة وكافأوا فاعله، ثم إذا كان الجمهور كنودًا وجد من الفضلاء من يتأثرون بفضيلتك، ومع أن الجمهور متقلب تابع لهواه فإنه يقف موقفًا عادلًا نحو الفضيلة عاجلًا أو آجلًا.

ولكن أتريد أن تحول دون الكنود في الناس؟ لا تحصر همك في جعل الناس أقوياء أغنياء مرهوبين بالسلاح سعداء باللذات، فهم يفسدون بهذا المجد وهذا اليسر وهذه النعم، وهم يصبحون بهذا أشد شرًّا وأعظم كنودًا، وهذا يعني تقديم هدية مشئومة إليهم، أي تقديم سم في الدسم، وإنما ابذل جهدك في تقويم أخلاقهم وتلقينهم مبادئ العدل والإخلاص ومخافة الآلهة والرأفة والوفاء والاعتدال والخلو من الغرض، وذلك أنك إذا ما جعلتهم صالحين حُلْت دون كنودهم، ومنحتهم الفضيلة التي هي خير حقيقي، وإذا كانت الفضيلة متينةً ارتبطوا فيمن أنعم عليهم بها، وهكذا فإنك، حين تنعم عليهم بالخير الحقيقي، تكون قد أحسنت لنفسك وعدت لا تخشى كنودهم، وهل يعجب من كنود الناس نحو الأمراء الذين لم يمرنوهم على غير الجور والطمع الجامح حيال جيرانهم والقسوة والخيلاء وسوء النية؟ لا ينبغي للأمير أن ينتظر منهم غير ما علمهم أن يعملوه، وهو إذا ما فعل العكس، فجد بمثاله وسلطانه ليجعلهم صالحين، اقتطف ثمرة عمله في فضيلتهم أو وجد في فضيلته وفي صداقة الآلهة، على الأقل، ما يعزيه عن خيبة آماله.»

ولم يكد منتور يتم هذه الكلمة حتى أهرع تلماك إلى فياسي المركب الذي وقف عند الشاطئ، وتوجه إلى شائب بينهم ليسأله عن مأتاه ومرده وعن مصادفته أوليس، فقال له هذا الشيخ: «إننا أتينا من جزيرتنا التي يملكها الفياسيون، ونحن ذاهبون للبحث عن سلع من إيبرية، وقد مر أوليس من وطننا كما قيل لك، بيد أنه غادره.»

تلماك (معقبًا)**:** «ومن هو ذاك الرجل البالغ البؤس الذي يبحث عن الأماكن المتروكة منتظرًا سفر مركبكم؟»

الشائب: «هو غريب نجهل هويته، ولكن اسمه كليومن على ما يقال، وقد ولد في أفروجية، وقد أنبأ هاتف الغيب أمه قبل ولادته بأنه سيكون ملكًا على ألا يبقى في وطنه مطلقًا، وأنه إذا ما بقي فيه أصاب الآلهة أهل أفروجية بوباءٍ شديدٍ عن غضبٍ، فلما ولد سلمه أبواه إلى ملاحين أتوا به إلى جزيرة لسبوس، وقد أرضع فيها سرًّا على نفقة وطنه الذي قضت مصلحته بأن يكون بعيدًا منه، ولسرعان ما صار كبيرًا عصلبيًّا لطيفًا ماهرًا في جميع التمرينات البدنية، وكذلك زاول العلوم والفنون الجميلة بذوقٍ فائقٍ ونبوغ بالغ، ولكنه لم يُطَق في أي بلد كان، فقد اشتهر أمر تلك النبوءة عنه، ولم يلبث أن عرف حيثما ذهب، وقد خشي الملوك أن ينزع تيجانهم، وهكذا ما فتئ منذ صباه يكون تائهًا لا يجد في العالم مكانًا يباح له الوقوف فيه، أجل، إنه مر على أمم كثيرة البعد من أمته، ولكنه كان لا يصل إلى مدينة حتى تعرف ولادته وما أخبر هاتف الغيب عنه، ومن العبث أن كان يحاول في كل مكان إخفاء نفسه واختيار طراز غامض من الحياة، فيروى أن ما اتصف به من مواهب كان يسطع على الرغم منه دائمًا سواء أفي الحرب أم في أعمال الذهن أم في أهم الأمور، أي أنه يظهر في كل بلد من الأحوال المفاجئة دائمًا ما يساق إليه ويؤدي إلى تعريف الجمهور به.

ومزيته سبب بؤسه، فهي التي جعلته مرهوبًا، وأوجبت خروجه من البلدان التي يريد أن يسكنها، ويقوم نصيبه على تقديره وحبه والإعجاب به في كل مكان، ولكن مع إخراجه من كل أرض معروفة، وعاد لا يكون شابًّا، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يجد ساحلًا في آسية أو بلاد اليونان أريد تركه يعيش فيه مستريحًا بعض الاستراحة، ويلوح بلا طموح، ولا يبحث عن ثراء، وكان يتمتع بسعادة عظيمة لولا أن هاتف الغيب وعده بالملك، ولم يبقَ له أمل في الرجوع إلى وطنه، وذلك لعلمه أنه لا يستطيع أن يحمل غير المآتم والدموع إلى جميع الأسر، حتى إن المملكة التي يؤذَى من أجلها تظهر له غير مبتغاة، وهو يسعى وراءها على الرغم منه، مارًّا من مملكة إلى مملكة، وذلك عن قدر قاتم، ويبدو

أنها تفر أمامه عابثةً بهذا التعس حتى مشيبه، ويا لهذه الهدية المشئومة التي يلوح بها الآلهة فتنغص عليه أجمل أيامه ولا تورثه غير آلام في عمر لا ينشد الإنسان العاجز فيه سوى الراحة! ويقول: إنه ذاهب للبحث حول تراكية عن شعب متوحش خالٍ من القوانين، فيجمعه ويهذبه ويحكم فيه بضع سنين، وبهذا تكون النبوءة قد تحققت، ولا يرى فيه ما يخشى في أكثر الممالك ازدهارًا، وهنالك يرجو أن ينزوي في قرية بكارية حيث يزاول الزراعة التي يولع بها كثيرًا، وهو رجل حكيم معتدل يخاف الآلهة، ويعرف الناس، ويعرف كيف يعيش بينهم، من غير اعتبار لهم، وهذا ما يقوله ذاك الغريب الذي سألتني عن أنبائه.»

وكان تلماك، في أثناء هذا الحديث، يكثر من النظر إلى البحر الذي أخذ يموج.

وكانت الريح تثير الأمواج التي تلطم الصخر مزبدةً، وهنالك يقول الشائب لتلماك: «يجب أن أذهب، فلا يستطيع رفقائي أن ينتظروني.»

قال هذه الكلمة، وركض إلى الشاطئ، وتركب السفينة، ولا يسمع غير صرخات مختلطة على الشاطئ ناشئة عن حماسة الملاحين الذين عِيلَ صبرهم انتظارًا.

وكان ذاك الغريب، المسمى كليومن، قد هام على وجهه في وسط الجزيرة حينًا من الزمن صاعدًا في ذرى الصخر، ناظرًا من هناك إلى مساوف البحر الواسعة مكتئبًا إلى الغاية، ولم يقصر تلماك طرفه عنه قط، ولم ينفك يلاحظ خطواته، وقد رق قلبه لهذا الرجل الفاضل التائه التعس الذي أعد لجليل الأعمال وغدا ألعوبة مصير قاس بعيدًا من وطنه، وقد قال في نفسه: «قد أعود إلى إيتاك على الأقل، ولكن كليومن لا يستطيع أن يرجع إلى أفروجية مطلقًا»، وما كان من مثال هذا الرجل الذي هو أشقى من تلماك خفف ألم تلماك.

ولما أبصر هذا الرجل تأهب مركبه نزل من تلك الصخور الوعرة بسرعة ورشاقة كالتي يبديها أبولون في غاب ليكية عاقدًا شعره الأشقر جائلًا في المهاوي ليصمي الأيائل والرتتة بسهامه، ويبلغ هذا الغريب ذلك المركب الذي يشق عباب البحر الأجاج، ويبتعد عن البر، وهنالك يعتري قلب تلماك ألم خفي، ويغتم من غير أن يعرف السبب، وتفيض عيناه دموعًا، ولا شيء عنده أحلى من البكاء.

ويشاهد على الشاطئ، في الوقت نفسه، جميع ملَّاحي سلنتة ضاجعين على العشب نائمين نومًا عميقًا، وقد كانوا تعبين موعوكين، وكان النوم العذب قد تسرب في أعضائهم، وكان جميع أفيون النوم قد انساب إليهم في رائعة النهار بقدرة منرفا، وحار تلماك حينما رأى هذا السبات الشامل للسلنتيين على حين ظهر الفياسيون يقظين نشيطين في الاستفادة

من الريح الملائمة، بيد أنه كان أكثر انهماكًا في النظر إلى المركب الفياسي الذي أوشك أن يتوارى بين الأمواج مما في السير نحو السلنتيين لإيقاظهم، ومما أوجبه دهشه واضطرابه الخفي تعلق عينيه بذاك المركب الذي ذهب وعاد لا يرى منه غير أشرعته التي تبدو بيضًا بين الماء اللازوردي، ولا يستمع حتى لمنتور الذي يكلمه ذاهلًا عن نفسه تمامًا، سابحًا في وجد مشابه لوجد المنادس عندما يقبضن على السهم في عيد باخوس فتدوي ضفاف الإيبر وجبال رودوب وإسمار بصيحاتهن الرُّعْن.

ثم يشفى بعض الشيء من هذا الوجد، وتسكب عيناه دموعًا، ويقول له منتور: «لا يدهشني أن أراك تبكي يا تلماك العزيز، وذلك بسبب ألمك الذي لا تعرفه ولا يجهله منتور؛ وذلك لأن الطبيعة تتكلم وتشعر بنفسها، والطبيعة تلين قلبك، فالغريب الذي أوجب اضطرابك هو أوليس العظيم، وما قص الشائب الفياسي عليك من نبأٍ عنه باسم كليومن ليس سوى تلفيقٍ لكتم رجوع أبيك إلى مملكته لا ريب، وأبوك ماضٍ إلى إيتاك قدمًا، وقد دنا من الميناء، وأخيرًا يعود إلى تلك الأماكن التي حن إليها منذ زمن طويل، أجل، إنك رأيته بعينيك كما نبئت به فيما مضى، ولكن من غير أن تعرفه، وستراه عما قريب وستعرفه ويعرفك، وأما الآن فلا يسمح الآلهة بأن يعرف كل منكما الآخر خارج إيتاك، ولم يكن قلبه أقل اهتزازًا من قلبك، وقد بلغ من الحكمة ما لا يكشف معه عن حقيقة أمره في مكان يمكن أن يكون فيه عرضةً لضروب الخيانة والإهانة من قبل عشاق بنلوب الطاغين، ألا إن أباك أوليس أحكم الناس كلهم، ويشابه قلبه بئرًا عميقةً فلا يمكن استبار سره فيها، ألا إنه يحب الحق، ولا يقول شيئًا ناقضًا للحق، وهو إذا ما فعل فعن ضرورة، ألا إن الحكيم يغلق شفتيه كالخاتم ولا ينطق بما لا يجدي نفعًا، ما أكثر اضطرابه حينما كلمك! ما أكثر ما كابد لكيلا يكشف عن نفسه! ما أكثر توجعه عندما رآك! وهذا ما جعله كئيبًا كامدًا.»

ويرق تلماك ويخفق قلبه في أثناء هذا الكلام، ولا يستطيع منع عينيه من سكب سيل من الدموع، وتحول زفراته دون جوابه وقتًا طويلًا، ثم قال صارخًا: «آه! يا منتور العزيز، لقد كنت أشعر في هذا الغريب بما يجذبني إليه وما يهز جميع أحشائي، ولكن لِمَ لم تقل لي، قبل انصرافه، إنه أوليس ما دمت قد عرفته؟ ولم تركته يذهب من غير أن تتحدث إليه وتظهر معرفتك له؟ أأبقى شقيًّا دائمًا؟ أو يريد الآلهة الساخطون أن يمسكوني كما يمسكون تنتال الظمآن الذي يعبث به سراب فار من شفتيه؟ أي أوليس! أي أوليس! هل أفلتَّ مني إلى الأبد؟ ربما لا أراه مطلقًا! قد يوقعه عشاق بنلوب في الأشراك التي كانوا يعدونها لي! ليتني أتبعه فأموت معه على الأقل! أي أوليس! أي أوليس! ليت العاصفة لا

تلقيك على صخرة مرةً أخرى! أخشى تصاريف الدهر الخئون! أرتجف خوفًا من وصولك إلى إيتاك ملاقيًا مثل مصير أغا ممنون في ميسين، ولكن لم منعتني من سعادتي يا منتور العزيز؟ لو أردت لكنت قد عانقته، ولكنت معه في ميناء إيتاك، ولقاتلنا لنقهر جميع أعدائنا.»

منتور (متبسمًا): «ترى، يا تلماك العزيز، كيف جُعل الناس، وأراك شديد الحزن لأنك رأيت أباك من غير أن تعرفه، وماذا كنت تعطي أمس لتضمن عدم موته؟ والآن أنت مطمئن إلى حياته بعينيك، وأنت في غم من هذا الاطمئنان مع أنه كان يجب أن يملأك سرورًا! وهكذا فإن قلب الناس المريض لا يَعُد ذا بال كل ما كان يرغب فيه بعد أن يناله، وإنه جاد في تعذيب نفسه حيال كل ما لم ينله بعد، وليس إلقاء الآلهة إياك في دور الانتظار على هذا الوجه إلا لتدريبك على الصبر، وهل تحسب أنك خسرت هذا الوقت؟ فاعلم أن ما وقع أنفع ما تجد في حياتك؛ وذلك لأن هذه المشاق تفيدك في تعود ألزم الفضائل لمن يقومون بالقيادة، ولا بد من الصبر لمن يكون سيد نفسه وسيد الآخرين، وما عدم الصبر، الذي يلوح أنه قوة نفس وشدة بأس، إلا ضعف وعجز عن احتمال الألم، وما الذي لا يستطيع الانتظار والصبر إلا كمن لا يعرف أن يكتم السر، ويُعْوِز هذا وذاك ما تضبط به النفس من الحزم، شأن الرجل الذي يعدو في عربة، والذي ليس من قوة اليد ما يقف حُصُنه الوثابة عند الضرورة، فلا يرد لهذه الجياد جماح، وتتدهور، ويتحطم الرجل الضعيف، الذي أفلت زمامها منه حين سقوطه، وهكذا فإن الرجل الفاقد الصبر يُجر، بميوله الجامحة الجافية، إلى هُوة المصائب، وهو كلما عظم سلطانه كان عدم صبره شؤمًا عليه، وهو لا ينتظر مطلقًا، وهو لا يعطي نفسه من الوقت الكافي ما يدبر معه الأمور بحكمة، وهو يقتسر جميع الأمور قضاءً لمراده، وهو يقطع الغصون ليقتطف ثمرةً قبل نضجها، وهو يفضل كسر الأبواب على انتظاره فتحها، وهو يريد الحصد عندما يبذر الحاصد العاقل حبه، أي أن كل ما يصنع على عجل، وفي غير وقته، يكون سيئ الصنع ولا يمكن أن يدوم أكثر من دوام ميوله الطائشة، وهذه هي الخطط الرُّعْن لدى الرجل الذي يعتقد قدرته على كل شيء والذي يسير وميوله الهُوج مسيئًا استعمال سلطته، ويريد الآلهة أن يعلموك الصبر، يا تلماك العزيز، وأن يدربوك عليه، فيلوحون أنهم يعبثون بك ضمن حياةٍ تكون فيها حائرًا دائمًا، وما ترجو من متاعٍ يلوح لك ثم يفر مثل حلم خفيف يزول باليقظة، وذلك لتعلم أن ما تعتقد إمساكك إياه من أشياء لا يلبث أن يفلت منك، وما كان أكثر دروس أوليس حكمةً ليفيدك مثل غيابه الطويل، ومثل المشاق التي تعانى في البحث عنه.»

ثم أراد منتور أن يبتلي صبر تلماك لآخر مرة بما هو أشد من ذلك، وذلك أنه بينا كان هذا الشاب ذاهبًا ليلحف على الملاحين بحرارة أن يبادروا إلى الرحيل وقفه منتور من فوره وأوجب عليه أن يقرب لمنرفا قربانًا عظيمًا على الشاطئ، ففعل تلماك ما أراد منتور مع الانقياد، ويُنصب مذبحان من كلأٍ، ويدخن اللُّبَان، ويسيل دم الضحايا، ويخرج تلماك زفرات لطيفةً نحو السماء، ويعرف ما حبته به الآلهة من حماية كبيرة.

ولم يكد تقريب القربان يتم حتى تبع منتور سالكين دروبًا قاتمةً في الغاب الصغيرة المجاورة، فهناك أبصر من فوره أن وجه صديقه اتخذ شكلًا جديدًا، وذلك أن غضون جبينه زالت كما يزول الظلام حينما يفتح الفجر بأصابعه الوردية أبواب الشرق ويشعل جميع الأفق، وتتحول عيناه المجوفتان العابستان إلى عينين زرقاوين لطيفتين سماويتين مملوءتين لهيبًا ربانيًّا، وتمَّحِي لحيته الرمادية المرسلة، وتبدو لعيني تلماك المبهور ملامح كريمة زاهية ممزوجة بعذوبة وألطاف، ويتنور تلماك بهذا وجهَ امرأةٍ أملس من الزهرة الناعمة التي تفتحت حديثًا على ضوء الشمس، كما يتنور بياض الزنبق بين الورد الناشئ، ويتجلى على هذا الوجه شباب خالد مع جلال طبيعيٍّ بسيط، وتنتشر من ثياب هذه المرأة المتموجة رائحة عنبرية، وتسطع ثيابها بألوان زاهية كالتي ترسمها الشمس عند طلوعها على قباب السماء الدكن وعلى السحب، وتلوح هذه المرأة إلهةً لا تمس الأرض برجليهان بل تجري في الهواء جريًا خفيفًا كما لو كانت طائرًا يشقه بجناحيه، وهي تمسك بيدها القوية سهمًا لامعًا يستطيع أن يزلزل المدن ويهز أشد الأمم بأسًا ويخيف حتى مارس، ويظهر صوتها عذبًا معتدلًا، ولكن مع القوة والفتون، وتكون أقوالها كالسهام النارية التي تنفذ قلب تلماك، وتجعله يشعر بما لا يعبر عنه من عذاب مستعذب، ويبدو على خوذتها طائر أثينة الحزين، ويتلألأ على صدرها مِجَن هائل، فبهذه العلامات يعرف تلماك منرفا.

قال تلماك: «إذن، أنتِ التي تفضلتِ بتسيير ابن أوليس حبًّا لأبيه!»

وقد أراد أن يقول أكثر من هذا، غير أن الصوت أعوزه، ومن العبث أن بذل جهده ليعبر عن أفكاره التي تتدفق بصولة من صميم فؤاده، ولا عجب، فالإلهة الحاضرة تثقله، وكان في ذلك كالرجل الذي يُضغط في منامه فلا يستطيع أن يتنفس، والذي تختلج شفتاه فلا يستطيع أن يخرج صوتًا من بينهما.

ثم نطقت منرفا بالكلمة الآتية: «أنصت لي، يا ابن أوليس، لآخر مرة، واعلم أنني لم أعنَ بتربية إنسانٍ كما عنيت بك، فقد قدتك باليد من خلال غرق كثير ومن خلال بلدان

غريبة وحروب دامية وما يمكن أن يصاب به قلب إنسان من كروب، وقد أثبت لك بتجارب عملية ما يمكن أن يسيطر به من مبادئ صادقة وكاذبة، ولم تكن زلاتك أقل فائدةً لك من مصائبك؛ ولذا فمن ذا الذي يستطيع أن يحكم بحكمة إذا لم يكن قد أَلِمَ فاستفاد من آلامه التي أوقعته فيها زلاته؟

ولقد ملأت البر والبحر بمغامراتك القاتمة كما ملأ أبوك، فاذهب، فأنت الآن أهل للسير على غراره، ولم يبقَ لك غير مسافة قصيرة للوصول إلى إيتاك التي بلغها أبوك في هذه الساعة، وقاتل مع أبيك، وأطعه كأقل واحد من رعيته، وكن في هذا قدوةً للآخرين، وسيزوجك أبوك بأنتيوب، وستكون سعيدًا معها عن طلبٍ للحكمة والفضيلة أكثر مما عن طلب للجمال.

ومتى ملكت فاجعل جميع مجدك وقفًا على تجديد العصر الذهبي، واستمع لجميع الناس، وثق بقليل من الناس، واحترز من الاعتماد على نفسك كثيرًا، واخشَ أن تُخدع، ولكن لا تخش أن تدع الآخرين يعلمون أنك خدعت.

وأحب الرعية، ولا تنسَ أن تكون محبوبًا لديها، ولا بد من الرهبة عند عدم المحبة، ولا ينبغي أن يلجا إليها إلا كرهًا، وذلك كعلاج بالغ الشدة بالغ الخطر.

ولا تنفك تحسب سلفًا نتائج ما تقدِم عليه، وتمثل هول سوء العواقب، واعلم أن الشجاعة الحقيقية تقوم على مواجهة جميع الأخطار، وعلى الاستخفاف بها إذا ما غدت أمرًا لا بد منه، ومن لم يرد أن يراها لم يكن لديه من الشجاعة ما يكفي لاحتمال منظرها، أي أن من يبصرها كلها ويجتنب ما يمكن اجتنابه منها، ومَن يبتلي ما بقي منها غير وجل، يكون الحكيم الهمام الأوحد.

وإياك والتخنث والتبذير، وليكن سر مجدك في البساطة، ولتكن فضائلك وجليل أعمالك زينة شخصك وقصرك، ولتكن حرسًا يحف من حولك، وليتعلم جميع الناس منك مبدأ السعادة الحقيقية، ولا تنسَ أن الملوك لا يملكون من أجل مجدهم الخاص، بل يملكون نفعًا للرعية، وما يفعلوا من خير يَنْمُ جيلًا بعد جيل إلى أبعد الأعقاب، وما يفعلوا من شر يَدُمْ دوام الخير، وما يقع من عهد سيئ يسفر عن كوارث تستمر قرونًا كثيرة.

وليكن هواك أخص ما تحذر، والهوى هو العدو الذي تحمل معك حتى الممات، وهو يتسرب في مجالسك ويخونك إذا ما أصغيت إليه، وبالهوى يضيع أهم الفرص، وهو يؤدي إلى ميولٍ وكراهيَاتٍ صبيانية إجحافًا بأعظم المصالح، وهو يحفز إلى الإقدام على أكبر الأفعال لأتفه الأسباب، وهو يلقِي ظلامًا على جميع المواهب، ويضع من قدر الشجاعة، ويجعل الرجل متلونًا ضعيفًا وغْدًا ثقيلًا، فاحذر هذا العدو.

وخفِ الآلهة يا تلماك، ولتكن هذه المخافة أثمن ما في قلب الإنسان، وبهذه المخافة تأتيك الحكمة والعدل والسلام والسرور والملاذ الخالصة والحرية الحقيقية واليسر اللطيف والمجد بلا شائبة.

أجل، إنني أفارقك يا ابن أوليس ولكن حكمتي لا تفارقك أبدًا، وذلك على أن تشعر، دائمًا، بأنك لا تقدر على شيء بغيرها، وقد حل الوقت الذي تستطيع أن تسير فيه وحدك، ولم أنفصل عنك في فنيقية وسلنتة إلا لتتعود حرمان هذه الحلاوة، شأن الأطفال الذين يُفطمون حينما يأتي الوقت الذي يحرمون فيه اللبن كيما تقدم إليهم الأطعمة الجامدة.»

ولم تكد الإلهة منرفا تتم هذا القول حتى ارتفعت في الهواء محاطةً بسحابة من الذهب واللازورد حيث توارت، ويتأوه تلماك، ويحار، ويذهل، ويركع رافعًا يديه إلى السماء، ثم ذهب لإيقاظ رفقائه، ويسافر مسرعًا، ويصل إلى إيتاك ويلقى أباه عند المخلص أومه.

خلاصة الأوذسة

يعد كتاب «مغامرات تلماك» إيضاحًا للنشيد الرابع من الأوذسة على الخصوص، ومع أن رحلة تلماك في حماسية أوميرس هذه ليست غير حادث ثانوي فإنها موضوع كتاب فنلون، فخلاصة الأوذسة تساعدنا، إذن، على إدراك أمر تلماك.

النشيد الأول: التماس من الموز أن تشدو بمغامرات أوليس في أثناء غيابه

غادر أوليس جزيرة كلبسو بعد حجزه فيها؛ وذلك لأن الآلهة قضوا في اجتماع عقدوه، في غياب عدوه: نبتون، بأن تدعه الحورية يعود إلى إيتاك، هنالك توجهت منرفا، بما يمكن من السرعة، إلى قصر أوليس بإيتاك حيث يبذِّر أموال محميِّها طالبو الزواج ببنلوب الكثيرون المجتمعون.

ويستقبل تلماك بن أوليس، مع الاحترام، تلك الإلهة، المتنكرة في صورة ملك التافيين: منتس، وتجعله يأمل رجوع أبيه قريبًا، وتحمله على دعوة مجلس الشعب حتى يُظهر، في حضور طالبي الزواج أنفسهم ما يقع من نقائص في قصر أبيه، ثم يسافر إلى بيلوس ولكدمونية حيث يقول له نسطور ومنلاس ما يعرفان عن مصير أوليس، وتنصرف الإلهة جاعلةً إياه يشعر بأنه واقع تحت حماية إلهة.

ويتغنى الشاعر الشادي ورفيق مأدبة طالبي الزواج، فميوس، بما لقي الأغارقة من أهوالٍ عند عودتهم، ولكن بنلوب التي دخلت قاعة الولائم رجت من فميوس أن يكف عن الأناشيد المثيرة لمثل هذه الذكريات المؤلمة، ولما انصرفت بنلوب لام تلماك طالبي الزواج على سلوكهم، وأخبرهم بأنه سيأمر باجتماع مجلس الشعب غدًا، ويذهب تلماك إلى غرفته.

النشيد الثاني: مجلس الشعب – سَفَر تلماك

عقد تلماك مجلس الشعب الذي اجتمع لأول مرة منذ سفر أوليس، وتوجع أمامه من سلوك طالبي الزواج الذين يبذرون جميع أموال أبيه والتمس العون من الإيتاكيين وطالبهم بالشفقة.

ويعزو أنتينوس إلى مكر بنلوب هذا الارتباك الذي لا ينتهي إلا باختيارها زوجًا لها أو برجوعها إلى أبيها: إيكاريوس، ويدعو تلماك أعداءه إلى الخروج من القصر، ولكن أريماك يصرح بأنه هو وأصحابه لن يغادروا بيت أوليس.

هنالك ظهر في الجو نسران، فأنبأ العراف هاليتر بملاءمة الطالع لتلماك، بيد أن أريماك سخر من هذا الإنذار، ومن العبث أن طلب تلماك إعطاءه مركبًا وعشرين رفيقًا كيما يذهب إلى بيلوس وإسبارطة ليسأل عن مصير أبيه، فقد رد هذا الطلب وفض الاجتماع.

وتتجلى منرفا في صورة الحكيم منتور، وتشجع تلماك، وتعده بمركب كامل العدة، وبينا كان طالبو الزواج يعدون المأدبة كان تلماك يتأهب على غير علم من أمه، وتختار منرفا جدافًا من الشعب، وتفوز بمركب من نئمون، وتنطلق مع تلماك.

النشيد الثالث: مغامرات في بيلوس

استقبل ملك بيلوس، نسطور، تلماك خير استقبال، وكان نسطور يعد مأدبةً وقربانًا تكريمًا لنبتون، وقص نسطور على تلماك نبأ رجوع الأغارقة من تروادة واغتيال أغاممنون، ولكن من غير أن يعرف شيئًا عن أوليس، ثم أوعز إلى تلماك أن يتوجه إلى منلاس.

وتتجلى منرفا لنسطور وتلماك ليلًا، ويقضي تلماك ليلته في قصر نسطور، فلما حل صباح الغد قُدم قربان لمنرفا في قصر نسطور، وركب تلماك مع بزسترات، الذي هو أصغر أولاد نسطور، عربةً قاصدًا إسبارطة، ويقضيان الليلة الأولى في قصر ملك فرس: ديوكلس، ويصلان إلى إسبارطة في الليلة الثانية.

النشيد الرابع: مغامرات في لكدمونية

وجد المسافران قصر منلاس زاخرًا بحفلة زفاف ابنه وابنته، فلما فرغ من المأدبة أثار الملك ذكرى أوليس بعباراتٍ ودية اهتز بها تلماك، وقد عرفت هيلانة ابن أوليس، فحاولت أن تخفف ألمه بحديثها عن حرب تروادة وفضائل البطل، ويخبر تلماك الملك في الصباح

عن المصائب التي تكدر إيتاك، ويطلعه منلاس على الأخطار التي لقيها بنفسه، ثم قص عليه كيف مر من مصر في أثناء عودته من تروادة فاستشار في جزيرة فاروس العراف الرباني وراعي قطاع نبتون، بروته، الذي أدركه على الرغم من تقمصاته، وكيف أنبأه هذا العراف بخاتمة أجكس بن أويله الذي ابتلعه البحر وخاتمة أغا ممنون الذي اغتالته امرأته كليتمنستر وإجست، وبإقامة أوليس في جزيرة كلبسو.

ويرغب تلماك في الانصراف، وينصحه منلاس بالبقاء عنده، ويضطرب بال طالبي الزواج في إيتاك بسبب سفر تلماك، ويتواطأون على إعداد كمينٍ له يهلك فيه، ويخبر النذير ميدون بنلوب بما وقع، وتألم كل الألم، غير أنها رأت في المنام طيف أختها المرسل إليها من قبل منرفا لتسكين روع الأم اليائسة.

النشيد الخامس: طوف أوليس

توسلت منرفا إلى جوبيتر في مجلس الآلهة، فوافق على إرسال مركور إلى كلبسو كيما تطلق أوليس الذي تمسك في جزيرة أوجيجي، وتألم كلبسو أشد الألم، ولكنها لا تستطيع أن تعصي، وتطلع أوليس على هذا النبأ تعده بتسهيل سفره.

وهكذا صنع أوليس طوفًا بمساعدة الحورية وغادر الجزيرة، وتمضي ثمانية عشر يومًا على إبحاره فيشاهد من بعيد جزيرة شيري الفياسية، ويرسل نبتون عاصفة صائلةً، ويحطم طوف البطل، ويلوذ أوليس بحطام الطوف ويعوم سائرًا مع الأمواج والرياح، ويبلغ شاطئ الفياسيين بفضل آلهة البحر لوكوته وعلى الرغم من غضب نبتون، وهناك يصنع لنفسه فراشًا صغيرًا من غصون الشجر وأوراقه ويلقي عليه أعضاءه الوارمة.

النشيد السادس: وصول أوليس إلى الفياسيين

رأت نوزيكا بنت ملك الفياسيين، ألسينوس، في منامها منرفا التي أشارت عليها بالذهاب إلى النهر حيث تغسل ثيابها، وتنال نوزيكا عربةً من أبيها، وتسير نحو النهر صباحًا، وتلاعب توابعها بعد غسل ملابسها، ويستيقظ أوليس بصراخهن طالبًا الرحمة من الفتاة، وتحضه نوزيكا على الاغتسال وتعطيه طعامًا وثيابًا، ثم تقول له أن يتبع عربتها.

ويبلغ الموكب غابة منرفا المقدسة وقت الغروب، ويقف أوليس هناك، ويلتمس العون من الإلهة.

النشيد السابع: وصول أوليس إلى ألسينوس

انتحلت منرفا صورة فتاةٍ فياسية، وساقت أوليس محاطًا بغمامةٍ كثيفة حتى قصر ألسينوس، ولما بلغ القصر أعجب بفخامته، ووجد أمراء الفياسيين ورؤساءهم حافين من حول الملك والملكة أرته، ويحسن الملك قبوله ويعده بضمان رجوعه إلى وطنه، ويقص أوليس، بعد الطعام، مختصرًا، خبر مغامراته منذ سفره من جزيرة أوجيجي حتى وصوله إلى جزيرة شيري، وتعرف الملكة أن ثيابه ملك نوزيكا، ويذهب أوليس ليستريح.

النشيد الثامن: أوليس والفياسيون

كلَّم ألسينوس الفياسيين المجتمعين في أمر رجوع الغريب إلى وطنه، وأقام وليمةً تكريمًا لأوليس، ويتوجه الجميع بعد الطعام إلى الميدان العام، ويقومون بألعابٍ ويشترك فيها أوليس، ويفوز على جميع الفياسيين، وبينا كان الشاعر الشادي، دمودوكس يتغنى بغرام مارس وفينوس، كان فوج من الفتيات يرقص، وتقدَّم هدايا إلى أوليس، ثم قصد الجميع قصر ألسينوس لحضور مأدبة المساء، ولما فُرغ من الوجبة الثانية تغنى دمودوكس بقصة الحصان الخشبي والاستيلاء على إليون، ولم يستطع أوليس أن يضبط دموعه عند ذكر مآثره، ويُبصر ألسينوس وجْد ضيفه، فيسأله أن يُظهر اسمه ويقص نبأ مغامراته.

النشيد التاسع: أحاديث عند ألسينوس

أخذ أوليس يقص نبأ مغامراته التي استوعبت الأناشيد الثلاثة الآتية.

ويكشف عن اسمه وبلده، ويقص نبأ انصرافه من ترواده ووصوله إلى السكونيين، وتخريب رفقائه للمدينة، وانتقام أهليها بذبحهم اثنين وسبعين منهم، واضطرار أوليس إلى الفرار، وأنه بينا كان يجاوز رأس ماله ردته زوبعة عن طريقه وقذفته في بلد اللوتوفاج، وأنه فر من هذا الشاطئ، ووصل إلى بلد السكلوب مع اثني عشر من أصحابه، وأنه أوغل في غار ابن نبتون: بوليفيم، وأن ستةً من الأغارقة افترسهم هذا السكلوبي، وأن أوليس انتقم منه بقلعه عينه وهو نائم.

ومع أن هذا الغول حُرم النور فقد وضع نفسه عند مدخل الغار حائلًا دون فرار البطل، فهنالك تعلق أوليس وأصحابه ببطون الكباش التي يمسها بوليفيم حين مرورها أمامه لتخرج من الغار، وهكذا نجوا من الموت واستطاعوا العود إلى البحر، ويتعقبهم الغول في أثناء ذلك راشقًا المراكب بصخورٍ.

النشيد العاشر: يول واللستريغون وسرسه

وصل أوليس إلى جزيرة يول، ويسلم الإله إلى البطل قربةً مشتملةً على جميع الرياح، خلا ريح الغرب الملائمة لسير السفن نحو إيتاك، وبينا كان أوليس نائمًا حفز الفضول رفقاءه إلى فتح القربة ظانين أنها تحتوي كنوزًا، فثارت عاصفة بفعل الرياح التي تخلصت من قيدها بصولة.

ويصل أوليس إلى لستراغونية عند قوم من أكلة لحوم البشر الذين يذبحون أكبر عدد من أتباعه ويخربون اثني عشر من مراكبه، ويفر بآخر مركب لديه، وينزل إلى جزيرة إيا التي تسكنها الساحرة سرسه، وتحول هذه الساحرة أصحاب أوليس إلى خنازير، بيد أن أوليس، المسيَّر بمركور والمجهز بعشبة سحرية سلمها إليه هذا الإله، نجا من السحر وأنقذ أصحابه.

ويفكر في الرجوع إلى إيتاك بعد أن أقام عند الساحرة عامًا، وتوافق سرسه على هذا، بشرط أن ينزل إلى الجحيم في بدء الأمر ويستشير طيف هاتف الغيب ترزياس، ويذهب أوليس ليعمل بأمر القدر.

النشيد الحادي عشر: استحضار الأرواح

وصل أوليس إلى بلد السيمريين حيث يستحضر الأرواح، وقام بتقريب ما أمرت به الإلهة من القرابين، أي أنه حفر حفرةً واسعةً وذبح ضحايا تكريمًا للأرواح ولهاتف الغيب الذي أمر باستشارته، وتصل أطياف الأموات جماعاتٍ، ولكن أوليس منعها من الاقتراب قبل وصول ترزياس، ويقول هذا الهاتف لأوليس: «ارجع إلى الوراء، ودعني أشرب من هذا الدم وأكشف لك المستقبل»، ويخبره بأن مصائبه لما تنتهِ، ولكن مع رجوعه إلى إيتاك في آخر الأمر.

وكان روح إلبينور أول من حضر، ويعده أوليس بلحد، ثم يأتي روح أمه أنتكله الذي شرب من دم الضحايا، وعرفه، وأنبأه بما عليه بنلوب وتلماك من وضع، ويريد أوليس أن يعانقه، ولكنه لم يعانق غير الفضاء، وهنالك تقول له أمه: «هذه حال الناس بعد الوفاة، فهم يغدون خالين من اللحم والعظم، وكلٌّ منهما يلتهمه اللهب، فمتى لفظ البدن الشاحب الجامد نفسه الأخير صار الروح كالطيف الطائف ولجأ إلى مقر الأشباح.»

ويدنو ما لا يُحصى له عدٌّ من الأطياف الأخرى، وهذه هي أطياف أرواح الأبطال وبناتهم مثل تيرو وأنتيوب وبركريس وإبيكست وكلوريس وليدا وإفيميدي وفيدر وألكمن

وأريانة، وتأتي أطياف الأبطال بعد أطياف النساء مثل أغاممنون وأشيل وبتروكل وأنتيلوك وأجكس بن تلامون، ورأى أوليس أن مينوس يحكم بين الأرواح، وأن أريون يتعقب الغيلان، وأن تنتال غارق حتى الذقن في ماء رائق ينخفض عندما يريد الارتواء، وأن سيزيف يدحرج صخرةً عظيمة، ثم رأى خيال هركول بن جوبيتر الذي هو أشهر الأبطال، هنالك غادر أوليس مملكة بلوتون وعاد إلى مركبه الذي قاده من خلال نهر أوسيان.

النشيد الثاني عشر: كربد وسيلا

عاد أوليس إلى جزيرة إيا، وأنشأ لحدًا لإلبينور، وتشير عليه سرسه بأن يفلت من الأخطار التي لا تزال تهدده كإغواءات بنات البحر اللائي هن جنيات مكونات من أنصاف النساء وأنصاف السمك وصاحبات لأنغام يجتذبن بها المسافرين، وكصخرتي سيلا وكربد، وتشير عليه أيضًا باحترام قطاع الشمس، ويبحر مطمئنًّا، ويسمع أناشيد بنات البحر بلا اكتراث مالئًا آذان أصحابه بشمعٍ عسليٍّ ومرتبطًا في صاري مركبه، ويجاوز صخور كربد وسيلا حيث هلك ستة من أصحابه، ويلزمه رفقاؤه بالنزول إلى جزيرة تريناسي حيث ترعى قطاع الشمس ويذبحون أحسن عجالها ونعاجها إعدادًا لمآدبهم، وذلك على الرغم من حظر أوليس، فلما عادوا إلى البحر أطلق جوبيتر عليهم زوبعةً عن غيظٍ من هذا التدنيس لما هو مقدس، ويغرق الجميع خلا أوليس الذي أمسك بحطام السفينة، وانتهى الأمر بوصوله إلى جزيرة أوجيجي حيث استقبلته كلبسو.

النشيد الثالث عشر: انصراف أوليس

أتم أوليس حكايته، ووضع الملك تحت تصرفه مركبًا مشحونًا بالهدايا التي قدمها إليه الفياسيون، ويصل سالمًا إلى ميناء فرسيس المجاور لغار الحوريات، وهناك تركه الجداف نائمًا على الشاطئ، ثم عاد الفياسيون إلى جزيرة شري، بيد أن نبتون الهائج حول السفينة إلى صخرة.

ويستيقظ أوليس، ولكن من غير أن يعرف إيتاك، وتتجلى له منرفا في صورة راعٍ يافع، وتوكد له أنه في إيتاك، ولما عرف أنها ابنة جوبيتر ترك كل حذر، ويعمل برأيها فيدفن جميع كنوزه في غار النائيد، وتشير الآلهة على البطل بأن يظل خافيًا على عيون الجميع حتى يتمكن من مجازاة طالبي القِران بزوجه، وتحوله إلى متسولٍ شائب.

النشيد الرابع عشر: أوليس عند أومه

ذهب أوليس إلى منزل أومه، فيحسن أومه قبوله ويئويه، ويحادث هذا الراعي ضيفه حول مصير سيده الغائب، ومن العبث أن وكَّد البطل له أمر رجوع أوليس قريبًا، فما كان الراعي الشائب ليعتقد ذلك، ويحدث أومه عن قبائح طالبي الزواج، ويبدي خوفه من وقوع تلماك في أشراكٍ نصبوها له، ويسأل أومه ضيفه عن هويته، ويضع أوليس قصةً خيالية، أي يذكر له أنه أقريطشي، ويقص عليه مفصلًا ما سبق وصوله إلى إيتاك من مغامرات مزعومة، ويختم كلامه مؤكدًا أن التسبريين أخبروه بقرب رجوع أوليس.

ويهتز أومه حين سماعه هذه الكلمة عن مولاه الذي يئس من رجوعه، ويتناولان العشاء مع الرعاة.

النشيد الخامس عشر: وصول تلماك إلى منزل أومه

أشارت منرفا على تلماك بأن يعود إلى إيتاك، ودلته على الوسائل التي ينجو بها من أشراك طالبي الزواج.

فلما لاح الفجر طلب ابن أوليس من منلاس أن يأذن له في الانصراف، ويتوجه مع بزسترات إلى مركبه الذي بقي في مرفأ بيلوس، ويقضي تلماك ليلته في فرس، ويصل إلى بيلوس غدًا، ويفارق بزسترات، ويئوي العراف تيوكليمن الذي أبعد من أرغوس لاقترافه جرم قتل، ثم يتوجه نحو إيتاك.

ويكلم أوليس أومه حول خطته التي وضعها للذهاب إلى المدينة، ويروي الراعي له قصته الخاصة، وكيف خُطف من قبل الفينقيين في جزيرة سورية وكيف بيع من لئرت، وينزل تلماك إلى إيتاك في تلك الأثناء ويتجه نحو منزل أومه.

النشيد السادس عشر: تعارف أوليس وتلماك

أرسل تلماك أومه إلى القصر ليخبر بنلوب بوصوله، وهنالك ردت منرفا إلى أوليس وجهه وثيابه وسلاحه، ويعرف الابن أباه، ويزوده أبوه بأوامر فيما يجب أن يصنع، وكان كتمان خبر حضوره أخص ما أوصاه به.

ويدخل مركب تلماك في الميناء، ويلقى البشير أومه في القصر ويشترك الاثنان في تبليغ بنلوب خبر وصول ابنها، ويرثي طالبو القِران لحبوط حبائلهم ويحوكون مؤامرةً

جديدةً ضد تلماك، وتطلع بنلوب على نياتهم وتنزل إلى قاعة الولائم لتلوم أنتينوس بشدةٍ على مقاصده الخبيثة، ويعود أومه إلى منزله مساءً فيجد أوليس قد اتخذ صورة شائب بائس.

النشيد السابع عشر: رجوع تلماك إلى المدينة

توجه تلماك إلى القصر، وأدخل إليه تيوكليمن ليبلغ بنلوب أنها ستلقى زوجها عما قليل، ويقص تلماك على أمه خبر رحلته بعد الطعام.

ويحافظ أوليس على تنكره، ويصل إلى القصر مع أومه، ويهان في الطريق ويُشتم من قِبَل المعَّاز ملنتيوس، ويدخل القصر، ويعرفه كلبه القديم، أرغوس، الذي زحف إليه ومات عند قدميه.

ويُدخل أوليس إلى قاعة الولائم، ويستعطي، ويغمر أنتينوس هذا الشائب البائس بالشتائم، ويرميه بموطئٍ للقدم، وتعرب أنتيوب عن استيائها، وتريد أن تسأل الغريب، بيد أن هذا الشَّحَّاذ أجَّل المقابلة إلى المساء، ويعود أومه إلى مواشيه.

النشيد الثامن عشر: مبارزة أوليس وإيروس

أراد الشحاذ إيروس، وهو ذو دالَّةٍ على طالبي القِران، أن يطرد أوليس من القصر، ويعد طالبو الزواج جائزةً من يفوز منهما في برازٍ، ويستعد أوليس للمبارزة، وتمده منرفا بقوةٍ عجيبة، ويغلب إيروس ويرميه خارج القصر.

وبينما كانت بنلوب نائمةً صبت منرفا عليها جمالًا بارعًا، وهكذا ظهرت في عيون طالبي القِران الذين يغمرونها بالهدايا، ويدفع خوادم بنولب أوليس، ويريد أريماك أن يضرب أوليس، ولا يستطيع أن يصل إليه، ويهينه طالبو الزواج، ويلومهم تلماك على عنفهم، ويسرحهم.

النشيد التاسع عشر: حديث بين أوليس وبنلوب – أركله تعرف أوليس

أمر أوليس تلماك، بعد انصراف طالبي الزواج، بإخفاء الأسلحة في القسم الأعلى من القصر، ودار الحديث بين بنلوب والشحاذ حول موضوع زوجها وتعرب عن أسفها، وتذكر عهدها بأن تختار زوجًا حينما تفرغ من نسجها حجابًا لمأتم لئرت، وتنقض في الليل ما حاكت في

النهار، وتخونها إحدى وصيفاتها، وترى أنه لا بد من إذعانها حيال وعيد طالبي الزواج، ويروي أوليس لبنلوب، بدوره، قصةً كاذبةً عن حياته لا ينفك يقرن بها اسم أوليس، ويوكِّد رجوع البطل عما قليل، وتهتز بنلوب لهذا النبأ كثيرًا، وتأمر الخوادم بأن يحسنَّ معاملة هذا الشحاذ، وتؤمَر العجوز أركله، التي كانت مرضع أوليس، بغسل رجليه، وبينا كانت أركله تقوم بهذا عرفت أوليس من ندبةٍ نشأت عن جرح بليغ كان قد أصيب به في أثناء صيد، ويفرض أوليس الصمت على هذه الخادمة منعًا لإذاعة حضوره.

وتقص بنلوب على الشحاذ أمر حلم اتفق لها حديثًا، وذلك أنها رأت في المنام رجوع زوجها وهلاك طالبي القِران بها، بيد أنها عادت لا تأمل هذه العودة، وعزمت على الإنعام بيدها على أبرع هؤلاء الطالبين في استخدام سهم أوليس.

النشيد العشرون: الحوادث التي سبقت قتل طالبي الزواج

أنعمت منرفا على أوليس بالراحة والرقاد، فلما أفاق أبصر استعداد القصر للمأدبة، وقد بدأ الخدم أعمالهم، ووصل الرعاة مع الضحايا، ويهين المعَّاز ملنتيوس أوليس، ويحتجُّ البقَّار فيلسيوس عن وفاءٍ لمولاه، ويخبر بسوء الطالع طالبو القِران المتمتعون بمسار الوليمة، ويحمي تلماك والده حيال هذه الإهانات، ويحاول كتيزيب أن يضرب المتسول، ويغضب عليه تلماك، ويحض طالب الزواج، أجيلاتوس، بنلوب على اختيار زوجٍ لها، ويتنبأ غريب اسمه تيوكليمن بخسران طالبي الزواج وبما سوف يصيبهم من أفظع النوازل.

النشيد الحادي والعشرون: تجربة القوس

وعدت بنلوب بتزوج أيٍّ من طالبي الزواج يستطيع أن يوتِّر قوس أوليس ويُمِر سهمًا من خلال حلقات الفئوس الاثنتي عشرة المصفوفات، ويجتمع جميع الرؤساء للقيام بالتجربة، ويعد أومه الفئوس وهو يئِن، ويحض تلماك طالبي الزواج على استحقاق الجائزة، ويحاول توتير القوس، ولكنه يعدل عن هذا بإشارة من أبيه.

ويخرج أوليس من القصر مع أومه وفيلسيوس، ويعرِّفهما بنفسه، ويزودهما بأوامره، ويحاول جميع طالبي القِران توتير القوس على غير جدوى، ويقدم أومه القوس إلى أوليس على الرغم من حظرهم وشتائمهم، ثم يأمر أركله بأن تغلق أبواب القصر على حين يغلق فيلسيوس أبواب القاعة، ويقبض أوليس على القوس ويتأمله، ويوتره بلا عناءٍ وينفذ السهم من خلال ثقوب الفئوس، ويذعر طالبو القِران، وينحاز تلماك إلى أبيه من فوره.

النشيد الثاني والعشرون: قتلُ طالبي الزواج

وقف أوليس على الوصيد[١] حاملًا قوسه وسهامه، وهجم على طالبي الزواج، وكان أنتينوس أول من طَعَن، ويبحث الآخرون عن سلاحٍ انتقامًا له، ويعرِّفهم أوليس بنفسه، ويهددهم، ويحاول أريماك أن يَثني أوليس بتعويضه من الأذى الذي أصابه به، ويبدو أوليس فاقد الرحمة.

ويدور القتال، ويساعد أوليس بعض المحاربين المخلصين، وينال حماية منرفا وتحول منرفا عنه السهام الستة التي رميت عليه، وينشر أوليس الموت بين منافسيه بما يرمي من سهامٍ لا تخطئ الهدف، وتظهر منرفا مجنها لطالبي القِران المذعورين، ويُقتل جميع الرؤساء، ويستدعي أوليس أركله، ويكاد قلبها يطير فرحًا من رؤية هذه الجثث.

ويأمرها البطل بأن تحمل النساء المذنبات على رفع الجثث وتطهير القاعة، ثم تضرب رقابهن مع ملنتيوس.

ويطهر أوليس القصر، ويرسل من يبحث عن بنلوب وعن الخوادم.

النشيد الثالث والعشرون: بنلوب تعرف أوليس

أيقظت أركله بنلوب، وأخبرتها برجوع أوليس وبالحوادث التي وقعت، ولم تستطع الملكة أن تصدق النبأ، ولكنها تظاهرت بالاقتناع، وأظهرت سرورها للمرضع العجوز، وتنزل بنلوب إلى ردهة الرجال، ويساورها شك آخر، وتتردد في التسليم بأنه أوليس، بيد أن وصفه لمنزلهما الزفافي الذي أقامه بنفسه، ولم يدخله أحد، أزال جميع شكوكها، وتعتذر لدى زوجها، وتظهر له أعظم رقة.

ويقص كل من أوليس وبنلوب على الآخر خبر مصائبه، ويصدر أوليس إلى الملكة تعليماته منذ طلوع النهار، ويخرج من المدينة متوجهًا إلى لئرت.

النشيد الرابع والعشرون: ماجَرَيَات

ساقت منرفا إلى الجحيم أطياف القتلى، فلقيت هذه الأطياف في المملكة القاتمة أرواح أشيل وأجكس وغيرهما من الأبطال الذين اشتركوا في حرب تروادة، وغادر القصر أوليس

[١] الوصيد: العتبة.

وابنه والراعيان، وتوجه إلى أبيه لئرت الذي يقضي وقته في زراعة حديقته، ويقص عليه نبأ كاذبًا، ويرى حزن هذا الشيخ العظيم عند سماعه خبر وفاة ابنه، بيد أن أوليس لم يستطع أن يملك نفسه وقتًا طويلًا، فأخبر أباه بهويته، وتحول كرب الأب إلى فرحٍ شديد.

وينتشر في المدينة خبر قتل طالبي القِران في تلك الأثناء، ويحرض أقرباء الزعماء القتلى أتباعهم على الانتقام، وينقضُّ جمعهم على منزل لئرت، وتدور رحى القتال بينهم وبين أوليس وتلماك اللذين تحميهما منرفا، ويخر أبو أنتينوس، أبيتس، صريعًا من ضربة عكازة ألقاها لئرت.

ويظل البطل غالبًا، ويعفو عن أعدائه، ويتصالح الفريقان.

فهرس جغرافي

أبِيلَا: جبل بإفريقية يفصله مضيق جبل طارق عن جبل كلبه بإسبانية، ويتألف من الجبلين ما يسمى عمد هركول.

الأبُول: قوم من أبولية الإيطالية التي تسمى بوي في الوقت الحاضر.

إبيرية: هي ألبانية الجنوبية، وفيها يقع رأس أكسيوم، حيث انتصر أكتافيوس على أنطونيوس في المعركة البحرية التي وقعت بينهما، وأدت إلى نهاية العهد الجمهوري الروماني.

أجِيجِي: جزيرة خرافية واقعة في البحر اليوناني، وكانت تملكها الإلهة كلبسو.

أَربِي: عاصمة بوي.

أُرُوتَاس: نهر في لكونية يقطع إسبارطة ويصب في الخليج اللكوني، وقد كان الإسبارطيون يعبدونه مثل إله.

الإستريغُون: قوم من شعوب الأساطير، كانوا يسكنون صقلية الشرقية.

الأفِيتُوت: أهل تسالية، وقد كان أشيل ملكهم.

الأفَرِن: بحيرة إيطالية بالقرب من نابل، عدت مدخل الجحيم.

أقريطش: جزيرة كبيرة من جزر البحر المتوسط، وقد كانت تشتمل على مئة مدينة فيما مضى، ولا سيما مدن: غنوس وسيدون وغرتين.

أكِرُنتية: مستنقع يقع في برنتيوم الإيطالية، ويجري في جواره نهر أكرون الذي كان يتدفق بصولةٍ في كهفٍ، اعتقد أنه مدخل الجحيم، ويوجد في إبيرية نهر بهذا الاسم يصب في بحر اليونان.

أكِرُوسِرُنيِة (جبال): سلسلة جبال في إبيرية محاطة بصخور هائلة.

الإكيناد: جزر واقعة في البحر الأدرياتي عند مصب أكيلوس.

ألفِه: نهر ينبع في أركادية، ويَسقي سهل ألنبية، ويصب في بحر اليونان.

إنَّا: مدينة في صقلية.

أُوفيد: نهر يصب في البحر الأدرياتي.

أولون أو كولون أو كولونية: جبل كلابر.

إيتا (جبل): يقع هذا الجبل في تسالية بين البرناس وبندة بالقرب من الترموبيل.

إيتاك (تِيَاكي): إحدى الجزر اليونانية السبع، وعليها قامت مملكة أوليس، ويوجد وصف لمدنها في الأوذسه لأوميرس.

إيدَا: جبل جوبيتر الواقع في آسية الصغرى، وقد كانت تروادة قائمةً على سفحه.

برِندِز (برندِيزِي): ميناء إيطالي عظيم، وقد كان مدينة مهمة إلى الغاية في الماضي.

البرُوتِيَان: أهل كلابر الإيطالية في الوقت الحاضر.

بلُوبُونِز: هي شبه جزيرة المورة، الواقعة في جنوب بلاد اليونان، والتي يصلها برزخ كورنثس بالقارة.

بِيلُوزَة: هي المدينة المصرية المعروفة بالفرما أو الطينة، والواقعة على مصب فرع النيل الشرقي.

بِيلوس: من المورة ببلاد اليونان.

البيليُّون: أهل بيلوس، وقد كان نسطور ملكهم.

تَرَنت: من ولاية أترنت، وقد أنشأها الأقريطشيون، وازدهرت بفضل فلنت.

الدُّولُوب: أهل تسالية اليونانية.

دُوليشي: قسم من مملكة أوليس.

زَنطة: واقعة على خليج بَترَاس اليوناني.

سباريس: من مدن بلاد اليونان الكبرى، وهي واقعة على حدود لُكانية وبراسيوم وعلى ساحل غراتي، وقد خربت بترف أهليها وتخنثهم.

سِرسِتي: اسم يطلق على جبل لاتيُوم، ومدينتها بإيطالية.

سِركيُوس: نهر يجري في جنوب تسالية، ويصب في خليج مَليَاك.

السلنتيُّون: من سلنتة، وكانت أترنت وبرنديزي أهم مدنهم.

سيبونتو: واقعة على سفح جبل غرغان الإيطالي.

سيتر: جزيرة قريبة من أقريطش، وقد ظهرت فينوس من زبد البحر بالقرب من هذه الجزيرة، كما جاء في الأساطير.

سيجه: واقعة على بحر إيجه، عند مدخل خليج غليبولي.

سيروس: من الجزر اليونانية في بحر إيجه.

صور: عاصمة فنيقية، وتعد من أغنى المدن وأقواها في القرون القديمة، وقد أطلق عليها اسم «ملكة البحار.»

طيبة: مدينة ذات مئة باب، وقد ظلت عاصمة جميع مصر زمنًا طويلًا، وتشهد بقاياها بما اتفق لها من عظمة فيما مضى.

غاليز: نهر صغير يجري من أترنت ويصب في خليج تارنت.

غرغان: هو جبل غرغانو المعروف بجبل سنتانج، والواقع في أقاصي جنوب إيطالية.

فاروس: جزيرة قريبة من ميناء الإسكندرية.

فرسالة: من مدن تسالية، وقد اشتهرت بانتصار يوليوس قيصر على بونبي.

فوسيد: من بلاد اليونان، وتتألف الأكائي الحديثة منها ومن اللكريد.

فياسية (جزيرة): هي جزيرة كورفو كما تسمى اليوم، وهي من جزر البحر اليوناني.

فينوز: من مدن أبولية الإيطالية.

قادس: مدينة إسبانية واقعة على مصب الوادي الكبير.

قبرس: من جزر البحر المتوسط، وتقع بين آسية الصغرى وسورية، وكانت هذه الجزيرة تشتمل على المدن الموقوفة على فينوس، وهي: أماتنت وبافوس وإدالية.

قرطاجة: كانت هذه المدينة الإفريقية من أهم مدن العالم في القرون القديمة، وكانت تتمتع بمثل سلطان صور ومنفيس، ثم خربها سبيون إمليانوس الروماني سنة ١٤٦ق.م.

كربد وسيلَّا: صخرتان قائمتان في مضيق مسينا، وقد كانتا تلقيان الرعب في نفوس الملاحين.

كرباتية: إحدى جزر البحر المتوسط، وهي واقعة عند مدخل الأرخبيل بين رودس وأقريطش.

كروتون: مدينة إيطالية واقعة على البحر.

كفاره: واقعة في جزيرة أوبه اليونانية.

لسبوس: من جزر بحر إيجه، وتعرف اليوم بجزيرة متيلن (مدلِّي).

اللكريد: من شعوب لكريدة اليونانية.

لوكات أو لوكاد: من جزر بحر اليونان، وفي هذه الجزيرة رأس عالٍ ألقت سافو منه نفسها في البحر، كما جاء في الأساطير.

اللوكان: من شعوب لكانية الواقعة على خليج تارنت.

ليباري: جزر البحر التيراني الواقعة شمال صقلية، والتي تذكر جزيرة السكلوب منها، وتوجد في هذه الجزر آثار براكين.

ليريس: نهر يصب في خليج غايت الإيطالي.

مزابنت: واقعة على الساحل الإيطالي الشرقي بالقرب من مصب نهر برادان ونهر كلوانت.

مسابية: من ولاية أترنت الواقعة على البحر الأدرياتي.

المندور: أهل أبولية الإيطالية المشتملة على بحيرة أندوريو التي روى بليني أن مياهها لا تزيد ولا تنقص.

منفيس: الموضع الذي يتشعب فيه النيل لتأليف الدلتا، وتقضي بقاياها بالعجب.

نريت: من ولاية أترنت.

نكسوس: من جزر الأرخبيل اليونانية.

هسبرية: اسم أطلقه الأغارقة على إيطالية ثم على إسبانية والبرتغال.

الهيمريون: أهل مدينة هيمر الصقلية التي دمرها القرطاجيون.

فهرس أسطوري

أبولون: هو ابن جوبيتر ولاتون، وهو إله هتافات الغيب والطب والشعر والفنون والشمس.

أتره: هو ابن ملك ميسين، بيلوب، الذي اشتهر في الأقاصيص اليونانية بحقده على أخيه تياست، وقد قتل ابني أخيه تنتال وبلستين، وقدمهما طعامًا إلى أبيهما في مأدبة، فقتله ابن آخر لتياست اسمه إجست.

الأتريد: هم من ذرية أتره وأغاممنون ومنلاس على الخصوص.

أتلنت: بنت ملك سيروس: جوزيوس، وقد اشتهر برشاقتها ومباراتها في العدو إبومين الذي تزوجته، وقد غلبها إبومين بفضل التفاحات الذهبية الثلاث التي أهدتها إليه إحدى الإلهات، وذلك أنه لما رأى احتمال إدراكه رمى تفاحة فبادرت الفتاة إلى التقاطها.

أجكس: هو ابن البطل اليوناني في حرب تروادة: بلامون، وقد قهره أوليس في النزاع الذي دار حول أسلحة أشيل، وقد جن ألمًا وقتل نفسه.

أدرست: ملك أرغوس، والمحرض على حرب الرؤساء السبعة التي انتهت بسلم تب.

أدمت: مؤسس فرس وملكها، وهو أحد الأرغنوت، وقد بذلت زوجه ألست نفسها ليطول عمره.

أدونيس: هو ابن مرها، وقد كان فتىً يونانيًّا وسيمًا جرحه رت جرحًا مميتًا، فحولته فينوس إلى شقيقة النعمان.

أرست: هو ابن أغاممنون وكليتمنستر، وملك أرغوس ولكدمونية، وقد قتل هو وأخته إلكتر أمهما انتقامًا لقتلها أباهما.

أرستوديم: ملك مسينة، وقد حارب الإسبارطيين عشرين عامًا، وقد قتل نفسه على قبر حفيدته التي ضحَّى بها إيفاءً بنذر.

الأرغنوت: ملاحون من اليونان كان عددهم خمسين، فانطلقوا في سفينة أرغوس ليفوزوا بالجزة الذهبية في كلشيد.

أرفه: هو ابن أبولون، وموسيقي مشهور، وتلميذ للينوس، وقد اشترك في غزوة الأرغنوت، وقد لدغت الحية زوجه أريديس، فنزل إلى الجحيم حيث فتن إلهات الجحيم، فأعدن إليه زوجه بشرط ألا يلتفت إلى الخلف قبل أن يجاوز حدود المملكة المظلمة، وقد أخل بالشرط، ورأى أريديس لآخر مرة، وأنزل جوبيتر عليه صاعقةً.

إركتن: هو ابن ملك تسالية، وقد قضت عليه سيرس التي أهان بجوعٍ لا يشبع، فصار يفترس نفسه.

أركنة: فتاة ليدية برعت في الحياكة، وقد تحدت منرفا فحولتها إلى عنكبوت.

أريانة: بنت مينوس وبازيفايه، وقد أعطت تيزه خيطًا استطاع أن يخرج به من قلعة أقريطش، ولما تركها في جزيرة نكسوس تزوجها باخوس وألقت نفسها في البحر.

إريب: (١) بقعة مظلمة من الأرض واقعة فوق الجحيم، (٢) ابن الخواء والظلمات، ودليل الجحيم.

أريماك: ملك الفليجين، وأحد طالبي الزواج ببنلوب.

أريميد: ملك الغيلان، وأبو بريبه وبروميته، وقد قهره الآلهة، فأُلقِيَ في الجحيم.

أريون: اسم الحصان الذي أخرجه نبتون من الأرض بضربة خطافٍ ثلاثيِّ الشوكات.

أسترابه أو أستراته: لقب فينوس.

أستره: بنت جوبيتر وتيميس، وآلهة العدل.

أسست: ملك صقلية، وقد استقبل إنِهَ، وأمر بدفن أنشيز.

إسكولاب: هو ابن أبولون، وهو إله الطب، وقد كان يشفي المرضى ويحيي الموتى، وقد أصابه جوبيتر الغضوب بصاعقةٍ استجابةً لطلب بلوتون.

أشيل: هو ابن تتيس وبيله، وهو ملك المرميدون، وهو أشهر أبطال أغارقة الإلياذة، وقد اشتهر بشجاعته ومات في أثناء حصار تروادة، وذلك من جرح أدت إليه ضربة سهم من

باريس في عقبه، وكان «عقب أشيل» جزء بدنه الوحيد الممكن جرحه، وهو الذي كانت أمه قد غطسته في مياه ستكس أيام كان طفلًا.

أطلس: هو تيتان الذي تحول إلى جبل لأنه نظر إلى عيني رأس ميدوز المتوكئة على ترس برسه.

أغاممنون: هو ابن ملك مسينة وأرغوس: أتره، ورئيس أبطال اليونان الذين حاصروا تروادة، وقد ضحى بابنته إفجنية، كما نصح به العراف كلكاس لتسكين غضب ديانا وطرد الرياح المعاكسة التي أوجبت وقوف الأسطول اليوناني في الميناء، وقد قُتِل بدوره مِن قِبَل امرأته كليتمنستر ومن قِبَل إجست.

أكاريس: حورية عند الآلهة كلبسو.

أكرون: نهر الآلام، وأكرنتية مستنقع يقود إلى الجحيم.

إكسيون: ملك اللابيت، وجد السنتور، وقد آواه جوبيتر في الألنب، ثم ألقاه في الجحيم انتقامًا لجونون التي أهانها.

أكنت: هو ابن أنطونوس وإبو دامي، وقد أهلكته خيل أبيه.

الأكيلون: ريح الشمال.

ألسيد: هو حفيد ألسه، ولقب هركول وأعقابه.

ألسينوس: ملك فياسي، وقد آوى أوليس الذي غرقت سفينته.

ألكس: راع أفروجي، وهو حبيب إلهة الأرض: سيبل، وقد أغواها فحولته إلى صنوبرة.

ألكمن: أم هركول وزوج أنفتريون.

الألنب: جبل في تسالية، وهو مقر الآلهة.

أنتيفاتس: ملك اللستريغون بصقلية الذين كانوا يفترسون المسافرين بعد إغراق سفنهم.

أنتيوب: زوج تيزه، وأم إبوليت، وملكة الأمازون، وقد غلبها هركول.

أنشيز: أبو إينه، ومثال الوفاء البنوي، فلما أحرقت تروادة حمل أباه على كتفيه وأوصله إلى السفينة.

أنفال: ملكة ليدية، وقد تزوجت هركول بعد أن ألزمته بالغزل عند قدميها كما لو كان امرأة.

أنفتريت: إلهة البحر، وبنت نيره ودوريس، وزوجة نبتون.

الأورور: إلهة الصباح المفوض إليها أن تفتح للشمس أبواب الشرق.

أوريديس: هي إحدى الدنائيد الخمسين، وزوجة أورفه.

أوليس: ملك إيتاك، وزوج بنلوب، وأبو تلماك، وهو من أهم الأبطال في أثناء حصار تروادة حيث امتاز بفطنته وسعة حيلته، وقد اشتملت الأوذسة على أنباء مغامراته.

أومه: خادم أوليس المخلص، وراعي مواشيه، وقد آوى هذا البطل عندما نزل إلى إيتاك، وأعانه على الخلاص من طالبي الزواج ببنلوب.

إيدومنه: حفيد جوبيتر.

إيريس: مرسال الآلهة، وقد تحولت إلى قوس قوح عن غيرة جونون.

إيكار: هو ابن ديدال، وقد مات في البحر الإيكاري وهو يحاول أن يطير.

إينه: أمير تروادي وابن لفينوس وأنشيز، وقد قاتل الأغارقة ببسالة في أثناء حصار تروادة.

إيول: هو ابن جوبيتر والحورية مناليب، وهو إله الرياح.

باخوس: ابن جوبيتر وسمله، وإله الكرمة الروماني.

بلرفون: ملك إيبرية الذي قتل الخيال.

بلونة: إلهة الحرب لدى الرومان.

البارك: إلهات الجحيم، وهن ثلاث، وهن ربات الحياة التي يغزلن لحمتها.

باريس: هو ابن بريام، وزوج أوينوس، وخاطف هيلانة، وقد منح فينوس تفاحة دسكرد المشهورة، فأثار هذا الخيار حقد جونون ومنرفا على تروادة.

باليمون: هو ابن أتناس وإيريس، وقد حول إلى إلهٍ بحري.

بان: هو ابن هرمس والحورية بريوب، وإله الرعاة، وكان يُخشى ظهوره بمثل ما للمعز من قرون وأرجل، وكان ينظم رقص الحوريات بنايه الرعائي الذي اخترعه.

برتوزيلاس: بطل تسالي، وقد كان أول من وطئ أرض تروادة، وقُتل من قبل هكتور، وقد نالت زوجه من آلهة الجحيم حظوة آخر مواجهةٍ، فلما أعيد البطل إلى الأرض مات من فوره للمرة الثانية.

بروزربين أو بروزفون: بنت جوبيتر وسيرس، وزوج بلوتون الذي اختطفها.

برياندر: طاغية كورنثس، وأحد حكماء اليونان السبعة.

بزسترات: طاغية أثينة، وقد خُلع مرتين من مملكته، ثم استردها، وسلمها إلى ولديه: هبرك وهبياس.

بغمليون: ملك صور، وقد قتلته امرأته أسترابه.

بلكس: بطل أسطوري، وابن لجوبيتر وليدا وأخ ملازم لكستور.

بلوتون: هو ابن ساتورن وريا وأخو جوبيتر وزوج بروزربين وملك الجحيم وإله الأموات.

بندور: هي المرأة الأولى التي خلقها فلكن من طين، وأحييت، وحبيت بجميع الألطاف من قبل منرفا، وقد فتح زوجها إبيمته العلبة المشئومة التي هي هدية من جوبيتر، فانطلقت منها جميع الشرور التي كانت تشتمل عليها، ولم يبقَ في قعرها غير الأمل.

بنلوب: زوج أوليس، وأم تلماك، وقد اشتهرت بوفائها الزوجي في أثناء غياب زوجها الذي دام عشرين سنة، رافضةً تزوج طالبي القران بها بما اتخذت من الأساليب.

بوليداماس: مصارع تسالي هلك سحقًا عندما أراد دعم صخرةٍ عظيمة انفصلت عن مغارة.

بوليفيم: غول ليس له غير عين واحدة في وسط جبينه، وقد قهره أوليس بإسكاره، وقلع عينه الوحيدة بحربة.

بيله: هو ابن ياك، وملك يلكس، وزوج تتيس، وأبو أشيل.

تتيس: من إلهات البحر، وهي بنت نيره وامرأة بيله، وقد ألقت ابنها أشيل في ستكس كيما يتعذر جرحه.

تريتون: هو ابن نبتون أنفتريت، وهو من آلهة البحر، وله جسم إنسان وذنب سمكة.

تلماك: هو ابن أوليس وبنلوب، وهو بطل هذا الكتاب.

تنتال: ملك ليدية، وقد قدم إلى الآلهة الذين زاروه أعضاء ابنه طعامًا، فألقاه جوبيتر في الترتر وحكم عليه بعطشٍ وجوعٍ مفترسين لا يقضيان.

تيتان: هو ابن أورانوس.

تيتي: غول قتله أبولون لإهانته لاتون.

تيزه: بطل يوناني، وملك أثينة، وابن إيجه، وقد سيق إلى قلعة أقريطش بخيط أريانة، وقتل المونيتور، ومات بعد حياةٍ مضطربة، وقد قضى عليه بلوتون الذي أهانه برقادٍ أبديٍّ في الجحيم.

جوبيتر: هو أقوى الآلهة في الأساطير اليونانية واللاتينية.

دناؤس: ملك مصر، وقد طرده أخوه إجبتوس نتيجةً لقتل بناته أزواجهن.

الدنائيد: اسم يطلق على بنات دناؤس الخمسين، وقد قتل تسع وأربعون منهن أزواجهن ليلة عرسهن، فحكم عليهن بأن يملأن بالماء برميلًا لا قعر له.

ديجانير: بنت أوينه وزوج هركول.

ديدال: مهندس معماري يوناني، وقد أنشأ قلعة أقريطش فاعتقل فيها بأمر مينوس، بيد أنه فر بما صنع لنفسه من أجنحة ريشٍ وشمعٍ.

الزفير: هم أبناء يول والأورور، وهم رياح الغرب.

ساترن: أبو جوبيتر.

الساتير: إلهات ثانويات ورفيقات لباخوس، وهن يصورن بشعر مزبئرٍ، وآذانٍ مذربةٍ على الرأس، وقرنين صغيرين على الجبين، وأرجل معزٍ.

ستكس: نهر الجحيم الذي يدور سبع مرات، ومن عادة الآلهة أن يقسموا بهذا النهر، فإذا فعلوا هذا لم تنقض يمينهم.

سرس: بنت ساتورن وسيبل وإلهة الحصاد.

سرسه: بنت الشمس، وهي ساحرة، وقد استطاع أوليس أن يدفع عنه سحرها، وقد حولت أصحابه إلى خنازير.

سزستريس أو رمسيس الثاني: هو ملك مصر من الأسرة التاسعة عشرة، وكان في زمن موسى، وحارب سورية وحالف الحيثيين.

السكلوب: غيلان يطرقون صواعق جوبيتر تحت إمرة فلكن.

سمله: بنت ملك تب: قدموس وأم ديونيزوس.

السنتور: غيلان أسطوريون من تساليه نصف كل واحد منهم إنسان ونصفه الآخر حصان، وقد أبادهم اللابيت لمحاولتهم اغتصاب إبودامية.

السيرن: بنات الأكيلوس اللائي هن غيلان أسطوريون كما يتألف نصف الواحدة منهن من امرأة ونصفها الآخر من سمكة، واللائي كن يسكن الصخور بين جزيرة كابره وشاطئ إيطالية، وقد أظهر أوليس عدم تأثره بأغانيهن، فألقين أنفسهن في البحر غمًّا.

سيزيف: هو ابن يول المحكوم عليه لقطعه السابلة، بدحرجة صخرة تسقط بلا انقطاع.

سيلن: إله أفروجي، ويعد في الأساطير اليونانية مضحك الألنب.

شارون أوكارون: دليل النار، وهو ينقل إلى استكس أرواح الموتى في مقابل فلوس.

الشنزليزه: مقر الأبرار.

الشيمر: بنت التيفون وإكدنا، وهي تمثل برأس أسد وبدن عنز وذنب ضبٍّ مع قذف نار.

الغراس: بنات جوبيتر، وعددهن ثلاثة، وهن: ألغايه وتالي وأفروزين، وقد كن عنوان الجمال.

غنيمد: أمير تروادي، وابن لتروس والحورية غليرويه، وقد اختطفه زوس فصار ساقي الآلهة.

الغيلان: أبناء تيتان الذين حاولوا الصعود في السماء للقضاء على جوبيتر، بيد أن جوبيتر أنزل عليهم صواعق فدفنوا تحت الصخر.

فلكتت: من أشهر مقاتلة اليونان في أثناء حصار تروادة، وقد سلم هركول إليه سهامه المسمومة عند موته.

فلنت: بطل لكوني، ومؤسس ترانت التي حملها إليها دلفين.

فليجتون: نهر الجحيم الذي كان يدحرج لهبًا.

الفوري أو الأومنيد: إلهات وبنات للأرض فوض إليهن معاقبة الناس على الجرائم.

الفون: آلهة الحقول.

فيبوس: إله الشمس.

فلكن: هو ابن جوبيتر وجونون، وزوج فينوس، وإله المعدن والنار، وقد ولد مشوهًا فألقته أمه من فوق الألنب، وقد صار أعرج بسبب سقوطه، فأنشأ بالقرب من إتنا مصانع للحديد حيث يعمل مع السكلوب.

فينوس أو أفروديت: إلهة الجمال وابنة السماء، وقد ولدت من زبد البحر، وكانت تسكن جزيرة قبرس، وما أثارت من غيرةٍ بين إلهات الألنب أدى إلى حرب تروادة.

كاكس: هو ابن قاطع الطريق العملاق المشهور فلكن الذي كان قد أقام كهفه على جبل أفنتن، فسرق أربعة أزواج من بقر هركول، فلما أفاق هركول قبض على هذا الغول وخنقه بين ذراعيه.

كستور: بطل أسطوري، وهو ابن لجوبيتر وليدا وأخ ليولكس.

كلبسو: إلهة وملكة جزيرة أوجيجي، وقد آوت أوليس في جزيرتها سبع سنين بعد غرق سفينته.

كلكاس: عراف يوناني رافق أغاممنون في حصار تروادة، وأشار عليه أن يُضحِّي بابنته إيفجنية، فلما تفوق عليه مبسوس في العرافة قتل نفسه.

كليتمنستر: زوج أغاممنون، وأم أرست وإلكتر وإيفجنية، وقد قتلها أرست انتقامًا لقتلها أباه.

كليومن: اسم ملوك إسبارطة الثلاثة.

كوبيدون: رب الغرام وابن فينوس.

كوسيت: نهر في الجحيم يجري دموعًا.

لئرت: ملك إيتاك وأبو أوليس.

لابيتس: شعب أسطوري بتسالية، اشتهر بمهارته في ترويض الخيل، وبمصارعته السنتور في أعراس بيريتوس.

لاتون: أم ديانة وأبولون، ومنافسة جونون.

ليته: نهر النسيان، حيث ترتوي أرواح الموتى لتنسى حياتها الدنيوية.

ليكاس: رائد جانير وحامل القميص المشئوم إلى هركول، ولما اشتد غيظ هذا البطل ألقى ليكاس في بحر إيجه، حيث تحول إلى صخرة.

ليكوميد: ملك الدولوب في جزيرة سيروس.

مارس: هو ابن جوبيتر وجونون، وهو إله الحرب.

مركور: هو ابن جوبيتر، ورب البيان، وإله التجارة والسرقة، ورسول الآلهة.

مكاؤن: هو ابن اسكولاب وطبيب الأغارقة في أثناء حصار تروادة.

المنادس: كواهن كن يقمن بشعائر أسرار باخوس، وقد أدت أعيادهن الباخوسية في رومة إلى فضائح فظيعةٍ، اضطر السنات إلى العقاب عليها.

منتور: مربي تلماك، وهو منرفا في صورة إنسان.

منرفا: بنت جوبيتر، وإلهة الحكمة والفنون والحرب، وحامية أثينة.

منلاس: ملك إسبارطة، وأخو أغاممنون، وما كان من اختطاف باريس لامرأته هيلانة أدى إلى حرب تروادة.

مورفه: إله النوم والأحلام وابن الليل.

الموز: بنات جوبيتر ومنيموزين، وهن تسع، وكن يشرفن، مع أبولون، على المهن الحرة والبلاغة والشعر.

مينوس: ملك أقريطش الباني، ويتألف منه ومن ياك وردمنت قضاة الجحيم.

نبتون: إله البحر وابن ساتورن، وأخو جوبيتر وزوج أنفتريت.

النرياد: بنات نيره ودوريس، وحوريات البحر المتوسط.

نسطور: ملك بيلوس، ورسول الحكمة، وقد كان أسن أمراء اليونان الذين حضروا حصار تروادة.

نسوس: أحد السنتور، وقد حاول اختطاف دجانير، فقتله هركول، وقد سلم قبل موته إلى دجانير القميص المسموم الذي أوجب هلاك هركول.

نمزيس: بنت جوبيتر، وإلهة الانتقام.

نوفيوس: هو ابن نبتون، وأحد الأرغنوت.

النياد: حوريات الماء والبحر.

نيوبتوليم أو بروس: هو ابن أشيل وديدامي.

هبه: بنت جوبيتر وجونو، وزوج هركول، وقد سقت غنيمد في وظائفها لدى الآلهة.

هركول: هو ابن جوبيتر وألكمن، وهو أشهر أبطال الأساطير اليونانية بقامته وقوته الخارقة للعادة، وله مآثر كثيرة، كأعمال هركول الاثني عشر مثلًا.

هسبريد: بنات أطلس، وعددهن ثلاثة، وقد كن مالكاتٍ لحديقةٍ تحمل أشجارها تفاحًا من ذهب، وقد كان على هركول أن يقاتل التنين، الذي هو حارس هذه الثمرات، كيما يستولي عليها.

هكات: إلهة القمر، وبنت برسه وأستريا، وأم سيلَّا ثم سرسه وميده، وقد عُبدت من أجل خيرها وشرها على السواء.

هكتور: ابن بريام، وزوج أندرماك، وقد قتله أشيل في أثناء حصار تروادة.

هيمنه: إله الزواج.

يول: بنت ملك أكالية، أريتوس، وزوج هرقلس.

هنداوي